



علي مولا

يبيع من هذه الرواية ملايين النسخ وبقيت لعدّة أشهر
على لائحة الكتب الأكثر مبيعاً

المليونير المتشرد

SLUMDOG MILLIONAIRE

الرواية التي تحوّلت
إلى فيلم سينمائي
نال ثماني جوائز
أوسكار عام 2009

فيكاس سواراب

VIKAS SWARUP

ما هو المطلوب لاستعادة حبّ ضائع؟

ب. الحظ

أ. المال

د. القدر

ج. قوة الذهن



٢٤٥٩
١٥٤٩٩

المليونير المتشرد

المليونير المتشرد SLUMDOG MILLIONAIRE

الرواية التي تحولت
إلى فيلم سينمائي
نال ثماني جوائز
أوسكار عام 2009

تأليف

فيكاس سواراب

Vikas Swarup

ترجمة

علي عبد الأمير صالح

مراجعة وتحريير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Slumdog Millionaire

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Transworld Publishers

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © Vikas Swarup 2005

All rights reserved

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0014-5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

للتبصير وفرز الألوان: أوجد جرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

**إلى
والدي،
فينود واندرا سواروب**

**وإلى جدي الراحل،
شري جاغديش سواروب**

المحتويات

9	المقدمة
31	موت بطل
49	عبء قس
69	وعد أخ
91	فكرة للمعوقين
125	كيف تتكلم الأسترالية
157	حافظ على أزرارك
177	جريمة قتل في الإكسبرس الغربي
199	حكاية جندي
229	رخصة للقتل
251	ملكة الترا جيديا
281	X GKRZ OPKNU أو قصة حب
351	السؤال الثالث عشر
367	الخاتمة
371	عن المؤلف

المقدمة

تم اعتقالي. بسبب فوزي في برنامج تلفازي خاص بالمسابقات. أقبلوا إليّ في ساعة متأخرة من ليلة أمس، في وقت رحلت فيه حتى الكلاب الضالة كي تنام. كسروا بابي، قيدوني، وأرغموني على السير أمامهم إلى سيارة الجيب المنتظرة التي كان ضوءها الأحمر يومض من دون انقطاع.

لم تكن هنالك صيحة مطاردة. ما من نزيل تحرك من كوخه حتى ولو حركة طفيفة. فقط البوم المرم على شجرة التمر الهندي نعب لدى اعتقالي.

الاعتقالات في دهارافي شائعة شأنها شأن النشالين في القطارات المحلية. لا يكاد يمر يوم من دون أن يؤخذ نزيل سيئ الطالع إلى مركز الشرطة. ثمة أشخاص وجب على موظفي الأمن أن يجروهم بدينياً، وهم يصيحون ويقاومون. وهنالك آخرون يذهبون بهدوء مذعنين طائعين. من كان يتوقع الشرطة، لا بل من كان ينتظرها حتى. بالنسبة إليهم، إن وصول سيارة الجيب ذات الضوء الأحمر الوامض هو في الواقع فرّج.

في استعداتي للحادثة، ربما كان يجب عليّ أن أقاوم وأصرخ. كان يجدر بي أن أؤكد براءتي، أن أرفع احتجاجي، أن أكهرب الجيران. ما كان ذلك ليساعدي قليلاً. حتى إذا أفلحت في إيقاف بعض النزلاء من نومهم، ما كانوا ليرفعوا إصبعاً دفاعاً عني. ربما كانوا سيقابون المشهد بعيون نعسة، ويدلون بملاحظة مبتذلة من قبيل هذا شخص آخر

بمضي، يتشاءبون، ويعودون فوراً إلى النوم. إن مغادرتي لأضخم حيّ للفقراء في آسيا ما كان ليشكل فرقاً في حياتهم اليومية. سيكون هنالك الطابور نفسه لتعبئة الماء في الصباح، الكفاح اليومي نفسه لنقله إلى محلة سبعة - ثلاثين في الوقت المحدد.

ما كانوا حتى ليقلقوا أنفسهم في اكتشاف سبب اعتقالي. حتى أنا لم أفكر في السبب، حين اقتحم رجال الأمن كوخني. حين تكون حياتك كلها غير شرعية، حين تعيش على حافة الفقر المدقع في أرض يباب مدينية حيث يجدر بك أن تشق طريقك كي تنال إنشاً من المكان وأن تقف في طابور حتى لو كان هذا الطابور من أجل الحصول على البراز، الاعتقال يملك صفة الحتمية. أنتَ محدد بالاعتقاد أنه ذات يوم ستكون هنالك مذكرة دُون عليها اسمك، وأنه في نهاية المطاف ستأتي من أجلك سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض.

هنالك من يقول إنني جنيتُ على نفسي، وجلبتُ هذا لذاتي. من خلال مشاركتي على سبيل الهواية في ذلك البرنامج التلفازي الخاص بالمسابقات. سيهزون إصبعاً بوجهي ويذكرونني بما يقوله كبار السن في دهارافي عن عدم عبور خط التقسيم الذي يفصل الأغنياء عن الفقراء. على كل حال، ماذا تقدم المهنة لنادل مفلس، وجب عليه أن يشارك في المسابقات؟ الدماغ ليس عضواً نحن نحولون استخدامه. من المفروض أن نستخدم أيدينا وأرجلنا فقط.

ليتهم رأوني وأنا أجيب عن تلك الأسئلة. بعد إنجازي كان في وسعهم أن ينظروا إليّ نظرةً جديدةً. إنه لأمر مؤسف أن البرنامج لم يكن قد بُث بعد. إلا أن كلمةً تسربتْ مفادها أنني فزتُ بشيء ما أشبه باليانصيب. حين سمع النُدل الآخرون الأنباء، قرروا أن يقيموا حفلةً كبرى لي في المطعم. أنشدنا الأغاني، ورقصنا، وشربنا حتى ساعة

متأخرة من الليل. لأول مرة لم نتناول طعاماً سيئ الطعم بوصفه وجبة عشاء. طلبنا برياني الدجاج وأسياخ الكباب من الفندق ذي الخمس نجوم الواقع في مارين درايف. النادل الخرف قدّم إليّ ابنته كي أتزوجها. حتى مدير الفندق كثير التذمر ابتسم لي، بتسامح وفي النهاية وهبني أجرني المتأخرة. لم يدعوني ابن الساقطة عديم القيمة. أو يسميني كلباً مسعوراً.

الآن يدعوني غودبول بذات العبارات، لا بل بأسوأ منها. أجلس متقاطع الساقين في زنزانة بعديها عشر - و - ست أقدام، ذات باب معدني صدئ ونافذة صغيرة مربعة ذات حاجز من قضبان متصالبة، ينسكب من خلالها شعاع مغبر من نور الشمس في الغرفة. السجن حار ورطب. الذباب يطن حول البقايا الطرية لثمرة مانغا متفسخة ترقد مهروسة على الأرض الحجرية. صرصور حزين المنظر يتحرك بتناقل نحو ساقِي. بدأتُ أشعر بالجوع. معدتي تكرر.

قالوا لي إنهم سيأخذونني إلى حجرة الاستجواب بعد وقت قصير، كي يطرحوا عليّ الأسئلة للمرة الثانية منذ اعتقالي. بعد انتظار طويل، يُقبل شخص ما كي يرافقني. إنه ضابط الشرطة غودبول نفسه.

لم يكن غودبول هرماً جداً، ربما هو في أواسط العقد الرابع من العمر. رأسه أصلع ووجهه مستدير يهيمن عليه شارب أشبه بمقود دراجة هوائية. يسير بخطوات بطيئة وبطنه المتخخم يتدلى فوق سرواله الكاكي. "ذباب حقير"، يقول مشمئزاً، ويحاول أن يضرب بعنف واحدة تحوم أمام وجهه. تفلت منه.

ضابط الشرطة غودبول ليس في مزاج جيد اليوم. الذباب يضايقه. حرارة الجو تزعجه. غدران العرق تجري على جبينه. يمسحها بكم قميصه. أكثر من أي شيء آخر، هو منزعج من

اسمي. "رام محمد توماس - أي اسم هو ذاك، مازجاً الأديان كلها؟
ألم تستطع أمك أن تقرر من كان والدك؟" يقول ضابط الشرطة،
ليس لأول مرة.

سمحتُ للإهانة أن تمر. إنها شيء تعودتُ عليه.

خارج حجرة الاستجواب يقف موظفاً أمن منتصبين ساكنين،
وهي علامة تدل على وجود شخص مهم في الداخل. في الصباح كانا
يمضغان البآن⁽¹⁾ ويتبادلان النكات البذيئة. دفعني غودبول بكل ما
لكلمة دفع إلى داخل الحجرة، حيث يقف رجلان أمام خارطة جدارية
تُسجل ضمن لائحة العدد الكلي لحوادث الاختطاف والقتل سنوياً.
ميزتُ أحدهما. إنه الرجل نفسه، ذو الشعر الطويل الشبيه بشعر امرأة -
أو نجم الروك - الذي كان حاضراً في أثناء تسجيل البرنامج التلفزيوني
الخاص بالمسابقات، يرحل التعليمات عبر سماعي الرأس إلى مقدم
البرنامج. لا أعرف الرجل الآخر، الذي كان أبيض البشرة وأصلع
تماماً. يرتدي بذلة ذات لون بنفسجي وربطة عنق برتقالية ساطعة. فقط
الرجل الأبيض يستطيع أن يلبس بذلة ويضع ربطة عنق في هذا الحر
الخانق. يذكرني هذا بالكولونيل تايلور.

مروحة السقف تدور بأقصى سرعة، مع ذلك تبدو الحجرة خالية
من الهواء في غياب نافذة. تتصاعد الحرارة من الجدران التي قُصر لوها
إلى الأبيض، وأُعيقت بواسطة السقف الخشبي المنخفض. عارضة
طويلة، رفيعة تشطر الحجرة إلى قسمين متساويين. الغرفة خالية إلا من
طاولة صدئة في الوسط مع ثلاثة كراسٍ حولها. تتدلى من العارضة
الخشبية ظلة مصباح معدنية فوق الطاولة مباشرة.

(1) البآن Paan: ورق التنبول ممزوج مع جوزة الأريكة. يُمضغ البآن بوصفه
منظفاً لسقف الفم ومطيباً للنفس - م.

يقدمني غودبول إلى الرجل الأبيض كما يقدم مدير الحلبة في السيرك أسده المدلل. "سيدي، هذا رام محمد توماس".
الرجل الأبيض يمسح جبينه بمنديل، وينظر إليّ كما لو كنتُ صنفاً جديداً من القردة. "هذا إذاً فائزنا ذائع الصيت! لا بد لي أن أقول إنه يبدو أكبر سناً مما ظننت". أحاول أن أميز لهجته. يتحدث هو بالحنة نفسها التي يتكلم بها السياح الأثرياء الذين رأيتهم يملأون أغرا مقبلين من أمكنة بعيدة جداً من مثل بالتيماور وبوسطن.

يريح الأميركي نفسه على كرسي. له عيان عميقتا الزرقاة وأنف وردي. الأوردة الخضراء في جبهته تبدو شبيهةً بغصينات. يخاطبني قائلاً: "مرحباً. اسمي نيل جونسون. أنا أمثل تيليميديا العصر الجديد، الشركة التي تجيز برنامج المسابقات. هذا بيلي ناندا، المخرج".
أبقى صامتاً. القردة لا تتكلم. هي لا تتكلم الإنكليزية على وجه الخصوص.

يلتفت إلى ناندا. "إنه يفهم الإنكليزية، أليس كذلك؟".
يحذره ناندا قائلاً: "نيل، بالله عليك، هل جنت؟ كيف تتوقعه أن يتحدث الإنكليزية؟ إنه مجرد نادل مغفل في مطعم مهجور!".

يثقب صوت صفارة مقتربة سكون الهواء. موظف أمن يأتي راكضاً إلى الغرفة ويهمس بشيء ما لغودبول. يندفع ضابط الشرطة إلى الخارج مسرعاً، ويعود مع رجل قصير القامة، بدين، يرتدي بذلة نظامية لضابط شرطة رفيع المستوى. يتسم غودبول بابتهاج لجونسون، كاشفاً عن أسنانه الصفراء. "سيد جونسون، السيد مندوب الحكومة وصل".

يهب جونسون واقفاً على قدميه. "أشكرك على المجيء، أيها السيد المندوب. أعتقد أنك تعرف سلفاً لبيلي الحاضر هنا".

أوماً المندوب برأسه علامة الإيجاب. "أتيتُ حالماً تلقيتُ الرسالة من وزير الداخلية".

"آه نعم... إنه صديق قديم لعائلة السيد ميخائيلوف".

"حسن، ماذا أستطيع أن أفعل لك؟".

"أيها المندوب، أحتاج إلى مساعدتك في W₃B".

"W₃B؟".

"باختصار من أجل برنامج من سيربح البليون؟".

"وما هو هذا البرنامج؟".

"إنه برنامج تلفزيوني خاص بالمسابقات انطلق توأ - في خمسة وثلاثين بلداً - تنتجه شركتنا. ربما شاهدتَ إعلاناتنا التجارية في أرجاء مومباي كلها".

"لا بد أنها فاتتني. لكن لماذا بليون؟".

"لَمْ لا؟ هل شاهدتَ برنامج من يرغب في أن يصبح مليونيراً؟".

"كَاون بانيجا كرورياني؟ ذلك البرنامج كان هاجساً قومياً.

كانت مشاهدته إجبارية في أسرتي".

"لماذا كنتَ تشاهده؟".

"حسن.. لأنه ممتع جداً".

"هل سيكون نصف ممتع لو كانت جائزته الكبرى عشرة آلاف

بدلاً من مليون روية؟".

"حسن.. لا أعتقد هذا".

"بالضبط. كما تعرف، أكبر شيء في العالم يعذب الناس من

خلال إثارة رغبتهم من دون النية في إشباعها هو المال. وكلما كان

مبلغ المال أضخم يصبح العذاب أكبر".

"فهمت. إذاً من هو أستاذ المسابقات في برنامجك التلفزيوني؟".

"لدينا بريم كومار، هو الذي يقدمه".

"بريم كومار؟ ذلك الممثل من الدرجة الثانية؟ لكن شهرته لا تبلغ نصف شهرة أميتاب باجاجان، الذي قدّم برنامج كروريباتي".

"لا تقلق، سيكون شهيراً على غرار. بطبيعة الحال، نحن مرغمون جزئياً على اختياره لأن لديه تسعة وعشرين بالمائة من الأسهم في الفرع الهندي لتيليميديا العصر الجديد".

"جيد. اتضح لي الصورة. الآن كيف يكون هذا الرجل، ما اسمه، رام محمد توماس، مهيباً لهذا كله؟".

"كان مشاركاً في حلقتنا الخامسة عشرة الأسبوع الماضي".
 "وماذا بعد؟".

"أجاب عن الأسئلة الاثني عشر بصورة صحيحة كي ينال بليون روبية".

"ماذا؟ لا بد أنك تمزح!".

"لا، إنه ليس مزاحاً. كنا منذهلين مثلك. هذا الغلام هو الفائز بأكبر جائزة في التاريخ. الحلقة لم يتم بثها حتى الآن، لذا فإن قلة من الناس يعرفون عنها".

"جيد. إذا كنت تقول إنه ربح بليون روبية، ربح بليون روبية. إذاً ما هي المشكلة؟".

توقف جونسون عن التحدث مؤقتاً. "هل نستطيع أنا وبيلي أن نتكلم معك على انفراد؟".

يومي المندوب إلى غودبول بالمغادرة. يحملق إلى ضابط الشرطة ويخرج. أبقى في الحجرة، إنما لا أحد يأخذ ملاحظتي. أنا مجرد نادل. والندل لا يفهمون الإنكليزية.

يقول المندوب: "جيد. الآن قل لي".

يقول جونسون: "كما تعرف، أيها المندوب، إن السيد ميخائيلوف ليس في وضع يؤهله لتسديد مبلغ بليون روبية الآن".

"إذاً لماذا حدد الجائزة بهذا المبلغ؟"

"حسن... كانت تلك حيلة تجارية".

"انظر، لا أزال لا أفهم. حتى إذا كانت حيلة، ألا يكون وضع برنامجك أفضل الآن حين نال شخص ما الجائزة الكبرى؟ أتذكر أنه كلما ينال متنافس مليون روبية في برنامج من يرغب في أن يصبح مليونيراً، يتضاعف عدد المشاهدين".

"إنه التوقيت، حضرة المندوب، التوقيت. إن برامج تلفزيونية من مثل W3B لا يمكن إملاؤها بالمصادفة، بدرجة الرد. عليهم أن يتبعوا مسودة. ووفق مسودتنا، لا يمكننا تسديد المبلغ لأي فائز قبل مرور مدة ثمانية أشهر على الأقل، خلال هذه الأشهر الثمانية نستعيد أغلب استثمارنا عبر مدخولاتنا من الإعلانات التجارية. إنما الآن هذا الشخص توماس حطم خططنا كلها".

أوماً المندوب برأسه علامة الموافقة. "جيد، إذاً ماذا تريد مني أن أفعل؟".

"أريد مساعدتك من خلال إقامة الدليل على أن توماس احتال في البرنامج. أي إقامة الدليل على أنه ما كان بميسوره أن يعرف الأجوبة عن الأسئلة الاثني عشر من دون شريك. فكّر فقط. لم يلتحق بالمدرسة يوماً. لم يطالع صحيفة. ليست ثمة فرصة كي ينال الجائزة الكبرى".

"حسن... لست متيقناً جداً". يحك المندوب رأسه. "ثمة صبيان ينحدرون من خلفيات فقيرة ينتهي بهم المطاف عباقرة في حياتهم اللاحقة. ألم يكن آينشتاين نفسه تلميذاً فاشلاً في مدرسته الثانوية؟".

قال جونسون مومناً إلى ناندا: "انظر، أيها السيد المندوب، يمكننا أن نثبت الآن أن هذا الشاب ليس آينشتاين".

يدنو ميني ناندا، يمرر أصابعه عبر شعره الغزير. يخاطبني بالهندية. "سيد رام محمد توماس، إذا كنتَ حقيقةً لامع الذكاء بدرجة كافية كي تفوز في برنامجنا، نريدك أن تبرهن على ذلك من خلال المشاركة في مسابقات أخرى لدينا، الآن. ستكون هذه أسئلة غاية في البساطة. تقريباً أي شخص ذو ذكاء متوسط سيتمكن من الإجابة عنها". يجلسني على كرسي. "هل أنتَ مستعد؟ إليك السؤال الأول. ما هي العملة المتداولة في فرنسا؟ الخيارات هي: (أ) الدولار، (ب) الباوند، (ج) اليورو، أو (د) الفرنك".

ألتزم الصمت. فجأةً، راحة المندوب المفتوحة تنقض عليّ وتصفعني بقوة على خدي. "ابن الساقطة، هل أنتَ أصم؟ أجب وإلا سأكسر فكك"، يهددني.

يبدأ ناندا بالحجل من حولي كالمعتوه - أو كنجم من نجوم الروك. "رجاءاً، هل يمكننا أن نقوم بهذا بطريقة متحضرة؟" يسأل ناندا المندوب. ثم ينظر إليّ. "نعم؟ ما هو جوابك؟".

أرد مقطب الجبين: "الفرنك".

"خطأ. الجواب الصحيح اليورو. جيد، السؤال رقم اثنان. من هو أول رجل وضع قدمه على سطح القمر؟ هل كان (أ) إدوين ألدرين، (ب) نيل أرمسترونغ، (ج) يوري غاغارين، أم (د) جيمي كارتر؟".

"لا أعرف".

"إنه نيل أرمسترونغ. السؤال رقم ثلاثة. تقع الأهرامات في (أ) نيويورك، (ب) روما، (ج) القاهرة، أم (د) باريس؟".

"لا أعرف".

"الجواب تقع في القاهرة. السؤال رقم أربعة. من هو الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأميركية؟ هل هو (أ) بيل كلينتون، (ب) كولن باول، (ج) جون كيري، أم (د) جورج بوش؟".
 "لا أعرف".

"إنه جورج بوش. أنا متأسف لأن أقول، سيد توماس، إنك لم تجب جواباً صحيحاً واحداً".

يلتفت ناندا إلى المندوب، ويعود إلى الإنكليزية. "انظر، قلتُ لك إن هذا الشاب غبي. الطريقة الوحيدة التي استطاع بها أن يجيب عن تلك الأسئلة الأسبوع الماضي هي الاحتيال".

"هل لديك أدنى فكرة عن طريقته في الاحتيال؟" يسأل المندوب.

"هذا ما يحيرني. لقد حصلتُ لك على نسختين من تسجيل الذي في دي. تفحصه خيراؤنا بالجمهور، إنما حتى الآن لم نحصل على تفسير مقنع. شيء ما سيقرب حساباتنا في نهاية المطاف".

الجوع في معدتي يرتفع الآن إلى حنجرتي، ويورثني الدوار. ألوي جذعي، وأسعل.

جونسون، الأميركي الأصل، ينظر إليّ بحدة. "أتذكر أيها السيد المندوب، تلك الحالة المتعلقة برائد الجيش الذي نال مليون باوند في برنامج من يرغب في أن يكون مليونيراً؟ جرى ذلك في بريطانيا، قبل سنوات قليلة خلت. رفضت الشركة تسديد مبلغ الجائزة. بدأت الشرطة بالتحري، وأفلحت في إدانة الرائد. تبين أن بروفيشوراً حضر معه بوصفه مشاركاً بين الجمهور كان يؤشر إليه الإجابة الصحيحة من خلال حالات سعال مشفرة. من المؤكد أن شيئاً مشابهاً حدث هنا".

"إذاً هل نحتاج إلى أن نفتش عمّن يسعل بين الجمهور؟".

"كلا. ليس ثمة دليل على السعال. لا بد أنه استخدم إشارة أخرى".

"ما رأيك بالفكرة القائلة إنه تم الاتصال به هاتفياً بواسطة بليب⁽¹⁾ أو جهاز نقال؟".

"كلا. نحن متأكدون إلى حد ما أنه لم يكن يحمل وسائل اتصال. فلا بليب ولا جهاز نقال عملاً في الاستوديو".

فتنت المندوب فكرة ما. "هل تعتقد أنه يملك رقاقة ذاكرة مزروعة في دماغه؟".

يتنهد جونسون. "أيها السيد المندوب، أعتقد أنك شاهدت عدداً كبيراً جداً من أفلام قصص الخيال العلمي. انظر، مهما كان الأمر، عليك أن تساعدنا على اكتشافه. لا ندري من كان الشريك. لا ندري أي نظام إشاري تم استخدامه. لكنني متأكد مائة بالمائة أن هذا الغلام محتمل. يلزمك أن تساعدنا على إثبات ذلك".

"هل فكرت في رشوته؟" اقترح المندوب بأمل. "أعني أنه من المحتمل ألا يكون عارفاً بعدد الأصفار في البليون. يخيل إلي أنه سيكون غاية في السعادة لو أنك رميت إليه ألفي روبية لا غير".

شعرت بالرغبة في أن أنخس رئي المندوب. باعتراف الجميع، قبل برنامج المسابقات التلفزيوني لم أكن أعرف قيمة البليون. إنما ذلك كان في الماضي. الآن أعرف. وقد صممت على الحصول على جائزتي. بالأصفار التسعة كلها.

جواب جونسون يعيد طمأنيتي. يقول: "لا نستطيع أن نفعل ذلك. عندها ستكون عرضة لدعوى جزائية. كما تعرف، هو إما فائز صادق أو محتمل. لذا إما أن يكسب بليوناً أو يذهب إلى السجن. ما من منطقة

(1) بليب bleep: أداة تستخدم للاتصال البعيد - استخدم المؤلف كلمة pager - م.

وسطى بين هاتين الحالتين. عليك أن تمد إلي يد العون كي نضمن إيداعه في السجن. السيد ميخائيلوف سيصاب بانسداد تاجي إذا وجب عليه أن يدفع بليون روبية الآن".

نظر المندوب إلى عيني جونسون مباشرة. تشدق في كلامه: "أنا أفهم قصدك. إنما ما علاقتي بالموضوع؟".

كما لو في تلميح، يأخذه جونسون من يده إلى إحدى الزوايا. يتكلمان بنبرات هادئة. ألتقط كلمتين فقط. "عشرة بالمائة". المندوب متأثر بصورة جلية بما قيل له. "جيد، جيد، سيد جونسون، اعتبر الأمر منتهياً. الآن دعني أستدعي غودبول".

يُستدعى ضابط الشرطة. يسأله المندوب: "غودبول، ما هي المعلومات التي حصلت عليها حتى الآن؟".

ينظر إليّ غودبول. "لا شيء، سيدي المندوب. ابن الساقطة يواصل تكرار القصة ذاتها ويقول إنه محظوظ".

"محظوظ!؟" يسأل جونسون بسخرية واستهزاء.

"أجل، سيدي. حتى الآن لم أستخدم الدرجة الثالثة، عندها سيغني مثل الكنار. ما إن تسمح لي سيدي باستخدام الدرجة الثالثة سأحصل على أسماء شركائه بالجريمة بلمح البصر".

ينظر المندوب بفضول إلى جونسون وناندا. "هل أنتما مرتاحان مع تلك الحالة؟".

يهز ناندا رأسه بقوة، فيتطاير شعره الطويل. "لا تعذبه. الصحف تعلم بالاعتقال سلفاً. إذا اكتشفوا أنه لقي معاملة سيئة، سننتهي. لديّ ما يكفي من المشاكل لا داعٍ إلى القلق بخصوص مقاضاتي من قبل منظمة حقيرة غير حكومية معنية بحقوق الإنسان.

يربت المندوب على ظهره. "بيلي، لقد أصبحت على غرار

الأمير كيين. لا تقلق. غودبول رجل محترف. لن تكون ثمة علامة واحدة على جسد الغلام".

الصفراء ترتفع في بطني كبالون. أشعر برغبة في التقيؤ.

يستعد المندوب للمغادرة. "غودبول، صباح الغد أريد اسم الشريك وتفاصيل كاملة عن الحوالة البريدية. استخدم كل الوسائل كي تستخلص المعلومة. إنما كن حذراً. تذكر، ترقيتك تعتمد على هذه القضية".

"شكراً، سيدي. شكراً". يرسم غودبول على وجهه ابتسامة مصطنعة. "لا تقلق، سيدي. في الوقت الذي أنتهي فيه من هذا الغلام، سيكون مستعداً للاعتراف بجريمة قتل المهاتما غاندي".

أحاول أن أتذكر من قتل المهاتما غاندي؟ الذي عُرف أنه قال "رام!" قبيل وفاته بلحظات. أتذكر هذا لأنني هتفتُ، "ذاك هو اسمي!" وشرح الأب تيموثي بوداعة أنه كان اسم السيد المبجل رام! السيد الهندوسي المبجل الذي نُفي إلى الأجمة مدة أربع عشرة سنة.

في أثناء ذلك، عاد غودبول بعد توديع المندوب والرجلين. يصفّر في حجرة الاستجواب ويصفق الباب غالقاً إياه. ثم يشير بأصابعه نحوي. "جيد، ابن الساقطة، تعرّى!".

وجع حاد، نابض ينضح من كل مسام جسدي. يداي مشدودتان إلى العارضة الخشبية بحبل غليظ. العارضة تعلو الأرض تسع أقدام، لذا فإن ساقِي تتأرجحان في الهواء وأشعر كما لو أن يديّ وقدميّ محرورة كل واحدة على حدة. أنا عارٍ تماماً. أضلاع صدري ناتئة كأضلاع الأطفال الأفارقة الجياع.

كان غودبول يعاقبني منذ مدة تزيد عن الساعة لكنه لم ينته بعد. في كل نصف ساعة أو نحو ذلك يأتي بأداة تعذيب جديدة. في البداية

أدخل قضيباً خشبياً في شرطي. القضيب مكسو بمسحوق رهيب. شعرتُ كما لو أن مسماراً ضخماً، متوهجاً، لافحاً يُساق عبر مؤخرتي. بعدها دفع رأسي في دلو ماء وأبقاه هناك إلى أن كادت رئتاي تنفجران. بقبقتُ، ولهتُ، وشارفتُ على الاختناق.

هو الآن يحمل سلكاً مكهرباً بيده أشبه بمشيرة⁽¹⁾ في ديوالي. يرقص حولي كملاك مثّل ويطعنني فجأة. يخزني في أخمص قدمي اليسرى بالسلك العاري. التيار الكهربائي يروّع جسدي كسُم حار. أراجع وأنتفض بعنف.

صرخ بي غودبول. "ابن الساقطة، أما زلتَ لا تريد أن تخبرني بالحيلة التي استخدمتها في البرنامج؟ مَنْ الذي أخبرك الأجوبة؟ قل لي، وسينتهي هذا. ستال وجبة طعام جيدة وساخنة. وحتى يمكنك أن تذهب إلى البيت".

لكن البيت يبدو الآن أشبه بمكان قصي. ووجبة الطعام الساخنة ستجعلني أتيقأ. إذا امتنعتَ عن تناول الطعام مدةً طويلةً، الجوع يذوي ويموت، تاركاً وجعاً غامضاً في معدتك.

أول موجة من الغثيان تبدأ الآن بالهجوم عليّ بعنف. أفقد الوعي. عبر ضباب كثيف، أرى امرأةً طويلة القامة، ذات شعر أسود منسدل. الريح تعصف وراءها، وتجعل شعرها الأسود الفاحم يطير على وجهها، حاجباً إياه. المرأة ترتدي ساريّاً أبيض اللون من قماش خفيف يرفرف ويهتز كطائرة ورقية. تفتح ذراعيها وتصرخ، "ولدي... ولدي... ما الذي يفعلونه بك؟".

"أماه!" أزعق، وأمد يدي كي أصل إليها عبر فجوة الغشاوة والضباب، إلا أن غودبول يقبض عليّ بفضاظة من عنقي. أشعر كما لو

(1) المشيرة sparkler: ضرب من الألعاب النارية يطلق شرارات لامعة - م.

أنني أركض من دون أن أتحرك إلى الأمام. يصفعني بقوة وتنقشع الظلمة.

غودبول يعرض قلم الحبر مرةً أخرى. هو أسود اللون ذو سن ذهبية لماعة. حبر أزرق يتلألأ في طرفه. يأمرني قائلاً: "وقع إفادة الاعتراف".

إفادة الاعتراف بسيطة تماماً. "أنا الموقع أدناه، رام محمد توماس، أعلن الآن أنه في العاشر من تموز كنتُ مشاركاً في برنامج المسابقات من سيربح المليون؟ أعترف أنني خدعتُ. لم أكن أعرف الأجوبة عن الأسئلة كلها. ها أنذا أسحب مطالبتي بالجائزة الكبرى أو بأي جائزة أخرى. ألتمس العفو. أدونُ إفادتي هذه وأنا بكامل قواي العقلية ومن دون أي ضغط مفرط من أي شخص كان. الموقع: رام محمد توماس".

أعرف أنها مسألة وقت لا غير قبل أن أوقع هذه الإفادة. لن أكون قادراً على التحمل وقتاً أطول. كان يقال لنا دوماً ألاّ نتشاجر مع رجال الشرطة. غلمان الشوارع من أمثالي يأتون في أسفل لائحة الأطعمة⁽¹⁾. فوقنا المجرمون الصغار، كالنشالين. فوقهم المبتزون ونصابو القروض. فوقهم يأتي النبلاء. فوقهم يأتي أصحاب المؤسسات التجارية الضخمة. إنما فوق الجميع رجال الشرطة. إنهم يملكون أدوات السلطة المجرّدة. وما من أحد يفتشهم. من يستطيع أن يضبط رجال الشرطة؟ لذا سأوقع الإفادة. بعد عشر صفعات، ربما خمس عشرة صفقة أخرى. بعد خمس، ربما ست، صدمات كهربائية أخرى.

على حين غرة، أسمع جلبةً عند الباب. موظفو الأمن يصيحون. الأصوات ترتفع. يرتعد الباب وينصفق منفتحاً. تندفع شابة إلى الحجرة. متوسطة القامة ونحيفة البنية. لها أسنان جميلة وحاجبان مقوّسان بصورةٍ

(1) استخدم المؤلف هنا تعبيراً مجازياً مأخوذاً من الحياة الشخصية للبطل

محبية إلى القلب. في منتصف جبينها تحمل نقطة دائرية زرقاء كبيرة. يتكون زيتها من قميص وسروال من قماش أبيض اللون وشال طويل أزرق وخف من الجلد. شعرها الأسود الطويل مسدول. تتدلى من كتفها اليسرى حقيبة بنية اللون. تتحلى الشابة بحضور ما.

غودبول مرتبك جداً، وهو يمسك بالسلك المشحون بالتيار الكهربائي بيده، ويعوي بألم. يوشك أن يمسك بالمتطفل من ياقته، بعدها يدرك أنها امرأة. "من أنت، كي تقتحمي الحجرة هكذا؟ ألا ترين أنني مشغول؟".

"اسمي سميتا شاه"، تعلن المرأة بحدوء لغودبول. "أنا محامية السيد رام محمد توماس". من ثم تنظر إليّ، إلى حالتي المزرية، وبسرعة تشيح عينيها عني.

غودبول مندهل. كان مندهلاً جداً بحيث لم يلحظ أنني مندهل بالقدر نفسه. لم أرَ هذه المرأة من قبل. لا أملك مالا كي أستدعي سائق سيارة أجرة. قلّما أستطيع أن أستخدم محامياً. "هل ستأتين مجدداً؟" يتكلم غودبول بصوت خفيض أجش. "هل أنت محاميته؟".

"أجل. وما تفعله لموكلي هو شيء غير قانوني وغير مقبول البتة. أريد نهاية فورية لهذه المعاملة. إنه يحتفظ بحقه في مقاضاتك وفق المادتين 330 و31 من قانون العقوبات الهندي. يلزمي أن أكشف للصحف الأمور المتعلقة باعتقاله. لا أرى دليلاً على استخدام الأشعة تحت الحمراء كما دونوا. الاعتقال لا أساس واضح له كما تفترض المادة اثنتين وعشرين من الدستور وأنت تخرق المادة خمسين من قانون العقوبات ساري المفعول. الآن إذا لم تستطع أن تقدّم مذكرة اعتقاله، فإنني سأنقل موكلي من مركز الشرطة كي أتشاور معه على انفراد".

"إر... م م م... ع... عليّ أن أتحدث إلى المندوب. انتظري من فضلك"، هو كل ما يستطيع أن يقوله غودبول. ينظر إلى المرأة وعلى وجهه تعبير العاجز، يهز رأسه، وينسل خلسةً من الغرفة. تترك في المحامية انطباعاً قوياً. لا أعرف أن المحامين يستخدمون سلطةً كهذه على رجال الشرطة. أعتقد أن لائحة الأطعمة ينبغي تعديلها.

لا أدري في أي لحظة يعود غودبول إلى الحجرة، ما يقوله للمحامية، أو ما تقوله المحامية له، لأنني فقدت الوعي. من جراء الألم، والجوع، والسعادة.

* * *

أجلس الآن على مصطبة جلد وفي يديّ كوب شاي ساخن يتصاعد منه البخار. مكتب مستطيل تناثرت عليه الأوراق. على سطحه مثقلة أوراق من زجاج ومصباح منضدي أحمر. جدران الحجرة مطلية بطلاء وردي اللون. الرفوف اصطفت فوقها كتب سميكة سوداء ذات حروف ذهبية على ظهورها. ثمة شهادات، ووثائق رسمية مؤطرة معلقة على الجدران. تنمو غرسة يشب موضوعة في قدر فخارية جانبياً في أحد أركان الحجرة.

تعود سميّتا بصحن وكأس بيديها. أشم الطعام. "أعرف أنك جائع، لذا جلبتُ لك بعض أقراص الخبز⁽¹⁾، شيئاً من خليط الخضار وزجاجة كوكا كولا. هذا كل ما هو موجود في ثلاجتي الكهربائية". أمسك يدها. تبدو عند اللمس دافئة ورطبة. "شكراً"، أقول. لا أزال لا أعرف كيف استطاعت الوصول إلى مركز الشرطة، أو لماذا.

(1) في النص chapattis: وهي أقراص رقيقة صغيرة تُصنع من عجينة الخبز (على الطريقة الهندية) - م.

كل ما أخبرتني به هو أنها قرأت عن اعتقالي في الصحف، وجاءت بأسرع وقت ممكن. أنا الآن في منزلها في باندرا. لن أسأها متى جاءت بي إلى هنا، أو لماذا. المرء لا يسأل القدر عندما يبتسم له لماذا ابتسمت لي.

أبدأ بتناول الطعام. أكل أقراص الخبز كلها. آتي على الخضار كلها. أشرب زجاجة الكوكا كولا كلها. أكل إلى أن تجحظ عيناى. الوقت الآن ساعة متأخرة من المساء. أكلتُ ونمتُ. سميتا لا تزال معي، لكنني الآن في حجرة نومها، أجلس على سرير كبير ذي ملاءة زرقاء. حجرة نومها تختلف عن تلك المخصصة لمستخدمتي السابقة، نجمة السينما نيلما كوماري. فبدلاً من المرايا الضخمة، وميداليات، وجوائز التمثيل المصفوفة على الرفوف، هنالك كتب ودب كبير بني اللون من القش ذو عيين زجاجيتين. لكنها، على غرار نيلما، تملك جهاز تلفاز ماركة سوني وحتى جهاز تشغيل أقراص DVD.

سميتا تجلس معي على حافة السرير تحمل بين أصابعها علبة قرص ليزري. "انظر، استطعتُ أن أحصل على نسخة من تسجيل DVD الخاص ببرنامجك التلفزيوني. يمكننا الآن أن نمشطه تمشيطةً. أريدك أن تشرح لي على وجه الدقة كيف استطعت أن تجيب عن تلك الأسئلة كلها. وأريدك أن تخبرني الحقيقة".

"الحقيقة؟".

"حتى إذا خدعتهم، أنا هنا كي أحميك. ما تخبرني به لا يمكن استخدامه ضدك في جلسة المحكمة".

أول الشكوك بدأت تزحف إلى عقلي. هل هذه المرأة جيدة جداً كي تكون صديقة؟ هل غرسها جونسون الأصلع ذاك كي تنتزع مني حقائق متعلقة بالجريمة؟ هل يمكنني أن أثق بها؟

الوقت هو الذي سيقدر ذلك. أخرج قطعة النقد الموثوقة خاصتي من فئة روبية واحدة. إذا استقرت على وجهها سأعاون مع المحامية. أما إذا استقرت على قفها فسأقول لها مع السلامة. أقذف قطعة النقد بظفري. تستقر على وجهها.

"هل تعرفين ألبرت فيرنانديز؟" أسأله.

"كلا. من هو؟"

"إنه يملك معملاً غير قانوني في دهارافي يصنع أبازيم لسيور الساعات".

"و؟"

"يلعب الماتكا؟"

"ماتكا؟"

"مقامرة غير قانونية بالورق".

"فهمت".

"لذا فإن ألبرت فيرنانديز يلعب ماتكا ويوم الثلاثاء الماضي كانت له لعبة مذهلة".

"ماذا جرى؟"

"عرض خمس عشرة ورقة رابحة في صف واحد. هل تصدقين؟ خمس عشرة ورقة رابحة الواحدة بعد الأخرى. ربح خمسين ألف روبية ذلك المساء".

"وماذا يعني. ما صلة ذلك بموضوعنا؟"

"ألا تفهمين؟ إنه محظوظ في أوراق اللعب وأنا محظوظ في البرنامج التلفزيوني".

"أنت تعني أنك فقط خمنت الأجوبة وبفعل الحظ الخالص حصلت على اثني عشر جواباً صحيحاً عن اثني عشر سؤالاً؟"

"كلا. لم أضمن تلك الأجوبة. بل عرفتُها".

"عرفتَ الأجوبة؟".

"نعم. أجوبة الأسئلة كلها".

"إذاً ما هو الدور الذي يلعبه الحظ في الصورة؟".

"حسن، ألم أكن محظوظاً بحيث إنهم طرحوا عليّ تلك الأسئلة

التي كنتُ أعرف أجوبتها؟".

نظرة عدم التصديق التام على محيا سميتا، تشي بكل شيء. لم يعد بمستطاعي أن أتحمّلها. أثور بحزن وغضب. "أعرف ما تفكرين فيه. على غرار غودبول، أنت تسألين ما الذي كنتُ أفعله في ذلك البرنامج التلفازي الخاص بالمسابقات. على غرار غودبول، أنت تعتقدين أنني أصلح فقط لتقديم الدجاج المقلي والشراب الاسكتلندي في أحد المطاعم. أي مطلوب مني أن أعيش حياة كلب، وأن أموت ميتة حشرة. أليس كذلك؟".

"كلا، رام". تقبض على يدي. "لم أقل ذلك. إنما يجدر بك أن تفهم. إذا تعين عليّ أن أساعدك، فعليّ أن أعرف كيف رجحتَ ذلك البليون. وأعترف، أجد أنه شيء عسير أن أستوعب المسألة. يا الله، حتى أنا لا أستطيع الإجابة عن نصف تلك الأسئلة".

"طيب، مدام، نحن الفقراء نستطيع أيضاً أن نطرح الأسئلة ونطلب إجابات عنها. وكووني على ثقة، إذا تولى الفقراء مسؤولية إدارة المسابقات، لن يكون في وسع الأغنياء الإجابة عن سؤال واحد. لا أعرف العملة المالية المتداولة في فرنسا، لكنني أستطيع أن أخبرك بالمبلغ الذي تدين به شاليني تاي للمرابي في محلّتنا. لا أعرف أول إنسان وضع قدمه على سطح القمر، لكنني أستطيع أن أخبرك من هو أول إنسان ينتج أقراص DVD المقرصنة في دهارافي. هل باستطاعتك أن تجيبي عن هذه الأسئلة في مسابقتي؟".

"انظر، رام، لا تقلق. لا أقصد الإساءة إليك. في الحقيقة، أرغب في مساعدتك. لكن إذا لم تحتال، ينبغي لي أن أعرف كيف عرفت الأجوبة".

"لا أستطيع أن أشرح".

"لماذا؟".

"هل تلاحظين نفسك حين تتنفسين؟ لا. أنت ببساطة تعرفين أنك تتنفسين. لم أذهب إلى المدرسة. أنا لا أقرأ الكتب. لكنني، أقول لك، إنني عرفت الأجوبة".

"لذا فأنا أحتاج إلى معرفة حياتك كلها كي أفهم أصل أجوبتك؟".

"ربما".

تومى سميتا برأسها. "أعتقد أن ذلك هو المفتاح. على كل حال، إن المسابقات، أي مسابقات، ليست اختباراً دقيقاً للمعرفة مثل اختبار الذاكرة". ثبت شالها الكبير الأزرق، وتحقق إلى عيني مباشرة. "أريد الإصغاء إلى ذكرياتك. هل يمكنك أن تبدأ من البداية؟".

"تقصدين من السنة التي ولدتُ فيها؟ السنة الأولى من حياتي؟".

"كلا. من السؤال رقم واحد. إنما قبل أن نبدأ، عدني، رام محمد توماس، أنك ستقول الحقيقة".

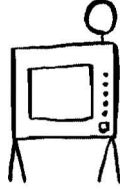
"تقصدين كما يقولون في الأفلام السينمائية، (الحقيقة، الحقيقة كلها ولا شيء سوى الحقيقة)؟".

"بالضبط".

آخذ نفساً عميقاً. "نعم. أعدك. إنما أين هو الكتاب الذي سأقسم عليه إنني سأقول الحقيقة".

"لا أحتاج إلى كتاب. أنا شاهدة عليك. مثلما أنتَ شاهد عليّ".

تأخذ سميتا القرص الليزري اللامع من غلافه وتدسه في جهاز تشغيل أقراص DVD.



1,000

موت بطل

قُرْع الجرس للمرة الثالثة. الستارة المخملية الأرجوانية على وشك أن تُرفع. تُطفأ الأضواء بصورة متوالية، إلى أن تبقى فقط الالفتات الحمراء التي تشير إلى الخروج، تتوهج كالجمر في الصالة المعتمة. بائعو الفشار وبائعو قناني المرطبات يبدأون بالمغادرة. سالم وأنا نستقر في مقعدينا.

أول شيء يجب أن تعرفه عن سالم هو أنه صديقي المفضل. ثانياً هو أنه مفتون حتى الجنون بالأفلام الهندية. إنما ليس كل الأفلام الهندية. إنما فقط تلك التي يظهر فيها أرمان علي. يقولون كان هنالك في البداية أميتاب باجاجان. بعده كان هنالك شاهرخ خان. الآن يوجد أرمان علي. بطل أفلام الأكشن بلا منازع. إنه نبض قلب الملايين.

سالم يحب أرمان. أو، بصورة أدق، إنه لا يرى في عالم السينما إلا أرمان. غرفته الصغيرة جداً في المبنى السكني هي بمثابة مزار. إنها مكسوة بملصقات من كل الأنواع تصوّر البطل في أوضاع شتى. أرمان يرتدي سترة جلد. أرمان على دراجة نارية. أرمان خالِعاً قميصه،

عارضاً صدره كث الشعر. أرمان يحمل مسدساً. أرمان يمتطي صهوة حصان. أرمان في حوض سباحة ومن حوله سرب من الحسناوات. أنا وهو نشغل المقعدين (أ 21) و(أ 22) في الصف الأول من الحلقة الرسمية⁽¹⁾ في ريغال تولكيز في باندرا. في الحقيقة، لم يكن يجدر بنا الجلوس هناك. البطاقات التي أضعها في جيب قميصي لا تشير إلى الحلقة الرسمية 150 روبية. إنها تشير إلى مقاعد أمامية 25 روبية. مرشد المشاهدين إلى مقاعدهم في مزاج جيد اليوم، وقد أسدى لنا معروفًا. أخبرنا أن نذهب ونستمتع على الشرفة، لأن المقاعد كانت مهجورةً عملياً. حتى الشرفة كانت خالية تقريباً. عدا سالم وأنا، ثمة أشخاص آخرون لا يزيد عددهم على دزيتين في الصفوف التي أمامنا.

حين أذهب وسالم إلى صالات السينما، نجلس عادةً في المقاعد الأمامية. إنها تجعلنا قادرين على أن نطلق صيحات الاستهجان أو أن نصفر. يعتقد سالم أنك كلما دنوت أكثر من الشاشة تكون أقرب إلى الأكشن. يقول إنه يستطيع أن ينحني إلى الأمام ويكاد يمس أرمان. في وسعه أن يحصي الأوردة في العضلة ذات الرأسين في أعلى ذراع أرمان، في وسعه أن يشاهد بياض عيني أرمان البنيتين كالبنديق، الشعر الناعم الذي ينمو على ذقن أرمان المشقوق، الخال الأسود الصغير على أنف أرمان واضح المعالم.

لست مولعاً بصورة خاصة بأرمان علي. أعتقد أنه يمثل بالطريقة نفسها في كل فيلم من أفلامه. لكنني، أيضاً، أود الجلوس في الصفوف الأمامية من الصالة، أقرب ما يكون إلى الشاشة الضخمة. من هناك تبدو مفاتن البطلة مبهجة للحواس.

(1) الحلقة الرسمية Dress Circle: حلقة أو جزء من المقاعد أو شرفة في مسرح مخصصة للمرتدين ملابس رسمية - م.

رُفعت الستارة الآن، والشاشة تومض ومضة خاطفة. في البدء يعرضون لنا الإعلانات التجارية. أربعة إعلانات رعتها شركات القطاع الخاص وواحد رعته الحكومة. الإعلان الأول هو عن حبوب الفطور المصنوعة من الذرة وفيه عرض للخطوات اللازم اتباعها لنصبح طلاباً مجتهدين ولاعبين كركيت لامعين، أما الإعلان الثاني فهو عن عطر الطيب، ويشير إلى أن من يستخدمه يحظى بالسيارات السريعة ويفوز بود الفتيات فائقات الجمال ("ذاك هو العطر الذي يستخدمه أرمآن"، يهتف سالم). أما الإعلان الثالث فهو عن صابون روما الذي يؤدي غسل الثياب به إلى جعلها ناصعة البياض، وهذا البياض الناصع قد يكون مفتاح ترقية إلى وظائف مهمة أما الإعلان الثالث فهو عن شراب اسكتلندي وفيه تلميح إلى أن من يحتسيه يمكن أن يعيش حياة الملوك. أما الإعلان الأخير وهو الإعلان الحكومي فهو بمثابة تحذير من مضار التدخين وأنه يقود إلى سرطان الرئة.

بعد الإعلانات التجارية، هنالك توقف قصير بينما يتم استبدال البكرات. نسعل ونتنحنج. وبعدها تظهر إجازة الرقيب على شاشة السينما. تخبرنا أن الفيلم السينمائي قد أُجيز من قبل U/A، الإجازة موقعة من قبل سيدة اسمها أم. كين، رئيسة هيئة الرقابة. هذه المرأة هي التي توقع إجازات الرقابة كلها. كان سالم يسألني في كثير من الأحيان عن هذه المرأة. في الحقيقة، كان يحسدها على وظيفتها. فهي تستطيع أن ترى أفلام أرمآن السينمائية قبل أي فرد آخر.

لوائح الأسماء تبدأ بالدوران. يعرف سالم جميع المساهمين في هذا الفيلم. يعرف من هو مصمم الأزياء، من هو مصفف الشعر، من هو المزين. يعرف أسماء مدير الإنتاج، مراقب التمويل، مسجل الصوت وأسماء المساعدين كلهم. هو لا يتكلم الإنكليزية بصورة جيدة جداً، إنما

في وسعه أن يقرأ الأسماء، حتى تلك المطبوعة بحروف صغيرة فعلاً. كان قد شاهد هذا الفيلم ثماني مرات حتى الآن وفي كل مرة يحفظ عن ظهر قلب اسماً جديداً. لكنك إذا قُدر لك أن تري التركيز البادي على وجهه الآن تحديداً، سيخطر ببالك أنه يشاهد (العرض الأول لليوم الأول) بتذاكر السوق السوداء.

في غضون دقيقتين، أرمآن علي سيحقق دخوله العظيم بالقفز من مروحية ذات لونين أزرق وأبيض. عينا سالم تشرقان. أرى الفرح البريء نفسه على وجهه حين رأى أرمآن أول مرة، قبل سنة. رآه شخصياً.

يأتي سالم راکضاً عبر الباب، وينهار على وجهه فوق الفراش. يصيبي الذعر. أصرخ قائلاً: "سالم!... سالم! ماذا جرى لك؟ كيف استطعت أن تعود مبكراً جداً؟" أقلبه على ظهره. يقهقه سالم. "أكثر الأشياء إدهاشاً حصل اليوم. هذا أسعد أيام حياتي"، يعلن قائلاً.

"ما هو هذا الشيء؟ هل رجحتَ جائزة اليانصيب؟".
"لا. شيء حتى أفضل من الفوز بجائزة اليانصيب. رأيتُ أرمآن علي".

ببطء لاهث، تتبدى للعيان القصة كلها. كيف لمح سالم أرمآن علي في أثناء قيامه بجولته اليومية في جاتكوبار. كان النجم يترجل من سيارته المرسيديس بنز كي يدخل فندقاً ذا خمس نجوم. كان سالم راكباً في حافلة كي يسلم عليه الغداء الأخيرة إلى أحد الزبائن. في اللحظة التي وقعت فيها عيناه على أرمآن، قفز من الحافلة المسرعة، كاد أن يضيعه حين مرت سيارة ماروتي وهرع نحو الممثل، الذي كان يمر

عبر الباب الدوّار للفندق. الحارس طويل القامة، قوي البنية بالبذلة النظامية، أوقف سالم، ومنعه من دخول الفندق. "أرمان!"، صاح سالم، محاولاً بيأس لفت انتباه النجم. سمع أرمان الصيحة، وقف في دربه، والتفت من حوله. وقعت عيناه على عينيّ سالم. ابتسم له ابتسامة خفيفة، وأوماً برأسه إيماءة شكر غير محسوسة، وتابع مسيره إلى صالة الفندق. نسى سالم كل ما يتعلق بالغداء، وأقبل مسرعاً صوب البيت كي يحيطني علماً بحلمه الذي تحقق. زبون (حامل الغداء المتجولين)⁽¹⁾ ظل جائعاً في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم.

أسأله: "هل يبدو أرمان مختلفاً عما هو عليه على الشاشة؟".

"كلا. إنه يبدو أفضل"، يقول سالم.

"إنه أطول وأكثر وسامة. أمنيّ في الحياة أن أضافه، على الأقل مرة واحدة. ربما لن أغسل يدي بعد مصافحتي له شهراً كاملاً".

أفكّر في كم هو شيء جيد أن تكون للمرء أُمْنِيّات بسيطة، غير معقدة، مثل مصافحة يد نجم.

خلال ذلك، على الشاشة، تلك اليد تحمل مسدساً تصوبه نحو مجموعة مؤلفة من ثلاثة رجال شرطة. يلعب أرمان في هذا الفيلم دور قاطع طريق. قاطع طريق ذو قلب. يسلب الأثرياء، ويوزع النقود على الفقراء. بين هذا وذاك يقع في غرام البطلة، بريّا كابور، وهي ممثلة متوقع لها النجاح، تنشّد ست أغان، وتحقق رغبة أمه المحبوبة من خلال أخذها في رحلة إلى ضريح فيشنو ديفي. على الأقل، تلك هي القصة حتى الفاصل.

(1) حاملو الغداء المتجولين Gawli Tiffin Carriers: عمال يقومون بنقل وجبة الغداء الجاهزة إلى الزبائن أينما وُجدوا - م.

دخول برياً كابور في الفيلم تم الترحيب به عبر صفير المتفرجين الجالسين في الصفوف الأولى. هي ممثلة طويلة القامة، جميلة المظهر فازت بلقب ملكة جمال العالم قبل بضع سنوات خلت. جسدها منحوت كجسد حسناء كلاسيكية، مكتنزة الصدر نحيلة الخصر. إنها ممثلي الأثرة هذه الأيام. تقطب وجهها كثيراً في الفيلم، ومراراً تقول "احرس" للممثل الكوميدي. فنضحك.

أخاطب سالم قائلاً: "طموحك أن تصافح يد أرمان. لكن، في رأيك، ما هو طموح أرمان في حياته الشخصية؟ يبدو أنه يملك الطموحات كلها - الوجه، الشهرة، الثروة".
يرد سالم بوقار: "أنتَ مخطئ. إنه لا يملك أورفاشي".

امتلات الصحف بأخبار انقطاع العلاقة بين أرمان وأورفاشي، بعد قصة غرام عنيف كالزوبعة استمرت تسعة شهور. ثمة تخمين مفاده أن أرمان كسير الفؤاد تماماً. وأنه أضرب عن الطعام والشراب. وأنه ربما ينوي الانتحار. أورفاشي راندهاوا عادت إلى مهنتها بوصفها عارضة أزياء.

أرى سالم يبكي. عيناه حمراوان ومخضبتيان بالدمع. لم يتناول الطعام طيلة ساعات النهار كلها. قاعدة الكأس التي تتخذ شكل القلب تحتوي على صورة أرمان وأورفاشي، أنفق عليها (أي القاعدة) نصف راتبه الهزيل، ملقاة على الأرض، محطمة إلى مائة قطعة.
أقول له: "انظر، سالم، سلوكك هذا صبياني. ما من شيء يمكنك أن تفعله حيال هذا الأمر".

"ليتني ألتقي أرمان. أريد أن أخفف عنه همومه. أن أمسك بيده، وأجعله يبكي على كتفي. يقولون إن البكاء يجعل القلب أخف".

"وما فائدة كل ذلك؟ أوفراشي لن تعود إلى أرمآن".

فجأة يرفع سالم بصره إلى الأعلى. "أعتقد أن في وسعي أن أتحدث إليها؟ ربما أستطيع أن أقنعها بالرجوع إلى أرمآن. أقول لها إنها كانت غلطة بكل معنى الكلمة. أقول لها كم هو حزين وكسير الفؤاد".
أهز رأسي. لا أريد أن يتسكع سالم في أرجاء مومباي كلها باحثاً عن أوفراشي راندهاوا. "سالم، إنها ليست فكرة سديدة أن تدس أنفك في قضية أشخاص آخرين، أو أن تجعل مشاكل الآخرين مشكلتك الخاصة. أرمآن علي رجل ناضج. سيتعامل مع مشاكله بطريقة الخاصة".

يقول سالم: "على الأقل سأبعث له هدية".

يذهب ويشتري قنينة كبيرة من صمغ فيفيكول، ويبدأ بلصق شظايا القاعدة التي لها شكل القلب، كي يعيدها إلى حالها السابق. يستغرق هذا العمل منه أسبوعاً كاملاً، إنما في النهاية يكتمل القلب، شبكة الخطوط السود المتصالبة وحدها التي تذكره بالخطوط غير الصحيحة التي انكسرت فيها.

يقول: "سأبعثها الآن إلى أرمآن. إنها رمز مفاده أنه حتى القلب الكسير من الممكن جمع شظاياها".

أسأله: "بصمغ فيفيكول؟".

"كلا. بالحب والرعاية".

يغلف سالم القاعدة بالقماش، ويبعثها إلى عنوان منزل أرمآن علي. لا أعرف ما إذا وصلت الهدية إلى أرمآن أم لا. ما إذا كسرت من قبل ساعي البريد، هُشمت من قبل حراس الأمن أو رُميت في سلة المهملات من قبل سكرتير أرمآن. الشيء المهم هو أن سالم يعتقد أن الهدية وصلت إلى بطله، وساعدت على شفاء جرحه الدامي. جعلت

أرمان متعافياً من جديد، مكنته من أن يستأنف إلقاء القنابل الضخمة شديدة الانفجار من الطائرة، كهذه القنبلة التي يلقيها الآن. التي أشاهدها أول مرة ويشاهدها سالم تاسع مرة.

أغنية تُنشد على الشاشة. أرمان وأمه يصعدان صوب ضريح فيشنو ديفي.

"يقولون إنك إذا طلبت من فيشنو ديفي أي شيء، فسُلبى طلبك. قل لي، ماذا تطلب منها؟" أقول لسالم.
يرد عليّ: "ماذا تطلب منها أنت؟".
أقول: "أعتقد أنني سأطلب منها المال".
"سأطلب منها أن تجمع شمل أرمان وأورفاشي"، يقول من دون تفكير.

تظهر على الشاشة كلمة **فاصل** بحروف حمراء ثخينة.

* * *

أقف وسالم ونمط أذرعنا وسيقاننا. نشترى سمبوستين⁽¹⁾ نديتين من بائع الأطعمة. ينظر الغلام الذي يبيع قناني المشروبات الغازية إلى المقاعد الخالية بحزن. لن يحقق ربحاً جيداً اليوم. نقرر الذهاب إلى دورة المياه. هي ذات رقايات بيضاء جميلة، صفوف من المبال و أحواض غسل نظيفة. لكل منا حجرة محددة. يذهب سالم دوماً إلى الحجرة الواقعة في أقصى اليمين، أما أنا فأختار المبالاة المنفردة على حائط الناحية

(1) سمبوستين Samosas: مثلى سمبوسة، وهي عموماً تتكون من محارة مقلية من المعجنات، ثلاثية الشكل وذات أربعة سطوح ذات حشوة لذيدة المذاق من البطاطس المتبلة، البصل، حبات البازلاء، الكزبرة، اللحم المفروم أو غالباً الجبن الطازج المصنوع بالطريقة المحلية - م.

اليسرى. أفرغ مثنائي وأقرأ العبارات المنقوشة على الحائط. (تينو بال هنا... شينا ساقطة... أحب بريانكا).

بريانكا؟ أحتج على فنان النقش الذي شوّه النقش الأخير. أبصق في يدي، وأحاول أن أزيل الحروف الإضافية، لكنها مكتوبة بمعلم أسود وترفض أن تترشح. في النهاية أستخدم أظفاري في حكها عن الجدار، وأفلح في إعادة النقش إلى حالته الأصلية، مثلما حفرته قبل أربعة شهور: أحب بریا.

يرن الجرس الثاني. انتهى الفاصل. يوشك الفيلم أن يبدأ من جديد. لخص لي سالم سلفاً الحبكة المتبقية. أرمآن وبريا سينشدان الآن أغنية في سويسرا، قبل أن يتم قتل بریا من قبل عصابة منافسة. بعدها سيقتل أرمآن مئات الرجال السيئين انتقاماً، يفضح السياسيين وضباط الشرطة الفاسدين، وفي الختام يموت ميتة بطل.

نعود إلى المقعدين (أ 21) و(أ 22). تصبح الصالة مظلمة من جديد. فجأة يدخل رجل طويل عبر باب الشرفة، ويشغل المقعد المجاور لسالم. (أ 20). كان في وسعه أن يختار مقعداً من بين مائتي مقعد، لكنه يختار (أ 20). كان يتعذر عليّ أن أرى وجهه، لكنني أستطيع أن أثبت أنه رجل مسن ذو لحية طويلة يرتدي ما يبدو أنه زي رجل أفغاني مقيم في الهند.

كنت فضولياً في ما يتعلق بهذا الرجل. لماذا جاء ليشاهد الفيلم بعد أن تم عرض نصفه؟ هل دفع نصف أجرة التذكرة؟ سالم غير مكترث به. إنه يدفع عنقه إلى الأمام متوقفاً سلفاً المشهد الغرامي بين أرمآن وبريا الذي يكاد يبدأ.

يأتي أرمآن إلى سويسرا، ظاهرياً كي يحدد اتصالاً مباشراً، إنما واقعي كي يمثل قصة حب عنيف مع بریا وينشد أغنية، تنضم إليه

خلال إنشادها عشرون راقصة بيضاوات البشرة يرتدين الأزياء التقليدية التي هي نوعاً ما مقتررة بالنسبة إلى بلد جبلي بارد. الأغنية والرقصة تنتهيان، إنه الآن يجلس في حجرته بالفندق، حيث تشتعل نار محسوسة في الموقد.

تستحم برياً. نسمع صوت الماء الجاري وتدندن هي لحناً موسيقياً، ومن ثم نشاهدها في الحمام. تضع الصابون وتستخدم رأس الدُّش على جسدها، وتجعل الفقاعات تختفي، ولكن أملنا يخيب في أن نشاهد شيئاً آخر وهي تستحم.

في النهاية، تخرج من الحمام بمنشفة وردية فقط تحيط بجسدها. ويستدلى شعرها فاحم السواد مسدولاً خلف كتفيها، متألئفاً من جراء الرطوبة. ساقاها الطويلتان ناعمتان وملساوان. يطوقها أرمان بذراعيه، ويغطي وجهها بالقبلاط. تنحدر شفتاه نحو حفرة عنقها. تبدأ موسيقى خفيفة رومانسية بالعزف. تقوَّس ظهرها كي تسمح لأرمان أن يعانق حنجرتها. تتدحرج يده إلى ظهرها وتسحب منشفتها. القماش الوردي يرتخي ويسقط عند قدميها. يعتقد سالم أنه في هذا الموضع أدخل المراقبون مقصدهم. ولهذا السبب فهو يحسد السيدة كين.

الآن حبس أرمان برياً في عناقه. يسمعون أنفاسها الثقيلة، وبيرونا حبات العرق المتصببة على جبينها. ثمّة صيحات وصفير من المقاعد الأمامية. يتململ الرجل العجوز الجالس إلى جانب سالم، يتململ بعدم ارتياح في مقعده، يلف ساقاً على ساق. لست متيقناً، لكنني أعتقد أنه يقوم بعمل ما لا يليق بسنه.

"الرجل العجوز الجالس جنبك يصبح ناشطاً"، أهمس لسالم. لكنه غافل عني وعن الرجل العجوز. إنه يحرق فاغراً فاه إلى الجسدين المجدولين المنغرزين بإيقاع متزامن مع الموسيقى التي تعزف في الخلفية.

تدور الكاميرا على ظهر أرمان وتركز على الموقد، حيث تعلق ألسنة اللهب الصفراء - الذهبية زنود الخشب بحماسة متزايدة. تخفت الأضواء ويعمّ الظلام.

ثمة نار ذات تناسبات متشابهة في مطبخنا حين أدخل المبنى السكني، إنما بدلاً من زنود الخشب، يستخدم سالم الورق. "أولاد الساقطات... كلاب!" يتمتم فيما هو يمزق حزمة سميكة من الورق الصقيل ويحوّلها إلى قطع صغيرة.

"سالم، ماذا تفعل؟" أسأله مرعوباً.

"إنني أنتقم من أولاد الساقطات الذين افترؤا على أرمان"، يقول ذلك بينما يرمي مزيداً من الورق في المحرقة. ألاحظ أن سالم يمزق صفحات من مجلة ما. "أي مجلة هذه؟ إنها تبدو جديدة".

"إنها آخر عدد من (انفجار نجم - starburst). سأدمر أكبر عدد ممكن من النسخ أستطيع الحصول عليها. أستطيع فقط أن أشتري عشر نسخ منها من كشك بيع الصحف والمجلات".

ألتقط نسخة لم تتلف بعد. يظهر على غلافها أرمان علي، مع العنوان الرئيس الصارخ: الحقيقة العارية عن هذا الرجل.

أصبح: "لكنها تحمل صورة نجمك على الغلاف. لماذا تتلفها؟".

"بسبب ما يقولونه في داخلها عن أرمان".

"لكنك لا تستطيع أن تقرأ".

"أقرأ بصورة كافية وفي وسعي أن أسمع. سمعتُ مصادفةً السيدة بارفي والسيدة شيركي تناقشان الاتهامات السفهية التي سبقت ضد أرمان في هذا العدد".

"مثل ماذا؟".

"أورفاشي هجرته لأنه لم يستطع أن يرضيها. كونه مستهتراً".
"هكذا إذا؟".

"هل تعتقد أنهم يستطيعون أن يظلموا بطلبي بهذه الطريقة وأن ينجوا بفعلتهم؟ أعرف أن هذا التقرير هو شحنة من الكلام الفارغ. منافسو أرمآن في صناعة السينما يغارون من نجاحه. لقد لفقوا هذه الحبكة كي يدمروا سمعته. لن أسمح لهم في تحقيق مآربهم. سأذهب إلى مكتب مجلة (انفجار نجم) وأشعل النار فيه".

غضب سالم عفيف. وأنا أعرف السبب. إنه يكره المستهترين. لم يتوقع أن تصل بهم السفالة إلى إلصاق قمة الشذوذ به. أنا، أيضاً، أعرف بعض الأمور عن الشاذين وما يفعلونه للغلمان. في الصالات المظلمة. في دورات المياه العمومية. في الحدائق المحلية. في ملاجئ الأحداث.

لحسن الحظ، مجلة انفجار نجم تسحب مزاعمها في العدد التالي. وتنقذ (جامع وجبات الغداء وناقلها)⁽¹⁾ من أن يتحول إلى مُحرق مبانٍ.

* * *

خلال ذلك تسخن الأشياء بعيداً عن الشاشة، في المقعد (أ 20). ينزلق الرجل العجوز مقترباً من سالم. تمس ساقه ساق سالم بصورة عرضية. في البدء، يظن سالم أنها غلطته. في المرة الثانية، يظن أنها محض مصادفة. في المرة الثالثة، يقتنع أنها متعمدة.

(1) جامع وجبات الغداء وناقلها dabbawallah: شخص في مدينة مومباي الهندية يقوم بجمع وجبات الغداء المطبوخ تَوّاً في علب طعام (سفرطاس - بالعامية العراقية) من مقار عمال المصنع (في الضواحي، أغلب الأحيان) ويسلمها إلى أمانة عملهم بالتوالي، مستخدماً وسائل نقل مختلفة - م.

يهمس لي قائلاً: "محمد، سأعطي ابن الساقطة الجالس إلى جانبي ركلةً شديدةً إذا لم يوقف ساقه الضالة".
أنصحه قائلاً: "سالم، انظر كم هو كبير السن. ربما هي فقط ارتعاشات في ساقه".

بدأت سلسلة الشجار وسالم منهمك بمشاهدة الأكشن. دخل أرمآن وكر الوغد وانفتح باب الجحيم. يستخدم البطل كل أساليب الهجومات المخادعة والمعالجات - الملاكمة، الكاراتيه، الكونغ فو - كي يلحق بخصومه الهزيمة.

يدا الرجل العجوز هما أيضاً متصلان إلى حالة الأكشن. يضغط مرفقه على مسند الكرسي المشترك، ويجعل ذراعه تنزلق إلى جانب ذراع سالم، ماسة إياها بمزيد من الرقة. قلما يلاحظ سالم ذلك. كان منهمكاً بالفيلم، الذي يصل إلى ذروته.

أشهر مشهد من الفيلم يكاد يحدث. المشهد الذي يتوفى فيه أرمآن علي بعد أن يقتل الأشرار كلهم. سترته مبللة بالدم. ثمة جروح في كل ناحية من بدنه. سرواله مكسو بالغبار والسخام. يجر نفسه على طول الأرض المؤدية إلى أمه، التي كانت قد وصلت تواءً إلى مسرح الأحداث. سالم غارق بدموعه. ينحني إلى الأمام ويقول بصورة مؤثرة، "أماه، أتمنى أنني كنتُ ابناً طيباً. لا تبكي من أجلي. تذكري، أن يموت المرء ميتةً مشرفةً أفضل من أن يعيش حياة جبان".

رأس أرمآن في حضن أمه. إنه يقلد سالم: "أماه، أتمنى أنني كنتُ ابناً طيباً. لا تبكي من أجلي. تذكري، أن يموت المرء ميتةً مشرفةً أفضل من أن يعيش حياة جبان". الأم تبكي أيضاً فيما هي تهر رأسه النازف في حضنها كما لو كان مهداً. تنهمر الدموع من عينيها على وجه أرمآن علي. يقبض على يدها. يهتز صدره بعنف.

تنهمر الدموع في حضني. أرى أماً أخرى تقبل وليدها مرات عدة على جبينه قبل أن تضعه في صندوق ملابس، تعيد ترتيب الملابس من حوله. في الخلفية تعصف الريح. صوت صفارات إنذار. وصل رجال الشرطة، كدأهم، متأخرين جداً. بعد أن أنجز البطل العمل كله بالنيابة عنهم. لا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء له الآن.

أرى أن يد الرجل الملتحي اليسرى قد تحركت. هي الآن موضوعة في حضن سالم وتستقر هناك برفق. سالم مستغرق جداً في مشهد الموت بحيث إنه لم ينتبه لها. يتشجع الرجل العجوز. يدعك راحته على سروال سالم (الجينز). فيما يلفظ أرمان أنفاسه القليلة الأخيرة، يزيد العجوز ضغطه إلى أن يكاد يقبض على شيء.

يثور سالم. "أنتَ يا ابن الساقطة الحقير! أنتَ أيها المنحرف القذر! سأقتلك!" يزعم ويصفع الرجل على وجهه. بقوة.

يرفع الرجل يده بسرعة عن حضن سالم، ويحاول أن ينهض عن الكرسي. إنما قبل أن يتمكن من رفع نفسه كلياً، يقبض عليه سالم. يفشل في الإمساك بياقة الرجل، لكنه يمسك بلحيته. حين يجرها سالم، تأتي في يده. يقفز الرجل خارج مقعده بصرخة مختنقة، ويندفع بقوة نحو باب الخروج، الذي قلما يبعد عشرين قدماً.

في تلك اللحظة تحديداً تنقطع الكهرباء في الصالة، ويبدو أن المولد معطل. تصبح الشاشة خالية وتغدو الصالة الممتعة متألفة حين تشتعل مصابيح الطوارئ بصورة متقطعة. يُلقى القبض على الرجل على حين غرة، كغزالٍ على ضوء المصابيح الأمامية لسيارة ما. يدور، غير واثق من نفسه.

فجأة، يعود التيار الكهربائي. كان انقطاعاً مؤقتاً لا غير. يبدأ الفيلم من جديد على الشاشة، تُطفأ مصابيح الطوارئ. يندفع الرجل

وراء الستائر السوداء صوب لافتة الخروج الحمراء، يفتح الباب ضارباً إياه بعنف ويتلاشى عن الأنظار.

إنما في ذلك الجزء من الثانية شاهد سالم وأنا وميضاً خاطفاً من عينين حضراوين كالبنديق، وأنفاً منحوتاً بدقة، وذقناً مشقوقاً.

حين بدأت لائحة المشاركين في إخراج الفيلم وإنتاجه وتمثيله بالدوران على الشاشة، كف سالم عن الإمساك بكتلة الشعر الأشيب المشوش الذي تفوح منه بصورة غامضة رائحة عطر وصمغ كحولي. هذه المرة لا يشاهد اسم مصمم الإعلان واسم موظف العلاقات العامة، أسماء رجال الإضاءة وصبيان تحديد المواضع، مُخرج الشجار والمصور، إنه يبكي. صار أرمان علي، بطله، في عداد الأموات.

تنظر إليّ سميتا بعينين مرتابتين. "متى جرت هذه الحادثة على وجه الدقة؟".

"قبل ست سنوات خلت. حين كنت أسكن وسالم في حجرة مستأجرة في مبنى سكني في جاتكوبار".
 "وهل تدرك أهمية ما رويته لي توأ؟".
 "ماذا؟".

"أي أن هذه الحادثة إذا شاعت، فربما تدمر أرمان علي، وتضع نهايةً لمسيرته السينمائية. بطبيعة الحال، سيحدث ذلك فقط إذا كان ما حكّيته لي صحيحاً".

"أنت، إذاً، لا تزالين لا تمحضيني ثقتك؟".

"لم أقل ذلك".

"يمكنني أن أرى الشك في عينيك. إذا كنت لا تزالين لا تصدقيني، فأنتِ تفعلين هذا انطلاقاً من مخاطرتك. لكنكِ لا تستطيعين أن

تجاهلي الدليل على قرص DVD هذا. هل يمكننا أن نرى السؤال الأول؟".

تومى سميتا برأسها، وتضغط زر التشغيل في جهاز التحكم عن بعد.

تم إطفاء مصابيح الاستوديو. قلما يمكنني مشاهدة الجمهور الجالس حولي بهيئة حلقة. الصالة مظاءة بواسطة ضوء كشاف في الوسط، حيث أجلس في كرسي جلدي دوّار قبالة بريم كومار. تفصلني عنه طاولة نصف دائرية. ثمة شاشة كبيرة أمامي ستعرض عليها الأسئلة. تُضاء لافتة الاستوديو. تشير اللافتة إلى سكوت.

تدور آلات التصوير، ثلاثة، اثنان، واحد، "الآن يجري تصويرك". يأتي اللحن المميز للبرنامج وصوت بريم كومار الهادر يملأ الصالة. "ها نحن نطل عليكم مرةً أخرى، مستعدين لمعرفة من يصنع التاريخ اليوم من خلال الفوز بأكبر جائزة مُنحت على الأرض حتى الآن. نعم، سيداتي سادتي، نحن مستعدون لمعرفة من سيربح البليون!"

تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يبدأ الجمهور بالتصفيق. هنالك بعض الهتافات والصفيق، أيضاً.

يتلاشى اللحن المميز للبرنامج. يقول بريم كومار: "معنا هذه الليلة ثلاثة متسابقين محظوظين، تم اختيارهم بصورة عشوائية بواسطة الحاسوب. المتسابق رقم ثلاثة هو كابل جوداري من مالدا الواقعة في بنغال الغربية. المتسابق رقم اثنان هو البروفيسور هاري باروخ من أحمد آباد، إنما متسابقنا الأول هذه الليلة هو رام محمد توماس البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً من مدينتنا مومباي. سيداتي سادتي، من فضلكم امنحوه دورةً كبيرةً من التصفيق".

يصفق الجميع. بعد أن يخفت التصفيق، يلتفت إليّ بريم كومار.
 "رام محمد توماس، إنه اسم ممتع جداً. إنه يعبر عن غنى وتنوّع الهند. ما
 هي مهنتك، سيد توماس؟".

"أنا نادل في مطعم جيمي في كولابا".

"نادل! أليس هذا شيئاً! قل لي، كم تكسب من النقود شهرياً؟".
 "نحو تسعمائة روبية".

"هذا كل شيء؟ وماذا ستفعل إذا ربحت اليوم؟".

"لا أدري".

"لا تدري؟".

"بلى".

بريم كومار يعبس بوجهي. أنا لا أتبع المخطوطة. من المفروض أن
 أدرك بالبدئية وأن أكون مسلماً خلال الكلام القصير. كان يلزمي أن
 أقول سأشتري مطعماً، أو طائرة خاصة، أو قرية. كان في وسعي أن
 أقول سأقيم حفلة كبرى أضيف فيها عشرات المدعوين والمدعوات.
 أتزوج ملكة جمال الهند. أسافر إلى تومبوكتو.

"جيد. دعني أشرح لك قواعد المسابقة. سنطرح عليك اثني عشر
 سؤالاً، وإذا أجبتَ عن كل واحد منها بصورة صحيحة، ستترشح لنيل
 أكبر جائزة على الأرض: بليون روبية! أنت حر في ترك المسابقة في أي
 لحظة حتى السؤال التاسع، وتأخذ ما كسبته حتى تلك المرحلة، إنما ليس
 في وسعك أن تترك المسابقة بعد السؤال التاسع. من ثم، إما أن (تلعب
 أو تخسر). إنما دعنا نتكلم عن ذلك حين نصل إلى تلك المرحلة. إذا لم
 تكن تعرف جواب أحد الأسئلة، لا تصب بالدعر، لأنك تملك قارين
 للنجاة - فكرة مفيدة من صديق وتحذف إجابتين. لذا أعتقد أننا جميعاً
 مستعدون للسؤال الأول بألف روبية. هل أنت جاهز؟".

أجيب: "أجل، أنا جاهز".

"جيد، إليك السؤال الأول، سؤال جميل وبسيط يتعلق بالسينما الشعبية. أنا متأكد من أن كل فرد من الجمهور يستطيع الإجابة عنه. نحن نعرف الآن أن أرمان علي وبريا كابور كوّنوا واحداً من أنجح الثنائيات السينمائية في الأوقات الحديثة. إنما هل بمستطاعك أن تسمي الفيلم المروّع بصورة واسعة الذي مثل فيه أرمان علي أول مرة مع بريا كابور؟ هل كان الفيلم (أ) النار، (ب) البطل، (ج) الجوع، أم (د) الخداع؟

تتغير الموسيقى في الخلفية إلى لحن ترقب، مع صوت تكتكة قبلة مؤقتة مركّب فوقه.

"أجيب: (د)، الخداع".

"هل تذهب إلى دور السينما؟".

"أجل".

"هل شاهدت الخداع؟".

"نعم".

"هل أنت متأكد مائة بالمائة من جوابك؟".

"نعم".

هنالك تصعيد لقرع طبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة.

"تماماً، صحيح مائة بالمائة! ربحت ألف روبية! سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً سريعاً"، يعلن بريم كومار.

لافتة الاستوديو تتغير إلى تصفيق. يصفق الجمهور. يتسم بريم كومار. أنا لا أبتسم.



2,000

عبء قس

إذا كنت وصلت إلى دلهي بواسطة القطار، فلا بد أنك زرت بهار جاني. في كل الاحتمالات لا بد أنك وصلت إلى محطة قطار بهار جاني المغيرة وكثيرة الضجيج. لا بد أنك خرجت من المحطة وبصورة مؤكدة تقريباً واتجهت يساراً صوب ميدان كوناوت، متجنباً السوق المزدهمة بدور الضيافة منخفضة السعر والساقطات الرخيصات المخصصة للسياح. لكنك إذا كنت ذهبت يمينا، مروراً بمصنع ألبان الأم ومستشفى النساء جي. جي، فلا بد أنك شاهدت مبنى أحمر، في هذا المكان ولدت قبل ثمانية عشر عاماً خلت في 25 كانون الأول أو، كي أكون أكثر دقة، تُركت هناك في تلك الليلة الشتائية الباردة. أُودعت في صندوق كبير خصصته الممرضات للثياب القديمة. مَنْ الذي تركني هناك ولماذا، لا أدري حتى يومنا هذا. كانت إصبع الشك موجهة دوماً إلى ردهة الأمومة في مستشفى جي. جي. ربما ولدت هناك، وكانت أمي، لأسباب تعرفها هي وحدها، مرغمة على التخلص مني.

في خيالي كنت في أحيان كثيرة أتصور ذلك المشهد. شابة طويلة وجميلة، ترتدي الساري الأبيض، تغادر المستشفى بعد منتصف الليل

حاملةً طفلاً وليداً بين ذراعيها. الريح تعصف، شعرها الأسود الطويل يطير على وجهها، مخفياً ملامحها. تحت قدميها تحشخش أوراق الشجر. يتبعثر الغبار. يومض البرق. تسير الشابة بخطوات بطيئة صوب دار العبادة، وتستخدم مقرعة الباب المعدنية التي تتخذ شكل حلقة. إنما الريح شديدة جداً، فتحجب صوت القرع. وقتها محدود. بدموع تفيض من مقلتيها، تغطي وجه الوليد بالقبلات. ثم تضعه في الصندوق، مرتبة الثياب القديمة من حوله كي تجعله ينعم بالراحة. تلقي نظرةً أخيرةً على الوليد، تشيح عينيهما وبعدها، تمرول مبتعدةً عن آلة التصوير، تختفي في الليل...

تدير ممرضات المستشفى داراً للأيتام وقسماً إدارياً للتبني، وقد أعددوني للتبني مع مجموعة من الأطفال اليتامى الآخرين. كل الأطفال الآخرين تم تبنيهم، إنما لم يأت إلي أحد. أم محتملة وأب محتمل يشاهداني ويتبادلان النظر إلى بعضهما بعضاً. تكون هنالك هزة غير محسوسة للرأس، ومن ثم يتحركان إلى المهد التالي. لا أدري لماذا. ربما لأنني داكن السمرة. قبيح جداً. ممغوص جداً. ربما لأنني لا أملك بسمةً بريئة، أو أنني فرقت كثيراً جداً. لذا بقيتُ في دار الأيتام مدة سنتين. وبغربة كافية، لم يقتنعن بمنحي اسماً ما. كن يطلقن علي اسم وليد - الوليد الذي لم يرده أحد.

في الختام تبنتني السيدة فيلومينا توماس وزوجها دومينيك توماس. في الأصل كانا ينحدران من ناجو كويل في ولاية تاميل نادو، وهما الآن يقيمان في دلهي. كانت السيدة توماس تعمل منظفة في دار عبادة سان جوزيف وزوجها يعمل بستانياً. لأحما كانا في عقدهما الرابع وليس لهما أطفال من زواجهما، الأب تيموثي

فرانسيس، قس الأبرشية، حثهما على التفكير ملياً في التبني كي يملأ الفراغ في حياتهما. لا بل حتى وجههما إلى دار الأيتام. لا بد أن السيد توماس نظر إليّ مرةً واحدةً وفي الحال تحرك إلى الطفل التالي، إلا أن السيدة فيلومينا اختارتني لحظة رؤيتها لي. كنتُ أشبهها تماماً في بشرتها الداكنة!

أمضى السيد توماس وزوجته مدة شهرين في إنجاز المعاملات الورقية لغرض تبنيهما إياي، إنما خلال الأيام الثلاثة الأولى لأخذهما إياي إلى مسكنهما، اكتشف السيد توماس أن الفراغ في حياة زوجته قد مُلئ. ليس بواسطتي، إنما بواسطة نبيل يحمل اسم ماستان شيخ، الذي كان خياطاً للألبسة النسائية في المحلة، كان متخصصاً في خياطة التنانير القصيرة. تخلصت السيدة فيلومينا من زوجها القلدم والطفل الذي تم تبنيه حديثاً وهربت مع الخياط، إلى بهوبال، كما نقلت الأخبار. مكان وجودها مجهول حتى اليوم.

لدى اكتشافه هذا، سيطر الغضب على السيد توماس. جري في مهدي إلى منزل القس وأودعني هناك. "أيها الأب، هذا الطفل السبب الرئيس لكل المشاكل في حياتي. لقد أجبرتني على تبنيه، وأنت الآن مَنْ يقرر ماذا أفعل به". وحتى قبل أن يتمكن الأب تيموثي من أن يقول "آمين"، خرج دومينيك توماس من دار العبادة. وآخر مرة شوهد فيها كان يشتري تذكرة قطار متوجه إلى بهوبال وبين يديه رشاش. هكذا شئتُ أم أبيتُ أصبحتُ من مسؤولية الأب تيموثي. منحتني الطعام، منحتني سكناً، ومنحتني اسماً: جوزيف ميخائيل توماس. لم تكن هنالك طقوس دينية. ما من شال أبيض يُلقى عليّ. ما من شمعة تُشعل. لكنني أصبحتُ جوزيف ميخائيل توماس. على مدى ستة أيام.

في اليوم السابع، أقبل رجلان للقاء الأب تيموثي. رجل بدين يرتدي منامة كورتا⁽¹⁾ بيضاء، ورجل نحيف، ملتج يرتدي شيرواني⁽²⁾.

قال الرجل البدين: "نحن من (لجنة الأديان كلها). أنا السيد جاغديش شارما. هذا السيد عنايات هداية الله. عضو هيئتنا الثالث، السيد هارفندر سنغ، الذي يمثل السيخ، كان من المفروض أن يأتي، إلا أنه لسوء الحظ تأخر في غورودوارا. سنأتي إلى النقطة مباشرة. قيل لنا، أيها الأب، إنك منحتَ سكنًا لطفل صغير يتيم".

"أجل، والدا الطفل المسكين اللذان تبنياه اختفيا عن الأنظار، تاركين إياه في رعايتي"، قال الأب تيموثي، وهو لا يزال غير قادر على أن يفهم سبب هذه الزيارة غير المتوقعة.

"ما هو الاسم الذي أعطيته لهذا الغلام؟".

"جوزيف ميخائيل توماس".

"أليس هو اسماً مسيحياً؟".

"أجل، لكن -".

"كيف تعرف أنه مولود لأبوين مسيحيين؟".

"حسن، لا أعرف".

"إذاً لماذا منحته اسماً مسيحياً؟".

"حسن، كان لا بد لي أن أطلق عليه اسماً ما. ما هو الشيء غير

الصحيح في جوزيف ميخائيل توماس؟".

"كل شيء. ألا تعرف، أيها الأب، كم هي قوية الحركة المضادة لاعتناق دين جديد في هذه الأنحاء؟ دور عبادة عديدة أُشعلت فيها

(1) منامة كورتا Kurta pyjamas: سروال منامة مع قميص طويلة - م.

(2) شيرواني Sherwani: كساء طويل أشبه بالسترة، يُصنع عادةً من قماش سميك وله بطانة - م.

السيران من قبل الرعاع سريعي الغضب، الذين نبت في عقولهم أن التحول الجماهيري لاعتناق المسيحية كان يجري هناك".

"لكن هذا ليس تحولاً لاعتناق دين جديد".

"انظر، أيها الأب، نحن نعرف أنك لا تملك أي باعث خفي. إنما أُذيعت كلمة مفادها أنك حوّلتَ طفلاً هندوسياً إلى العقيدة المسيحية".
"لكن كيف تعرف أنه هندوسي؟".

"أنا لا أبالي بالعناصر المنحطة التي تخطط لنهب دار عبادتك غداً. لهذا السبب أتينا كي نقدّم إليك العون. كي تهدئ الأمور".

"ماذا تقترح أن أفعل؟".

"أقترح أن تغيّر اسم الغلام".

"إلى ماذا؟".

"حسن... منحه اسماً هندوسياً ربما يكون عملاً بارعاً. لم لا تسميه رام، على اسم واحد من المبجلين المفضلين؟" قال السيد شارما.

سعل السيد هداية الله برفق. "معذرةً، سيد شارما، لكن، ألسنا نستبدل شراً بشراً؟ أعني، ما هو البرهان على أن الطفل كان هندوسياً بالولادة؟ ربما كان مسلماً، كما تعرف. لماذا لا نستطيع أن نسميه محمداً؟".

ناقش السيد شارما والسيد هداية الله الحسنات الخاصة بـرام ومحمد على مدى الدقائق الثلاثين التالية. في الختام، انسحب الأب تيموثي من المسألة. "انظروا، إذا كان استبدال الاسم يبعد الرعاع عني، سأفعله حالاً. ما رأيكما إذا قبلتُ اقتراحكما معاً وغيّرتُ اسم الغلام إلى رام محمد توماس؟ هذا الحل سيرضي الجميع".

من حسن حظي أن السيد سنغ لم يأت يومذاك.

كان الأب تيموثي طويل القامة، أبيض البشرة، في منتصف عمره، وهو مرتاح جسمانياً. كان له منزل ضخم في مجمع دار العبادة، ذو بستان ممتد من دون اتساق مليء بأشجار الفاكهة. على مدى السنوات الست التالية، أصبح والدي، والدتي، سيدي، معلمي وقسي، كلها مطوية معاً. إذا كان ثمة شيء يقترب من السعادة في حياتي، فهو الزمن الذي أمضيته معه.

كان الأب تيموثي ينحدر من شمال بريطانيا، من مكان يُدعى يورك، لكنه استقر في الهند على مدى سنوات طويلة جداً. أنا مدين له بالشكر كوني تعلمتُ قراءة وكتابة إنكليزية الملكة. علمني حكايات الأم الإوزة والقصائد المقفاة لدار الحضانة. أنشد توهجي، توهجي، يا نجمة صغيرة وخا، خا، خروف أسود، بصوتي المرعب ذي الطبقة السيئة، موفراً، على ما أعتقد، للأب تيموثي تحولاً مسلياً من واجباته الكهنوتية.

كوني سكنتُ في مجمع دار العبادة، شعرتُ أنني جزء من عائلة كبيرة جداً. يمكنني في المنزل، فضلاً عن الأب تيموثي، خادمه المخلص جوزيف، وكذلك السيدة غونزالفيس، مديرة المنزل، التي كانت تسكن أيضاً في مكان قريب. ومن ثم هنالك مجموعة كاملة من أولاد الشارع المنتمين إلى السمكرين، الإسكافين، الكناسين، وغاسلي الثياب، الذين كانوا يسكنون عملياً في المنازل المتاخمة لنا ولم يكونوا يترددون عن استخدام أراضي دار العبادة لمباريات الكريكت وكرة القدم التي يمارسونها بشغف منقطع النظر. علمني الأب تيموثي وهذه العائلة الممتدة الكثير حول معظم الديانات.

هذا لا يوحى، مع ذلك، أنني كنتُ طفلاً متديناً بوضوح. كنتُ مثل أي طفل آخر، بثلاثة انشغالات كاملة: الأكل، النوم، واللعب.

أمضيتُ أوقاتاً كثيرة بعد الظهر مع أطفال الجيران ممن كانوا في سني، نمسك بالفراشات ونخيف الطيور في بستان الأب تيموثي. فيما كان جوزيف، الخادم العجوز، ينظف الغبار عن التحف في قاعة الاستقبال، أتسلل إلى الخارج وأحاول أن أقطف ثمار المانغا الناضجة، تحت العين اليقظة للبستاني. إذا قبض عليّ، سأوجه إليه سباباً سخياً بالهندية. أرقص بحماسة تحت المطر الموسمي، أحاول أن أصطاد الأسماك الصغيرة في السبرك الموحلة المتكونة من مياه المطر، وتنتهي بي الحال بالسعال والعطاس، اللذين يركز عليهما الأب تيموثي بشدة. ألعب كرة القدم مع أولاد الشارع، أعود إلى المنزل مضروباً بقوة ومرضوئاً، وبعدها أبكي طيلة الليل.

يعيش الأب تيموثي حياةً نشيطة. يذهب في جولة راجلة كل صباح، يلعب الغولف، وكرة السلة، وكرة المضرب يقرأ بشراهة ويأخذ الإجازات ثلاث مرات سنوياً كي يلتقي أمه الهرمة في إنكلترا. كان أيضاً عازف كمان ضليعاً. في معظم الأمسيات يجلس في البستان المضاء بنور القمر ويعزف أكثر الألحان عاطفية التي يمكن أن نخطر ببالك. وحين تمطر السماء ليلاً خلال الفصل الذي تهب فيه الرياح الموسمية، يدور في خلدي أن السماء تبكي بسبب سماعها لألحانه الحزينة.

استمتعتُ بالذهاب إلى دار العبادة. كانت بنايةً قديمةً شُيّدت سنة 1878، ذات نوافذ بزجاج مطلي وسقف مذهل مصنوع من الخشب. كانت مصاطب دار العبادة مصنوعة من خشب الساج، إلا أنها تكون مملوءة فقط في أيام الآحاد. يلقي الأب تيموثي موعظةً طويلةً من المنبر، خلالها يغلبني النعاس، وأستيقظ فقط حين يعطي للجميع رقايات الخبز المدوّرة. استمتعتُ أيضاً بسماع الأورغن وجوقة المرتلين. وقعتُ في غرام أعراس دار العبادة، التي تقام في الفصول كلها. أنتظر الأب

تيموثي كي يقول، "وعليك الآن أن تقبل العروس". وكنت دوماً أول من ينثر قصاصات الورق الملون في احتفالات الأعراس.

لم تكن علاقتي بالأب تيموثي محددةً بدقة. لم تكن توضح لي ما إذا كنتُ خادماً أم ابناً، طفلياً أم طفلاً مدلاً. لذا خلال السنوات القليلة الأولى من حياتي، عشتُ في وهم سعيد أن الأب تيموثي هو والدي الحقيقي. لكنني رويداً رويداً بدأتُ أدرك أن ثمة شيئاً غير صحيح. لسبب واحد، هو أن كل أولئك الذين يأتون إلى الاحتفال الديني في صباحات الأحد يسمونه الأب، وقد توهمتُ أنه والد أشخاص كثيرين، وأن لي إخوة كثيرين وأخوات كثيرات، كلهم أكبر مني سنّاً. كنتُ حائراً أيضاً بالحقيقة التي مفادها أنه أبيض البشرة وأنا لست كذلك. لذا سألته ذات يوم، فهشم عالم الفانتازيا الذي سكنتُ فيه حتى ذلك الوقت. بأكثر الطرائق وداعةً قدر الإمكان، شرح لي أنني طفل يتيم تركتني أمي في صندوق الثياب العائد لدار أيتام، ولهذا السبب كان هو أبيض البشرة وأنا لست كذلك. حينذاك، لأول مرة، فهمتُ الفارق بين الوالد والقس. في تلك الليلة، لأول مرة، لم تكن دموعي ناجمة عن الألم الجسدي.

ما إن فهمتُ فهماً جيداً الحقيقة التي مفادها أنني لا أملك صلة بيولوجية بالأب تيموثي وأنني كنتُ أقيم في دار العبادة فقط بفضل سخائه، قررتُ أن أرد، على الأقل جزئياً، الدين الذي كنتُ مديناً له به. بدأتُ أقوم بأعمال روتينية صغيرة له، من مثل أخذ الملابس من سلة الملابس المعدة للغسل إلى الغسالة. أجلس أمام الغسالة، أشاهد الأسطوانة تدور وتدور مسائلاً نفسي كيف تخرج الثياب نظيفةً بصورة فاتنة جداً. ذات مرة وضعتُ أيضاً بعض الكتب المكسوة بالغبار داخل

الغسالة. أغسل الأطباق في مغسلة المطبخ. أكرس صحنون الخزف الصيني الرقيقة. أقطع الخضار. وذات مرة كدتُ أقطع إصبعي.

قدّمني الأب تيموثي إلى كثير من أبناء رعيته. التقيتُ السيدة العجوز بيندكت، التي كانت تأتي بورع إلى الاحتفال الديني يومياً، تأتي في البرد أو المطر، إلى أن زلت قدمها ذات يوم على الرصيف، وماتت من جراء ذات الرئة. حضرتُ عرس جيسيكّا، التي بكت بكاءً مُراً لدى إصابة والدها بنوبة قلبية. أخذوني يوماً ما إلى حفلة شاي مرحة في منزل الكولونيل ووغ، الذي كان ملحق الدفاع الأسترالي في دلهي والذي بدا أنه يتكلم مع الأب تيموثي بلغة مختلفة كلياً. ذهبتُ في رحلة لصيد السمك مع السيد لورنس، الذي لم يتمكن من اصطيد سمكة واحدة، فما كان منه إلا أن قصد سوق السمك ليشتري سمكة سلمون مرقطة كبيرة كي يخدع زوجته.

كل الناس الذين التقيتهم لم يتحدثوا عن الأب تيموثي إلا بالمديح. قالوا إنه أفضل قس تولى هذه الرعية حتى الآن. رأيته يريح المحرومين، يزور المعلولين، يزود المحتاجين بالمال ويتقاسم وجبة الطعام حتى مع المصابين بالجذام. كان يتسم بوجه كل عضو من أعضاء الرعية، وكان له علاج لكل مشكلة.

اليوم هو الأحد ودار العبادة مكتظة بالناس الذين تجمعوا من أجل الاحتفال الديني. إنما اليوم الأب تيموثي لا يقف وحده خلف المنبر. هنالك رجل آخر معه، يرتدي أيضاً غفارةً ويضع طوقاً أبيض في رقبته. يبدو أشبه بملاككم أكثر مما هو قس. الأب تيموثي يقدمه إلينا. "... وإنما لسعادة كبرى لنا أن نرحب بالأب جون لتل، الذي انضم إلى دار عبادة جوزيف، بوصفه قساً مرافقاً. الأب جون، كما يمكننا أن نروا،

أصغر مني سنًا بكثير، ومع أنه عُيِّن منذ ثلاث سنوات لا غير، إلا أنه واسع الخبرة. إنني متيقن من أنه سيكون قادراً على إقامة علاقة مؤثرة جداً مع المؤمنين الأصغر سنًا، الذين، أنا عارف جداً، يشيرون إليّ خفيةً بكوني ذلك الرجعي العجوز". يضحك الرعايا ضحكات نصف مكتوبة.

ذلك المساء، دعى الأب تيموثي الأب جون إلى تناول طعام العشاء. كان من المفترض أن يقدم إليهما جوزيف الطعام والشراب، إنما بسبب حماسي في أن أترك انطباعاً جيداً لدى الأب تيموثي، ألتقط طاسة الحساء الثقيلة من المطبخ، وأسير بخطوات غير ثابتة صوب مائدة الطعام. كما هو متوقع من طفل في السابعة من عمره، بدلاً من أن أودع طاسة الحساء على المائدة، سفحته كله على الأب جون. فحض بسرعة، وأولى الكلمات التي نطق بها هي: "يا للخراب اللعين!" يرفع الأب تيموثي حاجبه، إنما لا يقول أي شيء.

بعد ذلك بثلاثة أيام، يذهب الأب تيموثي إلى بريطانيا في إجازة، تاركاً دار العبادة، وأنا، في رعاية الأب جون. ألتقيه بعدها بيومين وهو ينزل درجات سلم دار العبادة.

أقول بأدب: "مساء الخير، أيها الأب".

يستطلع إليّ الأب جون بازدراء. "أنتَ ذلك الصبي اليتيم الذي سفح الحساء عليّ يومذاك! خير لك أن تتأدب في غياب الأب تيموثي. سأراقبك عن كثب."

أرسلني جوزيف مع كأس حليب إلى حجرة الأب جون. كان يشاهد فيلماً سينمائياً يُعرض في التلفاز. دعاني إلى الدخول. "تعال، توماس. هل تريد أن تشاهد هذا الفيلم معي؟" أنظر إلى التلفاز. إنه فيلم

إنكليزي - عن القساوسة، على ما أعتقد، لأنني أرى قساً يرتدي غفارة سوداء يتحدث إلى قس آخر بغفارة بيضاء. شعرت بالارتياح لأن الأب جون مولع بمشاهدة الأفلام الدينية، الجيدة. إلا أن المشهد التالي تحديداً يجعل القشعريرة تسري في عمودي الفقري، لأنه يعرض فتاة صغيرة، في عمري تقريباً، تجلس على سرير ما. لم تكن تبدو فتاة طبيعية، لأنها تملك تعبيراً مضحكاً على محياها وكانت عيناها تفتشان المكان. يدخل القس ذو الغفارة السوداء حجرها حاملاً شيئاً في يده. يوجهه نحوها، وتشرع هي في التحدث بلغة فاحشة جداً لم أسمع مثيلاً لها من قبل، وكان ذلك أيضاً بصوت أحش لشخص بالغ. وضعت إصبعي في أذني، لأن الأب تيموثي علمني ألا أصغي إلى كلمات بذية كهذه. فجأة تتوقف عن الكلام. تبدأ بالقهقهة، كفتاة معتوهة. بعدها تفتح فمها فتنبجس منه مادة مرعبة، خضراء ولزجة كنافورة ماء من أنبوب حديقة وتقط على القس. شعرت بالرغبة في التقيؤ. لم أستطع مشاهدة المزيد من الفيلم فهرولت نازلاً درجات السلم متوجهاً إلى حجرتي. أسمع الأب جون يضحك مطلقاً صرخة طويلة حادة. يصيح: "ارجع، أيها الغلام اليتيم الأبله".

تلك الليلة أرى كوايس.

بعدها بثلاثة أيام أخرج للتسوق مع جوزيف. نشترى اللحم، والبيض، والخضار، والطحين. فيما كنا عائدتين إلى دار العبادة في ساعة متأخرة من المساء، أسمع صوت دراجة بخارية ورائي. قبل أن أتمكن من النظر إلى الخلف، يكون راكب الدراجة البخارية فوقنا. ضربني على رأسي وانطلق بدراجته التي أحدثت أثراً صارخاً، رافعة ذيلاً من الغبار. ألمح ظهره فقط. يبدو رجلاً قوي البنية يرتدي سترة جلد وسروالاً

أسود ضيقاً، مع رجل ذي زي مشابه على المقعد الخلفي. أسائل نفسي من هو راكب الدراجة البخارية ولماذا ضربني على رأسي. لم يخطر ببالي أنه ربما يكون الأب جون. على كل حال، أنا مجرد غلام يتيم أبله.

بعد مرور أسبوع، وجب عليّ أن أسلم بعض الرسائل البريدية للأب جون، غير أنه كان يستحم. "اترك البريد على الطاولة"، يصيح من حجرة الحمام. كنتُ أهم بمغادرة الغرفة حين لحتُ شيئاً ما يبرز من تحت فراشه. نظرتُ عن كثب. كان ذلك الشيء مجلّة. سحبتها. ومن ثم وجدتُ مجموعة كاملة منها تحت الفراش. لم تكن المجلات سميكة جداً إلا أنها ذات أغلفة صقيلة وجميلة. كانت لها عناوين غريبة إلا أن الرجال الظاهرين على أغلفتها لا يبدون سعداء جداً ومرحين. كانوا جميعاً كثيفي الشعر وعراة. بسرعة أعيد المجلات إلى مكانها تحت الفراش. كنتُ على وشك أن أخرج حين ظهر الأب جون من حجرة الحمام. كان يلف منشفةً حول صدره. إلا أن صدره مكسو بتخطيطات غريبة بالحرير الأسود وهنالك ثعابين مرسومة على ذراعيه. "ما الذي تفعله هنا؟" يحذرنني. "انصرف!".

لماذا يملك الأب جون كل هذه التصميمات الغريبة على جسده ويحفظ تلك المجلات الغريبة تحت سريره، لا أدري. أنا مجرد غلام يتيم أبله.

في كثير من الأحيان أرى أشخاصاً يافعين غربيي المظهر يدخلون دار العبادة ليلاً ويذهبون إلى حجرة الأب جون. اعتاد الزائرون أن يأتوا للقاء الأب تيموثي كذلك، غالباً في ساعات غريبة

من الليل، إلا أنهم لم يكونوا يأتون بواسطة الدراجات البخارية ويلبسون السترات ويضعون السلاسل المعدنية السميكة حول أعناقهم. أقرر أن أتابع واحداً من هؤلاء الزائرين إلى حجرة الأب جون. يقرع الباب، ويدخل، ويغلق الأب جون الباب. أختلس النظر عبر ثقب المفتاح الصغير. أعرف أنني أفعل شيئاً سيئاً جداً، إلا أن فضولي يقتلني. عبر ثقب المفتاح أرى الأب جون والشاب المكسو بالجلد يجلسان على السرير. يفتح الأب جون درجه ويخرج علبةً بلاستيكيةً، في داخلها مسحوق أبيض. ينشر المسحوق في خط رفيع على قفا كفه اليسرى. ثم يفعل الشيء نفسه على قفا كف صديقه. كل منهما يحني وجهه نحو المسحوق ويستنشق بعمق. يبدو أن المسحوق الأبيض يتلاشى في أنفيهما. يضحك جون، كنتك الفتاة المجنونة في الفيلم. يقول صديقه: "هذه مادة جيدة، يا رجل! إنها طريقة مفيدة جداً لقس. كيف استطعت أن تدخل إلى دار العبادة هذه أولاً؟".

يضحك الأب جون مجدداً. "لقد أحببتُ الرداء"، يقول، ويقوم من السرير. "تعال"، يقول لصديقه ويمد يده. أراجع بسرعة. لماذا يضع الأب جون مسحوق الطلق⁽¹⁾ في أنفه، لا أدري. غير أنني يومذاك كنتُ مجرد غلام يتيم أبله.

يعود الأب تيموثي أخيراً من إجازته في إنكلترا وأنا مسرور برؤيته من جديد. أنا متأكد إلى حدٍّ ما أنه سمع كثيراً من الشكاوى حول الأب جون، لأنه خلال اليومين اللذين أعقبا عودته كان هنالك خلاف كبير بينهما في حجرة المكتب. يخرج الأب جون من الغرفة في نوبة غضب.

(1) مسحوق الطلق talcum powder: مسحوق للتجميل مؤلف من طلق معطر - م.

انتهى الفصح. أكلت كل بيضات الفصح العائدة إليّ. وتضحك السيدة غونزالفيس، مدبرة المنزل، ضحكات نصف مكبوتة. أسألها: "ما الخطب، سيدة غونزالفيس؟".

تمس بصورة جريئة: "ألا تعرف؟ جوزيف ضبط الأب جون في دار العبادة مع رجل آخر. إنما لا تخبر أحداً، ولا تمس بكلمة للأب تيموثي، خلاف ذلك سترتب علينا أن ندفع ثمناً غالياً".

لا أفهم. ما هو الخطأ في كون الأب جون مع رجل آخر في دار العبادة؟ طيلة الوقت يكون الأب تيموثي مع رجال آخرين في دار العبادة. مثل تلك المرات حينما يصغي للاعترافات.

اليوم، لأول مرة، أنا في صندوق الاعتراف. يسألني الأب تيموثي: "نعم، ابني، ما الذي جئت لتخبرني به؟".

"إنه أنا، أيها الأب".

يكاد الأب تيموثي يقفز عن كرسيه. "ما الذي تفعله هنا، توماس، ألم أخبرك أن هذه ليست مسألة بسيطة؟".

"أتيت للاعتراف، أيها الأب، اقترفتُ إثماً".

"حقيقة؟" يلين الأب تيموثي. "ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟".

"اختلستُ النظر إلى داخل غرفة الأب جون عبر ثقب المفتاح. ونظرتُ إلى بعض حاجياته من دون موافقته".

"ابني، ذلك شيء جيد جداً. لا أعتقد أنني أريد سماع ذلك".

"كلا، يلزمك أن تسمع، أيها الأب"، أقول وأتابع حديثي كي أخبره بما يتعلق بالمجلات المخبأة تحت الفراش، بالتصاميم المرسومة على الجسد، بزائري الليل الذين يلبسون الجلد، ومسحوق الطلق.

في ذلك المساء يكون أصل كل المكاشفات في حجرة المكتب بين القسين. أرهف السمع عند الباب. ثم صياح كثير. ينهي الأب تيموثي النقاش بالتهديد بالتبليغ عن الأب جون إلى المطران. يقول: "أنا قس، وكى تكون قساً، يجب عليك أن تحمل عبئاً ثقيلاً. إذا لم يكن في وسعك أن تفعل هذا، إذاً ارجع إلى المعهد".

جاء إلى دار العبادة هذا الصباح حمال إنكليزي كان ماراً عبر دلي واكتشف الأب تيموثي أنه أيضاً ينحدر من يورك. لذا أتى به إلى المنزل، وسمح له بالبقاء أياماً معدودة. يقدمه إلي: "إيان، التقى توماس، الذي يقيم معنا هنا. توماس، هذا إيان. هل تعرف إنه أيضاً ينحدر من يورك؟ أنت تسألني دوماً عن مدينة أمي؛ الآن يمكنك أن تسأله". أحب إيان. هو في الخامسة أو السادسة عشرة. له بشرة صافية، عينان زرقاوان وشعر ذهبي. يريني صور يورك. أرى دار عبادتها الكبيرة. يقول: "تسمى يورك منستر". يريني صور حدائق، ومتاحف، ومتنزهات تسر العين وتخلب اللب. أ طرح عليه سؤالاً: "هل التقيت أم الأب تيموثي؟ إنها تقيم في يورك أيضاً".

"كلا، لكنني سألتقيها بعد عودتي، الآن عنوانها بحوزتي".
 "ماذا عن أمك؟ هل هي تقيم في يورك كذلك؟".
 "اعتادت أن تقيم هناك. لكنها توفيت قبل تسع سنوات مضت. دهسها راكب دراجة بخارية". يُخرج صورة أمه من محفظة الجيب خاصته ويريني إياها. كانت ذات بشرة صافية، وعينين زرقاوين وشعر ذهبي.
 أسأله: "لم آتيت إذاً إلى الهند؟".
 "كى ألتقي والدي".

"ما هي مهنة والدك؟".
 "يتردد إيان. إنه يدرس في مدرسة دهرادون".
 "لماذا لا تسكن أنت أيضاً في دهرادون؟".
 "لأنني أتابع دراستي في يورك".
 "إذاً لماذا لا يقيم والدك معك في يورك؟".
 "ثمة أسباب. لكنه يأتي لزيارتي ثلاث مرات سنوياً. هذه المرة قررت أن ألتقيه في الهند".
 "هل تحب والدك؟".
 "نعم، حباً جماً".
 "هل تتمنى أن يبقى معك والدك إلى الأبد؟".
 "أجل. ماذا عن والدك أنت؟ ما هي مهنته؟".
 "ليس لي والد. أنا غلام يتيم أبله".

بعدها بثلاث أمسيات، دعى الأب تيموثي الأب جون لتناول العشاء مع إيان. يأكلون ويتحدثون حتى ساعة متأخرة من الليل والأب جون يعزف على كمانه. يغادر الأب جون بعد منتصف الليل بمدة ما، إلا أن الأب تيموثي وإيان يتابعان التكلم من دون كلفة. أستلقي على السرير أرهف السمع لصوت الضحك الذي يندفع عبر النافذة المفتوحة. يصيبي الأرق.

هي ليلة مضاءة بنور القمر، وحب ريح شديدة. تتمايل أشجار الأوكاليبتوس وتحدث أوراقها ضجةً مخشخةً. أشعر بالرغبة في الذهاب إلى الحمام، وأنفض من فراشي. فيما أسير صوب الحمام، أرى ضوءاً داخل حجرة الأب جون. أسمع كذلك أصواتاً. أسير على أطراف أصابعي إلى الباب. إنه مغلق، لذا أختلس النظر عبر ثقب

الباب. ما رأيته في الداخل يزرع الخوف في نفس المرء. إيان يحدودب على الطاولة والأب جون ينحني فوقه. هوث منامته إلى قدميه. كنت مضطرباً تماماً. ربما أكون غلاماً يتيماً أبله، لكنني أعرف أن ثمة شيئاً غير صحيح. أهرع إلى الأب تيموثي، وهو سريع النوم. أهتف: "استيقظ، أيها الأب! الأب جون يفعل شيئاً سيئاً لإيان!".

"لن؟ لإيان". في الحال يغدو الأب تيموثي يقظاً. يهرع كلانا إلى حجرة الأب جون ويقتحمها الأب تيموثي. يرى ما رأيته توأ. يغدو وجهه شديد الشحوب، في اعتقادي أنه يكاد يفقد وعيه. يتشبث بالباب كي يمنع نفسه من الانهيار. ثم يصبح وجهه أحمر من جراء الغضب. يكاد يزيد من فمه. أنا خائف. لم أره غاضباً هكذا من قبل. يردد قائلاً: "إيان، اذهب إلى حجرتك. وأنت أيضاً، توماس". فعلت ما أخبرني به؛ كنت حتى أكثر اضطراباً من قبل.

أفئق من نومي مبكراً صباح اليوم التالي على صوتين مدويين، آتئين من جهة دار العبادة. أحسستُ حالاً أن ثمة شيئاً غير صحيح. هرعتُ إلى دار العبادة ورأيتُ مشهداً هزني من الأعماق. الأب تيموثي يرقد في بركة من الدم يرتدي غفارته ويبدو أنه يركع. على مبعدة عشر خطوات عنه يرقد جسد الأب جون مبقعاً بالدم. يبدو أن رأسه قد هُشم وقطع صغيرة من مخه تلتصق بالمصاطب. هو يرتدي الجلد. ثمة صور لثعابين داكنة على ذراعيه. يقبض على رشاش بيده اليمنى. أرى المشهد، وأشعر أن النفس يختنق خارج رئتي. أصرخ. إنها صرخة حادة، تهشم سكون الصباح كعيار ناري. صرخة تخيف الغربان الجالسة على أشجار الأوكالبتوس. صرخة تجعل جوزيف، الذي ينفض الغبار عن التحف في قاعة الاستقبال، يتوقف عن العمل ويصيح السمع.

صرخة ترغم السيدة غونزالفيس على أن تنهي استحمامها بسرعة. وتوقف إيان، الذي يأتي راكضاً إلى دار العبادة.

أنا منحنٍ على الأب تيموثي، أنتحب كما ينتحب صبي في سن الثامنة حين يفقد كل شيء في حياته. يأتي إيان، ويجلس إلى جانبي. ينظر إلى جثة الأب تيموثي الهامدة، ويبدأ في البكاء أيضاً. نشبك أيدسينا، ونبكي معاً على مدى ثلاث ساعات تقريباً، حتى بعد مجيء سيارة الشرطة الجيب ذات الضوء الأحمر الوامض، حتى بعد وصول الطبيب ذي المعطف الأبيض مع سيارة الإسعاف، حتى بعد أن غطوا الجثتين بقماش أبيض، حتى بعد أن حملوهما إلى سيارة الإسعاف، حتى بعد أن أخذنا جوزيف والسيدة غونزالفيس إلى المنزل وبذلا كل ما في وسعهما كي يواسيانا نحن الاثنين.

بعدها، بعدها بوقت طويل، يسألني إيان: "توماس، لماذا تبكي كثيراً جداً؟".

أجيبه: "لأنني اليوم حقيقةً أصبحتُ يتيماً. كان والدي، مثلما كان أباً لكل أولئك الذين جاؤوا إلى دار العبادة هذه. إنما لماذا كنتُ تبكي؟ هل بسبب ما فعلته مع الأب جون؟".

"كلا، كنتُ أبكي لأنني فقدتُ كل شيء أيضاً. أصبحتُ يتيماً مثلك".

أصرخ: "لكن والدك لا يزال حياً. إنه يقيم في دهرادون".
"كلا، كانت تلك كذبة". يشرع بالنحيب مجدداً. "الآن أستطيع أن أخبرك الحقيقة. كان تيموثي فرانسيس والدي".

يظهر على وجه سميتا تعبير حزين. تقول: "يا لها من قصة تراجيدية. الآن فهمتُ ماذا كان الأب تيموثي يعني حين تكلم عن

عبء القس، أي قس. إنه شيء مذهل كيف عاش حياةً مزدوجةً طيلة تلك السنوات كلها، بوصفه قساً وكان كذلك رجلاً متزوجاً ووالداً. إذاً ماذا جرى لإيان في نهاية المطاف؟".

"لا أدري. عاد إلى بريطانيا. إلى أحد أعمامه، على ما أعتقد."
"وأنت؟".

"أرسلوني إلى ملجأ للأحداث."
"فهمت. الآن احكي لي عن السؤال الثاني"، تقول سميتا وتضغط زر التشغيل على جهاز التحكم عن بعد.

لا نزال في الفاصل الإعلاني.

يميل بريم كومار إلى الأمام ويهمس لي: "دعني أقول لك ماذا سيكون السؤال التالي. سأسألك إلى ماذا ترمز أف بي آي. لا بد أنك سمعتَ بهذه المنظمة، أليس كذلك؟".
"كلا". أهز رأسي نفيًا.

يتسم ابتسامة عريضة. "عرفتُ ذلك. انظر، نحن نريد أن تربح على الأقل مزيداً من المال. يمكنني أن أغَيّر السؤال إلى شيء آخر. قل لي بسرعة، هل ثمة أي اختصارات ماثلة أنتَ مطلع عليها اطلاعاً حسناً؟".

أفكر للحظة قبل أن أجيب. "لا أعرف ما يتعلق بالأف بي آي، لكنني أعرف ما يتعلق INRI".
"ما هو ذلك؟".

"إنه ما مكتوب على قمة الصليب، أي صليب".
"أو! جيد، دعني أدقق في بنك المعلومات خاصتي".
ينتهي الفاصل الإعلاني. يأتي اللحن الخاص بالبرنامج.

يلتفت إليّ بريم كومار. "أنا فضولي، سيد رام محمد توماس، في ما يتعلق بدينك. يبدو أنك تملك الأديان كلها في اسمك. قل لي، إلى أين تذهب كي تؤدي صلاتك؟".

"هل يجب على المرء أن يقصد مكاناً محدداً كي يؤدي الصلاة؟".
 "أحسنتَ قولاً، سيد توماس. ما هي سلسلة الحروف المنقوشة بصورة اعتيادية على الرمز الديني للنصارى؟ هل هي (أ) IRNI، (ب) INRI، (ج) RINI أم (د) NIRI؟ هل السؤال واضح، سيد توماس؟".

أرد: "نعم".

"جيد. إذاً دعنا نسمع جوابك".

"الجواب هو (ب). INRI".

"هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

ثمة تصعيد لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"تماماً، صحيح مائة بالمائة! ربحتَ ألفي روبية".

أقول: "آمين".



5,000

وعد أخ

عليك أن تلقي نظرة جيدة على كل جوانب القضية، أي قضية، قبل أن تتخذ قراراً. أبعد شيئاً ما في حالة الطوارئ. سيجلب لك جيران جدد ابتهاجاً جيداً. ربما تحدث مشكلة صغيرة في أساس البيت، لكنك ستحلها بسرعة وبصورة صائبة. لا تقدّم نصيحة ذكية ما لم يُطلب منك حقيقة أن تدلي بها.

هذا ما توقعت به خريطة الأبراج اليومية في مهاراشترا تايمز اليوم لأصحاب برج الجدي من أمثالي، المولودين في الأسبوع الأخير من كانون الأول.

لا أطلع المهاراشترا تايمز. في الحقيقة، أنا لا أطلع أي صحيفة من الصحف. لكنني غالباً أختلس نسخة من صندوق النفايات العائد إلى السيد بارفي. إنها مفيدة لإشعال النار في المطبخ، وأحياناً، حينما لا يكون عندي شيء آخر أفعله، أقلب صفحاتها كنوع من تمضية الوقت قبل أن تتحول إلى رماد.

أنا أيضاً لا أعتقد بخرائط الأبراج. لو فعلت ذلك، لكنت الآن في

عداد الأموات، كما حصل بحسب التوقع الذي قام به الأستاذ راماشانكار شاستري. إلا أن خارطة الأبراج اليومية لهذا اليوم يبدو أنها تحتوي على جوهر الحقيقة، أي حقيقة. انتقل جيران جدد إلى الغرفة المتاخمة وكانت هنالك حقيقةً مشكلة صغيرة في أساس البيت.

كنا عائدين تَوّاً من عرض سينمائي فهارى في ريغال تولىكر، وكان سالم في حالة غضب أعمى. يمزق كل ملصقات أرمان علي التي زينت جدران حجرتنا الصغيرة طيلة ثلاث سنوات تقريباً. مُزق ملصق أرمان علي وهو يرتدي سترة الجلد إلى قطع صغيرة. شُوِه ملصق أرمان وهو يركب دراجة بخارية بواسطة سكين. ملصق أرمان نازعاً قميصه، مُعْرِياً صدره كث الشعر، ملقى الآن في صندوق النفايات. أرمان مع المسدس قُطع إلى قطع صغيرة، وتم شوي أرمان وحصانه كليهما على النار. مع زوال الملصقات كلها، فجأةً تبدو غرفتنا، بسريرين فقط، أكثر عُرياً من قبل، أما بقع العفن الفطري على الجدران المبيضة بماء الكلس فلم تعد مخفيةً عن الأنظار.

بالرغم من التحذير في خارطة الأبراج اليومية، لا أستطيع أن أمنع نفسي من تقديم نصيحة ذكية إلى سالم. "هل تدرك الآن الحقيقة التي أخبرتك بها قبل تسعة شهور خلت، حين كنت منشغلاً بمحاولة إصلاح علاقة أرمان بأورفاشي؟ قلتُ لك لا تدس أنفك في شؤون الناس الآخرين، أو أن تجعل مشاكل الناس الآخرين مشاكلك. تذكر هذا كدرس للمستقبل".

يسمعني سالم بكآبة وتجهم فيما هو يدوس بقوة على ملصق أرمان في حوض سباحة، محاطاً بمجموعة من الحسناوات.

أسمع وقع أقدام وأصوات خارج الحجرة. يبدو أن النزلاء الجدد ينتقلون أخيراً إلى الغرفة الملاصقة لنا. أنا سعيد. إنه شيء جيد دوماً أن

تلتقي أشخاصاً جددًا. أتمنى أن يكون للنزلاء الجدد صبيان في سني. بوتول ودهيانيش رفيقان جيدان، إلا أنهما نادراً ما يأخذان الإذن من والديهما كي يأتيا ويلعبا معي في أيام الآحاد، فهو اليوم الوحيد الذي لا أذهب فيه إلى العمل. أجاي، المتباهي، هو الآخر يحطّم أعصابي. ضحك عليّ أمام كل سكان المبنى حين أخبرته أنني التحقتُ بمسبك. أعرف أن العمل في مسبك لا يبلغ نصف إثارة العمل كنجم سينمائي، لكنه على الأقل أفضل من الجلوس في الشارع.

بعد الوقت الذي أمضيته مع الممثلة نيلما كوماري، مقيماً في شقتها، نسيتُ تقريباً الحياة في المبنى السكني. حزمة من الشقق ذات الغرفة الواحدة يشغلها أناس من أدنى الطبقات الوسطى، المباني السكنية هي إبط مومباي كرية الرائحة. أولئك الذين يقيمون هنا هم فقط هامشياً أفضل من أولئك الساكنين في أحياء الفقراء مثل دهارافي. كما أخبرني السيد بارفي ذات مرة، أن الأثرياء، أولئك الذين يسكنون في شققهم الرخامية والجرانيتية ذات غرف النوم الأربع، يتمتعون. أما الفقراء، الذين يسكنون في أكواخٍ قذرة، خربة، فهم يتعذبون. ونحن، الذين نقيم في المباني السكنية المزدهمة أكثر مما ينبغي، نحن ببساطة نحيا. الإقامة في مبنى سكني لها حسنات معينة. ما جرى لنيلما كوماري لن يحدث هنا، لأنه في المبنى السكني، أي مبنى سكني، الجميع يعرفون كل ما يجري. المقيمون كلهم يملكون سقفاً مشتركاً فوق رؤوسهم ومكاناً مشتركاً يذهبون إليه للتغوط والاستحمام. المقيمون في المبنى السكني ربما لا يلتقون أحدهم الآخر في مناسبات اجتماعية، لكنهم يجب أن يلتقوا فيما هم يقفون في طابور خارج المراحيض العمومية. في الحقيقة، إنها محض إشاعة أن السيد غوخالي التقى السيدة

غوخال فيما كان ينتظر خارج المرحاض ووقع في حبها. تزوجا في غضون شهر.

لم تكن ثمة فرصة لوقوعي في غرام أي فتاة في المبنى السكني. كن جميعهن بدينات وقبيحات، ولم يكن يشبهن حتى ولو من بعيد ممثلي الأثيرة، برياً كابور. فضلاً عن ذلك، إنهن أشبه بأشياء غبية كالدمى ولا يستطعن أن يلعبن أي ألعاب جديرة بالاحترام كالملاكمة والكابادي⁽¹⁾. حتى أنا لم يكن لديّ متسع من الوقت كي أمارس هذه الألعاب. أعمل طيلة النهار في سبك المعادن، أعود فقط في السادسة مساءً. إن صهر المعادن مهنة عسيرة جداً. الحديد المصهور يخنقك برائحته، وتُعمى عينك في كثير من الأحيان من جراء ألسنة اللهب البرتقالية الساطعة.

"توماس!"، أسمع صوتاً. يناديني السيد راماشانكار، المكلف بإدارة المبنى السكني. إنه رجل مهم جداً. نقصد السيد راماشانكار حين ينطفئ المصباح الكهربائي أو حين ينخفض ضغط الماء. نتوسل إلى السيد راماشانكار حين لا يكون بحوزتنا المبلغ الكافي لتسديد أجر السكن الشهري. نكون وراء السيد راماشانكار كي يصلح جزءاً من درابزين الطبقة الأولى الخشبي الذي أصبح ضعيفاً ومتمايلاً وفي وضع يعرّض فيه السلامة للخطر.

أخرجُ من الحجرة وأشهد السيد راماشانكار واقفاً مع رجل قصير القامة، متوسط العمر، يقطب جبينه ويبدو كما لو أنه لم يذهب إلى دورة المياه منذ مدة طويلة. "توماس، التقى السيد شانتارام. إنه

(1) الكابادي Kabaddi: لعبة يشارك فيها فريقان، كل منهما مؤلف من سبعة أعضاء. الفريقان يحتلان نصفين متقابلين من الملعب، ويتبادلان إرسال (مغير) إلى النصف الثاني، كي يكسب النقاط من خلال مطاردة أو مصارعة أعضاء من الفريق الآخر، بعدها يحاول العودة إلى نصفه الخاص، حابساً أنفاسه طول الغارة - م.

نـزـيـلـنـا الجـديـد، الـذي سـيـمـكـث في الشـقـة الـمـتـاخـمة لـشـقـتـك. أـخـبـرت الـسـيـد شـانـتـارام أنـك غـلام جـد مـوـثـوق بـه، لـذا مـن فـضـلك سـاعـده و سـاعـد زـوجـته و ابنته عـلى الـاسـتـقـرار في الشـقـة. جـيـد، سـيـد شـانـتـارام، الـآن أـسـتـأذـنـك في الـانـصـراف".

أفكر: "أوه، لا. لـيـس ثـمـة غـلـمـان". أـحـاول أن أرى زـوجـته و ابنته، لـكنـي لا أـحـصـل إلـا عـلى نـظـرة خـاطـفـة لـامـرأة ذات شـعر أشـيـب، و فـتـاة، تـكـبـرنـي سـنـاً، ذات شـعر أسـود طـويل مـربـوط مـن الخـلف، جـالـسـتـين عـلى الـسـرير. يـرايـي شـانـتـارام أـخـتـلس النـظر إلـى شـقـته، فيغـلق الباب الأمامي بـسـرعة.

أسأل شانتارام: "ما مهنتك؟".

"أنا عالم، عالم فضاء. لن تفهم. لكنني هذه الأيام في إجازة. أعمل حالياً بصفة مدير المبيعات في صالة عرض فيمال. حجري هذه ترتيب مؤقت جداً. سننتقل إلى شقة فاخرة في ناريمان بوينت في وقت قريب جداً".

أعرف أن السيد شانتارام يكذب. من يستطيع الإقامة في ناريمان بوينت لا يستوطن في المباني السكنية، ولا حتى مؤقتاً.

جدران الغرفة داخل المبنى السكني رقيقة جداً. إذا وضعت أذنك على الجدار المشترك وركزت بقوة، أو بالأحرى، إذا وضعت كوباً مقلوباً على الجدار، ووضعت أذنك عليها، يمكنك أن تسمع تقريباً كل ما يجري في الحجرة المتاخمة. سالم وأنا نفعل هذا في كثير من الأحيان مع جيراننا من ناحية اليسار، الذين تلاصق حجرهم مطبخنا. السيد والسيدة بابات لم يعودا ثنائياً شاباً. كانت هنالك إشاعة مفادها أن السيد بابات يضرب السيدة بابات، إلا أنهما بصورة واضحة يتصالحان

ليلاً لأن سالم وأنا نسمع في كثير من الأحيان أنفاسهما الثقيلة ولهائهما، نسمع آهاتهما، فنضحك ضحكات نصف مكبوتة. أثبتت كوباً فولاذياً على الجدار الملاصق لحجرة السيد شانتارام، وأدفن أذني فيه، يمكنني سماع شانتارام يتكلم.

"هذا المكان ليس أقل من جحر أسود. إن المكوث هنا شيء دون مستوى كرامتي تماماً، إنما من أجلكما أتما الاثنتين. سأتحمل هذا الإذلال إلى أن أحصل على مهنة مناسبة. اسمعاً، لا أريد أن يدخل أي غلام من غلمان الشارع إلى المنزل. الله أعلم من أي جحور حقيرة أقبلوا. ثمة اثنان منهم يتأحماننا. وضعان في أعلى مرتبة، على ما أعتقد. غوديا، إذا ضبطتك تتكلمين مع أي صبي في المبنى السكني، ستتلقين جلداً بجزامي الجلد، فهمت؟" يصرخ. أسقط الكوب مذعوراً.

على مدى الأسبوعين التاليين، نادراً ما أرى شانتارام ولم أرَ كذلك زوجته أو ابنته. أغلب الظن تذهب إلى الكلية يومياً، إنما في الوقت الذي أعود فيه إلى البيت من المسبك، تكون هي في الداخل والباب دوماً مغلق بقوة.

سالم حتى لم يلاحظ أنه كان لنا جيران جدد. فقلما يكون لديه أي وقت فراغ من عمله كغلام مُسلم لوجبة الغداء. يستيقظ عند السابعة صباحاً ويرتدي ثيابه. يلبس قميصاً أبيض محلولاً، منامة قطنية ويعتمر قبعة نهر ببيضاء على رأسه؛ القبعة هي شارة التعريف المميزة لموزعي وجبة الغداء في مومباي، وهنالك تقريباً خمسة آلاف شخص يمارسون هذه المهنة. على مدى الساعتين التاليتين يجمع وجبات الطعام، المعدة في البيت في علب الغداء، من خمس وعشرين شقة تقريباً، ثم يأخذها إلى محطة قطار جاتكوبار المحلية. هنا وجبات الغداء تصنف

بحسب مكانها المقصود، كل علبة لها نقاط ذات ألوان مشفرة،
 شارات وصلبان على غطائها، ومن ثم يجري تحميلها في قطارات
 خاصة كي تُسلم فوراً في وقت الغداء إلى موظفي الطبقة الوسطى
 وعمال الطبقة الكادحة في أرجاء مومباي كلها. يتسلم سالم وجبات
 الغداء بواسطة قطار آخر، يسلمها في منطقة جاتكوبار بعد أن يفك
 مغالق النقاط والشارات التي تشكل العنوان. عليه أن يكون حذراً
 جداً، لأن خطأ واحداً يمكن أن يكلفه مهنته. لا يجروء على أن يسلم
 علبة تحوي لحم بقر إلى هندوسي، أو واحدة تحوي لحم خنزير إلى
 مسلم أو واحدة تحوي ثوماً وبصلًا إلى نباتي ياني⁽¹⁾.

إنها التاسعة ليلاً. يقلّب سالم صفحات مجلة سينمائية. أجتو على
 سريري وأذني اليسرى ملتصقة بكوب فولاذ موضوع على الجدار. أسمع
 شانتارام يكلم ابنته قائلاً: "غوديا، انظري هنا، من خلال العدسة. تَبْتُ
 التلسكوب الآن. هل يمكنك أن تشاهدي الشيء الأحمر الساطع في
 الوسط؟ ذلك هو المريخ".

أهمس قائلاً لسالم: "اجلب كوباً، بسرعة. يلزمك أن تسمع هذا".
 سالم كذلك يلصق أذنه على الجدار. على مدى الثلاثين دقيقة
 التالية، نستمع إلى تعليق متواصل حول حالة السماء. نسمع ما يتعلق
 بالكواكب، والمجرات، والمذنبات. نسمع ما يتعلق بالدب الأكبر والدب
 الأصغر. نسمع عن شيء يدعى درب التبانة والنجم القطبي. نعرف
 ما يتعلق بحلقات زحل وأقمار المشتري.

أنا أصغي إلى شانتارام، يهيمن عليّ توق غريب. أتمنى أن يكون

(1) ياني Jain: أحد أتباع اليانية. وهي دين هندي نشأ في القرن السادس قبل
 الميلاد، قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك - م.

لي أنا أيضاً أب يعلمني ما يتعلق بالنجوم والكواكب السيارة. سماء الليل، التي كانت بالنسبة إليّ حتى الآن كتلة سوداء كبيرة، تصبح فجأة مكاناً ذا معنى وتساؤل. حالما ينتهي درس شانتارام الخصوصي، أمد وسالم عنقينا خارج نافذة الطبقة الأولى خاصتنا كي نحاول العثور على المعالم السماوية التي أشار إليها. من دون مساعدة تلسكوب نرى فقط نقاطاً بيضاء صغيرة في السماء المعتمة، لكننا نطلق صرخات طويلة حادة، نطلقها بسرور، حين نميز النجوم السبع للدب الأكبر، وحتى معرفتنا أن الرقع الداكنة في القمر ليست عيوباً إنما حفر وبحار، هذه المعرفة تملأنا بإحساس بالقناعة كما لو أننا حللنا أسرار الكون.

تلك الليلة لم أحلم بامرأة بسارٍ أبيض هفهاف. حلمتُ بحلقات حول زحل وبأقمار حول المشتري.

بعدها بأسبوع، نبهني صوت جديد بكل معنى الكلمة آت من حجرة شانتارام. "مياو!" أندفع مذعوراً إلى الجدار وفي يدي أداة الإصغاء الفولاذية خاصتي.

أسمع غوديا تتحدث قائلة: "بابا، انظر، لديّ قط. أليس محبوباً؟ صديقتي روهيني أعطتني إياه من الولادات الجديدة لقطتها. هل يمكنني أن أحتفظ به؟"

تذمر السيدة شانتارام قائلة: "لستُ قادرةً على رعاية أي مدلل. قلما يوجد مكان في هذه الحجرة للبشر، أين يمكننا أن نحتفظ بحيوان؟".

"أرجوك، أمه، إنه كائن صغير جداً. بابا، وافق أرجوك"، تقول متوسلة.

يقول شانتارام: "جيد، غوديا. احتفظي به. لكن ماذا ستسميه؟".

"أوه، شكراً، بابا. كنتُ أفكر في أن أمنحه اسم تومي".

"كلا، ذلك اسم مبتذل. هذا القط سيسكن في أسرة عالم فلك، لذا يجب أن نسميه باسم أحد الكواكب السيارة تيمناً به".
 "أي كوكب منها؟ هل يمكننا أن ندعوه المشتري؟".
 "كلا. إنه أصغر فرد في الأسرة، لذا لا يمكننا أن نسميه سوى بلوتو".
 "عظيم، أحب الاسم، بابا. الآن، بلوتو! بلوتو، تعال واشرب الحليب".
 بموء بلوتو: "مياو!".

ترغمني هذه النتف الصغيرة على أن أعيد النظر في رأيي بشأننارام. ربما هو ليس سيئاً جداً على كل حال. إنما، مرةً أخرى، أعرف أن المظاهر يمكن أن تكون خادعةً وأن الخط الفاصل بين الجيد والسيئ هو في الواقع رفيع جداً.
 أرى شاننارام يأتي إلى المنزل ذات مساءً، مثلاً تماماً. يفوح نفسه برائحة الشراب الاسكتلندي. يسير بخطوات مترنحة. ويحتاج إلى المساعدة كي يرتقي درجات السلم. يحدث هذا في اليوم التالي، وفي اليوم الذي بعده. وفي الحال يعرف جميع النزلاء في المبنى السكني أن السيد شاننارام سكير.

السكاري في الأفلام الهندية شخصيات مضحكة بصورة ثابتة. فكري في كريشتو موكرجي يحمل زجاجةً عندئذ لا تستطيعين أن تتمالككي نفسك من أن تنفجري ضاحكةً. لكن السكاري في الحياة الواقعية ليسوا مضحكين، إنهم مخيفون. كلما يأتي شاننارام إلى منزله مثلاً، لا نحتاج إلى وسائل إصغاء. يقذف الشتائم بأعلى صوته فأرتجف وسالم خوفاً في حجرتنا كما لو أننا من توجه إلينا الشتائم. تصبح

شئامه طقساً مستديماً إلى حدّ أننا ننتظر حقيقةً صوت غطيطة قبل أن يدهمنا النعاس. أصبحنا نرتعب من الفاصل الزمني بين عودة شانتارام من العمل وتمالكه على الفراش. هذا الفاصل هو، بالنسبة إلينا، منطقة الخوف.

نعتقد أن هذا طور زائل وأن شانتارام سيصحو في نهاية المطاف. إنما في الواقع يصبح أسوأ. يبدأ شانتارام بشرب المزيد وبعدها يبدأ برمي الحاجيات. يبدأ برمي الأكواب البلاستيكية والكتب، صوب الجدار باشمزاز. بعدها يبدأ بكسر القدور والمقالي. الضوضاء التي يثيرها تجعل الإقامة في الحجرة المتاخمة أمراً عسيراً جداً. لكننا نعرف أن التشكي للسيد راماشانكار أمر غير وارد. إن صوتي مستأجرين اعتيادين مزعجين أحدهما في الثالثة عشرة والآخر في الحادية عشرة لا يحملان وزناً كبيراً. لذا كنا ببساطة نندس في الفراش كلما نسمع صوت تحطم صحن أو تكسر طبق من الخزف الصيني.

حتى هذا الطور لا يستمر طويلاً. ففي الحال، يبدأ شانتارام برمي الأشياء نحو الناس. بصورة رئيسة، نحو أفراد أسرته. يخصص أقصى غضبه لزوجته. "أنت أيتها الساقطة الحقيرة! أنت التي أنزلتني إلى أدنى مراتب الحياة. كان في وسعي أن أكتب مواد البحوث عن الثقوب السوداء، وبدلاً من ذلك ها أنذا أري قطع القمصان وفساتين (الساري) لسيدات البيوت القذرات. أكرهك! لم لا تموتين؟" يصيح، ويرمي رجاجة فلفل، كوباً، صحناً. على زوجته، ابنته، قطعتها.

ذات ليلة يتجاوز الحدود فيرمي كوب شاي حار جداً على زوجته. تحاول غوديا أن تحمي أمها فيسقط السائل الحار عليها، سافعاً وجهها. تزعق بألم مبرح. شانتارام في حالة سكر شديد بحيث إنه لا يدرك حتى ما فعله. أهرع إلى الخارج كي أحصل على سيارة أجرة

للسيدة شانتارام كي تأخذ ابنتها إلى المستشفى. بعدها بيومين، تأتي إليّ وتسألني أن أذهب معها لزيارة غوديا. "إنها تشعر بوحدة قاتلة. ربما يمكنك أن تتحدث إليها".

لذا أرافق السيدة شانتارام في أول زيارة لي في حياتي إلى المستشفى، وأي مستشفى.

أول شيء يهاجم حواسك بعنف حين تدخلين مستشفى ما هو الرائحة. شعرت بالغثيان من جراء الرائحة المتخمة، المضادة للغفوة للمطهر، التي تتخلل كل زاوية من زوايا الردهات القذرة. الشيء الثاني الذي يلفت انتباهك أنك لا ترين أي إنسان سعيد. المرضى يرقدون على أسرّتهم الخضراء ينوحون ويئنون حتى الممرضات والأطباء يبدون متجهمين. إنما أسوأ شيء هو اللامبالاة. ما من أحد يقلق عليك فعلاً. تصوّرت أن الممرضات والأطباء يحتشدون حول غوديا من الجوانب كلها، لكنني وجدتها ترقد وحيدة على سريرها داخل وحدة الحروق من دون أن تكون هنالك ممرضة واحدة تسهر على راحتها. كان وجهها قد غطي تماماً بالضمادات؛ لا يمكنك أن تري سوى عينيها السوداوين.

"غوديا، انظري من الذي أقبل لزيارتك"، تقول السيدة شانتارام، مشيرةً إليّ.

أشعرُ أنني غير واثق من نفسي وأنا أدنو من الفتاة. من الجلي أنها أكبر مني بسنوات كثيرة. أنا مجرد مختلس سمع بعض النتف من حياتها؛ أكاد لا أعرفها. لم أرَ شفيتها، لكنني أستطيع أن أرى من خلال عينيها أنها تبتسم لي وذلك الأمر كسر الجليد بيننا.

أجلس معها ثلاث ساعات، متحدثاً عن هذا وذاك من الأمور. تسألني غوديا: "كيف نلتَ اسماً استثنائياً كهذا - رام محمد توماس؟".

"إنها قصة طويلة جداً. سأخبرك عنها حين تتمائلين للشفاء".

تحدثني عن نفسها. أعرف أنها تكاد تنهي دراستها الثانوية كي تبدأ دراستها الجامعية. طموحها أن تصبح طبيبة. تسألني عن نفسي. لا أقول لها أي شيء عن الأب تيموثي أو ما حصل لي بعد ذلك، لكنني أروي تجاربي في المبنى السكني. أروي لها عن الحياة كوني عامل سبك المعادن. تصغي إليّ بانتباه مستغرق. وتجعلني أشعر أنني مهم جداً ومطلوب.

يأتي طبيب ويخبر السيدة شانتارام أن ابنتها محظوظة. لقد أُصيبت بحروق من الدرجة الأولى ولن تترك أي ندوب دائمة. ستغادر المستشفى في هذا الأسبوع.

الساعات الثلاث التالية التي أمضيها مع غوديا تمكنني من معرفة الكثير عن والدها. تقول لي السيدة شانتارام: "زوجي عالم فضاء ذائع الصيت. بالأحرى، كان عالماً. اعتاد أن يعمل في معهد أرياهاتا لبحوث الفضاء، حيث كان يتحرى عن النجوم بمساعدة تلسكوبات ضخمة. اعتدنا أن نقيم في بيت فخم من طابق واحد يقع في حرم المعهد. قبل ثلاث سنوات خلت اكتشف نجماً جديداً. كان اكتشافاً علمياً مهماً جداً إلا أن عالم فلك زميلاً له هو الذي نُسب إليه الاكتشاف. هذا الأمر دمر زوجي تماماً. بدأ يدمن الشراب. بدأ يتخاصم مع زملائه وذات يوم استشاط غضباً من مدير المعهد بحيث إنه كاد يودي بحياته بعد أن أشبعه ضرباً وركلاً. طُرد من المعهد في الحال ووجب عليّ أن أناشد المدير كي لا يتم اعتقاله من قبل الشرطة. بعد تركه للمعهد، نال زوجي وظيفة كمدرس فيزياء في مدرسة جيدة، إلا أنه لم يستطع السيطرة على عاداته في الشرب أو على مزاجه العنيف. كان يجلد الصبيان بسبب هفوات طفيفة، وطُرد من المدرسة في غضون ستة

شهور لا غير. منذ ذلك الزمن صار يمارس مهناً غريبةً، يعمل بصفة مدير مطعم مؤقت في دائرة، ثم محاسب في مصنع، والآن بصفة عامل مبيعات في صالة عرض ثياب. ولأننا أنفقنا كل مدخراتنا، نحن مجبرون على الإقامة في مبنى سكني!".

أوجه إليها سؤالاً: "ألا يستطيع السيد شانتارام التوقف عن الشراب؟".

"أقسم لي زوجي إنه لن يمس الشراب مجدداً وقد بدأ يراودني الأمل أن الأسوأ قد انقضى. لكنه لم يستطع الالتزام بوعده، وانظر ماذا جرى؟".

تقول غوديا: "أسدي إليّ معروفاً، رام محمد توماس. من فضلك اعطني ببلوتو إلى حين عودتي إلى المنزل".

أعدها قائلاً: "بكل تأكيد".

فجأةً تمد ذراعها وتأخذ يدي بيدها. "أنتَ هو الأخ الذي ليس لي أبداً. أليس كذلك، أماه؟" تقول غوديا. تومئ السيدة شانتارام برأسها علامة الموافقة.

لا أعرف ماذا أقول. هذه علاقة جديدة بالنسبة إليّ. في الماضي، خيل إليّ أنني ابن إنسان ما، إنما لم يخطر ببالي أنني أخ إنسان ما. لذا أمسك فقط بيد غوديا وأحس بأن آصرة سرية تمر بيننا.

تلك الليلة أحلم بامرأة تنزّي بشارٍ أبيض تحمل طفلاً وليداً بين ذراعيها. الريح تعصف وراءها، فتجعل شعرها يطير على وجهها، مخفياً إياه. تضع الطفل في صندوق للثياب المعدة للغسل وتغادر. في ذلك الوقت تحديداً، تصل امرأة أخرى. هي أيضاً طويلة وجميلة، إلا أن وجهها ملفوف بالضمادات. تلتقط الطفل من الصندوق وتغطيه بالقبلات. "أخي الصغير"، تقول. "أ - خ - ت - ي"، ينادي الطفل الوليد رداً عليها. "مياو!" مواء مخنوق من قط يخرق الليل بغتةً.

أستيقظ من النوم وأحاول أن أحكم ما إذا كان الصوت الذي سمعته جاء من الحلم أو من الحجرة المجاورة.

أكتشف عرج بلوتو وجسده المشوه صباح اليوم التالي في صندوق النفايات نفسه الذي أودع فيه السيد بارفي نسخته من مهاراشترا تايمز. كُسر عنق القط ويمكنني أن أشم رائحة الشراب الاسكتلندي على جسمه المكسو بالفراء. يخبر شانتارام زوجته أن بلوتو فرّ من المنزل. أعرف الحقيقة إنما لا جدوى من ذكرها. فعلاً هرب بلوتو. إلى عالم آخر، أفضل، على ما أعتقد.

أخبر سالم: "أحب غوديا حباً جماً. عليّ أن أضمن ألاّ يكرر شانتارام فعلته معها".

"لكن ما الذي يمكنك أن تفعله؟ إنها أسرته".

"إنها وظيفتنا أيضاً. على كل حال، نحن جيران".

"هل تذكر ما أخبرتني به ذات مرة؟ قلتَ ما مفاده أنها فكرة ليست جيدة أن تدس أنفك في قضايا الناس الآخرين، أو أن تجعل مشاكل الناس الآخرين مشاكلك الخاصة، صحيح يا محمد؟".
لم أجب على هذا.

تعود غوديا إلى البيت، لكنني لا أستطيع رؤيتها لأن شانتارام لا يسمح لأي صبي بدخول منزله. تخبرني السيدة شانتارام أن زوجها أدرك ما فعله. وسيصلح حاله الآن، مع أنها كانت تعرف في أعماق نفسها أن شانتارام غير قابل للإصلاح. لكنها حتى لا تعرف إلى أي حضيض يمكن أن ينحدر زوجها.

يكاد لا يمر أسبوع على عودة غوديا من المستشفى حتى يفعل لها شيئاً ما مجدداً. يحاول أن يلمسها إنما ليس بصفة أب. في البداية، لم

أفهم. كل ما أسمعه هو بعض الإشارات أن غوديا قمره ومن ثم تأخذ السيدة شانتارام بالصراخ، وتزعق غوديا: "بابا، لا تلمسني! بابا، من فضلك لا تلمسني!".

يفرقع شيء ما في دماغي حين أسمع صرخة غوديا الكئيبة. أريد أن أقترح حجرة شانتارام وأقتله بيديّ العاريتين. لكنني حتى قبل أن أتمكن من أن أستجمع شجاعتي، أسمع غطيط شانتارام العالي. لقد انهار. غوديا لا تزال تنشج. لا أحتاج إلى كوب كي أسمع بكاءها.

يؤثر فيّ بكاؤها بصورة غريبة. لا أعرف ما هو رد فعل الأخ حين يصغي إلى بكاء أخته، لأنه ليست لديّ تجربة في أن أكون أخاً. لكنني أعرف أنه بشكل من الأشكال يجب عليّ أن أواسيها. لسوء الحظ، ليس من اليسير جداً أن يُواسى إنسان ما حين يكون هنالك جدار، مهما كان رقيقاً، بينكما. ألاحظ عندئذ أنه في أسفل الجدار تماماً، حيث تلج أنابيب الماء الشقة الأخرى، ثمة فتحة صغيرة دائرية الشكل، تكفي لأن يدس المرء ذراعه عبرها. أثب من السرير، وتمدّد باسط ذراعيّ ورجليّ على الأرض، أدس يدي عبر الفتحة. أصرخ قائلاً: "أختي، لا تبكي. الآن، أمسكي يدي". وشخص ما يقبض على يدي. أشعر بأصابع تعانق ذراعي، مرفقي، رسغي، مثلما يتلمس رجل أعمى وجه امرئ ما. ثم تشبّك الأصابع بأصابعي وأشعر بانتقال عجيب للقوة، للطاقة، للحب، سمها ما شئت. الحقيقة أنه في تلك اللحظة أتوحد مع غوديا، وأشعر بوجعها كما لو كان وجعي.

سالم، خلال ذلك، لا يزال جالساً على السرير، يراقب المشهد بذهول. "محمد، هل أنت مجنون؟ أعرف ما الذي تفعله؟" يحذرنني. "هذا الثقب الذي دسستَ عبره يدك هو الثقب نفسه الذي تدخل من خلاله الجرذان والصراصير إلى حجرتنا".

لكني أنشغل عن سالم وعن كل شيء آخر. لا أدري كم من الوقت مرَّ وأنا أمسك بيد غوديا، لكنني حين أستيقظ من نومي صباح اليوم التالي أجد نفسي مستلقياً على الأرض وبدي لا تزال مندسة عبر الثقب وعائلة من الصراصير تنام بسلام داخل جيب قميصي.

الليلة التالية، مجدداً يأتي شانتارام إلى المنزل وهو يترنح، ويحاول أن يتحرش بغوديا. يقول: "أنت أجمل من كل النجوم والكواكب السيارة. أنت قمرى. أنت غوديا خاصتي، دميّ. يوم أمس، تملصت مني، إنما اليوم لن أدعك تغادريني".

"كف عن هكذا تصرفات!" تصرخ السيدة شانتارام، إلا أن زوجها لا يبالى بما تقول.

"لا تقلقي، غوديا، ليس ثمة شيء غير صحيح في حبي لك. حتى شاه جهان، الإمبراطور العظيم، وقع في غرام ابنته، جهان أرا. ومن يستطيع أن يحرم رجلاً من امتياز جمع الفاكهة من الشجرة التي زرعها هو نفسه".

"أنت مجنون"، تصبح السيدة شانتارام، ويضرها شانتارام. أسمع صوت قنينة تتكسر.

"لا!" أسمع زعيق غوديا.

أشعر كما لو أن مشعلاً من الأوكسجين والأسيتلين احترق دماغي وأن المعدن المصهور انسكب على فؤادي. لا أستطيع أن أتحملة بعد الآن. أركض إلى حجرة السيد راماشانكار وأخبره بأن السيد شانتارام يفعل شيئاً رهيباً لزوجته وابنته. إلا أن راماشانكار يتصرف كما لو أنني أتحدث عن المناخ.

يقول لي: "انظر، مهما يحدث داخل الجدران الأربعة لمنزل ما هو قضية خاصة بتلك الأسرة ولا يمكننا أن نتدخل. أنتَ غلام صغير يتيم. أنتَ لم ترَ الحياة بعد. لكنني أعرف القصص اليومية لضرب الزوجة وسوء المعاملة وسفاح القربى والاعتصاب، التي تجري في المباني السكنية بكل أنحاء مومباي. مع ذلك ما من أحد يفعل شيئاً إزاء ذلك. نحن الهنود نملك هذه القابلية السامية على رؤية الوجود والتعاسة من حولنا، ومع ذلك نبقي غير متأثرين بهما. لذا، مثل مواطن أصلي من مومباي، أغمض عينيك، سد أذنيك، وأغلق فمك عندئذ ستكون سعيداً على غراري. اذهب الآن، فقد حان وقت نومي".

أعود مسرعاً إلى حجرتي. أسمع غطيط شانتارام وزعيق غوديا بكونها قدرة. "لا تلمسني! لا أحد يلمسني! سأنقل العدوى لكل من يدنو مني".

أعتقد أنها تفقد عقلها. وأنا أيضاً أفقد عقلي.

أقول: "انقلي إليّ العدوى"، وأدس يدي عبر الثقب الكائن في الجدار.

تمسكها غوديا. تبكي قائلة: "رام محمد توماس، لن أعيش طويلاً. سأنتحر بدلاً من أن أخضع لوالدي". يعوم وجهها عبر الثقب ويطوقني بعناقه.

أشرع بالبكاء: "لن أسمح لهذا أن يحدث". أقول لها. "إنه وعد أخ".

ينظر إليّ سالم نظرة قدرة، كما لو أنني ارتكبتُ فعلاً إجرامياً بإعطاء هذا الوعد. لكنني بعيد عن الصواب والخطأ. أتمسك أصابع غوديا، لحم يديها، وأعرف أن كلينا حيوانان تم قنصهما، كلينا شريكان في الجريمة. كانت جريمتي أنني، غلام يتيم، تجرأتُ أن جعلتُ

مشاكل الناس الآخرين مشاكلي. لكن ما هي جريمة غوديا؟ ببساطة هي أنها ولدت بوصفها بنتاً وكان شانتارام والدها.

أحمل وعدي مساء اليوم التالي، حين يرجع شانتارام من العمل ويرتقي درجات السلم المتداعية المؤدية إلى الطبقة الأولى. يمشي بخطوات بطيئة، مضطربة. حتى ملابسه تفوح منها رائحة الشراب الاسكتلندي. فيما كان يهم باحتياز ذلك الجزء من الدرابزين الذي لم يثبته بعد السيد راماشانكار، أهاجمه من الخلف. أضربه على ظهره بعنف، يرتطم بالدرابزين الخشبي. الدرابزين أصلاً ضعيف ومتمايل. لا يستطيع أن يتحمل وزنه. يتصدّع ويتشظى. يفقد شانتارام توازنه وينقلب إلى الأرض في الأسفل.

في الأفلام السينمائية، يروننا وغداً يهوي من سطح ناطحة سحاب ويبدو كما لو أنه يسبح في الهواء، يشبك ساقيه ويرفرف بذراعيه ويصرخ: "آآآآآآآآآآآآه!" في الحياة الواقعية، لا يحدث الأمر بهذه الطريقة على الإطلاق. يهوي شانتارام كصخرة. ليست ثمة رفرفة يدين أو ساقين. يرتطم بالأرض وجهه إلى الأسفل ويرقد ممدداً، باسطاً ذراعيه ورجليه.

حين أرى جسد شانتارام الرخو على الأرض وقتئذ فقط أدرك ما فعلته. ومن ثم أتخيل العواقب الوخيمة لفعليتي.

يصل ضباط إلى موقع الجريمة في سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض ويرسمون مخططاً جميلاً، بارعاً بالطباشير. يأخذون الصور ويقولون، "هنا هوت الجثة". بعدها ينظرون إلى الأعلى ويشاهدوني في الطبقة الأولى. يشير إليّ ضابط الشرطة. "ذلك هو الغلام الذي دفعه إلى

الأسفل. ألقوا القبض عليه!" يأخذونني إلى السجن، حيث يجردونني من ثيابي ويضربونني. ثم يحضرونني إلى المحكمة، حيث يجلس قاضٍ ذو وجه صارم ورداء أسود، وفوق رأسه مروحة سقفية، ولافتة ذهبية مضمحلة يكسوها الغبار تشير كلماها إلى: الحقيقة تسود دائماً، مثبته على الجدار خلفه. ينظر إليّ القاضي نظرة واحدةً ويعلن حكمه. "رام محمد توماس، أجدك مذنباً في ما يتعلق بالقتل المتعمد للسيد شانترام. استناداً إلى المادة 302 من قانون العقوبات الهندي، ها أنذا أحكم عليك بالإعدام شنقاً حتى الموت".

"لا" أصرخ وأحاول الركض، إلا أن ساقَيّ مصفدتان ورسغيّ مقيدان. أنا معصوب العينين ويقودونني إلى زنزانة الإعدام. يطوقون عنقي بأنشطة، تُسحب عتلة ما. أصرخ ألماً فيما تتدلى ساقي فجأة في الهواء وينقطع النَّفَسُ عن الرئتين. أفتح عينيّ فأجد نفسي في الفردوس. لكن الفردوس تبدو شبيهة بالمبنى السكني وأتطلع إلى الأسفل، وأرى جثة شانترام ترقد ممددة على الأرض، الذراعان متباعدتان وكذلك الساقان. يتجمع الناس حولها الآن. يصيح أحدهم، "استدعوا الشرطة!".

لا أنتظر لحظةً أخرى. أندفع مذعوراً نازلاً درجات السلم وأبدأ بالركض. أركض ماراً بالبوابة وبكشك الحليب وبالمبنى ذي الطبقات المتعددة. أهرع إلى محطة القطار المحلية، وأستقل القطار السريع إلى محطة فيكتوريا الواقعة في نهاية الخط. أفتش كل رصيف من الأرصفة بحثاً عن قطار خاص. أجده في النهاية وأقفز إلى الداخل فيما هو يبدأ بالانسحاب.

غادرتُ مومباي، غادرتُ غوديا، غادرتُ سالم، وهربتُ إلى المدينة الأخرى الوحيدة التي أعرفها، دلهي.

خلال هذه القصة، تبقى سميتا صامتةً تماماً. يمكنني أن أرى الآن أنها تأثرت بعمق. أكتشف أثراً من قطرة دمع في زاوية عينها. أغلب الظن، كونها امرأة، بوسعها أن تقيم علاقة منطقية مع عذاب غوديا. ألتقط جهاز التحكم عن بعد. "دعينا نرى السؤال الثالث"، أقول وأضغط على زر تشغيل.

يستدير بريم كومار على كرسيه ويخاطبني قائلاً. "سيد توماس، لقد أجبتَ بصورة صحيحة عن سؤالين كي تربح ألفي روبية. الآن دعنا نرى ما إذا كنت تستطيع الإجابة عن السؤال الثالث بخمسة آلاف روبية. هل أنتَ جاهز؟". أجيب: "جاهز".

"جيد. السؤال الثالث. هذا من حقل الـ". وقتذاك فقط ينطفئ ضوء الاستوديو المركزي، مُقحماً بريم كومار وإيائي في العتمة.

يقول بريم كومار: "أوويس! هيوستون، لدينا مشكلة".

يضحك الجمهور. لا أستوعب النكتة.

أسأل بريم كومار: "ماذا قلت؟".

"أوه، ذلك سطر شهير من فيلم أبولو ثلاثة عشرة. أنا متأكد من أنك لا تشاهد الأفلام الإنكليزية. أنتَ تستخدم هذا السطر حين تواجه فجأة مشكلة كبيرة، ولدينا هنا مشكلة كبيرة. لا يمكن أن يتواصل البرنامج إلى أن تثبت ضوء الاستوديو".

فيما يبدأ التقنيون بفحص أسلاك ضوء الاستوديو، يصغي بريم كومار إلى صوت في سماعي الرأس خاصته. بعدها ينحني إلى الأمام ويهمس في أذني، "جيد، يا غلام، دورك الذهبي استمر طيلة

السؤالين والآن يكاد ينتهي. السؤال التالي عسير جداً حقيقةً، خاصةً بالنسبة إلى نادل. أحب أن أساعدك كي تربح أكثر، إلا أن المخرج أبلغني تَوّاً أنه يريد أن ينتقل إلى المتسابق التالي، بروفيسور الرياضيات. معذرةً، حظاً موفقاً!" يأخذ رشفةً من عصير الليمون المحلّى ويتمطّق.

يتم الآن تثبيت ضوء الاستوديو. تتغير لافتة الاستوديو إلى تصنيف.

حينما يخفت التصنيف، ينظر إليّ بريم كومار. "سيد توماس، لقد أُجبتَ بصورةً صحيحة عن سؤالين كي تربح ألفي روبية. الآن دعنا نرى ما إذا تستطيعُ الإجابة عن السؤال الثالث بخمسة آلاف روبية. هل أنتَ جاهز؟".
أجيب: "جاهز".

"جيد. سؤالنا التالي عن عالم علم الفضاء. قل لي، سيد توماس، هل تعرف كم عدد الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية؟".
"ما هي الخيارات؟".

"ليس هذا هو السؤال، سيد توماس. أنا أسأل فقط ما إذا كنت تعرف عدد الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية".
"كلا".

"كلا؟ أتمنى أن تعرف اسم الكوكب السيار الذي نحيا عليه".
يضحك الجمهور.

أجيب بحزن: "الأرض".
"جيد. أنتَ إذاً تعرف اسم الكوكب. جيد، هل أنتَ جاهز للسؤال الثالث؟".
أجيب: "جاهز".

"جيد. ها هو ذا السؤال الثالث: أي الكواكب السيارة في النظام الشمسي هو الأصغر؟ هل هو (أ) بلوتو، (ب) المريخ، (ج) نبتون أو (د) عطارد؟".

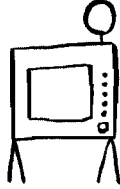
يفلت من بين شفتيّ صوت حتى قبل أن تبدأ الموسيقى، وهو "مياو!".

"عفواً؟" يقول بريم كومار بدهشة. "ماذا قلت؟ على مدى لحظة خيل إليّ أنني سمعتُ صوت مواء".
 "ما قلته هو الجواب (أ)".
 "(أ)؟".

"أجل. الجواب هو (أ). بلوتو".
 "هل أنت متأكد، مائة بالمائة أن الجواب هو (أ)؟".
 "أجل".

ثمة تصاعد تدريجي لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.
 "بالضبط، صحيح مائة بالمائة! بلوتو هو في الواقع أصغر الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية. سيد توماس، لقد رجحت خمسة آلاف روبية!".

تركت معلوماتي العامة انطباعاً جيداً لدى الجمهور. يقف بعضهم ويصفقون بأيديهم.
 لكن سميتا لا تزال صامتة.



10,000

فكرة للمعوقين

تبدو الشمس أضعف، الطيور أقل مرحاً، الجو أكثر تلوثاً، السماء أكثر دكنة.

حين تُقتلعين من بيت جميل وفخم، ذي حديقة مضاءة بنور الشمس بصورة محبة إلى القلب، ويتم حشركِ في منزل منهار حيث تكونين مرغمةً على السكن في مهجع مزدحم مع دزينة من الأولاد الآخرين، أعتقد أنكِ تكتسبين وجهة نظر مصابة باليرقان عن الحياة⁽¹⁾. لا ينفع إذا كنتِ مصابةً فعلاً باليرقان. اليرقان مرض غير مريح إلى حدٍّ ما، لكنه ذو نتيجة واحدة جيدة جداً. إذ يتم نقلكِ من المهجع فاسد الهواء وتوضعين وحدكِ في حجرة منعزلة. إنها حجرة واسعة ذات سرير معدني وستائر خضراء. تُسمى ردهة العزل.

بقيتُ طريح الفراش على مدى الأسبوعين المنصرمين. إنما يبدو لي أنني كنتُ عليلاً منذ أن التقطوني من دار العبادة بعد وفاة الأب تيموثي. لم يأتوا إليَّ في سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض. أقبلوا في شاحنة مقفلة زرقاء اللون ذات نوافذ مشبكة بالسلك. كالنوع الذي

(1) في النص jaundiced view of life: وتعني نظرة مشمئزة عن الحياة - م.

يستخدمونه لمهاجمة الكلاب الضالة. أما هذه فكانت مخصصة لمهاجمة الصبيان الضالين. لو كنتُ أصغر سناً فرمّا كانوا سيرسلوني إلى ملجأ للتبني وعلى الفور يعرضوني للبيع. لكن بما أنني كنتُ في الثامنة، أرسلوني إلى ملجأ أحداث دلهي للصبيان، عند البوابة التركمانية.

يتسع ملجأ الأحداث الخمسة وسبعين، فيما يبلغ عدد الأحداث مائة وخمسين. الملجأ ضيق، كثير الضوضاء وقذر. له دورتا مياه فقط ذات أحواض غسل تتسرب منها المياه ومراحيض قدرة. تعدو الجرذان عبر أروقته ومطبخه. له حجرة صف ذات مقاعد دراسية متداعية ولوح متشقق. ومعلمون لم يمارسوا مهنة التعليم على مدى سنوات طويلة. له ملعب مخصص للألعاب الرياضية حيث تنمو الحشائش بعلو عصي الكريكت وحيث، إذا لم تكن حذراً، يمكنك أن تكشط نفسك على الأحجار التي بحجم كرات القدم. كان هنالك معلم للألعاب الرياضية بقميص بيضاء قطنية متغضنة وسروال مكوي بعناية حتى بدت كسراته أشبه بحافة السكين. يحفظ أجهزة لعبي الكريكت ومضرب الريشة في صندوق زجاجي جميل، إنما لا يسمح لنا أن نمسه. ردهة الطعام هي حجرة كبيرة ذات أرضية رخيصة ومناضد خشب طويلة. غير أن رئيس الطهاة الفظ يبيع اللحم والدجاج وكان يعني لنا ذلك أنه يخصصهما للمطاعم، ويطعمنا زاداً يومياً يتألف من خضار مدمسة وأرغفة خبز سميقة، مسودة. ينتف شعيرات أنفه باستمرار، ويوبخ كل من يطلب المزيد من الطعام. الناظر، السيد أغنيهورت، رجل مسن، عطوف يرتدي منامة كورتا من قماش قطني مغزول ومُحَاك باليد، لكننا جميعاً نعرف أن السلطة الحقيقية يستخدمها وكيله، السيد جوبتا، الملقب بمروّع البوابة التركمانية. كان أسوأ الجميع، رجلاً قصير القامة، كثيف الشعر تفوح منه رائحة الجلد ويمضغ البآن طيلة ساعات النهار. يضع

سلسلتين سميكيتين من الذهب حول رقبته تطلقان أصواتاً متنافرة كلما مشى، ويحمل خيزرانة بامبو قصيرة يضربنا بها بشدة كلما يرغب في ذلك. ثمّة شائعات تفيد أنه يدعو العلّمان إلى حجرته ليلاً، إنما لا أحد يناقش هذا الأمر. نريد أن نتكلم عن الأشياء الجيدة. مثل السماح لنا بمشاهدة البرامج التلفزيونية في الحجرة المشتركة ساعتين كل مساء. نحشد حول جهاز التلفاز ماركة ديانورا ذي واحد وعشرين إنشاً ونشاهد أغاني الأفلام الهندية على القناة الخامسة وقطع صابون الطبقة الوسطى في دوردارشان. كنا نحب بصورة خاصة مشاهدة الأفلام يوم الأحد.

هذه الأفلام تدور حول عالم الفانتازيا. عالم فيه أولاد لهم أمهات وآباء، وذكرى ميلاد. عالم يسكنون فيه في بيوت واسعة، يقودون سيارات ضخمة وينالون هدايا فاخرة. شاهدنا عالم الفانتازيا إلا أنه لم يجرفنا أبداً. كنا نعرف أنه ليس في وسعنا أن نعيش حياةً شبيهةً بحياة أميتاب باجاجان أو شاهروخ خان. أكثر ما كنا نطمح إليه هو أن نصبح من أولئك الذين يملكون السلطة علينا. لذا كلما يسأل المعلم أحدنا: "ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟" ما من أحد قال طياراً أو رئيس وزراء أو صاحب مصرف أو ممثلاً. كنا نقول طاهياً أو منظفاً أو معلم رياضة أو، في أفضل الأحوال، ناظر مدرسة. ملجأ الأحداث صغّر شأننا في عيوننا.

تعرفت على أولاد كثيرين في الملجأ بصورة حميمة جداً. بعضهم أصغر مني سنّاً، وغالبيتهم يكبرونني سنّاً. التقيتُ مونا، وكالو، وبياري، وباوان، وجاشيم، وإيرفان. كان إرسالي إلى ملجأ الأحداث من منزل الأب تيموثي بالنسبة إليّ أشبه بالانتقال من النعيم إلى الجحيم. لكنني حين التقيتُ بالصبيان الآخرين عندئذ فقط أدركتُ أن هذا كان

بالنسبة إلى كثير منهم نعيمهم. أقبلوا من الأحياء الفقيرة في دهي وبهار ومن مدن الأكواخ في أوتار براديش وحتى من أمكنة بعيدة كالنيبال. سمعتُ قصصهم عن الآباء مدمني المخدرات والأمهات الساقطات. شاهدتُ ندوهم الناجمة عن الضرب على أيدي الأعمام الطماعين والعمات المستبدات. عرفتُ بوجود العمال المرهونين والمعاملة السيئة في نطاق الأسيرة. وصرتُ أخشى الشرطة. كانوا مسؤولين عن إرسال معظم الأولاد إلى ملجأ الأحداث. يتم ضبط الأولاد وهم يسرقون الخبز من كشك على جانب الطريق أو ينادون على تذاكر السوق السوداء في مسرح ما، وهم غير قادرين على دفع الرشى لموظفي الأمن. أو، في الغالب، تُلفق ضدهم التهم ببساطة لأن ضابط الشرطة لا يحب وجوههم.

كان كثير من هؤلاء الأولاد عائدين، وهي كلمة تعني أنهم عادوا إلى ملجأ الأيتام حتى بعد أن تولى رعايتهم شخص ما من هيئة إنعاش الأحداث. رجع مونا بعد أن أساءت معاملته زوجة أبيه. أما جاشيم فقد طارده شقيقه الفظ. ورجع باوان لأن قريه الذي أُعيد إليه جعله يعمل في موتيل⁽¹⁾ سيئ السمعة، وقبض عليه رجال الشرطة. بالرغم من هذه التجارب، ثمة أولاد كثيرون لا يزالون يتوقون توقاً شديداً إلى أن تتم استعادتهم، وهم مستعدون لاستبدال جحيم معروف بآخر مجهول.

أصبحتُ قائدهم، حتى من دون أن أسعى إلى ذلك. ليس لأنني أكثر عدوانية، بل لأنني كنتُ أتكلم الإنكليزية. كنتُ الغلام اليتيم الذي في وسعه أن يتكلم اللغة العجيبة ويقرأها، وأن تأثيرها على الموظفين كان مُكهرباً. رئيس المراقبين يسألني بين الحين والآخر كيف هي صحي. كان معلم الرياضة يسمح لي أن أعدّ ساحة كريكيت في الفناء الأمامي، حيث نلعب أربع أو خمس مباريات جديدة بالاحترام

(1) موتيل motel: فندق على الطريق العام يبيت فيه الرحالون ليلتهم - م.

قبل أن يكسر مونا نافذة الناظر، وتُمنع كل أنواع الألعاب الرياضية منعاً باتاً. كان الطاهي الصارم يتفضل عليّ أحياناً بحصة ثانية من الطعام. السيد جوبتا لم يدعوني إلى غرفته ليلاً. ويضعني الطبيب حالاً في حجرة العزل من دون تأخير معهود، وهكذا يمنعني من نقل العدوى إلى كل الساكنين في المجمع.

كنتُ أتمتع ببقائي الحصري في ردهة العزل مدةً تزيد على أسبوعين حين تم نقل سرير آخر إلى الغرفة. قيل لي، وصل غلام جديد، في حالة صحية سيئة جداً. جيء به على نقالة بعد الظهر، مرتدياً صدرية برتقالية ممزقة، وسروالاً قصيراً ملطخاً وبالياً، وواضعاً تابيزاً أصفر حول عنقه. وكان ذاك أول لقاء لي مع سالم إلياسي.

كان سالم يملك كل الأشياء التي ليست لدي. كانت له بشرة قمحية ووجه بريء. له شعر أسود مجعد وحين يتسم تظهر له غمازتان في خديه. مع أن عمره لم يكن سوى سبع سنوات، كان له عقل قوي، مستفهم. يروي لي قصته بجمل قصيرة، متلخصة.

ينحدر من أسرة فقيرة جداً، اعتادت الإقامة في قرية بيهار. كان أغلب سكان القرية من الفلاحين الفقراء، إنما كان هنالك أيضاً عدد قليل من مالكي الأراضي الأثرياء. كان معظمهم من الهندوس، إنما كانت هنالك عائلتان مسلمتان أيضاً، على غرار عائلة سالم. كان والده عاملاً، وأمه سيدة منزل، عمل أخوه الأكبر في كشك لبيع الشاي. التحق سالم بمدرسة القرية. كانوا يقيمون في كوخ مسقف بالقش على حافة مجمع مالك الأرض الزامندار.

جرت الأسبوع الماضي، في شهر كانون الثاني البارد والصقيعي، حادثة في قرية معبد هانيومان. اقتحم المعبد، وادعى قس المعبد أنه شاهد

بعض الشبان المسلمين يختبئون قرب الأرض المخصصة للمعبد. ويا للهول! لحظةً سمع الهندوس هذا ثارت ثائرتهم. مسلحين بالمديات الضخمة، والمعاول، والعصي، والمشاعل أغاروا على منازل كل العوائل المسلمة. كان سالم يلعب خارج الكوخ، وكان والده، والدته وأخوه يحتسون الشاي في السدائل حين هاجمهم الغوغاء. أمام عينيه، أشعلوا النار في الكوخ. سمع عويل أمه، صرخات أبيه، بكاء أخيه، إلا أن الغوغاء لم يسمحوا لأي فرد بالهرب. أفراد أسرته كلهم احترقوا حتى الموت. فرَّ سالم إلى محطة سكة الحديد وقفز داخل أول قطار رآه. أخذته القطار إلى دلهي من دون طعام، من دون ملابس وما من وجه واحد أليف. رقد على الرصيف يومين كاملين، عانى البرد والجوع، أُصيب بهذيان الحمى، وهيمن الحزن على روحه، قبل أن يكتشفه موظف أمن ويرسله إلى ملجأ الأحداث.

يقول سالم إن الكوابيس لا تنفك تهجم عليه ليلاً. يسمع أصوات الغوغاء. صرخات أمه لا يزال صداها يتردد في أذنه. يرتعد خوفاً حين يتصوّر أخاه يتلوى في ألسنة اللهب. يقول إنه بدأ يكره كل الهندوس ويخافهم. يسألني عن اسمي. أخبره: "محمد".

بمرور الوقت، صرت وسالم، صديقين حميمين جداً. نملك أشياء كثيرةً مشتركةً. كلانا يتيمان، لا أمل لنا في أن يستعيدنا أحد من أقاربنا. كل منا يجب أن يلعب بكرات الرخام أو الزجاج. وكل منا يحب مشاهدة أفلام السينما. أستخدم تأثيري كي أجعل سريريه إلى جانب سريرتي حين نعود إلى المهجع.

في الهزيع الأخير من إحدى الليالي استدعي سالم إلى حجرة السيد جوبتا. الأخير أرمل يقيم وحيداً على أرض المجمع. قَلِقَ سالم. يسألني: "لماذا استدعيني؟".

أجيبه: "لا أدري. لم أدخل غرفته يوماً. لكننا نستطيع أن نكتشف اليوم".

لذا يسير سالم إلى حجرة السيد جوبتا وأنا أمشي وراءه على رؤوس أصابعي.

يجلس جوبتا في حجرته مرتدياً منامة كورتا مجمدة حين يقرع سالم الباب. "تعال... تعال، سالم"، يقول بصوتٍ غير واضح. بيده كوب مليء بسائل ذهبي. يقلبه في جوفه ويمسح فمه. تبدو عيناه أشبه بزرين كبيرين. كنتُ أراقب ما يجري من الحيز الصغير بين الستارتين في المدخل. يصفع وجه سالم، تاركاً آثاراً أصابعه على أنف سالم العظمي وعلى شفثيه الرفيعتين. بعدها بصورة مفاجئة يأمره قائلاً: "اخلع سروالك الداخلي".

اضطرب سالم لدى سماعه هذا الطلب. "افعل ما أقول، يا ابن الساقطة، وإلا سأصفعك صفعاً شديداً"، يزجر جوبتا.

يذعن سالم. يدفع سرواله الداخلي إلى الأسفل بتردد. أشيح عينيّ. يقترب جوبتا من سالم من الخلف، سلسلاته الذهبيتان تصدران صوتاً غير مستساغ. "جيد" يتمتم. أراه يحل حبل منامته، وينزل سروالها إلى الأسفل. يمكنني أن أرى ظهره كثيف الشعر. لم يفهم سالم بعد ماذا يجري، إلا أن ضباباً شرع يتصاعد من دماغه. بجلاء مرعب أدرك فجأةً ما جرى في حجرة الأب تيموثي تلك الليلة. وما تبع ذلك في اليوم التالي.

أطلق صرخةً حادةً تحطم سكون الليل كالطلقة. صرختي توقظ الأولاد النائمين بسلام في المهاجع؛ توقظ الطاهي الذي يغط في نومه في المطبخ؛ توقظ الناظر في حجرة نومه؛ لا بل توقظ حتى الكلاب الضالة، فتبدأ بالنباح بسُعر.

لا يدري جوبتا ما الذي أصابه. بسرعة يرفع سروال منامته ويحاول أن يطرد سالم بعيداً. إلا أن الطاهي، والناظر، والحراس كانوا في طريقهم إلى حجرة جوبتا. يكتشفون سره القذر تلك الليلة، مع أنهم لم يفعلوا شيئاً حياله. لكن جوبتا يكتشفني كذلك محتباً وراء الستارتين. منذ ذلك الوقت يغدو عدوي اللدود. تعرّض سالم لهزة عنيفة، إنما لم يلحقه أذى. تخلى عن عدائه للهندوس الذي دام زمناً طويلاً. إلا أن خوفاً من الإيذاء الجسدي ظل مطموراً في أغوار روحه على مدى السنوات المتبقية من حياته.

إنه يوم ربيعي جميل. ويبدو حتى أكثر جمالاً لأننا خارج حدود ملجأ الأيتام. أخذونا كلنا في رحلة نهارية نظمها إحدى المنظمات العالمية غير الحكومية. تحولنا في حافلة مكيفة في كل أنحاء دلهي. نتناول غداءنا في حديقة الحيوان ونشاهد الحيوانات. لأول مرة نرى فرس النهر، والكنغر، والزرافات، والكسلان ضخيم البدن. نرى البجعات والبشروسات والبلاتبوس ذات المنقار الشبيه بمنقار البط. ثم أخذونا إلى منارة القطب، أعلى برج في الهند. ضاحكين ومتدافعين بالمناكب، نرتقي درجات السلم، ونحرق إلى الخارج من شرفة الطبقة الأولى. النساء والرجال على الأرض يبدوون أشبه بالنمل. نصيح "هوهوهوهوه"، ونرهف السمع للصوت وهو يتلاشى قبل أن يصل الأرض. في النهاية، أخذونا إلى بوابة الهند كي نرى كرنفلاً ضخماً. أعطوا كل واحد منا عشر روبيات كي ننفقها على أي شيء يفتن ألباننا. أريد أن أركب العجلة العملاقة، إلا أن سالم يتشبث بكمي، ويسحبني إلى كشك آخر. يشير الكشك إلى الأستاذ راماشانكار شاستري. قارئ الكف المشهور عالمياً. فقط عشر روبيات للقراءة الواحدة. يجلس رجل عجوز

في داخل الكشك، يرتدي الزي التقليدي دهوتي كورتا. له شارب أبيض وعلامة قرمزية على جبينه، ومعه عدسات مكبرة سميكة. تبرز choti سوداء من الجزء الخلفي من رأسه.

يقول سالم: "أريد أن تقرأ كفي. إنها عشر روبيات لا غير". أقول له: "لا تكن سخيلاً. هؤلاء الأشخاص مخادعون ويتزود الناس. إنهم لا يستطيعون معرفة مستقبلك، وعلى كل حال، لا يوجد الكثير في مستقبلنا مما يستحق معرفته".

يصر سالم قائلاً: "أريد أن يقرأ كفي بالرغم من ذلك". أستسلم قائلاً: "رائع. انطلق، لكنني لن أنفق روبياتي العشر على هذا الغائط".

يدفع سالم المال وبلهفة يمد يده اليسرى. يهز المعلم رأسه. "لا، ليس اليد اليسرى. هذه للبنات. الصبيان يجب أن تقرأ كُفهم اليمنى". بسرعة يمد سالم كفه اليمنى. يحدق فيها قارئ الكف بعدسة مكبرة، ويحلل الخطوط المخربشة كما لو كانت خارطة كنز مدفون تحت الأرض. في النهاية يخفض العدسة المكبرة ويطلق تنهيدة ارتياح. "لديك يد معتبرة، يا ولدي. لم أرَ خط مصير أفضل. أرى مستقبلاً زاهراً جداً لك".

"حقيقة؟" يتهج سالم. "ماذا سأصبح؟". من الواضح أن السيد شاستري لم يفكر في ذلك. يغمض عينيه على مدى عشر ثوان، ومن ثم يفتحهما. "لك وجه جميل. ستصبح مثلاً مشهوراً جداً"، يعلن قائلاً.

"على غرار أرمآن علي"، يصرخ سالم صرخة حادة. "بل حتى أشهر منه"، يقول المعلم. يلتفت إليّ. "هل تريد أنت أيضاً أن أقرأ لك كفك. إنها بعشر روبيات لا غير".

"لا، شكراً"، أقول وأبدأ بالتحرك مبتعداً، إلا أن سالم يسد طريقي.
 "لا، محمد، يجدر بك أن تقرأ كفلك. من أجلي أرجوك".
 بنظرة مستسلمة، أدفع روبياتي العشر، وأمد كفي اليمنى.
 يعبس المعلم بوجهي فيما هو يثبت عدستيه السميكتين ويتفحص راحتي. يحدق إليها على مدى أكثر من خمس دقائق. يدون بعض الملاحظات، يجري بعض الحسابات.
 يسأل سالم، مدعوراً: "ما الخطب؟".

يقطب قارئ الكف وجهه بصورة طفيفة ويهز رأسه. "خط الرأس قوي، إلا أن خط القلب ضعيف. والأهم، خط الحياة قصير. النجوم لا تبدو صحيحة. اصطفاك الكواكب السيارة منحوس. جبل المشتري جيد، إلا أن جبل زحل يلغيه. هنالك عقبات ومازق لا يسهل إدراكها. يمكنني أن أفعل شيئاً كي أسهل طريقك، لكن ذلك سيكلفك".

"كم يكلفني؟".

"نحو مائتي روبية. لماذا لا تطلب من والدك؟ أليس هو الرجل الذي يملك حافلة كبيرة؟".

أفهمه. "ها! يا معلمي، قبل أن تلفق هذه القصة المتعلقة بمستقبلي، عليك أولاً أن تتحقق من نكون نحن. نحن لسنا غلامين ثريين. نحن يتيمان من ملجأ أحداث دلهي عند البوابة التركمانية وهذه الحافلة حتى لا تعود إلينا. مع ذلك، لقد خدعتنا فتخلينا عن عشرين روبية". أجزء سالم. "تعال، لنذهب. لقد أضعنا وقتاً كافياً هنا".

بينما كنا نمشي مبتعدين، يناديني قارئ الكف. "اسمع! أود أن أعطيك شيئاً ما".

أعود إلى الكشك. يعطيني المعلم قطعة نقد من فئة روبية واحدة.

"ما هذه، يا معلمي؟".

"إنها قطعة نقد جالبة للحظ الحسن. احتفظ بها. ستحتاج إليها".

أمسكُ بها في قبضتي.

يريد سالم آيس كريم، لكننا لا نملك سوى روبية واحدة وبها لا نستطيع أن نشتري أي شيء. نشاهد الأولاد الآخرين يتمتعون بركوباتهم. أرمي قطعة النقد من دون هدف ما فتزلق بين أصابعي وتتدحرج تحت مصطبة ما. أنحني كي ألتقطها. جاءت على وجهها. ترقد بجانبها ورقة مالية من فئة العشر روبيات، أسقطها شخص ما. اشترت وسالم الآيس كريم. أدس قطعة النقد بحذر في جيبي. إنها في الحقيقة تعويذتي الجالبة للحظ السعيد.

سالم حزين فقد تبين أن مستقبلي ليس زاهراً كمستقبله، لكنه أيضاً مسرور جداً لأنه سيصبح نجماً سينمائياً. أماننا لوحة إعلانات ضخمة لفيلم جديد. بألوان مثيرة، تُظهر لنا البطل يحمل مسدساً بيديه، الدم على صدره وحول رأسه منديل أسود كبير مزدان بالرسوم؛ كما تظهر نذلاً ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة مشوّهة. يتطلع سالم إلى اللوحة، مشلولاً.

أسأله: "سالم، ما هذا الذي تنظر إليه؟".

يرد قائلاً: "أحاول أن أرى ما إذا كانت عصاة الرأس السوداء

تناسبني".

نجلس في حجرة الصف، إلا أن السيد جوشي، معلمنا البدن المتخصص بالتحشؤ ونتف شعيرات أنفه، لا يعطينا درساً. إنه يقرأ رواية، مخفية بعناية داخل الكتاب المنهجي الذي يحمله بين يديه. نمضي الوقت بصنع الطائرات الورقية، نحفر أشكالاً على المقاعد الدراسية الخشبية وننام نوماً خفيفاً. بغتة، مونا الذي أعطيت له التعليمات كي

يراقب المجاز، يدخل الصف راكضاً: "أستاذ، أستاذ"، يقول لاهثاً، "السيد الناظر آت".

يطلق السيد جوشي تحشواً عالياً وبسرعة يطرح روايته. يفرع بأصابعه ويقف. "جيد، أيها الأولاد، إذاً ماذا كنا نناقش؟ نعم. أتم جميعاً كنتم تقولون لي ماذا تحبون أن تصبحوا حين تكبرون. من الذين يريد أن يخبرني الآن؟".

يرفع سالم يده. كانت تلك أول مرة يفعل ذلك.

"نعم، سالم، ماذا تريد أن تصبح؟".

"سأصبح مثلاً مشهوراً، أستاذ. أخبرني قارئ كف ذلك"، يقول بانتصار.

يضج الصف بالفهقهات العالية.

هنالك روايتان تتعلقان بموضوع من هو الرجل الضخم. يقول بعضهم إنه تاجر ألماس ثري جداً لا أحفاد له. لذا كان يأتي بين حين وآخر إلى ملجأ الأحداث كي يتبنى الأطفال، الذين يتم أخذهم بعدئذ إلى منزله الفخم في مومباي. يقول آخرون إنه يملك حقيقةً مدرسة في مومباي، يأخذ إليها الأولاد الذين يجدهم واعدن لنيل تدريب مناسب. في كلتا الحالتين، ثمة شيء واحد واضح. إذا اختارك سيثجي، فإن حياتك تكون قد صُنعت.

لا ييالي سالم ما إذا كان سيثجي تاجر ألماس أم مالك مدرسة. إنه في الدرجة الأولى مهتم بالحقيقة التي مفادها أن الرجل الضخم من مومباي؛ مركز صناعة السينما. إنه مقتنع أن سيثجي أتى كي ينتزعه من هذا المكان، ويأخذه إلى عالم بوليوود البهي. فهذا العالم هو قدره. سيتحقق توقع قارئ الكف.

كنا جميعاً نصطف في ردهة الطعام كي نخضع للتفتيش من قبل سيثجي. استحم سالم. في الحقيقة، استحم ثلاث مرات، دعك نفسه المرة تلو المرة كي يزيل كل أثر من آثار القذارة. ارتدى أفضل ملابسه. سرّح شعره بطريقة جميلة. هو أكثر الغلمان وسامةً في الملجأ. لكنني أقلق بشأن يأسه. إذا لم يتم اختياره، سيتحطم.

أخيراً، وصل سيثجي، يرافقه رجلان. هو لا يشبه تاجر ألماس. يبدو أشبه بعضو عصابة لكننا وقتذاك لم نكن قد رأينا تجار ألماس. ربما هم يشبهون أعضاء العصابات. ذو بشرة داكنة جداً وله شارب أسود ثخين أشبه بشارب عضو عصابة اللصوص فيرابان. يرتدي بذلة باندغالا بيضاء. تتدلى من عنقه، سلسلة ذهبية طويلة وسميكة، حتى زره الثاني. أصابعه محملة بخواتم ذات أحجار كريمة مختلفة الألوان. بعضها أحمر، بعضها أخضر، بعضها أزرق. الرجلان التابعان معه يشبهان بالضبط التابعين الأمناء. في ما بعد عرفت أنهما يدعيان مصطفى وبنووز. جوبتا معهم أيضاً، كي يرشدهم. سلسلته الذهبيتان تبدوان متواضعتين مقارنة بسلسلة سيثجي.

يخبره جوبتا قائلاً: "سيثجي، يبدو أنك نسيتنا، فأنت تأتي إلينا بعد وقت طويل جداً. وصل إلينا أولاد جدد كثيرون منذ زيارتك الأخيرة. أنا متأكد أنك ستجد كثيراً ممن تميل إليهم".

يبدأ التفتيش. رسمنا كلنا أفضل البسمات على وجوهنا. يتفحص سيثجي كل غلام، يلمنه من الرأس إلى إصبع القدم. لا أدري ما الذي يبحث عنه، لأنه لم يطرح علينا أي سؤال، إنه ينظر إلى وجوهنا فقط. يكمل جولة واحدة من التفتيش. إنه حتى لم يُلْقِ عليّ نظرةً مجدداً. ثم يفتش الصف مرةً أخرى. حين يصل إلى سالم يتوقف.

"ما اسمك؟" يسأل بلهجة هندية جنوبية ثقيلة.

"س... سالم إلياسي"، يتلعثم سالم بتأثر.
يسأل سيثجي جوبتا: "متى وصل؟".
"قبل أحد عشر شهراً تقريباً، من جهابرا في بيهار".
"كم عمره؟".
"ثمانية أعوام".
"هل لديه أحد؟".
"لا، سيثجي. مات أفراد أسرته كلهم في اضطراب طائفي".
يقول سيثجي: "يا له من أمر محزن! لكنه بالضبط نوع الغلام
الذي أحتاج إليه. هل يمكنك أن تفرز لي العمل الورقي".
"عليك أن تخبرني فقط، سيثجي. كل من تريده من الأولاد
سنعيده إليك في غفلة من الزمن. في ما يتعلق بهذا الصبي، سنري
مصطفى بوصفه العم، هيئة الإنعاش لن تحدث أي مشاكل. الواقع، أنهم
يريدون أن يتخلصوا من أكبر عدد من الصبيان".
"رائع. في ما يتعلق بهذه الزيارة، لنستقر على هذا الغلام فقط".
يتطلع جوبتا إلى سالم، ومن ثم يتطلع إليّ، كوني أقف إلى جانب
سالم. "ماذا بشأنه؟" يشير إليّ.
يتطلع سيثجي في وجهي مباشرة، ويهز رأسه. "إنه كبير جداً".
"لا، سيثجي، إنه في العاشرة ليس إلا. اسمه توماس، يتكلم
الإنكليزية الصحيحة".
"لا فرق بالنسبة إليّ. لا أحتاج إليه. أريد الصبي الآخر".
"إنهما على صداقة حميمة، هذان الاثنان. إن أخذت سالماً، فعليك
أن تأخذ توماس كذلك".
ينزعج سيثجي. "قلتُ لك، جوبتا، إنني لا أريد أي توماس
ووماس. إنني سأخذ فقط صبياً واحداً وهو سالم".

"معدرةً، سيثجي، لكنني أصر. إذا أردت أن تأخذ سالماً، فيجب عليك أن تأخذ توماس. إنها صفقة كاملة".
"صفقة كاملة؟".

"نعم. اشترى واحداً، تأخذ واحداً مجاناً. لن أتقاضى ثمناً على توماس". يتسم جوبتا ابتسامة عريضة، كاشفاً عن أسنانه المصبوغة بالبن.
يتشاور سيثجي مع تابعيه الأمينين.

يقول لجوبتا: "جيد. جهز أوراق الاثنين. سنأتي لأخذهما يوم الاثنين".

يندفع سالم بين ذراعيّ. إنه في ذروة السعادة. في السماء السابعة. تلك الليلة، لم يغمض له جفن من جراء الفرح الخالص. كانت له أحلام سيلولويدية شفافة عن الحياة في مومباي. عن غروب الشمس الذهبي على الطريق البحري، مارين درايف مع أميتاب والفجر الوردي في جاوباتي مع شاهروخ. أنا أيضاً لم يغمض لي جفن. أتقلب على فراشي يميناً ويساراً. لكنني لم أحلم بنجوم السينما ولا بغيرهم. أحلم أنني بائع متجول على الرصيف، أبيع الفاكهة، أن رجلاً ذا بشرة داكنة ينحني ليشتري بعض ثمار المانغا مني. أرى سلسلته الذهبية تتدلى. يدفع إليّ بعض الفكة. أضع ثمرة مانغا جميلة كثيرة العصارة في كيسه، ومن ثم أدس بهدوء موزة متعفنة مجاناً.

رحلة القطار إلى مومباي هادئة. أسافر وسالم في مقصورة النوم من الدرجة الثانية مع التابعين الأمينين مصطفى وبنووز. قيل لنا إن سيثجي ذهب قبلنا في طائرة. كان مصطفى وبنووز يضعان لونغجين⁽¹⁾

(1) لونغجيان lungis: مثلى لونغجي وهو رداء يُوضع حول الخصر في الهند، وفي المناطق الحارة والرطبة، يسمى بالعامية العراقية (وزرة) - م.

ويدخنان بيدين⁽¹⁾ وينامان معظم الوقت. يخبرانا شيئاً قليلاً جداً عن سيثجي. يقولان إن اسمه الحقيقي هو بابو بيلاي، إلا أن الجميع يسمونه مامان، التي تعني عم في لغة مالايالام. كان ينحدر في الأصل من كولام في كيرلا، لكنه استقر في مومباي على مدى زمن طويل. إنه رجل عطوف جداً، يدير مدرسة للصبيان المعوقين، ويساعدهم على إعادة بناء حياتهم. يعتقد مامان أن الأطفال المعوقين محظوظون. إنه (أي سيثجي) ينقذ الأطفال من ملاجئ الأحداث، التي يعتقد أنها ليست سوى معتقلات تحمل اسماً آخر. لو لم ينقذنا مامان، لكانت الحال قد انتهت بنا إلى تنظيف حواجز الرياح في السيارات عند إشارات المرور أو إلى كنس الأرضيات في المنازل الخاصة. سيعلمونا الآن مهارات مفيدة ويهيئونا للنجاح. مصطفى وبنوز بائعان ممتازان. في نهاية الرحلة، حتى أننا كُنْتمُ مقتنعاً أن التقاطي من قبل مامان هو أفضل شيء جرى لي حتى الآن وأن حياتي ستتحول الآن.

من آن إلى آخر، يمر القطار عبر مستعمرات فقيرة، تغطي حافات مسالك القطار كشريط من القذارة. نرى أطفالاً أنصاف عراة يبظون منتفخة يلوّحون لنا، فيما تغسل أمهاتهم الأواني في ماء البالوعة. نرد على تلوّحهم.

تربكنا مشاهد مومباي وأصواتها. تبدو محطة بوابة دار العبادة مثلما ظهرت بالضبط في فيلم حب في مومباي. سالم نصف متوقع أن يرتطم بغوفيندا وهو ينشد أغنية قرب دار العبادة. يشير مصطفى إلى الساحل الذي يقع عند الطريق البحري. أنا مفتون برؤيتي للمحيط

(1) بيديان bedis: مثني بيدي، وهي سيجارة هندية رفيعة ذات نكهة، مصنوعة من التبغ الملفوف بورقة tendu، محكمة بواسطة خيط ملون في النهاية - م.

لأول مرة، حيث الأمواج العملاقة تتحطم وتلتطم بالصخور. لا يرى سالم المحيط المهيّب. إنه ينظر إلى الأكشاك التي تبيع قناني المرطبات والوجبات الخفيفة. "في ذلك المكان تناول غوفيندا ورافينا طبق بهيل بيوري"⁽¹⁾، يشير بتأثر. نمر بدرجة حاجي علي⁽²⁾. يرفع سالم يديه إلى الله حين يرى الضريح، بالضبط كما رأى أميتاب باجاجان يفعل في فيلم كولي⁽³⁾. نجتاز أحياء وورلي، دادار وماهيم. مصطفى وبنووز يلتفتان أنظارنا إلى معالم رئيسة. في حصن ماهيم، يومئ سالم إلى سائق تاكسي كي يتوقف.

يسأل مصطفى: "ما الخطب؟".

"لا شيء. كنت أريد فقط أن أرى المكان الذي يفرّغ فيه المهربون وديعتهم كما في فيلم مافيا!".

بينما كنا نقرب من باندرا، جوهو، وأندهيري المنقطة بالمساكن المتألقة لنجوم السينما، ذات الأسيجة العالية وفصائل الحرس بالبدلات النظامية، يصبح سالم ثملاً. عبر نوافذ التاكسي المطلية، نفغر فاهينا لدى رؤية البنغل⁽⁴⁾ الممتدة في غير اتساق وبلوكات الشقق عالية المنشأ

(1) بهيل بيوري bhel puri: طبق من الأرز المنفوخ مع البطاطا وأرز التمر الهندي ذو النكهة المميزة، وهو من الأطباق الصغيرة لذيدة المذاق، يؤكل في سواحل مومباي وخاصة في جاوباتي - م.

(2) درجة حاجي علي Haji Ali's dargah: جامع وضريح يقع في جزيرة صغيرة بعيدة عن ساحل (وورلي)، في الجزء الجنوبي من مومباي - م.

(3) كولي coolie: اسم تاريخي يطلق على العمال اليدويين من آسيا. أما حالياً فيطلق كوصمة عار على الناس الذين ينحدرون من آسيا، خاصة من الهند، وأواسط آسيا إلخ. أنتج فيلم كولي سنة 1983، ونال شهرة واسعة بسبب إصابة باجاجان في أمعائه في أثناء تمثيل مشهد قتال - م.

(4) البنغل bungalows: جمع بنغل، وهو بيت من طبقة واحدة (وبخاصة في الريف أو على شاطئ البحر) - م.

كالقرويين في أول رحلة لهم إلى المدينة. كما لو أننا نشاهد مومباي عبر عدسة ملوثة. تبدو الشمس أكثر سطوعاً، يلوح الجو أكثر برودةً، يبدو الناس أكثر ازدهاراً، المدينة تنبض بالسعادة الناجمة عن تقاسمها المكان مع أبرز نجوم بوليوود.

نصل إلى غايتنا في غوريغاون. منزل مامان لم يكن البنغل الفخم الذي توقعناه. إنه مبنى ضخم متداعٍ شُيد في فناء ذي حديقة صغيرة ونخلتين. مطوّق بسياج عالٍ يعتليه سلك شائك. يجلس رجلان داكنا البشرة، قويا البنية على الشرفة يدخان بيديين ويضعان لونجيين خفيفين ملونين. كانا يحملان بيديهما عصوي بامبو سميكتين. يلفان ساقاً على ساق. نلمح سرواليهما الداخيلين المخططين. تشع منهما رائحة العرق القوية. يتحدث إليهما بنووز بلغة مالايالام سريعة. الكلمة الوحيدة التي أستطيع أن ألتقطها هي مامان. من الجلي أنهما حارسان في خدمة السيد بابو بيلاي.

حين ندخل المنزل، يلفت مصطفى أنظارنا إلى مجموعة من مباني الحديد الممّوج تقع وراء ساحة المنزل، أشبه بسقائف ضخمة. "تلك هي المدرسة التي يديرها مامان الخاصة بالأطفال المعوقين. الأطفال يقيمون هناك أيضاً".

أسأل: "كيف هذا وأنا لا أرى أي طفل هنا؟".

"خرجوا كلهم من أجل التدريب المهني. لا تقلق، ستلتقيهم مساءً. تعال، دعني أريك حجرتك".

حجرتنا صغيرة وملتزة، ذات سريرين مدفونين في الجدار ومراة طويلة مشيدة في الجدار أيضاً. يأخذ سالم السرير العلوي. هنالك حمام في السرداب يمكننا أن نستخدمه. له حوض استحمام وستارة (دش). لم

تكن الحجرة مترفةً كمنازل نجوم السينما، غير أنها تفي بالغرض. يبدو كما لو أننا الولدان الوحيدان اللذان يقيمان في المنزل.

يأتي مامان للقائنا مساءً. يخبره سالم كم هو سعيد لأنه في مومباي، وكم يرغب في أن يكون نجماً سينمائياً شهيراً. يبتسم مامان حين يسمع هذا الكلام. "أولى المتطلبات كي تصبح نجماً سينمائياً هي القدرة على الغناء والرقص. هل يمكنك أن تغني؟" يسأل مامان سالماً. يجيب سالم: "لا".

"حسن، لا تقلق. سأرتب الأمور لمعلم موسيقى من الصفوة كي يعطيك دروساً. في غفلة من الزمن ستغدو على غرار كيشور كومار".

يبدو سالم كما لو أنه يهتم بمعاينة مامان، لكنه يكبح نفسه. في الليل نذهب إلى المدرسة لتناول طعام العشاء. كانت للمدرسة ردهة طعام شبيهة بتلك التي في ملجأ الأحداث حيث كنا، ذات أرضية مشمع رخيصة، طاولات خشب طويلة، ورئيس طهارة هو نسخة طبق الأصل عن ذاك الذي تركناه في الملجأ. قيل لنا، سالم وأنا، أن نجلس إلى طاولة صغيرة مستديرة مع مصطفى. تم تقديم الطعام والشراب إلينا قبل دخول الأولاد الآخرين. الطعام ساخن وطيب المذاق، بصورة مؤكدة أحسن من الطعام الخالي من النكهة الذي كنا نتناوله في دلهي.

واحدًا إثر واحد بدأ الأولاد بالهجيء، وفي الحال نعترض على تعريفنا للجهيم. أرى أولاداً من دون عيون، يتلمسون طريقهم إلى الأمام بمساعدة العصي؛ أولاداً بأطراف منحنية ومشوّهة، يجرون أنفسهم جراً إلى مائدة الطعام؛ أولاداً بجذعتين مشوهتين عوضاً عن ساقين، يمشون على عكازات؛ أولاداً بأفواه غريبة ويشعة وأصابع ملوثة، يأكلون الخبز المحمول بين المرفقين. بعضهم يبدو كالمهرجين،

عدا أنهم يدفعوننا إلى البكاء بدلاً من الضحك. إنه شيء جيد أن سالم وأنا كنا قد أئمنا وجبتنا.

نرى ثلاثة أولاد في زاوية واحدة، يراقبون الآخرين وهم يأكلون، أما هم فلم يقدم الطعام والشراب إليهم بعد. لعق أحدهم شفتيه. أسأل مصطفى: "من هؤلاء الأولاد؟ ولماذا لا يأكلون؟".

يقول مصطفى: "إنهم يتعرضون للعقاب. كونهم لم يقوموا بعمل كافٍ. لا تقلق، سيأكلون لاحقاً".

يأتي معلم الموسيقى في اليوم التالي. إنه صغير السن بعض الشيء، بوجه بيضوي حليق، وأذنين كبيرتين، أصابع عظمية، رفيعة. يحمل معه نوعاً من الأرغن. يرشدنا قائلاً: "سمياني أستاذ. الآن أصغيا إلى ما أغنيه". نجلس على الأرض بانتباه مستغرق فيما هو ينشد: "سا ري غا ما با دها ني سا". ثم يشرح قائلاً: "هذه هي النوتات السبع الرئيسة الموجودة في كل مقطوعة موسيقية. الآن افتحوا فكيكما، وأنشدا هذه النوتات بصوت عالٍ. دعيا الصوت يخرج من شفاهكما، وليس من أنفيكما، إنما من أسفل حنجرتيكما".

يتنحنح سالم، ويبدأ بالغناء: "سا ري غا ما با دها ني سا". يغني بملء حنجرته، بحماسة. ترن الحجرة بصوت نواته الصافية. يغمر صوته الحجرة، النوتات ترن صافيةً وغير ملطخة.

"جيد جداً". يصفق المعلم. "لديك صوت طبيعي وهبك الله إياه. ليس لدي شك في أنه مع التدريب المستمر، ستكون وفي وقت قريب جداً قادراً على إنجاز المدى الكامل للجوابات (جمع جواب) الثلاثة والنصف". من ثم يتطلع إليّ قائلاً: "جيد. الآن لم لا تغني النوتات نفسها؟".

"ساري غاما با دها..." أحاول أن أنشد، إلا أن صوتي يتصدّع، وتتحطم النوتات، وتنشظى كحفنة من الكريات الرخامية هوت على الأرض.

يدخل المعلم إصبعاً في أذنه. "هاري رام... هاري رام... أنت تعني كاجاموس. يلزمي أن أشتغل عليك بجد".

يهب سالم لنجدتي. "لا، أستاذ، محمد له صوت جيد أيضاً. إنه يصرخ بصورة جيدة، حقيقة".

على مدى الأسبوعين التاليين، يعلمنا الأستاذ أغاني عديدة، وكيف نعزف على الأرغن. الأستاذ معلم جيد. لم يكن يعلمنا الأغاني فحسب، لكنه يشرح لنا كذلك الحقائق المعقدة الموصوفة عبر هذه الأغاني باللغة البسيطة للناس العاديين.

إن حقيقة كون سالم يعتنق الدين الإسلامي ذات أهمية قليلة بالنسبة إلى الأستاذ فيما هو يلقيه البهاجانات الهندوسية. سالم نفسه قلما ييالي بهذا الأمر. إذا كان في وسع أميتاب باجاجان أن يلعب دور حمال مسلم وإذا كان باستطاعة سلمان خان أن يمثل دور إمبراطور هندوسي، فإن سالم إلياسي يستطيع أن يغني البهاجانات باستمتاع كبير.

إبان هذه الحقبة الزمنية، تمكنت وسالم من التعرف على بعض الأولاد الآخرين في مدرسة المعوقين، بالرغم من المحاولات الماكرة لمصطفى وبنووز لمنعنا من الاختلاط كثيراً جداً بأولئك الأولاد الذين يخطئون في تلفظ صفتهم فيقولون "معلقين". نتعرف على التواريخ

الحزينة لهؤلاء الأولاد ونكتشف أنه حين نصل إلى الأقارب القساة والشرطة، فإن مومباي لا تختلف عن دلهي. لكننا فيما كنا نعرف المزيد والمزيد عن هؤلاء الأولاد، الحقيقة المتعلقة بمامان يبدأ لغزها هي الأخرى ينحل.

نصادق أشوك، وهو غلام ذو ثلاث عشرة سنة بذراع مشوّهة، ونتلقى صدمتنا الأولى.

يخبرنا: "نحن لسنا طلاب مدرسة. نحن متسولون. نستجدي في القطارات المحلية. بعضنا نشالون أيضاً".

"وماذا يحدث للنقود التي تكسيوها؟".

"مطلوب منا أن نعطيها إلى رجال مامان، مقابل الطعام والسكن".

"تقصد أن مامان زعيم عصابة؟".

"ماذا تعتقد؟ هو ليس بالصالح، لكنه على الأقل يعطينا وجبتين مُشبعتين يومياً".

تخطمت ثقتي بمامان، إلا أن سالماً يستمر في وضع ثقته التامة في الطيبة الفطرية للرجل.

يكون لنا لقاء مع راجو، وهو صبي أعمى في العاشرة.

"كيف حصل أن عوقتُ اليوم؟".

"لم أكسب ما يكفي من النقود".

"كم مطلوباً منك أن تعطي يومياً؟".

"كل ما نكسبه. لكنك إذا أعطيت أقل من مائة روبية، تتعرض للعقوبة".

"وماذا يحدث حينذاك؟".

"لا تحصل على الزاد. تنام جائعاً. الفئران تأكل بطنك".

"الآن، خذ رغيف الخبز هذا. احتفظنا به من أجلك".

نتحدث إلى رادهي، وهو صبي في الحادية عشرة، بساق مفقودة.

"كيف حصل أنك لم تعاقب؟ أنتَ تكسب دوماً ما يكفي من المال".

"شش... إنه سر".

"لا تقلق. المسألة مأمونة معنا".

"جيد. إنما لا تدع أحداً من الأولاد الآخرين يعرف. كما تريان، ثمة ممثلة تسكن في جو هو فيلي بارلي. كلما يكون عندي نقص، أذهب إليها. لا تزودني بالطعام فقط، بل تزودني بالمال أيضاً كي تغطي النقص في الكسب".

"ما اسمها؟".

"نيلسيما كوماري. يقولون إنها كانت مشهورة جداً في وقت من الأوقات".

"كيف هو شكلها؟".

"لا بد أنها كانت جميلة جداً في شبابها، لكنها الآن أصبحت هرمة. أخبرتني أنها بحاجة إلى المساعدة المنزلية. لو لم تكن لي ساق مفقودة لركضتُ إليها من هنا كي أضطلع بمهنة خادم في منزلها".

أحلم تلك الليلة بالذهاب إلى منزل في جو هو فيلي بارلي. أقرع الجرس وأنتظر. تفتح الباب امرأة طويلة القامة. ترتدي سارياً أبيض. تبدأ ريح شديدة بالعصف، فتجعل شعرها الأسود الطويل يطير على

وجھها، حاجباً إياه. أفتح فمي كي أقول شيئاً ما، ومن ثم أكتشف أنها تخفض بصرها ناظرةً إليّ. أخفض بصري، وأكتشف مصدوماً أنني لا أملك ساقين.

أستيقظ من نومي، مبللاً بالعرق.

تم تقديمنا إلى موولاي، وهو غلام في الثالثة عشرة ذو ذراع مبتورة.

يقول: "أكره حياتي".

"لَمْ لا تحرب؟".

"إلام؟ هذه مومباي، وليست قريتي. ليس ثمة مكان تخبي فيه رأسك في هذه المدينة الواسعة. أنت تحتاج إلى إقامة صلات اجتماعية حتى حين تنام في ماسورة مياه المجاري. وأنت تحتاج إلى الحماية من شرور العصابات الأخرى".

"العصابات الأخرى؟".

"نعم. هرب صبيان الشهر المنصرم. عادا في غضون ثلاثة أيام. لم يتمكننا من إيجاد عمل. لم تسمح لهما عصابة بهيكو بالعمل في منطقتها. هنا، على الأقل نحصل على الطعام والسكن، وحين نعمل لصالح مامان لا ترزعنا أي عصابة من العصابات الأخرى".

"لا نريد أن نكون متورطين مع أي نوع من العصابات"، أقول له وأتلو دوحة. "كبيراً خارا بازار مين، مانجي ما بكي خير، نا كاهو سي دوستي، نا كاهو سي بير". كبير في ساحة السوق يتمنى الرفاهية للجميع؛ هو لا يريد الصداقة ولا العداوة مع أي شخص على الإطلاق.

نلتقي سيكاندار، المستورد من باكستان.

تدور موجة صغيرة من الفرح في ردهة الطعام. وصل صبي جديد. يأتي مصطفى بالنزير الجديد ونحتشد كلنا حوله. مصطفى هو الأكثر فرحاً. "حصلنا عليه هذا الصباح من وداعة (شاكيل رانا)،" يقول ويصفع فخذه بابتهاج.

لم يكن الغلام قد تجاوز سنته الثانية عشرة. نلمسه كما لو أنه حيوان محبوس في قفص. إلا أنه لا يبدو كحيوان. إنه يشبه أكثر الأجانب الذي شاهدناه في الإعلان التجاري عن بسكوت بريطاني في التلفاز. ذو رأس بيضاوي، مستدق الطرف، عيان صينيتان، أنف غليظ وشفتان رفيفتان. يقول مصطفى لبنوز، "إنه من ضريح شاه دولة في بنجاب الباكستانية. هؤلاء الصبيان يُدعون أطفال الفأر".

"كيف يحصلون على رأس كهذا؟"

"سمعْتُ أنهم يضعون حلقات حديد على رأس الطفل الوليد كي يوقفوا نموه. بهذه الطريقة تستطيع أن تحصل على هذا التصميم الفريد للرأس".

يقول بنوز: "في اعتقادي أنه يملك طاقة كامنة كبيرة. سيُسر مامان".

يتفق معه مصطفى. "أجل. عنصر ذو قيمة عالية حقيقية".

لسبب ما، يذكرني غلام الفأر بدب شاهده ذات مرة مع الأب تيموثي في كوناوت بليس. كانت له ياقة ضيقة حول عنقه وقناع أسود يغطي فمه. يضربه مالكة بقوة بعضا مدبة، ويقف هو على كلتا قائمته الخلفيتين، محيياً الناس المتجمهرين من حوله. يرمون قطع النقد عليه. يلتقط المالك النقود، ويسحبه من أجل دور مسرحي آخر. أذهلتني عينا الدب، اللتان بدتا جد حزينتين بحيث إنني سألتُ الأب تيموثي: "هل تبكي الدبة؟".

أكتشف جيتو، محتبئاً في حجرة صغيرة.
يحمل بيده كيساً من النايلون بداخله مادة بيضاء ضاربة إلى
الإصفرار. يفتح نهاية الكيس فوق أنفه وفمه ويستنشق بعمق،
ضاغطاً قاعدة الكيس صوب وجهه. تفوح من ثيابه رائحة صبغ
ومذيب. ثمة طفح جلدي حول أنفه. فمه مبلل بالعرق ولزج. بعد
أن يشم، تغدو عيناه نصف المغمضتين كالزجاج وتبدأ يداه
بالارتعاش.

أهزه: "جيتو!... جيتو! ما هذا الذي تفعله؟".
يقول بصوتٍ ناعس: "لا تقاطعني. أنا أعوم في الهواء. أنا أنام
فوق السحاب".

أصفعه. يسعل بلغمًا أسود اللون.
يخبرني لاحقاً: "أنا مدمن على الغراء. أشتريه من الإسكافي.
الغراء يزيل الجوع، والوجع. أرى ألواناً ساطعة، وغالباً أرى
والدتي".

أطلب منه شيئاً من الغراء وأجربه. بعد أن أشمه أبدأ بالإحساس
بشيء من الدوار، تبدو الأرض تحتي وكأنها تنتقل من مكان إلى آخر،
وأبدأ برؤية صور. أرى امرأة طويلة القامة، ترتدي ساريًا أبيض،
تحمل طفلاً بين ذراعيها. تعصف الريح، فتجعل شعرها يطير على
وجهها، مخفياً إياه. غير أن الطفل يمد يده الصغيرة جداً وبأصابع
ودبعة يمسك خصلات شعرها، فتكشف وجهها عنوة. يرى عينين
منهكتين، غائرتين، أنفاً معقوفاً، أسناناً حادة مستدقة الرأس تتلألأ
بالدم الطازج، ويرقات تزحف خارجة من طيات جلدها المغطى
والمتغضن الذي يتدلى على فكها. يصرخ بذعر ويتشقلب من حضنها.
لا أجرب الغراء مجدداً.

في غضون ذلك، يصل تدريبنا الموسيقي إلى نهاية ما. أستاذ الموسيقى مسرور إلى أبعد حدّ بتقدّم سالم. "الآن أصبحت بارعاً في فنّ الغناء. بقي درس واحد فقط".

"وما هو؟"

"بهاجانات سورداس".

"من هو سورداس؟"

"إنه أشهر مغنيّ البهاكتي جميعاً، والذي لحن آلاف الأغاني التي تمجد كريشنا. ذات يوم هوى في بئر مهجورة. لم يستطع الخروج منها. مكث هناك ستة أيام. راح يتضرع وفي اليوم السابع سمع صوت صبي يطلب منه أن يمسك بيده كي يستطيع أن يجره إلى الخارج. بمساعدة الصبي، خرج سورداس من البئر، إلا أن الصبي غاب عن الأنظار. لم يكن الصبي كريشنا. بعد ذلك كرس سورداس حياته كلها في تلحين الأغاني التي تمجد كريشنا. بآلة إيكثارا وحيدة الوتر في يده، شرع ينشد الأغاني التي تصف طفولة كريشنا. أخذ أستاذ الموسيقى ينشد: أخيان هاري دارشان كي يياسي؛ عيناى توافتان إلى حضورك، يا كريشنا".

أسأله: "لماذا عيناه قاحلتان؟".

"ألم أخبرك؟ كان سورداس أعمى تماماً".

في اليوم الأخير من تدريبنا الموسيقي، راح أستاذ الموسيقى يمحطّر سالم بالمعانقات لأنه أنشد واحدةً من بهاجانات سورداس بصورة جيدة. أنا سريع الغضب وذاهل. لقاءاتي بطريق المصادفة مع صبيان مامان جعلتني ذاهالاً، شديد الاضطراب. يبدو لي أن صبيان مامان هم مجموعة من الأشخاص المحرومين بصورةٍ خاصة.

يأتي بنوز إلى الحجرة كي يتحدث إلى الأستاذ. يتكلمان بصوت منخفض، ومن ثم يخرج بنوز محفظته، ويبدأ بعد بعض النقود. يسلم حزمة من الأوراق المالية إلى أستاذ الموسيقى، الذي يدسها في جيب الكورتا خاصته. يبارحان الغرفة معاً، تاركين إياي وحيداً مع سالم والأرغن.

أقول لسالم: "ما كان يجدر بي مغادرة دلهي. أنتَ على الأقل أصبحتَ مغنياً جيداً، لكنني لم أنل شيئاً من هذه الرحلة".

حينذاك فقط ألاحظ ورقة مالية من فئة المائة روبية ملقاة على الأرض. لا بد أن بنوز أسقطها بينما كان يحصي المال. كان حافزي الأول أن أنسلها، إلا أن سالماً يخطفها من يدي ويصر على القول إنه يجب علينا أن نعيدها. لذا نجتاز الجاز إلى الحجرة التي يستخدمها مامان مكتباً له، حيث يكثر تردد بنوز ومصطفى عليها.

فيما نحن نقترّب من الباب، نسمع صوتاً آتياً من الداخل. يتحدث مامان إلى بنوز.

"وماذا قال الأستاذ بعد إتهائه دروسه؟ إنه يصبح أعلى فأعلى".
 "قال إن الصبي الأكبر سنّاً علم الفائدة، إلا أن الأصغر سنّاً يملك طاقةً كامنةً كبيرةً. يقول إنه لم يدرب غلاماً يفوقه موهبة من قبل".

"أنتَ تعتقد إذاً أن في وسعه أن يجلب لنا ثلاثمائة روبية على الأقل؟".

"ماذا ثلاثمائة روبية؟ حين يغني فإن ما تسمعه لحناً عذباً. ووجهه؟ من يستطيع أن يقاوم وجهه؟ يمكنني القول إن في وسعه أن يكسب أربعمائة إلى خمسمائة روبية. لقد اهتدينا إلى الكنز، مامان".
 "وماذا عن الغلام الآخر؟ طويل القامة؟".

"من يبالي؟ ابن الساقطة عليه أن يعيل نفسه. إما أن يكسب لنا مائة روية كل ليلة أو عليه أن يبقى جائعاً".
 "جيد. أرسلهما معاً إلى القطارات بدءاً من الأسبوع المقبل. سننجز عملنا معهما الليلة. بعد العشاء".

تسري القشعريرة في عمودي الفقري حين أسمع هذه الكلمات. أمسك بيد سالم، ونعود مسرعين إلى حجرتنا. سالم مضطرب بخصوص الحوار الذي سمعناه، والإشارة إلى الأرقام. إلا أن منشار المنحنيات يخرق دماغي.

"سالم، يجب علينا أن نهرب من هذا المكان. الآن".
 "لكن لماذا؟".

"لأن شيئاً سيئاً جداً سيحدث لنا الليلة، بعد العشاء".
 "لا أفهم".

"أنا أفهم كل شيء. هل تعرف لماذا علّمونا بهاجانات سورداس؟".
 "لأنه شاعر عظيم".

"كلا. لأنه كان ضريباً. وهذا ما سنصير عليه الليلة، كي نصبح مؤهلين للاستجداء في القطارات المحلية. أنا مقتنع الآن أن كل الصبيان المعوقين الذين التقيناهم هنا قد شوّهوا وبُترت أعضاؤهم من قبل مامان وعصابته".

إلا أن وحشية كهذه خارج نطاق إدراك سالم. إنه يرغب في البقاء.

يسألني قائلاً: "لم لا تهرب وحدك؟".
 "لا أستطيع الذهاب من دونك".

"لماذا؟".

"لأنني حارسك، وأنتَ جزء من صفقتي الكاملة".

يعانقني سالم. أخرج قطعة النقد من فئة الروبية الواحدة من جيبي. أقول له: "انظر، سالم. أنتَ تعتقد بالقدر، أليس كذلك؟ إذاً دع قطعة النقد هذه تقرر مستقبلنا. إذا جاءت على وجهها نغادر، أما إذا جاءت على قفاهها نبقى، جيد؟".

يومئ سالم برأسه موافقاً. أنقر قطعة النقد باظفري فتقلب في الهواء. تجيء على وجهها.

أخيراً، يذعن سالم لفكرة الهرب من وكر مامان، إلا أن عقله مليء بالريبة. "إلى أين سنذهب؟ ماذا سنفعل؟ لا نعرف أحداً في هذه المدينة".

أعرف إلى أين نذهب. هل تتذكر الممثلة نيلما كوماري التي حدثنا عنها رادهي؟ إنها تحتاج إلى خادم. لديّ عنوانها، وأعرف أيضاً أي قطار محلي يذهب إلى هناك.

"ما رأيك بالذهاب إلى الشرطة؟".

"هل فقدتَ عقلك؟ ألم تتعلم شيئاً منذ مغادرتك دلهي؟ مهما تفعل، أينما تذهب، لا تذهب إلى الشرطة. أبداً".

نحن داخل الحمام الكائن في السرداب، نصغي إلى القرع المستمر للماء الذي يقطر من صنوبر راشع. سالم على كتفي يحمل بيده سكيناً، يحاول أن يحل البراغي التي تثبت النافذة ذات المشبك السلكي في موضعها. "أسرع"، أهمسُ عبر أسناني المطبقة بإحكام.

في الأعلى حراس مامان يتصرفون بقسوة عبر حجرتنا، يفتحون الخزانات والصوانات. نسمع صيحات وشتائم. تنهشم قنينة، فيؤذي

صوت تهمشها أعصابنا المنهكة ويزيد إنهاكها. سالم مذعور. يتنفس بسرعة بلهائات قصيرة. تتعاضم نبضات قلبي إلى أن يكون في وسعي تقريباً أن أسمع خفقانه القوي. يقترب منا وقع أقدام. يقول سالم: "بقي واحد. لكنه مثبت بإحكام. لا أعتقد أنني أستطيع أن أحله".

أحته قائلاً: "أرجوك.. أرجوك حاول مجدداً! تعتمد حياتنا عليه".
يمسك سالم البرغي بالحاح متجدد، يدس السكين داخله بكل قوته. في النهاية يستسلم البرغي. ينزع البراغي الأربعة، ويرفع المشبك السلكي. يُمكننا رؤية النخلتين في الخارج تمايلان برفق مع النسيم. ثمّة حيز يكفيننا فقط كي نزحف إلى الخارج. يكاد رجال مامان ينزلون درجات السلم إلى السرداب حين يناور سالم نفسه عبر النافذة. بعدها يقبض على يدي ويساعدني على الانزلاق إلى الخارج. نتسلق بجهد إلى كوم من الحصى وكسارة الحجارة، لاهثين. القمر بدر، الليل هادئ. نعبّ جرعات عميقة من الهواء النقي. إنه يفوح برائحة جوز الهند.

نجلس الآن في قطار محلي مبتعدين عن غوريغاون متجهين صوب مركز هذه المدينة الواسعة. القطار غير مزدحم في هذه الساعة من الليل وهنالك فقط مسافرون قليلون في مقصورتنا. إنهم يطالعون الصحف، يلعبون الورق، ينتقدون الحكومة، يطلقون الريح. يدخل بائع قناني المشروبات الغازية إلى المقصورة حاملاً صندوقاً بلاستيكياً مبرداً مليئاً بالقناني ذات الألوان المتعددة. "كوكا، فانتا، ثومس آب، ليماك، سفن آب"، يصيح بصوت ذي طبقة عالية. القناني باردة جداً، يمكننا رؤية قطرات صغيرة جداً من الرطوبة تكسو سطحها. يتطلع سالم إلى قناني

المشروبات الغازية ويمرر لسانه على شفثيه المنفرجتين. يتلمس جيبه الأمامي، ويربت عليه بإعادة طمأنة. ينظر إليه البائع بأمل. يهز سالم رأسه ويتحرك الرجل مبتعداً.

في الحال يدخل بائع متجول آخر إلى المقصورة، رجل عجوز ملتج يضع نظارة مستديرة العدستين. ثمّة صينية كبيرة تتدلى من عنقه، مليئة بالعلب الصدئة، قناني زجاج غير شفاف وعلب بلاستيكية صغيرة تحوي تشكيلة من الجذور كثرة العقد، أوراقاً نباتيةً يابسةً، مساحيق وبذوراً. يعلن قائلاً: "يوسف فاهم، حكيم متنقل. بحوزتي دواء لكل داء. من السرطان إلى الإمساك، سمي حالتك المرضية فقط". لسوء حظه، ليس ثمّة مرضى في المقصورة، يغادر بعد مدة وجيزة، تاركاً وراءه رائحة لاذعة للكركم والزنجبيل.

نشاهد أضواء المدينة تومض ثمّ تنخبو فيما يسرع القطار مجتازاً مستعمرات السكن والملاعب الرياضية المدرّجة. نرى بلمحات خاطفة الناس الجالسين في قاعات الاستقبال خاصتهم، يشاهدون التلفاز، يتناولون طعام العشاء، يهيئون الأسرة. حين تكون غايتنا لا تبعد عنا سوى توقفين، نسمع وقع أقدام متثاقلة من الناحية البعيدة للمقصورة.

يظهر غلام ضئيل الحجم مغذى تغذية ناقصة في الساعة أو الثامنة. يلبس غطاءً أزرق وسروالاً قصيراً مغبراً. يمشي بمساعدة عصا ويحمل إيكيتارا بيديه. لم نميزه: لم يكن واحداً من غلمان مامان.

يتوقف في نقطة لا تبعد عنا أكثر من خمس عشرة قدماً ويأخذ بالغناء بمعلء حنجرتة: "سونيري مايي نيربال كي بالارام - سمعتُ أن كريشنا يهب لمساعدة الضعفاء"، وهي واحدة من أشهر قصائد سورداس.

ننكمش حين يغمر المقصورة صوت المغني الشجي. تطفو عائدةً إلينا صور صبيان مامان. راجو، ورادهي، وأشوك، وموولاي. ينضغط

عليّ سالم، وأغوص إلى داخل زاوية مقعدي. إنما كالرادار يتعقّبنا رأس المغني. يبدو أنه ينظر إلينا باهتمام من خلال عيين لا تبصران. على مدى خمس دقائق معذبة نرهف السمع له وهو يكمل أغنيته. من ثم يخرج طاسة استجداء، ويطلب الصدقات. فقط مجموعة من المسافرين تُركوا في المقصورة ولم يكن ثمة أحد يبالي بالتفتيش عن فكة.

فيما كان المغني خالي اليدين يهم بالمرور إلى جانبنا، يأخذ سالم شيئاً ما من جيبه الأمامي. يمسك به في قبضة مضمومة، وينظر إليّ شاعراً بالإثم. أومئ برأسي صامتاً. بتعبير أسيان، يفتح سالم قبضته فوق يد المغني الممدودة. تنجرف ورقة مالية مجمعة من فئة مائة روبية إلى طاسة المتسول.

ترتعد سميتا بصورة لاإرادية. "لا أستطيع أن أتصوّر أنه لا يزال هنالك أناس في يومنا وعصرنا هذا يمكنهم أن ينزلوا عملاً وحشياً كهذا بأطفال أبرياء".

أجيب: "إنها قصة حزينة، إنما واقعية. لو لم أفر وسالم تلك الليلة، فرمّا كنا لا نزال حتى الآن ننشد الأغاني في القطارات المحلية، على غرار ذلك المغني الأعمى".

"هل وصلت أخيراً إلى تلك المهنة مع نيلما كوماري؟"

"نعم، وصلت".

"وماذا جرى لسالم؟"

"رتبت نيلما كوماري حجرةً مستأجرةً له في مبنى سكني في جاتكوبار".

"إنما في القصة الأخيرة، ألم تكن تعمل في سبك المعادن وتقيم في المبنى السكني؟"

"كان ذلك بعد أن غادرتُ نيلما كوماري - أو بالأحرى، بعد أن غادرتني هي".
 "ماذا تعني؟".
 "ستكتشفين ذلك حالاً".

هز سميثاً رأسها، وتضغط زر تشغيل جهاز التحكم عن بعد.

يواجه بريم كومار آلة التصوير. "الآن ننتقل إلى السؤال الرابع بقيمة عشرة آلاف روبية. هذا السؤال دقيق أيضاً، إنما فقط إذا كنتَ تعرف مغنيك. أخبرنا السيد توماس أنه يعتقد بالأديان كلها. دعونا نأمل أنه يعرف البهاجانات خاصته". يلتفت إليّ. "هل أنتَ جاهز؟".
 أجيب: "جاهز".

"جيد. السؤال الرابع. سوردا، الشاعر الضعيف، كان تابعاً متحمساً لمن: (أ) رام، (ب) كريشنا، (ج) شيفا أو (د) براهما؟".
 تبدأ الموسيقى.

"(ب) كريشنا".
 "هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".
 "أجل".

هناك تسارع لقرع طبول. يومض السؤال الصحيح.
 "صحيح تماماً، مائة بالمائة! ربحْتَ الآن عشرة آلاف روبية!" يعلن بريم كومار. يصفق الجمهور. يتسم بريم كومار ابتسامة عريضة. أما أنا فلا.



50,000

كيف تتكلم الأسترالية

"الاسم، الجنس، العمر، من فضلك، سيدي"، يقول رجل الإحصاء الرسمي ذو المظهر الجبان الواقف في الرواق المسقوف واضعاً نظارة سميكة العدستين بإطار أسود. يحمل حزمةً من الاستثمارات ويعبث بقلم أزرق من اللباد.

يرتسم على وجه الكولونيل تايلور تعبير ساخط حين يبدأ التقديمات. يرتدي بذلة كتان بيج. يرتدي البذلات طيلة الوقت، صيفاً وشتاءً. إنها تناسب قامته الطويلة. له وجه بيضوي ذو شارب تخين بلون الفلفل، شفتان رفيفتان وخدان متوردان. شعره رملي اللون مسرّح إلى الخلف. أسرة تايلور كلها وجميع الخدم تجمعوا في الرواق المسقوف الأمامي كما لو أنهم يرومون أخذ صورة فوتوغرافية جماعية. "أنا الكولونيل تشارلز تايلور، ذكر، ست وأربعون سنة. هذه زوجتي ربيكا تايلور، أنثى، أربع وأربعون سنة". يشير إلى السيدة تايلور، شقراء، نحيفة العود ترتدي تنورة طويلة. "هذا ابننا روي، ذكر، خمسة عشر عاماً". يحرك روي الجهاز النقال خاصته بعصبية. غلام طويل وهزيل ويلبس سرواله الجينز ذا العلامة التجارية، وقميصاً قطنية تي

شيرت وابتعل حذاءً خفيفاً من قماش غليظ ونعل مطاطي. "هذه ابنتنا ماجي، أنثى، سبع عشرة سنة". ماجي ليست طويلة جداً، لكنها جميلة المظهر بكل معنى الكلمة، ذات وجه مدور، عينيّن زرقاوين وشعر ذهبي. ترتدي تنورة قصيرة حقيقية.

يجر الكولونيل تايلور نفسه إلى أطول ارتفاع له ويزود صوته بمزيد من القوة. "أنا الملحق العسكري الأسترالي. نحن دبلوماسيون، لذا لا أعتقد أنك تحتاج إلى أن تعدنا في إحصائك. الناس الوحيدون من هذا المنزل الذين يجب أن تدوهم في تقريرك هم خدمنا. ذاك بماغواقي، الواقف قرب البوابة، هو السائق والبستاني معاً، ذكر، اثنتان وخمسون سنة. لدينا خادمة، شاني، أنثى، ثمانية عشر عاماً على ما أعتقد، وهي ليست في المنزل هذه اللحظة. ذلك هو رامو، طاهينا، ذكر، خمسة وعشرون عاماً، وهذا توماس، ذكر، أربعة عشر عاماً. هل هذا كل شيء؟".

"كلا، سيدي، أحتاج إلى أن أسأل خدمك بعض الأسئلة، سيدي. في ما يتعلق بآخر إحصاء رسمي قدّموا استبياناً طويلاً. كل أنواع الأشياء العجيبة مثل أي من البرامج التلفزيونية تشاهده، أي لون من ألوان الطعام تتناوله، أي من المدن زرتها، وحتى؛" يضحك ضحكة نصف مكبوتة، "كم عدد المرات التي تقيم فيها علاقة حميمة؟".

تمس السيدة تايلور لزوجها. "أوه تشارلز، لا نريد أن يضيع رامو وتوماس وقتيهما في هذا التمرين السخيف. ألا تستطيع أن تتخلص من طائر الدرونغو⁽¹⁾ هذا؟".

يسحب الكولونيل علبة سجائر من جيبه. "انظر، سيد مهما كان اسمك، خدمي حقيقةً ليس لديهم وقت كي يجيبوا عن أسئلتك كلها.

(1) الدرونغو drongo: طائر أسود مشقوق الذيل - م.

إذا لم لا تقبل علبة سجائر المارلبورو هذه وتنتقل إلى منزل آخر؟ أنا متيقن من أنك تقدر أن تستثني أربعة أشخاص من تقريرك".

ينظر رجل الإحصاء إلى العلبة، بعدها يلحق شفتيه. "حسن... سيدي، أنتَ عطوف جداً، لكن، كما ترى، أنا لا أدخن السجائر، سيدي. على كل حال، إذا كان لديك بعض من الشراب الاسكتلندي سأكون سعيداً في تقبل هذا الجميل، سيدي. على كل حال، ما هو الفارق إذا ما أخذنا أربع قطرات من أحد المحيطات؟ ما من أحد سيفتقد أربعة أشخاص من بليون!" يقهقه بعصبية.

يلقي الكولونيل تايلور نظرة اشمئزاز على رجل الإحصاء. ثم يدخل إلى قاعة الاستقبال ضارباً الأرض بأخص قدمه ويعود مع قنينة شراب. "الآن، خذ هذه وانصرف بسرعة. لا تزعجنا مجدداً".

يحيي موظف الإحصاء الكولونيل تايلور. "لا تقلق، سيدي. لن أزعجك طيلة السنوات العشر المقبلة". يمشي مبتعداً والفرح يملأ كيانه. السيدة تايلور سعيدة أيضاً. تبتسم قائلة: "هؤلاء الهنود الحقراء. أعطهم قنينة شراب اسكتلندي وسيعملون كل شيء".

يبتسم بهاغواي الواقف عند البوابة ابتسامة عريضة. ليست لديه أدنى فكرة عما يجري. لكنه يبتسم كلما يبتسم *الصاحب*⁽¹⁾ وزوجة *الصاحب*. رامو هو الآخر يبتسم ابتسامة عريضة. يبتسم كلما يتمكن من رؤية ماجي بتنورها القصيرة.

أنا الوحيد الذي لا يبتسم. مؤكد، نحن الخدم أناس غير مرئيين، لا نسمعنا أحد خلال الحفلات والمناسبات العائلية، أما أن نُهمل حتى من التعداد السكاني لبلدنا فهو شيء مسخّط جداً! وأود أن يكف أفراد

(1) *الصاحب* sahib: لقب بمعنى "سيد" يخاطب به الهنود شخصاً أوروبياً ذا

مكانة اجتماعية أو منصب رسمي - م.

أسرة تايلور عن إشاراتهم المتكبرة إلى الهنود الحقرء. لا بد أنها المرة الخامسة التي أسمعهم فيها يستخدمون هذا التعبير منذ أن كنتُ معهم. في كل مرة، أسمع فيها هذا التعبير، يغلي دمي. جيد، إذاً ساعي البريد، وجابي الكهرباء ومصلح الهواتف وموظف الأمن، والآن حتى موظف الإحصاء يضعفون أمام الشراب الاسكتلندي. غير أن هذا لا يعني أن الهنود كلهم مدمنون على الشراب. أود أن أشرح هذا للسيدة تايلور ذات يوم. لكنني أعرف أنني لن أفعل. حين تقيم في موقع ممتاز من دلهي في بيت جميل، تحصل على ثلاث وجبات طعام مُشبعة في اليوم وراتباً قدره ألف وخمسمائة روبية في الشهر، نعم، ألف وخمسمائة روبية في الشهر، تتعلم أن تبتلع كبرياءك. وتبتسم كلما ابتسك صاحب وزوجته.

كي أكون منصفاً مع أسرة تايلور، بالرغم من ذلك، كانوا عطوفين جداً معي. ليس هنالك أناس كثيرون يستخدمونك بأجر إذا ما حضرتَ إلى عتبة دارهم ذات يوم بصورة مفاجئة آتياً من ممباي. الأكثر من ذلك، أعطيتُ كل الإشارات غير الصحيحة. كان الكولونيل ووغ هو سلف الكولونيل تايلور، وقد عُيِّن مقرر عمله مرتين. وأسرة تايلور، كونهم تابعين للكنيسة الإنجليكانية، لم تكن لهم علاقة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي ينتمي إليها الأب تيموثي. كان حظاً خالصاً أنهم كانوا يحتاجون إلى خادم بصورة ملحّة، فقد طردوا توماً المساعد المنزلي السابق.

في الشهور الخمسة عشر التي كنتُ فيها مع الأسرة، خمسة خدم آخرون صرفوا من الخدمة. بسبب الكولونيل تايلور. إنه الرجل الذي يعرف. البستاني، سرق سماداً من السقيفة وعرف الكولونيل تايلور. النتيجة: صُرف البستاني في اليوم التالي. شيلا، الخادمة، التقطت سواراً

من حجرة السيدة تايلور وعرف الكولونيل تايلور. النتيجة: صُرفت شيلاً في اليوم التالي. راجو، الطاهي، فتح خزانة المشروبات وجرع شيئاً من الشراب الاسكتلندي ليلاً. النتيجة: ضُرب وصُرف من الخدمة في اليوم التالي. أجاى، الطاهي الجديد، دبر خطة كي يسرق المال وذكر هذا لأحد أصدقائه عبر الهاتف. النتيجة: صُرف من الخدمة في اليوم التالي، واعتقل هو وصديقه من قبل الشرطة. بيزانتي: الخادمة الجديدة، ارتدت أحد فساتين ماجي لترى مقدار ملاءمته لجسمها. النتيجة: نعم، صُرفت من الخدمة في اليوم التالي. أما كيف يستطيع الكولونيل تايلور معرفة هذه الأشياء التي تجري وراء الأبواب المغلقة، في جوف الليل البهيم، أو عبر الهاتف، حيث لا يوجد أحد في الجوار، فهذا لغز حقيقي.

أنا الشخص الوحيد الذي بقيت. أعترف، بين الحين والآخر أنا كذلك تعرضتُ لإغواء نشل فكة سائبة ملقية حول منضدة زينة السيدة تايلور أو أخذ شوكلاته سويسرية واحدة من الثلاجة الكهربائية، لكنني أبقى حوافز كهذه مكبوحة⁽¹⁾. لأنني أعرف أن الكولونيل تايلور هو الرجل الذي يعرف. والأسرة تثق بي. حقيقة كوني أملك اسماً مسيحياً وأتحدث الإنكليزية شيء يساعدني، أيضاً. فضلاً عن شانتي، التي استخدمت بأجر منذ شهرين خلت، أنا الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أدخل حصرياً إلى المأوى الخاص للعائلة. يمكنني أن أدخل حجرات النوم كلها وأنا الشخص الوحيد المسموح له بمشاهدة التلفاز وغالباً ألعب النينتندو⁽¹⁾ مع روي في حجرة المعيشة. إنما حتى أنا لم يكن مسموحاً لي بدخول حجرة مكتب الكولونيل تايلور، المسماة الكوكر. إنما الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرة النوم الرئيسة. لها باب خشب قوي

(1) النينتندو Nintendo: ألعاب إلكترونية - م.

بني اللون، محمي بقضبان حديد متصالبة لها ثلاثة أقفال: اثنان صغيران وواحد ضخيم ذهبي، على الجدار المجاور للقفل الضخم توجد لوحة إلكترونية بيضاء صغيرة عليها صورة لجمجمة وعظمين وأعداد من صفر إلى تسعة كما كُتب على منصة مفاتيح الهاتف، إذ لا يمكنك أن تفتح القفل الضخم إلا بعد أن تدخل الأرقام الصحيحة، وإذا حاولت أن تفتحه عنوةً تحصل على تيار كهربائي بقوة 440 فولت وتهلك في الحال. غمة ضوء صغير في اللوحة يشير إلى أحمر حين تكون الغرفة مغلقة، كلما يدخل الكولونيل تايلور الغرفة، يتحول الضوء إلى الأخضر. ما من أحد من أفراد الأسرة مسموح له بدخول هذه الغرفة. ولا حتى السيدة تايلور، ماجي أو روي.

الوقت الذي أمضيته مع أسرة تايلور ساعدني على نسيان الوقائع المؤذية في مومباي. شانتارام ونيلما كوماري أصبحا ذكريات موجعة إنما بعيدة. على مدى الشهور القلائل الأولى عشتُ في فزع مستمر، أنكمش خوفاً كلما تجتاز سيارة شرطة جيب ذات ضوء أحمر وامض المجموع. بمرور الوقت، بدأ يتبدد إحساسي بأنني مطارد. كنتُ أفكر في كثير من الأحيان بغوديا، أيضاً، وأسائل نفسي ماذا جرى لها، إنما من العسير أن تستبقي ذكرى ما إذا لم يكن لديك وجه ما كي ترفقه مع الاسم. شيئاً فشيئاً، اختفت غوديا في صندوق قمامة ماضي حياتي. لكنني لم أستطع نسيان سالم. في كثير من الأحيان كنتُ أشعر بالذنب لأنني تركته ومضيت. ساءلتُ نفسي كيف يتغلب هو على المشكلات والمصاعب، وما إذا كان لا يزال يعمل بصفة (دابا والا - موزع وجبات الغداء)؟ لكنني أحجمتُ عن الاتصال به، خشية أن يكشف هذا - ربما - مكان وجودي للشرطة.

خلال إقامتي مع عائلة تايلور، تعلمتُ أن أزحرف دمي باربي وأصنع المذوّبة⁽¹⁾. أصبحتُ ضليعاً في مزج المشروبات وفي قياس الشراب الاسكتلندي بالجرعة. تذوقتُ شرائح لحم الكنغر وزُلايات التمساح المستوردة مباشرةً من كانبيرا. أصبحتُ هاوياً في ألعاب الركبي، وكرة المضرب، وشيء ما يدعى قواعد أوسي، التي أشاهدها مع روي. إنما حتى بعد هذا الوقت كله، ما زلتُ أكافح مع اللهجة الأسترالية. أجلس، كل مساء، في غرفتي وأتمرّن على التكلم بلهجة مواطن أسترالي.

"نهار طيب، زميل، أراك ليلاً عند بوابة الهند"، أقول وأنفجر ضاحكاً.

أستمتع بصورة خاصة بالذهاب للتسوّق مع السيدة تايلور. إنها تحصل على معظم مؤلّها من أستراليا. إنما من حين إلى آخر نشترى المنتوجات المستوردة من سوبر بازار وخان ماركت. نشترى الكوريزو⁽²⁾ الإسباني، وجبن روكفورت، والخيار الصغير في الماء المالح والفلفل الحار في زيت الزيتون. أفضل الأيام هي حين تأخذ معها ماجي وروي إلى كَندز مارت، أكبر مخازن الأطفال في العالم كله. يعرضون فيه الملابس والدراجات الهوائية والكاسيتات. ماجي وروي يشتريان الكنزات الفضفاضة وسراويل الجينز وأستطيع التمتع بدوامه الخيل. تحصل ماجي وروي على مجلة شهرياً. تُسمى الجغرافية الأسترالية. أعتقد أنّها أفضل مجلة على سطح الأرض. إنها متخمة بصفحة فوق صفحة بصور فوتوغرافية لأكثر الأماكن بهاءً في العالم، جميعها في أستراليا. ثمة سواحل ذات أميال من الرمل الذهبي. جزر تحفها

(1) المذوّبة: foudun: طعام من جبن مذوّب وزبدة وبيض إلخ - م.

(2) الكوريزو chorizo: سجق من لحم مقدّد، ذو أنواع مختلفة - م.

أشجار نخيل محبة إلى القلب. محيطات مليئة بالحيتان وأسماك القرش. مدن تعج بناطحات السحاب. براكين تقذف حمماً مُهلكة. جبال مكللة بالثلج تحضن ودياناً خضراء ساكنة. في سن الرابعة عشرة، طموحي الوحيد هو أن أرى هذه الأمكنة الجميلة، الأسرة. أن أزور كوينزلاند وتاسمانيا والحيد المرجاني الكبير قبل أن أُلغى أنفاسي. حياتي مع أسرة تايلور مريحة، أيضاً، لأنني لا أملك عملاً كثيراً كي أؤديه. على خلاف منزل المثلة، حيث كنتُ الخادم الوحيد، هنالك ثلاثة آخرون هنا أتقاسم معهم العمل. رامو هو الطاهي والمطبخ كله من مسؤوليته. شانتى تهيب الأسرة وتقوم بغسل الثياب. علي فقط أن أنظف بالمكسنة الكهربائية ومن دونها. من وقت إلى آخر، أصقل أيضاً سكاكين المائدة الفضية، أكس الكتب في مكتبة الكولونيل تايلور وأساعد بهاغواقي في تشذيب الأسيجة المؤلفة من الشجيرات. نقيم كلنا في مسكن الخدم الملاصق للمنزل الرئيس. لدينا حجرة واحدة كبيرة وحجرتان صغيرتان. يقيم بهاغواقي في الحجرة الكبيرة مع زوجته وابنه. نقيم شانتى في الثانية، وأتقاسم الثالثة مع رامو. للحجرة سريران معلقان في الجدار. أنام على السرير الذي في الأعلى.

رامو رجل لطيف. التحق بأسرة تايلور قبل أربعة شهور خلعت وهو طاه ممتاز. الادعاء الرئيس لشهرته هو أنه يعرف الطبخ الفرنسي، كونه عمل في وقت سابق لأسرة فرنسية. يمكنه أن يصنع كعكة السلمون، فطيرة حلوى تضاف إليها نكهة شراب، والجميري مع فتات الخبز، وهو طبقي الأثير. رامو قوي البنية، ووجهه، إذا تجاهلت بثور الجدرى، جميل المنظر. يحب مشاهدة الأفلام السينمائية الهندية. أفلامه المفضلة هي تلك التي تهرب فيها البطلة الثرية مع البطل الفقير. لدي شك في أن شانتى تحب رامو. الطريقة التي تنظر بها إليه، تغمز له بعينها

أحياناً، تجعلني أعتقد أنها تحاول أن تعطي رامو إشارةً ما. غير أن رامو لا يبالي بشانتي. كان مغرمًا بامرأة أخرى. جعلني أفسم ألا أذكر هذا لأي شخص، لذا لا أستطيع أن أكشف الاسم. لكنني أحسب أنني أستطيع أن أذكر أنها فتاة جميلة ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي.

مع أنني أقيم في مسكن الخدم، تعاملني أسرة تايلور بوصفي جزءاً من الأسرة. كلما يذهبون في نزهة إلى مطعم ماكدونالد، يتذكرون أن يبتاعوا لي وجبة أولاد. حين يلعب روي وماجي سكرابل⁽¹⁾ فإنهما يضماني إليهما دوماً. حين يشاهد روي مباريات الكريكت في حجرة التلفاز، يدعوني دوماً إلى الالتحاق به؛ مع أنه يغدو مقرفاً حينما تخسر أستراليا المباراة. في كل مرة تسافر فيها أسرة تايلور إلى أستراليا لتمضية عطلة ما هناك، يصرون على أن يجلبوا لي هدية صغيرة؛ حلقة مفاتيح مكتوب عليها أحب سيدي أو قميص قطني تي شيرت ذو رسالة مضحكة. غالباً يدفعني هذا العطف كله إلى البكاء. حين أتناول شريحة من جبن آدم أو أشرب علبة شراب الجذور⁽²⁾، أجد أنه من الصعب أن أصدق أنني نفس الغلام اليتيم الذي كان يتناول أرغفة الخبز الثخينة المسوّدة والطعام المطبوخ بالغلي البطيء غير القابل للهضم في ملحاً أحداث قذر قبل مدة زمنية لا تزيد على خمس سنوات خلت. يحدث لي في بعض الأحيان أن أبدأ بتصور نفسي جزءاً من هذه الأسرة الأسترالية. رام محمد تايلور. لكن حين يتم تأنيب أحد الخدم أو صرفه من الخدمة أو حين يهز الكولونيل تايلور إصبعاً ويقول: "أنتم الهنود

(1) سكرابل Scrabble: لعبة كلمات تلعب بأقراص ذات حروف مخمئة على لوحة لغرض تكوين كلمات مجاورة لتلك المكشوفة أصلاً وذلك باستخدام أقصى التخمينات - م.

(2) شراب الجذور Root beer: شراب غازي أو فوار مُنكه بخلاصات الجذور والأعشاب - م.

الحقراء"، يتهمشم عالم الحلم خاصتي، وأبدأ بتصور نفسي كهجين يختلس النظر عبر نافذة مسدودة إلى عالم غريب لا أنتمي إليه.

إنما ثمة شيء واحد يعود إليّ، وهو المال الذي يتكدّس من راتبي، مع أنني حتى الآن لم أره ولم ألمسه. بعد تجارب سيئة مع قافلة من الخدم، قرر الكولونيل تايلور ألا يهبني راتباً شهرياً استناداً إلى حقيقة كوني قاصراً. يهبني فقط خمسين روبية شهرياً كمصروف جيب. من المفروض أن أتسلم بقية راتبي كمدخرات متراكمة فقط في حالة إنهاء خدماتي. في حال كنتُ قد تصرفْتُ بصورة جيدة، بخلاف ذلك، على غرار راجو وأجاي، تكون الحال مع السلامة من دون دفع الراتب. بصورة مختلفة عني، يتسلم رامو راتباً شهرياً، عبارة عن ألفي روبية بالتمام. كان قد كدّس حتى الآن مبلغاً قدره ثمانية آلاف روبية يحفظها مخبئةً بأمان في حيز فارغ في فراش سريره. لديّ فقط مائة روبية في جيبِي، إنما لديّ دفتر يوميات أحمر صغير أحفظ فيه راتبي شهرياً. حتى اليوم، أسرة تايلور مدينة لي باثنين وعشرين ألفاً وخمسمائة روبية. مجرد فكرة كوني أملك كل هذا المال تجعلني أشعر بالدوار.

أحلم ليلياً بزيارة الأمكنة التي أشاهدها في الجغرافية الأسترالية. لرامو طموحات أكبر. إنه يحلم بالزواج بفتاة بيضاء جميلة وأن يمضي شهر العسل في سيدني، وأن يباشر بالعمل في سلسلة من المطاعم الفرنسية حيث يقَدِّم لحم الغزال وقشدة كراميل.

جارنا تاجر السلع المستعملة، أو كاباريوالا، موجود هنا. تبيعه السيدة تايلور كل الصحف والمجلات التي ادخرناها على مدى الشهور الستة الماضية. لا بد أن شراءها كلف على الأقل عشرة آلاف روبية. لكننا نبيعها بسعر خمس عشرة روبية للكيلوغرام الواحد. نجلب رامو

وأنا رزماً ثقيلةً من تايمز أوف إنديا، إنديان إكسپرس، البايونير والهندو. نسحب النسخ المكدّسة من إنديا تودي، فميننا، كوزموبوليتان وذا أوسترياليان. يزنها الكاباريوالا في ميزانه المغير. يظهر روي في المشهد فجأةً. يسأل أمه قائلاً: "ما الذي يجري؟".

تجيبه: "لا شيء. نحن فقط نتخلص من كل الصحف المستعملة في المنزل".

"أوه، هل ذلك صحيح؟" يقول ويختفي في المنزل. يظهر بعد خمس دقائق مسلحاً بثلاثين نسخة من الجغرافية الأسترالية. يتدلى فكي بسبب صدمتي. كيف يستطيع روي حتى أن يفكر في بيع هذه المجلات؟ إنما قبل أن أقول أي شيء، كان الكاباريوالا قد وزن المجلات الثقيلة. "هذه يصل وزنها إلى ستة كيلوغرامات سأعطيك تسعين روبية ثمنها"، يقول لروي. يومئ الغلام برأسه. انتهت الصفقة. أعود مسرعاً إلى حجرتي.

حالما يغادر الكاباريوالا المنزل، أدنو منه في الطريق وأخاطبه قائلاً: "أنا آسف جداً، لكن زوجة/الصاحب تريد أن تعيد إليها تلك المجلات".

يهز كتفيه استهجاناً. "شيء غاية في السوء. لقد اشتريتها الآن. هي ذات ورق ممتاز ستعود عليّ بثمان ممتاز". في النهاية وجب عليّ أن أعطيه روبياتي المائة، لكنني استعدت أعداد الجغرافية الأسترالية. هي الآن ملكي. ذلك المساء، أنشرها كلها في حجرتي الصغيرة جداً، وأشاهد صور الجبال والسواحل، قنديل البحر وجراد البحر، القاوند الضحاك⁽¹⁾ والكنّاغر تطفو أمام عينيّ. بشكلٍ من الأشكال، هذه

(1) القاوند الضحاك Kookaburras: طائر مائي أسترالي بحجم الغراب يشبه صوته الضحك العالي - م.

الأمكنة الغريبة يبدو اليوم الوصول إليها أسهل. ربما حقيقة كوني أملك المجالات الآن يعني أنني أملك أيضاً جزءاً صغيراً جداً من محتوياتها في قلبي.

ثمة شيء آخر جدير بالذكر يحدث هذا الشهر هو الظهور الأول للقباض على الجواسيس. هذا المسلسل كان له تأثير العاصفة على أستراليا. تجري أحداثه في ثمانينيات القرن العشرين، ويدور حول حياة ضابط الشرطة الأسترالي المدعو ستيف نولان الذي يقبض على الجواسيس. أصبح الكولونيل تايلور مدمناً كلياً على مشاهدته. تقريباً كل مساء يختفي في وكره ولا يخرج منه إلا لتناول طعام العشاء. إنما تأتي ليلة الأربعاء، يجلس في حجرة التلفاز غملاً من شراب الشعير، ويشاهد ستيف نولان يقبض على الأجانب القذرين يُدعون الشيوعيين يبيعون الأسرار إلى منظمة روسية تُدعى الكيه جي بي. أحب المسلسل بسبب مطاردات السيارات، الأعمال الجريئة التي تتحدى الموت والأدوات المأداة، من مثل قلم الحبر الذي يتحول إلى آلة تصوير مصغرة، ومُسجل الشريط الذي يصبح مسدساً. كنتُ مفتوناً بسيارة ستيف نولان؛ فيراري حمراء ساطعة تندفع بسرعة عبر الشوارع كالصاروخ.

حفلة حديقة أسرة تايلور هي موعد محدد ومنتظم إبان موسم الصيف، إنما حفلة اليوم شيء خاص. إنها على شرف جنرال زائر من أستراليا وحتى المندوب الأعلى للحكومة سيحضر. رامو وأنا، لأول مرة، وحتى بهاغواتي، نقف ثابتين؛ نرتدي بذلات نظامية بيضاء نظيفة ذات أزرار ذهبية مدورة، ونضع قفازات بيضاء، وننتعل أحذية سوداء، ونعتمر عمامات بيضاء كبيرة ذات أذيال صغيرة تجلس بصورة غير

مريحة على رؤوسنا الصغيرة. إنها من النوع الذي يلبسه العرسان في احتفالات الزواج. عدا أننا لا نبدو كالعرسان على صهوات الجياد. نبدو أشبه بُنْدَل ممتازين في حفلة حديقة فاخرة.

يبدأ الضيوف بالوصول. يرحب بهم الكولونيل تايلور في المرج الخلفي جيد التشذيب، وهو يرتدي بذلة بلون أزرق فاتح. رامو مشغول بشي أسياخ: لحم الدجاج، والسّمك، ولحم الضأن على حفرة الشوي. يقدّمهما غواتي الكوكيتلات للضيوف على صينية فضة. أما أنا فأقوم بالخدمة في المشرب. شانتى مشغولة بتقديم الخدمة في المطبخ. حتى هي ترتدي تنورة أنيقة بدلاً من الساري المألوف خاصتها.

الضيوف معظمهم بيض البشرة ومن سفارات أخرى. هنالك أيضاً عدد ضئيل من الهنود؛ صحفيان وموظفون من وزارة الدفاع. يحتسي البيض شراب شعير والكوكيتلات. الهنود، كالعادة، يطلبون فقط شراباً اسكتلندياً. الحوار في حفلة الحديقة يقع في فئتين. يتكلم الهنود حول السياسة والكريكت. أما الدبلوماسيون والمغتربون فيتبادلون الأحاديث غير المتكلفة حول خدمتهم وزملائهم وينتقلون أقوال الغير في ما يتعلق بالحر. "إنه حر لاذع جداً. أتمنى أن يعلنوا عطلة ما". "هربت خادمتي قبل مدة ما مع البستاني بعد أن رقيتهما". "من الصعب جداً أن تحصل على خدمة جيدة هذه الأيام. معظم هؤلاء الخدم الحقراء لصوص".

أحدث وصول المندوب الأعلى للحكومة مع رجل يرتدي ملابس فاخرة وأنيقة هو - كما قيل لي - الجنرال، غمغمةً مختلطة. كادت السيدة تايلور أن تسقط عندما أسرع الخطى للترحيب بالمندوب الأعلى. هنالك كثير من القبلات والمصافحات بالأيدي. يبدو الكولونيل تايلور مسروراً. الحفلة تسير سيراً حسناً.

عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، يغادر جميع الضيوف. فقط الصحافيان الهنديان والموظف من وزارة الدفاع المدعو جيفان كومار لا يزالون جالسين يرضعون جرعتهم العاشرة من الشراب الاسكتلندي. تتطلع إليهم السيدة تايلور بازدراء. تخاطب زوجها قائلة: "تشارلز، لماذا وجب عليك أن تدعو هذين الصحفيين الدعيين الحقيرين؟ إنهما دوماً آخر من يغادر".

يثير الكولونيل تايلور ضوضاءات عاطفية. موظف وزارة الدفاع، رجل داكن البشرة، ممتلئ الجسم، يطوف جلسة داخل المنزل. يصيح: "هل يمكنني أن أتحدث إليك بكلمة، سيد تايلور؟" يسرع الكولونيل تايلور خلفه.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ورامو لا يزال مستيقظاً. أسمعته يتقلب في سريره المثبت في الجدار "ما الخطب، رامو؟ ألا تستطيع أن تنام الليلة؟" أسأله.

"كيف يمكنني أن أنام، توماس؟ حبيبتى تعذبني".
 "أنتَ أحق. كم مرة قلتُ لك ألا تفكر في هذا الأمر الوهمي؟ إذا اكتشف الكولونيل تايلور الأمر سيدبحك".
 "على العشاق أن يكونوا مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل عشقهم. إنما على الأقل معي الآن قطعة من حبي".
 "ماذا؟ ماذا لديك؟" أنزل من سريري.

"ششش... سأريك إياها فقط إذا أقسمت لي ألا تريها لأحد".
 "حسن، حسن، أقسم. الآن أرني ماذا لديك".
 يمس رامو يده تحت وسادته ويخرج قطعة من قماش أحمر. يقرّبها من منخريره ويستنشق بعمق. حتى أنا في وسعي أن أشم عطراً خفيفاً.

"ما هي؟ يلزمك أن تريها لي".
ينشرها رامو كالعلم. إنها حمالة صدر حمراء. أثب مصدوماً،
وأضرب رأسي على الدرايزين الخشبي.
"أوه، من أين حصلتَ عليها؟ لا تقل لي إنها خاصتها".
"الآن، شاهدها بنفسك". يسلمني رامو حمالة الصدر.
أقلب حمالة الصدر. تبدو أشبه بقطعة ثمينة جداً، مليئة بتطريز الدانتيل.
لها رقعة⁽¹⁾ صغيرة بيضاء قرب الكلايين تشير إلى: "فيكتوريا سيكرت".
أسأله: "من هي فيكتوريا؟".
"فيكتوريا؟ لا أعرف أي فيكتوريا".
"حمالة الصدر هذه تعود لفيكتوريا. إنها حتى تملك اسمها. من أين
حصلتَ عليها؟".
رامو مضطرب ومشوش. "لكنني... لكنني سرقتها من حجرة
ماجي".
"أوه رامو! أنتَ تعرف أنه غير مسموح لك الذهاب إلى حجرتي
نوم الطفلين. الآن ستواجه مشكلة حقيقية".
"انظر، توماس، وعدتني ألا تخبر أحداً. من فضلك، أتوسل إليك،
لا تكشف هذا السر".
أرسم إشارة على قلبي فيما أتسلق عائداً إلى سريري. في الحال
يبدأ رامو يغط في نومه. أعرف أنه يحلم بفتاة ذات عينين زرقاوين
وشعر ذهبي. لكنني أحلم بسيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض. أنا
مقتنع أن رامو يتجه صوب مشكلة ما. لأن الكولونيل تايلور هو الرجل
الذي يعرف.

(1) رقعة label: رقعة تثبت على شيء ما، لتدل على محتوياته أو أوصافه أو
حجمه أو علامته التجارية - م.

من دون ريب، بعدها بيومين تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض، تأتي صارخةً إلى المنزل. ضابط شرطة يضع نظارة شمسية يمشي متباهياً في ردهة الاستقبال. هو ضابط الشرطة نفسه تياغي الذي ألقى القبض على أجاي. يسأل عن رامو، ويجر موظفو الأمن الطاهي من المطبخ يأخذونه إلى حجرته. أعدو وراءهم. إنها حجرتي أيضاً. ينقبون في سرير رامو. يجدون المال في داخل فراشه. يكتشفون كذلك قلادة ألماس تستكن تحت وسادته. كيف وصلت إلى هناك لا أدري، لكنني أعرف أن رامو ليس لصاً. ثم راح موظفو الأمن يفتشون في حاجياتي. يجدون مجلات الجغرافية الأسترالية خاصتي، مكدسة بصورة مرتبة في أحد الأركان. يجدون حلقات المفاتيح خاصتي وقميصي القطنية. ومن ثم يجدون حمالة صدر حمراء مجمدة تحت فراشي. كيف وصلت إلى هناك ليست لدي أدنى فكرة، لكنني أعرف أنها حمالة الصدر نفسها التي سرقها رامو من حجرة ماجي.

أحضروني أمام عائلة تايلور كمحكوم سيئ السمعة. "أيها صاحب تايلور، كنتَ تتكلم فقط عن لص واحد في المنزل، وجدنا قلادة ألماس وكثيراً من الأوراق المالية المسروقة في سريرهِ. إنما ماذا وجدنا في سرير ابن الساقطة الصغير هذا. وجدنا هذه المجلات، التي لا بد أنه سرقها من الأولاد -" يُسقط كدس الجغرافية الأسترالية على الأرض، "ووجدنا هذه". ينشر ضابط الشرطة حمالة الصدر الحمراء كالعلم.

تشرع ماجي بالبكاء. يبدو رامو كما لو أنه على حافة الإغماء. تلوح في عينيّ الكولونيل تايلور ومضة قاتلة.

"يا سلام! أنت أيضاً، توماس؟" تقول السيدة تايلور، مصدومة تماماً. تستبد بها ثورة غضب، وتصفعني أربع أو خمس مرات. تتحدث بطريقة مسرحية: "أنتم الهنود الحقراء! كلكم سواء. لستم سوى كسالى عاقين. نغذيكم ونكسوكم وهذا ما تبادلوننا به، تحاولون أن تنهبوا ممتلكاتنا الشخصية؟".

يأتي الكولونيل تايلور لإنقاذي. "لا، ريكا"، يقول لزوجته. فرقة معتدلة للسطو. "توماس فتى طيب. ابن الساقطة رامو هو الذي أخفى هذا في سريره. صديقي، أعرف ذلك".

يرهن الكولونيل تايلور مرة أخرى أيضاً على أنه الرجل الذي يعرف. تنقذني معرفته غير المحدودة ذلك اليوم، وأسترجع مجموعتي من الجغرافية الأسترالية. إلا أن سواحل كوينزلاند والحياة البرية في تاسمانيا لم تعودا تغريني بعد الآن. ينتحب رامو ويعترف بنشل حمالة الصدر، إلا أنه يستمر في توكيده على أنه لم يسرق القلادة. يشير بإصبع الاتهام إلى شاني. إنما هذا كله بلا جدوى. يأخذه ضابط الشرطة في سيارته الجيب. يأخذ كذلك زجاجة شراب اسكتلندي من الكولونيل تايلور، ويتسسم كاشفاً عن أسنانه. "شكراً جزيلاً، أيها الصاحب تايلور. في أي مرة تحتاج فيها إلى خدمتي، فقط اتصل بي هاتفياً. إنها لسعادة قصوى أن نقدّم لك خدمة ما. هي ذي بطاقتي".

يأخذ الكولونيل تايلور البطاقة بشرود ذهن، ويتركها على الطاولة الجانبية في ردهة الاستقبال.

هنالك كثير من المهرج والمرج في المنزل. تحصل أسرة تايلور على كلب مدلل لماجي. يأتي به الكولونيل إلى المنزل بطوق. هو

صغير ومكسو بالفراء، ذو خطم ندي صغير جداً، وذيل طويل. يبدو أشبه بدمية ويعوي بدلاً من أن ينبح. تقول ماجي أنه أبسو⁽¹⁾. تقرر أن تسميه روفر.

مجدداً ثمة هياج في المنزل. وصل طاه جديد، اسمه جاي، إنه لا يعرف نصف الأشياء التي كان يعرفها رامو. لا بأس بكونه لا يعرف أسلوب الطبخ الفرنسي، إنه لا يستطيع حتى لفظ كلمتي au gratin⁽²⁾. لكنه يحصل على المهنة لأنه إنسان ناضج، متزوج، وله ابنتان يقيمون في قرية قريبة. لم أكن سعيداً جداً بمشاركته حجرتي مجدداً. كنت أتمتع بالنوم وحيداً على السريرين المثبتين في الجدار. في بعض الليالي أنام على السرير العلوي وفي ليالٍ أخرى على السفلي.

كرهت جاي على الفور، له عينان مراوغتان. يدخن سراً في الحجرة؛ التدخين في مقر إقامة أسرة تايلور ممنوع، ويعاملني كما لو كنتُ خادماً. "ما هو طموحك في الحياة؟" يسألني على غرار المعلم في ملجأ الأحداث.

أكذب قائلاً: "أن أملك سيارة فيراري حمراء. ما هو طموحك أنت؟".

يشعل سيجارة أخرى، ويجعل حلقات الدخان تدوّم خارجة من فمه. "أريد أن أفتح مرأباً، لكنه يكلف مالاً. لي صديق ثري جداً، عمّار، وعِدني أنني إن استطعت أن أرتب مائة وخمسين ألفاً، سيجمع المبلغ المتبقي. كم تعتقد أن هؤلاء الغربيين يملكون من المال في المنزل؟".

(1) أبسو Apso: صنف من الكلاب الصغيرة، غير الرياضية، ذو غطاء طويل، بسيط. أصله من التيبِت. تعني كلمة أبسو في اللغة التيبِيتية: الملتحي - م.

(2) au gratin بالفرنسية: مطهو مع طبقة من كسر الخبز أو الجبن المبشور - م.

الترمتُ الصمت. لذا من الأسبوع الأول تحديداً، بدأ السيد جاي يضع خطةً للسرقة. إنه شيء جيد كونه لا يعرف عن الرجل الذي يعرف. سيكتشف ذلك حالاً.

يبدأ الكولونيل تايلور بالتنزه مشياً على الأقدام في ساعة مبكرة من الصباح بصحبة روفر إلى حديقة لودهي، القرية من المنزل. إلى أن تسن حكومة دلهي قانوناً جديداً يلزم الناس ذوي الكلاب المدللة أن يجرفوا فضلات الكلب المبعثرة وإلا عليهم أن يواجهوا غرامات ضخمة، من ذلك الوقت فصاعداً أُعطيت إليّ التعليمات أن أرافق السيد والكلب وأن أقوم بوظيفة كناس لروفر. أمقتُ هذا العمل الروتيني. تخيلي أنه يجب عليك أن تنهضي من السرير عند الخامسة والنصف صباحاً وأن تذهبي مسرعةً مع مجرفة خلف كلب قذر وغبي يتبرز كل دقيقتين. حديقة لودهي، بالرغم من ذلك، مكان جميل لنزهة صباحية مشياً على الأقدام. لها كم كبير من النباتات الخضراء وتمثال منهار موغل في القدم يدعى بارا غومباد في الوسط. صباحاً يكون المتنزه مليئاً بممارسي العدو الوثيد. أرى سيدات عجائز بدنيات يمارسن اليوغا وفتيات فاقدمات الشهية إلى الطعام يمارسن التمارين الرياضية في الهواء الطلق. أبدأ أيضاً بملاحظة أن الكولونيل تايلور يتوارى غالباً عن الأنظار لحظات طويلة من الزمن حين أكون منشغلاً بجرف مخلفات روفر. هذا الأمر أثار اهتمامي، لذا أترك روفر ذات صباح لمشيتته الخاصة، وأقرر ملاحقة الكولونيل تايلور. أراه يجتاز بارا غومباد، ويتحرك صوب أجمة صغيرة. أختلس النظر من وراء شجرة كثيفة وأراه يحبي الهندي من وزارة الدفاع نفسه الذي حضر إلى حفلة الحديقة.

"هل تعرف، سيد كومار، أنني تبعتك ليلة أمس من منزلك في ساوث إكس إلى مخزن بيع الحلويات، ولم يكن لديك أي فكرة؟" يقول الكولونيل تايلور.

يتعرق جيفان كومار بغزارة وهو قلق ومتململ بصورة جلية. يبدو نادماً جداً. "أوه، أنا متأسف حقيقةً، أيها الصاحب الكولونيل. سأكون حذراً أكثر في المستقبل. أعرف أنه يجب ألا يرانا الناس معاً." "بالطبع، سيد كومار، هذا لا يحتاج إلى القول. لكنك إذا تواصلت تساهلك في ما يتعلق بسلامتك أخشى أنه ينبغي لنا أن نضع نهاية لهذه اللقاءات وجهاً لوجه. تذكر القاعدة البسيطة CYTLYT"⁽¹⁾.

"نعم. إنها فعلاً بسيطة تماماً. ما تعنيه هو أن عليك ألا تسلك طريقاً مباشراً إلى غايتك. بدّل الطرقات، بدّل السيارات، اغطس في مخزن، اخرج من آخر، افعل ما شئت كي تشوش أترك. حين تفعل ذلك، تغدو ملاحظتك شيئاً عسيراً جداً. كل من يتعقبك سيقرب بعجزه".

"حسن، أيها الصاحب الكولونيل، سأذكر ذلك. إنما دعني أروي لك الأنباء الجيدة. أعتقد أنني سأكون قادراً على أن أعطيك ما كنت تريده مني طيلة هذه المدة. التقيني يوم الجمعة الرابع عشر من هذا الشهر في موقف السيارات خلف بلسونز في ساوث إكس. إنه مكان مهجور تماماً. الساعة الثامنة مساءً. جيد؟".

"جيد".

"ينتهي اللقاء. أسرع عائداً إلى روفر قبل أن يرجع الكولونيل تايلور.

عينا مفتوحتان على وسعهما في يوم الجمعة الرابع عشر من الشهر وأذناي حساستان بصورة خاصة. يكشف الكولونيل تايلور

(1) CYTLYT بالإنكليزية اختصار لـ Confuse Your Trail, Lose Your Tail ومعناها: شوّش أترك، ضيّع ذيلك - م.

خططه لزوجته في وقت مبكر من الصباح. "ميكغيل، الملحق التجاري الجديد، يريد أن أريه مكانين في المدينة بعد العمل. لذا سأتأخر قليلاً، ربيكا. لا تنتظريني على الغداء".

"هذا رائع. دعني زوجة المندوب الأعلى إلى حفلة على أحد الجسور، لذا فأنا أيضاً سأكون خارج المنزل؟" تقول السيدة تايلور. يمكنني أن أستنتج من الوقائع. لماذا كذب الكولونيل تايلور على زوجته في ما يتعلق بلقائه؟ يومذاك تدّنت منزلته في نظري. أشعر بحزن رهيب نحو السيدة تايلور.

بعد رامو، جاء دور روي. ضبطه الكولونيل تايلور يقبل شانتي في حجرة نومه. أقسمت شانتي بروح أمها المتوفاة أنه ليس ثمة شيء بينها وبين بابا⁽¹⁾ روي وهذه هي أول مرة يقبلها فيها روي، وذلك، أيضاً، بطريق الخطأ. إنما كل توسلاتها بلا طائل. النتيجة متوقعة تماماً: الصرف الفوري من الخدمة. لكنها على الأقل تحصل على رواتبها. ربما يتلقى روي الضرب بسبب تقربه الشديد من الهنود الحقرء، وسيتم إيقاف كل تسوقه من كدز مارت. أقرر عدم القيام بأي أعمال تنظيف في حجرة نوم ماجي على مدى الأيام العشرة المقبلة كإجراء احترازي.

لو كنتُ فعلتُ ذلك، فلربما كان في وسعي أن أنقذها. لأنه ما يكاد يمر أسبوعان على فعلة روي، حتى كانت أحتة في قفص الاتهام. إذ حصل الرجل الذي يعرف على دليل لا يقبل الجدل على أنها كانت تدخن السجائر في غرفتها، بالرغم من التعليمات الصارمة بهذا الشأن. تحاول ماجي أن تنكر التهمة، إلا أن الكولونيل تايلور يخرج كرتون

(1) بابا baba: لقب تشريف أو تجميل، يستخدم في ثقافات آسيوية وشرق أوسطية عديدة - م.

السجائر الذي أحفته في داخل خزانة الثياب خاصتها وحتى أعقاب السجائر التي نسيت أن تتخلص منها. كانت تلك أيضاً نهاية رحلات تبضع ماجي إلى كدز مارت.

صدق أو لا تصدق، بعد مرور شهرين يضبط الكولونيل تايلور شخصاً آخر يخدع. زوجته هو، السيدة ريكا تايلور. فقد تبين أن لها علاقة غرامية مع شخص ما في السفارة. "أنت الكلبة الحقيرة!" يصرخ بوجهها في حجرة نومهما. "سأنتقم منك ومن عشيقك اللامبالي". أسمع صوت صفعة وصوت تكسر شيء ما، أشبه بمزهريّة. لم تنزل السيدة تايلور لتناول العشاء ذلك المساء. ماجي وروي أيضاً يحافظان على مسافة دالة على الاحترام عن أبيهما. لا أتمالك نفسي عن موااساة السيدة تايلور. اكتشف زوجها علاقتها الغرامية الصغيرة غير أنّها لا تملك أدنى فكرة عن سرّه القذر. أريد أن أفشي سرّ الكولونيل تايلور. كيف يلتقي بالعجوز جيفان كومار في موقف سيارات مهجور. إنّما أولئك الذين يقيمون في بيوت زجاج لا يستطيعون أن يرموا الآخرين بأحجار والخوف المستمر الذي ما انفك يزعجني هو أن الرجل الذي يعرف ربما يكتشف كيف دفعتُ شانتارام عبر الدرايزين. وربما يعرف عني أشياء حتى أنا لا أعرفها.

فيما كانت تحدث كل هذه الأشياء المخبونة في أسرة تايلور، يدمّر جاي أعصابي. تحول طهوه من سيئ إلى أسوأ. حساءاته الشفافة خالية من أي طعم، أطعمته المنكهة بالكاري⁽¹⁾ تجعلني أقلق، وحتى روفر لا يأكل شرائح اللحم خاصته. يجعلني أشعر بالضجر حتى الموت بجديته عن مرأه الغبي والحصول على مائة وخمسين ألفاً. كنتُ قد

(1) الكاري curry: بهار هندي - م.

قررتُ تقريباً أن أشكوه إلى الكولونيل تايلور حين تضرب التراجيديا العائلة. تتوفى أم الكولونيل تايلور في أدلايد. يحزن الجميع حزناً شديداً على مفارقتها الحياة. لأول مرة نرى الجانب الأرق من ضابط الجيش "سنذهب كلنا بعيداً مدة أسبوع"، يقول لجاي بنبرة مخففة. "سيعلق المنزل. أنت وتوماس يمكنكما أن تأكلا خارج المنزل". ماجي وروي بيكيان. عينا السيدة تايلور حمراوان. بطبيعة الحال، بهاغواتي ينشج كذلك. حتى عينا يغشاهما الدمع. ثمّة شخص واحد يتسم سراً خلف جدار المطبخ. إنه جاي.

ليلتئذ يقتحم جاي منزل أسرة تايلور. لم يذهب إلى حجرتي الولدين أو حجرة النوم الرئيسة. يذهب مباشرة إلى الوكر. في البداية يفصل التيار الكهربائي من النقاط الرئيسة. بعدها يقصر دائرة اللوح الكهربائي، يقطع القفل الضخم بمنشار قيد، يدفع المشبك الحديد جانباً ويركل الباب الخشبي فينفتح فوراً.

أستيقظ من نومي على زعيق شديد آت من مسكن تايلور. عند الساعة الثالثة فجراً أندفع مسرعاً إلى المنزل وأكتشف فعلة جاي. هو داخل الوكر، يضرب رأسه بالجدار. يزيد قائلاً: "أولاد الساقطة هؤلاء. إنهم يعيشون كالملوك ولا يملكون قرشاً واحداً في المنزل".

أجراس الإنذار ترن في دماغي. أنا مقتنع أن الرجل الذي يعرف سيكتشف خيانة جاي حتى وهو يحضر جنازة على بعد عشرة آلاف ميل. وإنني سأكون أيضاً متورطاً بمرافقتي له.

أصرخ به: "جاي، أيها المغفل، ماذا فعلت؟".

"لا شيء أكثر مما جئت إلى هنا من أجله. أنا لص محترف، توماس. أمضيت ثمانية أعوام في سجن تيهار. اعتقدتُ أنه مع كل هذا الأمن، ابن الساقطة تايلور كان يحفظ جواهر الأسرة في هذه الحجرة.

إنما ليس ثمة قرش واحد هنا. ستة شهور من الجهد ضاعت كلها سدىً. جيد، إنني أعيد التيار الكهربائي وبعدها ستنتهي مهمتي. سأخذ مشغل السدي في دي والأم بي ثري في حجرة التلفاز. إنها فتات، إنما ينبغي لي أن أحترم مهنتي. يمكنك أن تنظف بعد رحيلي. وإذا حاولت أن تستدعي الشرطة سأكسر كل عظم من عظام جسمك".

بعد مغادرة جاي، أجيل بصري في أنحاء الغرفة. إنها مليئة بأدوات غريبة المظهر: ميكروفونات أشبه بأزهار دوار الشمس صغيرة جداً وآلات تصوير مصغرة كعيون منتزعة من الأجساد. ثمة إضمامات ورق تشير إلى: "صفر" مع مجموعات مؤلفة لا معنى لها من الأعداد والحروف. هنالك بعض الكتب: فن الجاسوسية، مبادئ العنصر المضاد الجيد، التجسس للدمى. ثمة أوراق تحمل رقع لبيلات مثل: سري جداً ومن أجل عينيك فقط، ورسوم من شتى الأنواع، أحدها يشير إلى: وعاء التكنولوجيا المتقدمة تصميم المفاعل النووي، وآخر يشير إلى: مخططات تحت سطح البحر. وثمة دُرج مليء بأشرطة VHS مصغرة. أنظر إلى الرقع الملصقة على الأشرطة، مرتبة بحسب الأبجدية الإنكليزية: أ، جاي، بهاغواتي، HC (المنسوب الأعلى)، جيفان، جونز، ماجي، ميكغيل، راج، راميش، ربيكا، روي، شاني، ستوارت، وتوماس. وفي داخل الدُرج الثاني ثمة مشغل فيديو متنقل مخفي. بيدين مرتعشتين أجرّ شريطي وأدخله في المشغل. تصبح الشاشة متقددةً بصور من غرفتي. أرى نفسي مضطجعاً على سريري؛ أكتب في دفتر يومياتي الأحمر؛ أتحدث إلى رامو؛ نائماً في فراشي. أسرّع الشريط كي أرى ما إذا كان هنالك أي صور لسانتارام. من ثم أدخل الشريط الذي يحمل اسم السيدة تايلور. هي جالسة على سريرها. يدخل رجل جلسةً ويطوقها بذراعيه. أستطيع أن أرى ظهره فقط. يقبلها قبلّةً طويلةً ومتأججةً.

فجأة هنالك قرع على الباب والرجل يدور حول نفسه وينظر إلى مباشرة. أكاد أموت من الرعب. إنه المندوب الأعلى. بسرعة أخرج الشريط، وأطفئ مشغل الفيديو. على مدى دقيقتين أقف جامداً بلا حراك، قلقاً من أن آلة تصوير سرية ربما تكون فاعلة حتى في هذه الحجرة. بعدها أتنفس بعمق. الآن أعرف كيف أصبح الكولونيل تايلور الرجل الذي يعرف. لقد زرع المنزل كله وربما المدينة كلها بآلات التصوير وأجهزة تنصت. إنه جاسوس. لكنني لستُ ستيف نولان من مسلسل القابض على الجواسيس. أحصل على ألف وخمسمائة روبية شهرياً، وبلغ مجموع ما كسبته ثلاثة وأربعين ألفاً وخمسمائة روبية، حفظتها في دفتر يومياتي الأحمر. ولا أريد أن يبقى هذا المال كله في دفتر يوميات فقط. أريد أن ألمس حزم الأوراق المالية، أتلمس السطح الناعم للأوراق النقدية الجديدة الم المعدة. لذا سأبقي فمي مسدوداً. وابتسم في كل مرة يبتسم فيها صاحب زوجته.

أتصل بالكولونيل تايلور على رقم هاتفه النقال. "أنا متأسف جداً لإزعاجك، سيدي، إنما كانت هنالك حادثة سرقة في المنزل. أخذ جاي مشغل الدي في دي والأم بي ثري وقد اقتحم الوكر أيضاً". "ماذا؟".

"نعم، سيدي. أنا متأسف، سيدي".

"انظر، توماس، أريدك أن تصون الوكر حالاً. انتزع القفل الضخم المكسور. لا يلزمك أن تدخل الغرفة. فقط ضع أي قفل من الأقفال على الباب ولا تسمح لأي شخص بدخوله. إنه شيء مهم جداً ألا تستدعي الشرطة. إذا رن جرس الإنذار، فقط اضغط بشدة الشيفرة الآتية على دثار المفاتيح على الباب: 0007. فهمت؟ 0007 وستتوقف عن العمل. سأعود بالطائرة حالاً وسأكون في دلهي بعد ظهر غد، إنما

حتى وقت وصولي أريد منك أن تتأكد من عدم دخول أي فرد إلى
الوكر. هل فهمت؟".
"أجل، سيدي".

يعود الكولونيل تايلور إلى دلهي حتى من دون حضور جنازة أمه.
يسندفح مسرعاً إلى الوكر حالما تنسحب سيارة الأجرة خارج المنزل.
يخرج وقد لاح عليه الارتياح. "حمداً لله، لم يؤخذ شيء من الغرفة.
أحسنَتَ صنيعاً، توماس. كنتُ أعرفُ أنني أستطيع الاعتماد عليك".

* * *

على مدى الشهور الستة التالية، انزلقتُ حياتي عائدةً من جديد
إلى العمل النمطي الرتيب نفسه كالسابق. ثم استخدام طاه جديد لم
يكن في نطاق الأميال الألف لسجن تيهار. صُرفَ بهاغواتي من الخدمة
لأنه يأخذ السيارة من دون موافقة إلى حفلة عرس في أسرته. يتم
اكتشاف صديق ماجي الجديد المدعو جيمس، ويمنع من دخول
المنزل. يُضبط روي وهو يتناول العقاقير المخدرة ويُضرب بالسوط.
السيدة تايلور وزوجها يواصلان التكلم أحدهما مع الآخر برسميات
جليدية. أفترض أن الكولونيل تايلور يتابع لقاءاته مع جيفان كومار في
الأزقة المنعزلة ومرائب السيارات المهجورة.

ماجي وروي يلعبان السكرابل في حجرة المعيشة. يطلبان مني أن
أنضم إليهما. تعلمتُ كلمات جديدة كثيرة فيما أنا أمارس معهما هذه
اللعبة، مثل بنغيل، وبريكي، وجولكي، ودوش، وسكايت، وسبانك.
تفوز ماجي دوماً في هذه الألعاب. مفرداتها جيدة حقيقةً. هي الشخص
الوحيد الذي يعرف كلمات بثمانية حروف وذات مرة كوَّنت كلمة
من تسعة حروف. أنا الأسوأ بينهما. أكوّن كلمات مثل يذهب،

ويأكل، ويغني، ويبقى. ذات مرة في مدة طويلة جداً، حصلتُ على كلمات من ستة أو سبعة حروف، لكنني مع ذلك أنال أدنى النقاط في نهاية المطاف. غالباً يدور في خلدي أن روي يدعوني بوصفي لاعباً ثالثاً كي لا يأتي هو في الأخير. اليوم، لم تكن حروفي جيدة. فثمة الكثير من حروف (x) وحروف (j) وحروف (k) وحروف (l). تكاد المباراة أن تصل إلى نهايتها. ماجي لديها (203) نقاط، روي لديه (175) نقطة وأنا لـديّ (104) نقاط. آخر سبعة حروف عائدة لي هي: G,P,E,E,S,A,I. أفكر في أن أكوّن كلمة page أو see. بعدها يستخدم روي حرف (o) من إحدى كلمات ماجي كي يكون كلمة "on" وأمسك بها في ومضة خاطفة. أضع الحروف E,S,P وحرف I قبل O و G و A بعد حرف N. Espionage (تجسس). هذه الحروف كلها تجمع سبع عشرة نقطة، وثلاثة أضعاف هذا العدد لوضعها على مربع أحمر وإضافة خمسين نقطة لاستخدام الآجرات السبع كلها. (101) نقطة. خذوها، ماجي!

كنتُ أحوم حول الهاتف طيلة النهار. تتوقع ماجي اتصالاً هاتفياً من جيمس وقد أعلمتني أن أرفع سماعة الهاتف قبل أن يرفعها والدها من الوكر. يرن الهاتف أخيراً عند الساعة والرّبع مساءً. أرفع السماعة بومضة خاطفة. إلا أن الكولونيل تايلور سبقني إليه. يقول: "هالو". ثمة أنفاس ثقيلة في الطرف الآخر من الخط. ثم يطفو صوت جيفان كومار على التشوش. "التقيني غداً، الخميس، عند الساعة الثامنة مساءً عند مخزن كوالتي لبيع الآيس كريم قرب بوابة الهند. لديّ مادة الديناميت". "جيد"، يقول الكولونيل تايلور، وينتهي الاتصال.

يجلس الكولونيل تايلور حاملاً عقب سيجارته في حجرة المعيشة، يشاهد آخر أحداث مسلسل القابض على الجواسيس. هذه المرة

ستيف نولان في أزمة حقيقية. اكتشف أن أفضل أصدقائه، الصديق الذي ذهب معه إلى الكلية، الصديق الذي كان أفضل رجل في حفل عرسه، هو جاسوس شيوعي. إنه حزين جداً. لا يدري ماذا يفعل. يجلس في مشرب في حالة مزرية ويحتسي كميات كبيرة من الشراب الاسكتلندي. عندئذ يقول له الساقى: "إنه عالم قدر، إنما لا أحد يوافق على القيام بالغسل، البلد بأكمله يهبط إلى منزل البراز". يسمع ستيف نولان هذا ويغدو مشحوناً تماماً. يسرع إلى منزل الجاسوس الشيوعي بسيارته الفيراري الحمراء. "أنت إنسان طيب، تقوم بوظيفة سيئة"، يقول لصديقه، قبل أن يستل مسدسه. "الصدقة مهمة. غير أن البلد يأتي أولاً. أنا متأسف"، ويطلق عليه النار فيرده قتيلاً في الحال.

* * *

الليلة التالية تأتي سيارة جيب تابعة للشرطة وسيارة سفير كلتاها ذات ضوء أحمر وامض، تأتيان لتفتيش المنزل عند الساعة العاشرة مساءً. ضابط الشرطة نفسه الذي اعتقل رامو يخرج، مع مفوض الشرطة. الكولونيل تايلور معهما، يبدو شبيهاً بستيف نولان في المشرب. في غضون عشر دقائق، يصل المندوب الأعلى أيضاً، يبدو شديد التحجم. "ما هذا كله؟" يسأل هو (رئيس الشرطة). "لماذا أعلن أن الكولونيل تايلور دبلوماسي غير مرغوب فيه وتطلب منه وزارة الخارجية مغادرة البلد في غضون أربع وعشرين ساعة؟".

"حسن، سيادتكم، لدينا دليل على أن ضابطك يتدخل في فعاليات لا تتوافق مع منزلته الدبلوماسية. أنا متأسف، عليه أن يغادر البلد"، يرد رئيس الشرطة.

"لكن ما هي التهمة الموجهة ضده؟".

"ضبطناه متلبساً بجريمة أخذ وثائق حساسة وسرية جداً من رجل يحمل اسم جيفان كومار، الذي يعمل في وزارة الدفاع".
 يبدو الكولونيل تايلور شاحباً كشحوب الموتى. لم يقل إن هؤلاء الهنود كاذبون حقراء. إنه فقط يقف في وسط ردهة الاستقبال ورأسه مطأطأ.

يطلق المندوب الأعلى تنهيدةً. "يلزميني أن أقول أن هذه أول مرة في مسيرتي الطويلة يكون أحد ضباطي ضالعاً في التجسس. وصدقني، تشارلز ليس جاسوساً. إنما إذا وجب أن يذهب، فليذهب". ثم يأخذ رئيس الشرطة جانباً. "سيد جوبرا، لقد بعثتُ إليك صناديق عديدة من الشراب على مدى سنوات كثيرة. هل يمكنك أن تسدي إليّ خدمةً أن تجيبني عن سؤال واحد؟".
 "مؤكد".

"لمعلومي فقط، هل يمكنك أن تخبرني كيف استطعت أن تعرف عن لقاء تشارلز اليوم؟ هل أرشدك هذا الشخص كومار إليه؟".
 "سؤالك مضحك. لم يكن جيفان كومار. على العكس تماماً، كان أحد شبانك. اتصل هاتفياً بضابط الشرطة تياعي هذا الصباح وأخبره أن يذهب إلى بوابة الهند عند الساعة الثامنة مساءً كي يضبط الكولونيل تايلور وهو يتسلم بعض الوثائق السرية".
 "لا أصدق. كيف يمكنك أن تكون متيقناً جداً من أنه أسترالي الجنسية؟".

يتدخل ضابط الشرطة تياعي. "حسن، أيها السيد السفير، كانت اللهجة إفشاءً غير مقصود بكل معنى الكلمة. قال الرجل شيئاً من قبيل، (طبت صباحاً، أيها الرفيق، اذهب إلى بوابة الهند، الليلة عند الثامنة). أعني، أن الأسترالي وحده يتكلم هكذا، أليس كذلك؟".

في اليوم التالي، يغادر الكولونيل تايلور دلهي وحيداً على متن طائرة تابعة لخطوط كانتاس. السيدة تايلور والولد والبنت سيتبعونه لاحقاً. أنا، كذلك، أغادر أسرة تايلور. مع ثلاث حلقات مفاتيح، ست قمصان قطنية، ثلاثين عدداً من مجلة الجغرافية الأسترالية التي سأبيعها إلى كاباريوالا، واثنين وخمسين ألف روبية. بأوراق مالية جديدة هشة.

أقول وداعاً لأفراد أسرة تايلور. يتصرف روي كالأحمق. منذ أن بدأ يتناول العقاقير المخدرة أصبح مغفلاً. ماجي تقبل جيمس قبلات متأحجة. ولا أكثرث للسيدة تايلور. مع المندوب الأعلى إلى جوارها، أعرف أنها ستكون على ما يرام. أما بالنسبة إليّ، فقد كنتُ بعيداً عن سالم المقيم في مومباي، ويتعذر عليّ لقاءه. سيكون ذلك أشبه بقارب ركوب الأمواج المتكسرة!

تتطلع سميثا إلى ساعتها اليدوية. تُظهر أن الوقت هو الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. أسألها: "هل أنت متأكدة أنك تريدين الاستمرار؟".

ترد قائلة: "هل لدينا خيار آخر؟ سيرتبون لك غداً قهماً رسمية ويحفظونها لك في إضبارة". تضغط على زر التشغيل مجدداً.

نحن في فاصل إعلاني آخر. يضرب بريم كومار على مكتبه ضرباً خفيفاً. "أنت تعرف الأمر، سيد توماس، إن حظك قد هرب أخيراً. أنا مستعد للمراهنة على أنك لن تستطيع الإجابة عن السؤال التالي. إذا استعد لاستخدام أحد قاربي النجاة⁽¹⁾ خاصتك".

(1) قارباً النجاة: أي وسيلتي المساعدة - م.

يبدأ اللحن المميز للبرنامج.

يلتفت إليّ بريم كومار. "ننتقل الآن إلى السؤال الخامس بخمسين ألف روبية. إنه يتعلق بعالم الدبلوماسية حين تعلن الحكومة أن دبلوماسياً أجنبياً *Persona non grata*⁽¹⁾، ماذا يعني هذا؟ هل هو (أ) أن الدبلوماسي يجب أن يُعامل باحترام، (ب) أن مدة الدبلوماسي يجب تمديدّها، (ج) أن الدبلوماسي مقر بالجميل أم (د) أن الدبلوماسي غير مرغوب فيه؟ هل فهمتَ السؤال، سيد توماس؟".

أجيب: "نعم".

"جيد. إذا دعنا نسمع جوابك. تذكر، لا يزال قارباً النجاة متوفّرين لك. يمكنك أن تحصل على فكرة مفيدة من صديق، أو يمكنك أن تطلب مني حذف إجابتين وسأحذف لك إجابتين غير صحيحتين، وأتركك مع خيارين فقط. ماذا تقول؟".

"أقول (د)".

"عفواً؟".

"قلتُ (د) إن الدبلوماسي غير مرغوب فيه".

"هل ذلك حدس؟ تذكر، أنك ستخسر العشرة آلاف روبية التي ربحتها إذا أعطيت الجواب غير الصحيح. لذا إذا رغبت، يمكنك أن تترك المسابقة الآن".

"أعرف الجواب. إنه (د)".

ثمة لهائات من جمهور الاستوديو.

"هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

ثمة تسارع لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

(1) *Persona non grata* بالفرنسية: شخص غير مرغوب فيه - م.

"صحيح تماماً، مائة بالمائة! رجحت الآن خمسين ألف روبية!" يعلن
بريم كومار. يقف الجمهور ويهتف مشجعاً. يمسخ بريم كومار العرق
عن حاجبه. يقول بصوت مرتفع: "لا بد لي أن أقول أن هذا لافت
للنظر. الليلة يبدو السيد توماس حقيقةً أنه الرجل الذي يعرف!".



100.000

حافظ على أزرارك

"خلاص، انتهى"، أقول، متحدثاً بكلمات ذات مقطع واحد. "ما من شراب اسكتلندي بعد الآن. يغلق المشرب الآن. اذهب إلى منزلك".

"لا ااا. من فاضلك لا تقول ذلك. أعطيني كأساً أخرى". يتوسل الزبون ويعرض كأسه الفارغة. أنظر إلى ساعتي اليدوية. إنها الثانية عشرة وخمس وأربعون دقيقة بعد منتصف الليل. من الناحية العملية، لا تُغلق المشارب قبل الواحدة بعد منتصف الليل. باشمزاز، ألتقط زجاجة شراب. أطلب منه: "مائة روبية، من فضلك". يأخذ الرجل ورقة مالية مجمدة من جيب قميصه، وأسكب له كأساً أخرى.

"أشكرررك، يا سسساقى"، يقول الرجل، ويأخذ رشفة كبيرة من الشراب، وينهار على الطاولة، تنهشم كأسه على الأرض، تنسفح زجاجة الشراب، وتنقلب طاسة صلصة النعناع. في غضون ثوان يغط في نوم سريع. الآن لا يجدر بي فقط أن أرتب الفوضى الكبيرة التي أحدثها الزبون، إنما يجب عليّ أيضاً أن أستدعي سيارة أجرة، وأساعده على الوقوف على قدميه وبطريقة ما أرسله إلى منزله. ومع أنني كنتُ

ذكياً بما يكفي كي أطلب منه ثمن المشروبات مقدماً، أستطيع أن أنسى ما يتعلق بأي بقشيش من هذا الزبون. أغلب الظن أنا الذي يقع عليّ اللوم لأنني أضع نفسي في هذا الموقف. كان الزبون يُيدي كل العلامات المحذرة للاختيار في أي دقيقة. غير أنني كنتُ أعتقد أن في وسعه أن يتحمل جرعة واحدة إضافية. كالعادة، كنت على خطأ.

حتى بعد مرور شهرين على عملي في مشرب ومطعم جيمي، لم أكن قادراً على تخمين قابلية الشارب بدقة. استطعتُ، بالرغم من ذلك، أن أنشئ نظاماً للتصنيف التقريبي للسكيرين. في أعلى لائحة هم الخيل؛ إنهم يستطيعون أن يتحملوا ثمانى كؤوس من دون أن يغدو كلامهم غير واضح. من بعدهم يأتي الحمير؛ الذين يبدأون بالنهيق والثرثرة بعد كأسين أو ثلاث لا غير، أو يصبحون جياشي العاطفة ووجدانيين ويشرعون بالبكاء. بعدهم يأتي الكلاب؛ كلما أفرطوا في الشرب يرغبون في دخول جدال ما أو ينزعون إلى الشجار. بعضهم أيضاً يغدون مرحين مع روزي. إلى الأسفل منهم يأتي الدبة؛ الذين يشربون وبعدها ينحرفون إلى النوم. وفي القاع يأتي صنف الحيوانات القذرة؛ هم أولئك السكيرين الذين يتقيأون بعد جرعتهم الأخيرة. هذا التصنيف ليس من النوع الذي لا بأس فيه. فقد شاهدتُ زبائن يبدأون كالخيل ويتنهون كالحيوانات القذرة. وثمة كلاب يتحولون إلى دبة. بصورة رحيمة، هذا الزبون انتهى كدب بدلاً من أن يتحول إلى حيوان قذر.

أتخلص من السكير الأخير، وأنظر إلى الساعة الجدارية. تشير إلى الواحدة وعشر دقائق بعد منتصف الليل. منذ أن رحلت روزي وأبوها إلى غوا لتمضية العطلة هناك، أعود إلى جحري الصغير في المبنى السكني

في دهارافي بعد منتصف الليل كل ليلة تقريباً. هذا خطأي إلى حد ما. لو لم أقل للمدير إنني أعرف كيف أمزج المشروبات، وأقيس الشراب الاسكتلندي، وأنه في وسعي أن أعرف الفارق بين أنواع المشروبات، ما كان ليطلب مني أن أتولى مهمة الساقى في غياب ألفريد.

لمشرب ومطعم جيمي في كولابا صور مطبوعة باهتة على الجدران، مرايا خلف المشرب، أثاث خشبي متين، وأفضل لائحة أطعمة ومشروبات في جنوب مومباي. لأن الطعام جيد جداً والأسعار رخيصة جداً، يجتذب الزبائن من كل الطبقات والشرائح الاجتماعية. في أي يوم يمكنك أن تجد موظفاً إدارياً رفيع المستوى يرضع مشروبه عند المشرب إلى جانب عامل مصنع متواضع. يصير المدير على أن نستهل الحوارات مع الزبائن عند المشرب، لأن الناس يشربون أكثر حين يكونون بصحبة الآخرين. والد روزي، الساقى الخرفان ألفريد دسوزا، ماهر في التحدث من دون كلفة مع الزبائن الدائمين. إنه يعرف غالبية الرواد المنتظمين بالاسم، ويجلس معهم على مدى ساعات طويلة، مصغياً إلى حكايات محنهم ومُضيفاً باستمرار إلى لائحة حساب مشروباتهم. تغدو روزي نفسها فتاة مشرب ضليعة تماماً. تجلس عند المشرب ترتدي بلوزة مقوَّرة الصدر وتنورة ضيقة جداً، في بعض الأحيان تنحني وتغري الزبائن كي يطلبوا شراباً اسكتلندياً مستورداً غالي الثمن بدلاً من الأنواع الهندية الرخيصة. غالباً، ما يوصلها سلوكها إلى مشاكل مع الزبائن الأجلاف الذين يتصورون أنها فتاة رخيصة. عندئذ يلزمي أن ألعب دور رجل يُستخدم لإخراج الأشخاص غير المرغوب فيهم، هذا الدور ألعبه بصورة غير رسمية.

يعتقد السيد ألفريد دسوزا أن هنالك شيئاً يحدث بين روزي وبينى ويراقبني كصقر حينما تكون قريبة مني. إنه غير مصيب البتة. روزي

فتاة جميلة، قصيرة القامة ومكتنزة الثدين. الطريقة التي تميل بها رأسها نحوي وغالباً تغمزي بعينها، تشعرني أنها ربما تحاول أن تعطيني إشارة ما، إلا أن دماغي الآن غير قادر على تسلمها. إنه متخم بذكريات فتاة واحدة فقط: نيتا. قال الأطباء في أغرا أن نيتا تحتاج إلى أربعة شهور على الأقل كي تتعافى من إصابتها. وأعرف أن شيام لن يسمح لي بلقائها. لذلك عدتُ إلى مومباي: كي أتخلص من أشباح أغرا، أشباح الأحياء والموتى على السواء. لكنني لا أستطيع أن أهرب من تاريخي الشخصي في هذه المدينة. تهاجمني ذكريات الماضي عند كل نقطة تقاطع. شانترام، عالم الفضاء الفاشل، يهزأ مني في الشوارع. نيلما كوماري، الممثلة، تصيح عليّ في القطار المحلي. وسالم، صديقي، يخفض بصره ناظراً إليّ من كل لوحة إعلانات. لكنني اتخذتُ قراراً واعياً ألا ألتقي سالماً. لا أريد أن تمتصه دوامة حياتي المجنونة وخططي المجنونة.

أقيم في ركن من أركان مومباي يُدعى دهارافي، في كوخ ضيق بمساحة مائة قدم مربع ليس له فتحة للتهوية ولا للنور، ذي لوح معدني متموج يقوم بوظيفة السقف فوق رأسي. إنه يهتز بعنف كلما يمر قطار. ليس ثمة ماء جارٍ وليس ثمة نظام للصرف الصحي. هذا كله أستطيع أن أتحمّله. لكنني لستُ وحدي في دهارافي. هنالك مليون شخص على غراري، محشورون في مثلث من الصحراء المدينية السبخة تبلغ مساحته مائتي هكتار، حيث نحيا كالحيوانات ونموت كالخشرات. مهاجرون عاطلون عن العمل من كل أرجاء البلد يتدافعون بالمناكب مع بعضهم بعضاً في أكبر حي للفقراء في آسيا. ثمة نزاعات يومية - على إنشآت من المكان، على دلو من الماء - تتحول أحياناً إلى قتال مميت. يقبل نزلاء دهارافي من المواضع الخلفية المنعزلة والمغيرة لبهار،

وأندرابراديش، وتاميل نادو، وغوجرات. إنهم يقبلون إلى مومباي، مدينة الذهب، وفي أفئدتهم أحلام إحراز الغنى وأن يحياوا الحياة التي يحياها ذوو المرتبة العليا من الطبقة الوسطى. إلا أن ذلك الذهب تحوّل إلى رصاص منذ زمن طويل جداً، تاركاً وراءه أفئدة أكلها الصدأ وعقولاً مصابةً بالغرنا. كفؤادي وعقلي.

ليست دهارافي مكاناً لسريعي الغثيان. ملجأ أحداث دلهي حط من قيمتنا، إلا أن صورة دهارافي المتجهممة المتسمة بالقذارة المدنية أضعفت حيويتنا، وحطت من قدرنا. مجاريها المفتوحة تعج بالعوض. مراحيضها العمومية، ذات الرائحة النتنة، المكسوة بالغائط، مليئة بالجرذان، التي تجعلك تصرف التفكير عن الرائحة وتفكر أكثر في حماية مؤخرتك. توجد أكوام من النفايات القذرة في كل زاوية من الزوايا، يستطيع جامعو الخرق والنفايات أن يجدوا فيها شيئاً نافعاً. وفي بعض الأحيان يلزمك أن تحبس نفسك كي تنضغط عبر أزقتها الضيقة التي تورثك رهاب الأماكن الضيقة. إنما بالنسبة إلى النزلاء الجياع في دهارافي، هذا هو المنزل.

تقع دهارافي وسط ناطحات السحاب الحديثة ومجمعات التسوق المضاعة بالنيون في مومباي، شبيهة بورم سرطاني في قلب المدينة. وترفض المدينة أن تعترف بها. لذا فقد عُدت دهارافي خارجة على القانون. كل المنازل في دهارافي هي مُشيدات غير شرعية، معرضة للهدم في أي وقت. إنما حين يكافح النزلاء ببساطة كي يبقوا أحياء، فإنهم لا يبالون بالأشياء الأخرى. لذا فإنهم يسكنون في منازل غير قانونية ويستخدمون تياراً كهربائياً غير قانوني، يشربون ماءً غير قانوني، ويشاهدون تلفازاً يعمل عبر وصلات غير قانونية. يعملون في مصانع ومتاجر دهارافي التجارية العديدة غير الشرعية، وحتى يسافرون بطريقة

غير قانونية - من دون تذاكر - في القطارات المحلية التي تمر مباشرة عبر المستعمرة.

ربما شاءت المدينة أن تتجاهل النمو القبيح لدهارافي، إلا أن السرطان لا يمكن إيقافه ببساطة من خلال الإعلان بكونه غير قانوني. إنه لا يزال يقتل بسُمه البطيء.

أقوم برحلة يومية من دهارافي إلى مشرب ومطعم جيمي. الشيء الجيد الوحيد في ما يتعلق بالعمل في مؤسسة جيمي هي أنني غير ملزم بالجيء إلى مقر عملي قبل منتصف النهار على الأقل. غير أن هذا أكثر من تغيير مفاجئ مقارنةً بالليالي المتأخرة التي أمضيها في خدمة الأجيال السكارى الآتين من كل أنحاء المدينة، وأرهف السمع إلى حكاياتهم المثيرة للشفقة. إن أول استنتاج توصلتُ إليه مفاده أن الشراب الاسكتلندي هو المساوي الأكبر بين الناس. ربما تكون مديراً بارعاً لمؤسسة إعلانات أو عامل سبك معادن متواضعاً، لكنك إذا لم تكن قادراً على الإمساك بمشروبك، فأنت مجرد سكير.

بعد تجربتي المؤذية مع شانتارام، فكرتُ في أنني لن أكون قادراً على تحمل سكير. إلا أن مشرب ومطعم جيمي هو المؤسسة الوحيدة التي منحتني عملاً. واسيتُ نفسي بالفكرة القائلة إن رائحة الشراب الاسكتلندي لازدة أقل من الرائحة النتنة المنبعثة من المرحاض العمومي القريب من كوخِي، والإصغاء إلى سكير أقل إبلاماً من الإصغاء إلى القصص الفاجعة للاغتصاب، والتحرش الجنسي، والمرض والموت التي تفيض يومياً من أكواخ دهارافي. لذا فقد تعلمتُ الآن أن أبدي ولعاً ما وأقول أوم م م م ونعم وحقاً؟ ويا سلام! لحكايات خداع الزوجات وحكايات رؤساء العمال البائسين الذين كانوا يستنشقون الهواء كل ليلة في مشرب ومطعم جيمي، وفي الوقت نفسه أشجع الزبائن على

طلب طبق آخر من الدجاج المقلي وطاسة أخرى من جوز البلاذر الأميركي المملح كي يأكلوه مع مشروباهم. وأنتظر يوماً رسالةً من أشخاص W3B، كي يخبروني ما إذا اختاروني للمشاركة في البرنامج التلفازي. إلا أن ساعي البريد لا يسلمني شيئاً.

بدأ إحساس بالهزيمة يغشي عقلي. أشعر أن الغرض الخاص الذي أتيت من أجله إلى مومباي لا يزال بعيداً عني. إنني أسبح ضد التيار. تلك التيارات القويّة فعالة وهي التي لا أستطيع قهرها. لكنني بعدئذ أسمع صراخ محبوبتي نيتا ونشيج نيليم كوماري فأستعيد قوة إرادتي. يجب عليّ أن أصل إلى ذلك البرنامج التلفازي. وحتى حصول هذا الأمر، سأواصل الإصغاء إلى قصص السكارى في هذه المدينة. بعضها جيد، بعضها الآخر سيئ، بعضها مضحك، وبعضها الآخر حزين. وثمة قصة غريبة بكل ما للكلمة من معنى.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، إلا أن الزبون الوحيد الجالس عند المشرب يرفض أن يتزحزح. كان قد جاء بمرسيدس يقودها سائق، توقفت في باحة في الخارج. كان يشرب باستمرار منذ العاشرة مساءً وهو الآن يحتسي كأسه الخامسة. سائقه الذي يرتدي بذلة نظامية يغط في نومه في السيارة. ربما يعرف أن مستخدمه لن يخرج بسرعة. الرجل في مطلع عقده الثالث، ويلبس بذلة داكنة أنيقة ذات ربطة عنق حريرية، ويتنعل حذاءً جلدياً لامعاً.

"أخي العزيز، أخي العزيز". يكرر هذه العبارة كل دقيقتين، بين رشقات الشراب وقضمات من طبق الكباب.

يفرقع لي المدير بأصابعه. "توماس، اذهب واجلس معه، اسأله عن أخيه. ألا تستطيع أن ترى أن الرجل المسكين شديد الاضطراب؟".

"لكن... أيها صاحب المدير، لقد تجاوز الوقت منتصف الليل. علينا أن نخبره أن يغادر المكان وإلا سيفوتني قطار الساعة الثانية عشرة والنصف".

"لا تجادلني وإلا سأكسر فكك"، يزمجر بوجهي. "اذهب الآن، اشغل الزبون بحوار ما، اجعله يطلب الشراب الذي وصل إلينا يوم أمس، لقد أقبل في مرسيدس".

أحملق في المدير كطالب مدرسة يحملق في مستأسد. أرجع، على مضض، إلى المشرب، وأمشي جلسةً مقترباً من الزبون.

"آه، أحيي العزيز، أتمنى أن تصفح عني"، ينوح، ويقضم الكباب برفق. إنه يتصرف كحمار، لكنه على الأقل في طور الصفاء، مع جرعتين في جسمه وكلمات تزيد خارجةً من فمه.

أسأله: "ماذا جرى لأخيك، سيدي؟".

يرفع الرجل رأسه، ويتطلع إليّ بعينين نصف مغمضتين. يقول: "لِمَ تسأل؟ لن تفعل سوى مضاعفة ألمي".

"أخبرني عن أخيك، سيدي. ربما يساعد ذلك في تقليل ألمك".

"كلا. ما من شيء يقلل ألمي. ولا حتى الشراب الذي تقدمه إليّ".

"رائع، سيدي. إذا كنت لا تريد أن تتكلم عن أخيك، لن أسألك عنه. لكن ماذا عنك؟".

"ألا تعرف من أكون؟".

"لا، سيدي".

"أنا براكاش راو، مدير شركة صناعات، أكبر مصنع للأرزار في الهند".

"أرزار؟".

"أجل. كما تعرف. أضرار في القمصان، والسرراويل، والسترات، والتنانير، والبلوزات. نحن نصنعها. نحن نصنع كل أنواع الأضرار من كل أنواع المواد. نستخدم في الأعم الأغلب البولستر، لكننا صنعنا أيضاً أضراراً من القماش، والبلاستيك، والجلد وحتى عظم الجمل. ألم ترَ إعلاناتنا التجارية في الصحف؟ أنا متأكد تماماً أن القميص التي تلبسها الآن لها أضرار مصنوعة من قبل شركتي".

"وأخوك، ما اسمه؟".

"أخي؟ أرفند راو. آه، أخي المسكين. آه، أرفند"، يبدأ بالعويل مجدداً.

"ماذا جرى لأرفند؟ ماذا كانت مهنته؟".

"كان صاحب الشركة إلى أن حللت مكانه".

"لماذا حللت مكانه؟ الآن، دعني أسكب لك كأساً من الشراب الذي وصلنا مباشرة من اسكتلندا".

"شكراً. رائحته طيبة. أتذكر أنني ذهبتُ إلى موريشيوس لتمضية شهر العسل، قصدتُ بورت لويس، وهناك تذوقتُ أول مرة هذا الشراب".

"كنتُ تذكر أنك حللت محل أخيك".

"آه، نعم. كان أخي رجلاً طيباً جداً. إلا أنه كان يجب أن يحل محله شخص ما بوصفه مديراً للشركة لأنه أصيب بالجنون".

"بالجنون؟ كيف؟".

"إنها قصة طويلة".

"أستخدم واحداً من أبيات روزي. "الليل يافع. الزجاجة مملوءة. لم لا نبدأ إذا؟".

"هل أنت صديقي؟" يقول، ناظراً إليّ بعينين كأنهما من زجاج.

"بطبيعة الحال أنا صديقك"، أجيبه بابتسامة عريضة تكشف أسناني.

"إذا سأحكى لك قصتي، أيها الصديق. أنا ثمل، كما تعرف، والرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً. صحيح، أيها الصديق؟".
"صحيح".

"إذا، صديقي، كان أخي، أخي العزيز، العزيز أرفند، رجل أعمال كبيراً. بنى شركة جراء العمل الشاق والتوفير الشديد. اعتدنا أن نبيع الخرز في سوق لآدبازار في حيدرآباد القديمة. كما تعرف، تلك السوق القرية من جارمينار. إنه هو الذي بنى بالمشابرة والجد الإمبراطورية التي ورثتها".

"لكنك حتماً ساعدت أخاك في مهنته؟".
"نادراً ما حصل ذلك. كنتُ إنساناً فاشلاً. لم أستطع حتى أن أكمل امتحان القبول في الجامعة. يعود الفضل إلى عظمة شقيقي الذي أخذني تحت جناحه، واستخدمني في قسم المبيعات في شركته. بذلتُ قصارى جهودي، وعمور الوقت، تعززت ثقة أخي بقابليتي. في النهاية سلمني وظيفة مدير المبيعات الدولية، وأرسلني إلى نيويورك حيث يقع مكتبنا الدولي".

"نيويورك؟ يا سلام! لا بد أنها كانت عظيمة!".
"أجل، نيويورك مكان عظيم. إنما مهنتي كانت عسيرة، أخرج يومياً، ألتقي التجار والموزعين، أعالج الطلبات التجارية، أضمن التسليم في الوقت المناسب. كنتُ مشغولاً من الصباح حتى الليل".
"جيد. إذاً ماذا جرى بعدئذ؟ فقط توقف دقيقةً فيما آتيك بطبق آخر من الكباب".

"شكراً، صديقي. في نيويورك تحديداً التقيتُ جولي".

"جولي؟ من هي جولي هذه؟".

"كان اسمها الحقيقي إرزولي دي رونكيراي، إنما الجميع يسمونها جولي. كانت داكنة البشرة، مثيرة، ذات شعر سميك مجعد وشفتين بارزتين وخصر نحيل. كانت تعمل منظفةً في المجمع السكني الذي استأجرت فيه مكتبي. كانت مهاجرة غير شرعية من هايتي. هل سمعتَ بهايتي؟".

"كلا. أين تقع؟".

"إنها بلد صغير جداً في البحر الكاريبي، بالقرب من المكسيك".
"جيد. إذا التقيتَ جولي".

"حسن، في بعض الأحيان كنتُ أبادلها التحية. ذات يوم ضبطتها دائرة الهجرة والتجنيس تعمل من دون بطاقة خضراء. توسلت إليّ أن أثبت أنها مستخدمتي كي تكون إقامتها في الولايات المتحدة قانونية. في نوبة كرم وافقتُ على أن أكون كفيلها. مقابل ذلك، منحتني الحب، والاحترام، وأموراً أخرى لم أعتدها طيلة سنواتي الماضية. صدّقي، أنا مثل، والرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً. صحيح؟".

"صحيح. لماذا لا تشرب؟".

"شكراً، صديقي. أنتَ رؤوف جداً. أكثر رأفةً من جولي. كما تعرف، أثرت فيّ، حقيقةً، بأساليب ملتوية. استغلت ضعفي. كنتُ رجلاً وحيداً في مدينة كبيرة. شيء ما أدى إلى آخر وانتهى بي المطاف أخيراً إلى الزواج بها".

"وبعدها ذهبتَ لتمضية شهر العسل في بورت لويس، صحيح؟".

"صحيح. لكنني حين عدت من شهر العسل، اكتشفتُ أن ثمة جانباً مختلفاً، أكثر غموضاً في جولي. زرت شقتها أول مرة بعد أن تزوجنا ووجدتُ أنها مليئة بأشياء غريبة".

"أول مرة اكتشفتُ أن ثمة شيئاً في جولي، أكثر مما يظهر عليها كان حين هُوجمتُ في برونكس من قبل سفاح يحمل سكيناً. كنتُ محظوظاً كي أهرب حياً، لكنني جرحت جرحاً بليغاً في ذراعي. لم تسمح لي جولي بالذهاب إلى المستشفى. بدلاً من ذلك وضعت بعض الأعشاب على ذراعي، وتلت بعض التعابير وفي غضون يومين فقط اختفى الجرح كلياً، حتى من دون أن يترك ندبةً. وبعدها أخبرتني أنها ودونية".

"ودونية. ما هي هذه الودونية؟".

"الودونية مذهب في هايتي. يعتقد أتباعه أن العالم كله مترابط. كل شيء يؤثر في شيء آخر. ما من شيء يحدث بالمصادفة، وكل شيء محتمل. لهذا السبب فإن الناس الذين يعرفون الودونية يستطيعون أن يقوموا بكل الأشياء العجيبة".

"لا بد أنك تمزح!".

"لا، أبداً. قلتُ لك إنني ثمل. والرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً، صحيح؟".

"صحيح". الآن أصبحتُ منجذباً كلياً إلى قصته. نسيتُ أن أزوده بمزيد من الشراب وجوز البلاذر الأميركي.

"جولي قلبت حياتي رأساً على عقب. كانت امرأة منظمة مسكينة، لكنها الآن تريد أن تصبح جزءاً من المجتمع الراقي، نسيت أنها كانت متزوجة بأخ صناعي ثري، وليس الصناعي نفسه. كانت تطلب المال طيلة الوقت. المال الذي لم أستطع أن أهبه إياها لأنه ليس لي. إنه يعود لأخي، للشركة".

"أرغممتني على السرقة. بدأت المسألة مع أشياء تافهة؛ دولارات قليلة أحتلسها من طلب وهمي لسيارة أجرة. ومن ثم تحولت إلى أشياء

أكبر، مال يتم استلامه من زبون ولا يتم إظهاره في سجل الكشوفات. يُوقع عقد ما، يتم استلام السلفة ولا ترسل إلى المكتب الرئيس. بمرور الزمن، أصبح المبلغ المختلس نصف مليون دولار. بعد ذلك اكتشف أخي المقيم في مومباي، ذلك".

"آه! وماذا حدث بعدها؟".

"حسن، ماذا تعتقد؟ استشاط أخي غضباً. لو كان يريد، لجعل الشرطة تعتقلي. لكن الدم لا يصبح ماءً. توصلتُ إليه كي يعفو عني، فسماحني على غلطتي. بطبيعة الحال، نقلني من أميركا، ووضعتني في مكتب صغير في حيدرآباد، وأصر على أن أعيد دفع نصف المبلغ المختلس على مدى عشرين سنة من راتبي الخاص".

"كنتُ سعيداً جداً في قبول هذه الشروط. أي شيء كي أجنب السجن. إلا أن جولي كانت تتميز غيظاً. حثتني قائلة كيف يستطيع أخوك أن يتعامل معك هكذا؟ أنت تملك حصة مساوية لحصته في الشركة. يلزمك أن تقاتل من أجل حقوقك. بمرور الزمن، بدأ إلحاحها المستمر يؤثر فيّ. بدأتُ أحسب أرفند رجلاً منحرفاً وماكراً عقد معي صفقة ظلمة. ثم أقبل أرفند يوماً إلى حيدرآباد كي يزور مكنتي الصغير. وجد مجدداً دليلاً على سرقة صغيرة، فنقد صبره. شتمني أمام كل كادر المكتب، أهانني، قال إنني شخص ميؤوس منه ولا أصلح لشيء ما، وهددني بإلغاء ارتباطي بالشركة. دُمرتُ، لأول مرة شعرتُ بالرغبة في ضرب أخي من الخلف. رويتُ الحادثة إلى جولي، فغدت متوهجة بالغضب. قالت لي آن الأوان كي تلقن أخاك درساً. هل أنت مستعد الآن كي تقوم بالانتقام منه؟ أجبته، أجل، لأن إهاناته شلت دماغي. فقالت جيد، آتني بزر من إحدى قمصان أخيك غير المغسولة وقصاصة صغيرة من شعره. سألتها من أين آتيتك بخصلة من شعره؟ فقالت ذلك هو شأنك".

"هيا، لماذا لا تعطيني جرعةً أخرى؟".

بسرعة أملاً كأسه من جديد. "إذاً كيف حصلتَ على شعر أخيك وزر من قميصه؟".

"شيء سهل. زرتَه يوماً ما في مومباي، بقيتُ في منزله، وانتزعتُ زراً من قميص كان قد وضعها توأ في سلة الثياب المعدة للغسل. بعدها وجدتُ الحلاق الذي اعتاد أن يخلق شعره كي يعطيني خصلةً من شعره حين يخلق له في المرة القادمة. قلتُ له إنني أحتاج إليها كي أقدمها قرباناً إلى فينكا تشوارا في تايروباتي. هكذا في غضون شهر أتيتُ لجولي بالزر والشعر معاً. ما فعلته جولي لاحقاً كان مدهشاً. أخذت دمية ذكر مصنوعة من القماش بكل ضروب الخطوط السود المضحكة عليها. خاطت الزر على صدر الدمية، وألصقت الشعر على رأس الدمية. في ما بعد ذبحت ديكاً، وأفرغت دمه في مقلاة، غمست رأس الدمية في دم الديك، بعدها أخذتها إلى حجرتها، وتفوهت بعبارات متنوعة، ووضعت أعشاباً وجذوراً ذات مظهر غريب على الدمية، ثم أخرجت دبوساً أسود وقالت دمية الودونية جاهزة. لقد نفختها بروح أخيك. الآن، كل ما تفعله للدمية بهذا الدبوس الأسود سيحدث لأخيك في مومباي. على سبيل المثال، إذا غرست هذا الدبوس في رأس الدمية، سيشكو أخوك من صداع يفلق الرأس. وإذا ما غرزته عميقاً في الزر، سيشكو أخوك من وجع شديد في صدره. الآن، جربه. ظننتُ أنها تمزح، إنما كي أسايرها ضغطتُ الدبوس الأسود في الزر الأبيض على صدر الدمية. في غضون ساعتين تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من مومباي يفيد أن أرفند أُصيب بدجة صدرية خفيفة، وقد أُدخل مستشفى بريج كاندي".

أصبح: "ذلك شيء مدهش!".

"أجل. يمكنك أن تتصور صدمتي. ليس لأن أرفند أصيب بنوبة قلبية، بل لأنني عرفتُ الآن أن جولي قد أنتجت حقيقةً دميةً ودونية سيئة".

طيلة الشهرين التاليين، أصبحت الدمية بالنسبة إليّ لعبة السر الصغير. سكبتُ كل إحباطي، كل استيائي المستتر من أخي فيها. أشعر بسعادة شريرة في أن أسبب له الوجع والعذاب. أصبحت بالنسبة إليّ مصدر تسلية مجنونة. آخذ الدمية إلى مومباي، وأشاهد أرفند يتلوى فيما كنتُ أغرس الزر المثبت على الدمية، أعذبه برفق، بالدبوس. شيئاً فشيئاً بدأتُ أستخدم الدمية في مناسبات حينما يكون الآخرون حاضرين أيضاً. أخذتها معي إلى فندق بخمس نجوم حيث كان أرفند يستضيف بعض الزبائن اليابانيين. جلستُ بصورة غير فضولية إلى طاولة في أحد الأركان. سمعتُ أخي يتحدث قائلاً... نعم، سيد هارادا، لدينا خطط في فتح شركة تابعة في اليابان، إلا أن الاستجابة من شركة نيبون للأزرار لم تكن إيجابية جداً. نحن أيضاً - بغتةً أدخلتُ الدبوس الأسود في رأس الدمية. أوووووو! صرخ أخي وقبض على رأسه بكلتا يديه. غادر زبائنه الأجانب من دون أن يتناولوا طعامهم.

أخذتُ الدمية إلى حفل زواج عائلي في بنغالور دُعيت له مع أخي. حينما كان أرفند يهيم بتهنئة العروسين، استخدمتُ الدبوس. ليبارككما الله أنتما - أووووووووووووووووووووووووووووووو! صرخ، ونطح العريس، الأمر الذي كدّر الضيوف كلهم. واساني أشخاص كثيرون ذلك المساء، قائلين كم كانوا متأسفين لأن أرفند يسير نحو الجنون ببطء.

أخذتُ الدمية إلى حفل رسمي حيث كان من المزمع أن يتسلم أخي جائزة أفضل مقال. كان أرفند يلقي كلمته لدى تسلمه الجائزة،

"كانت رسمياً سكرتيري الجديدة فقط، لكنها في واقع الحال كانت خليلي. كانت بيننا أشياء مشتركة كثيرة لن أملكها مع أجنبية مثل جولي. كانت النقيض لجولي. جيوستنا هي التي جعلتني أدرك الظلم الرهيب الذي اقترفته بحق أخي الأكبر. قررتُ أن أخرج أرفند من مصح الأمراض العقلية".

"هل كنت قادراً على إخراجهم؟".

"كلا. كان قد فات الأوان. لقد عذبوا أخي في مصح الأمراض العقلية، أعطوه صدمات كهربائية. مات قبل أسبوعين".
"ماذا؟".

"نعم. أخي المسكين صار في عداد الأموات"، ينتحب. "توفي أخي العزيز". يمسك رأسه بين يديه. "وأنا الذي قتلته".
أفرقع بأصابعي تعبيراً عن ذهولي. ينحط السيد راو بسرعة من حمار إلى كلب.

"تلك الكلبة جولي، سأفضحها الآن. سأرمي أمها البدينة خارج المنزل، وأتخلص من أخيها الميؤوس منه. سأقتل قطها الخبيث، وسأركل جولي إلى خارج مومباي. دعها تفسد أخلاقياً في جحيم هايتي!".

"لكن كيف تخطط لتنفيذ ذلك؟".

كانت ثمة ومضة محتلسة في عينيه. "أنت صديقي، وأنا ثمل. الرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً. لذا يلزمي أن أخبرك أنني التقيتُ محامياً في وقت سابق ورتبتُ أوراق الطلاق. إذا توافق جولي، فخير على خير، بخلاف ذلك لديّ شيء آخر أيضاً. انظر". يخرج شيئاً من جيب سرواله. إنه مسدس صغير، أفطس الأنف، متراص جداً، ليس أكبر من قبضتي. "المعدن أملس ولماع من دون خدوش على الإطلاق. انظر إلى هذا الجمال. سأستخدم هذا كي أنسف رأسها. عندئذ سأتزوج جيوتسنا. أنت صديقي. أنا ثمل. والرجل الثمل يقول الـ أوووووووووووووووووووووووووووووو!!!" فجأة يصرخ في ألم مبرح، يقبض على قلبه وينهار على الطاولة ووجهه إلى الأسفل، يقلب زجاجة الشراب ويعثر جوز البلاذر الأميركي على الأرض.

يبدو أن بقشيشي أفلت مني مجدداً.

تصل سيارة الجيب التابعة للشرطة ذات الضوء الأحمر الوامض بعد نصف ساعة. تأتي سيارة إسعاف مع طبيب يرتدي معطفاً أبيض اللون، يعلن الأخير أن براكاش راو مات بسبب نوبة قلبية شديدة. يفتشون جيوبه. يكتشفون محفظة جيب مليئة بأوراق مالية، صورة فتاة هندية جميلة، رزمة من الأوراق تشير إلى طلاق. لم يجدوا أي مسدس. على كل حال، الأموات، لا يحتاجون إلى المسدسات.

تستطلع إليّ سميتا وعلى وجهها يلوح تعبير مسلٍ. "أنت لا تتوقع مني أن أصدق هذا الهراء الخالي من المعنى، أليس كذلك؟".
"لا أطلق حكماً. إنني حصراً رويتُ لك ما قاله لي براكاش راو. ما سمعته، ما شاهدته".

"مؤكد لن تكون ثمة حقيقة في أشياء كهذه؟".
"حسن، كل ما أستطيع أن أقوله إنه غالباً تكون الحقيقة أغرب من الخيال".

"لا أستطيع أن أصدق أن راو قُتل من خلال شخص ما يغرز دبوساً في دمية ودونية. أعتقد أنك اختلقت هذه القصة".
"رائع، لا تصدقي القصة، إنما كيف تفسرين إجابتي عن السؤال التالي".

تضغط سميتا على زر التشغيل في جهاز التحكم عن بعد.

يربت بریم كومار على مكتبه. "سيداتي سادتي، ننتقل الآن إلى سؤالنا التالي، السؤال السادس بمائة ألف روبية. هذا هو السؤال المفضل

الدائم في كل البرامج التلفزيونية الخاصة بالمسابقات. نعم. أنا أتكلم عن البلدان والعواصم. سيد توماس، ما مدى اطلاعك على المدن والعواصم؟ على سبيل المثال، أنتَ تعرف عاصمة الهند؟
يضحك الجمهور ضحكات نصف مكبوتة. إنهم مستعدون للاعتقاد أن النادل، أي نادل، ربما لا يعرف عاصمة بلده.
"نيودلهي".

"جيد جداً. وما هي عاصمة الولايات المتحدة الأميركية؟"
"نيويورك".

يقهقه بريم كومار. "كلا. هذا ليس صحيحاً. جيد، ما هي عاصمة فرنسا؟"
"لا أعرف".
"وعاصمة اليابان؟"
"لا أعرف".
"وماذا عن عاصمة إيطاليا؟ هل تعرفها؟".
"كلا".

"حسن، إذاً لا أفهم كيف يمكنك أن تجيب عن السؤال التالي من دون الاستعانة بأحد قاربي النجاة خاصتك. إذاً يأتي الآن السؤال السادس بمائة ألف روبية. ما هي عاصمة بابوا غينيا الجديدة؟ هل هي (أ) بورت لويس، (ب) بورت - أو - برنس، (ج) بورت موريسبي أو (د) بورت أديلايد؟".
تبدأ موسيقى الترقب.
"هل لديك أي فكرة مهما كانت، سيد توماس، في ما يتعلق بهذا السؤال؟".

"أجل. أعرف الإجابات غير الصحيحة".

"تعرف؟" يقول بريم كومار بصورة تنم عن الشك. يبدأ الجمهور بالتهامس في ما بينهم.

"نعم. أعرف أن الجواب ليس بورت - أو - برنس، التي هي عاصمة هايتي، أو بورت لويس، التي هي عاصمة موريشيوس، وكذلك هي ليست بورت أديلايد، لأن أديلايد في أستراليا. إذاً إنها يجب أن تكون (ج). بورت موريسبي."

"هذا مدهش. هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟"

"نعم، أنا متأكد."

ثم تسارع لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"تماماً، صحيح مائة بالمائة! إنها بورت موريسبي. لقد رجحت الآن مائة ألف روبية، أنت الآن مالك المائة ألف!" يعلن بريم كومار. يقف الجمهور ويهتف مشجعاً. يمسح بريم كومار مزيداً من العرق عن حاجبه. "أقسم إن الطريقة التي تعطي بها هذه الأجوبة، تبدو غير منطقية".

تضحك سميتا. "كلا إنها ليست غير منطقية أيها الأبله"، تقول لبريم كومار على الشاشة. "إنها المذهب الودوني!" فجأة تتحرك عينها بسرعة إلى الأسفل ناظرة إلى شيء ملقى على سجادة غرفة النوم. تنحني لتلتقطه. إنه زر صغير بأربعة ثقب صغير. من النوع الذي يُستعمل في القمصان. تنظر إلى قميصي. الزر الثالث مفقود حقيقةً. تسلمني إياه. "الآن، خير لك أن تحافظ على أزرارك".



200,000

جريمة قتل في الإكسبرس الغربي

تضج محطة سكك حديد فارغانج في نيودلهي بالصوت وتغص بالناس. تستحم الأرصفة الرمادية بالضوء الأبيض. تقذف محركات القطار الدخان بقوة وتصفّر كثيران فاقدة الصبر.

إذا كان يجدر بك البحث عني في هذه المتاهة المزدهمة فأين يمكنك أن تنظري؟ ربما تحاولين أن تجديني وسط دزينات من أطفال الشوارع الممددين على الأرض الكونكريتية الملساء في مراحل شتّى من الراحة والسبات. ربما حتى تتصوريني بائعاً متجولاً مراهقاً، يبيع متجولاً قناني البلاستيك التي تحتوي على ماء الصنبور من دورات مياه المحطة بوصفه ماءً معدنياً صافياً من همالايا. يمكنك أن تتخيليني كواحد من الكناسين بقميص قذرة وسروال ممزق يمشي متثاقلاً عبر الرصيف، مع مكنسة طويلة مهسوسة ناقلاً الأوساخ من الرصيف إلى الطريق. أو ربما تفتشين عني وسط أفواج الحمالين بالبذلات النظامية الحمراء ينطلقون بسرعة واهتياج هنا وهناك وعلى رؤوسهم أحمال ثقيلة.

حسن، فكري من جديد، لأنني لستُ بائعاً متجولاً، ولا حمالاً، ولا حتى كناساً. أنا اليوم مسافر صادق، أسافر إلى مومباي، في درجة

عربة النوم، ليس أقل من ذلك، وبحجز مناسب. أنا أرتدي قميصاً بيضاء منشأة متغضنة مصنوعة مائة بالمائة من القطن وسروال جينز علامة ليفي - نعم سروال جينز ليفي، تم شراؤه من سوق التيب. أسير بعزم صوب الرصيف رقم خمسة كي أركب متن باسجيم إكسبرس المتجه إلى مومباي. ثمة حمال يمشي مجهداً إلى جانبي حاملاً حقيبة سفر بنية فاتحة على رأسه. أنا الذي استخدمت الحمال وحقيبة السفر التي فوق رأسه تعود إليّ. إنها تحتوي على القليل من الثياب، وبعض اللُّعب القديمة، ورزمة من مجلات الجغرافية الأسترالية ولعبة إلكترونية لسالم. لا تحتوي الحقيبة على أي مبلغ من المال. سمعتُ قصصاً كثيرة جداً عن لصوص القطارات. يَخْدرونك بمخدر ليلاً وينهبون حاجياتك بسرعة كي يغتنموا فرصة حفظ أئمن حمولة في حياتي في حقيبة السفر؛ راتبي من أسرة تايلور. لذا فإن مغلف المانيلا المليء بالأوراق المالية المجددة من فئة الألف روبية - وعددها خمسون - معي، مخفي في مكان لا يستطيع أحد أن يراه. في سروالي الداخلي. استخدمتُ الألفين المتبقية كي أغطي التكاليف المالية للرحلة. ومنها دفعت ثمن ثيابي، وتذكرتي، وثن اللعبة الإلكترونية لسالم، والآن سأدفع أجرة الحمال وأشتري بعض الطعام والشراب. ألقى نظرة سريعة على الأوراق المالية في جيبي الأمامي. أحسب أنه سيكون لديّ ما يكفي من المال كي آخذ جنركشة⁽¹⁾ آلية من باندرا ترمينس بعد هبوطي من القطار إلى المبنى السكني الذي يقيم فيه سالم والواقع في جاتكوبار. ألن يندهش سالم حين يراني أصل بعربة ذات ثلاثة دواليب بدلاً من القطار المحلي؟ وحينما يرى اللعبة، أتمنى ألاّ يغمى عليه من السعادة.

(1) جنركشة jinrikisha (في النص rickshaw): عربة صغيرة بدولابين أو أكثر تتسع لشخص واحد - م.

الرصيف رقم خمسة مزدحم أكثر من سوبر بازار. الباعة المتجولون في الخارج بقوة منظمة كبيرة تضاهي قوة الباحثين عن الزبائن خارج دائرة حكومية. الركاب يفتشون عن أسمائهم في لوحة الحجز بالحماسة نفسها التي يفحص بها الطلبة بدقة نتائج الامتحانات. أجد أن قسم سكة الحديد شوّه اسمي كلياً، جاعلاً إياه تي. أم. رام. أنا سعيد، بالرغم من ذلك، كي أشاهد أنهم خصصوا لي المضجع السفلي الثالث في الحافلة أس 7.

تقع الحافلة تقريباً في نهاية القطار الطويل، والجمال متعب وينضج عرقاً في الوقت الذي دخلناها فيه. أجلسُ في المضجع المخصص لي، وهو المتاحم للباب، وأرتب حقيبة السفر بصورة متقنة في الحيز الواقع في الأسفل. أدفع للجمال عشرين روبية. يجادلني كي أدفع له المزيد، يشير بإصبعه إلى المسافة الطويلة التي قطعها من مدخل المحطة إلى الحافلة، فأعطيهِ روبيتين أخريين. بعد أن أصرف الجمال، أتفحص المشهد من حولي.

يبلغ مجموع المضاجع في مقصورتي ستة. أحدها فوقِي، اثنان أمامي واثنان إلى جانبي. تجلس على المضجع السفلي قبالي عائلة مكونة من أربعة أفراد؛ أب، وأم واثنان من الأولاد - غلام، في عمري تقريباً، وفتاة، أكبر قليلاً. الأب رجل أعمال مارواري⁽¹⁾ في منتصف العمر، يرتدي صدره سوداء ذات علامة تجارية رفيعة سوداء. له حاجبان كثان، وشارب مرسوم بالقلم، يلوح على وجهه تعبير متجهم. زوجته في سن مشابهة لسنه وذات تعبير متجهم بالقدر نفسه. تلبس

(1) مارواري Marwari: المارواريون هم أناس من راجاستان في الهند. إن كلمة مارواري تشير إلى المنطقة المحيطة بجودهبور، إلا أن معظم التجار المارواريون هم عملياً من شيخواتي - م.

سارياً أخضر اللون وبلوزة صفراء وتتطلع إليّ بعينين مرتابتين. الغلام طويل القامة ونحيل ويبدو ودوداً، غير أن الفتاة الجالسة إلى جانب النافذة هي التي تجذب انتباهي كالمغناطيس. هي نحيفة وصافية البشرة، ترتدي قميصاً وسروالاً أزرقين مع وشاح مسحوب فوق صدرها. عيناهما المعبرتان مكسوتان بالكحل. لها بشرة صافية لا عيب فيها وشفتان مُحبتتان إلى القلب. إنها أجمل فتاة شاهدتها منذ فترة طويلة. فتاة من النوع الذي يلزمك أن تنظري إليها ثانية، وثالثة، في اعتقادي أنني أستطيع أن أضيع في عينيها الساحرتين. إنما قبل أن أتأمل جمالها الأخاذ إلى مدى أبعد، تشتت انتباهي بفعل طفل وليد يبدأ بالبكاء بصوت عالٍ. إنه وليد ذكر، بعمر شهور قلائل، يجلس على المضجع الجانبي في حضن أمه. أمه امرأة في مقتبل العمر، ذات مظهر كئيب، ترتدي سارياً أحمر مجمداً. يبدو كما لو أنها تسافر وحيدة. تحاول جاهدة أن تهدئ الطفل بمصاصة مطاطية، إلا أن الوليد يستمر في النحيب. في الختام ترفع بلوزتها إلى الأعلى وتقدم ثديها لشفتي الطفل. يمص برضا وتورججه كي ينام. من مقعدي أنظر إليها نظرة خاطفةً ويحف فمي، إلى أن ألمح رجل الأعمال المارواري ينظر إليّ مباشرةً فأحول عينيّ إلى النافذة خلفها.

يدخل إلى المقصورة بائع شاي متجول. أنا الوحيد الذي يطلب كوباً منه. يسكب شايّاً فاتراً في وعاء خزفي، ذا طعم أشبه بطعم الطين. تبعه صبي يبيع الصحف. يشتري رجل الأعمال نسخةً من تايمز أوف إنديا. يشتري ابنه كتاب آرشي⁽¹⁾ الهزلي. أشتري آخر عدد من مجلة ستار بيرست من فكتي التي راحت تتضاءل بسرعة.

(1) كتاب آرشي الهزلي: Archie comic: يصور الشخصيات المراهقة ومن ضمنها آرشي (أرشيبالد) أندروس، طُبِع الكتاب لأول مرة سنة 1941 - م.

يصفر القطار صغيراً أخيراً، ويبدأ بالحركة، بعد ساعة ونصف من الموعد المقرر في الجدول. ألقى نظرةً على ساعتَي اليدوية، مع أنني أستطيع أن أرى بوضوح 18:30؛ السادسة والنصف عصراً، معروضاً على ساعة الرصيف الرقمية. أهز معصمي وألويه، أملاً من الآخرين، بالأخص الفتاة، أن يلاحظوا أنني أضع ساعة رقمية كاسيو جديدة، مصنوعة في اليابان، يظهر فيها اليوم والتاريخ، كلفني شراؤها مائتي روبية في بازار باليكا.

ينهمك الأب في قراءة الصحيفة، والغلام في مطالعة كتابه الهزلي. تبدأ الأم بالترتيبات اللازمة لعشاء الأسرة. الأم الشابة الأخرى غطت في نوم عميق، الطفل لا يزال ملتصقاً بتيديها. أظهار بقراءة المجلة السينمائية. إنها مفتوحة عند الثنية الوسطية، التي تعرض صورة لبونام سنغ بالبكي. أواصل إلقاء نظرات مراوغة على الفتاة التي كانت تتطلع بشرود ذهن إلى المشاهد المدنية التي تندفع بسرعة وراء النافذة. لم تلق عليّ حتى نظرةً واحدةً.

عند الساعة الثامنة مساءً يدخل إلى المقصورة فاحص تذاكر بصدرة سوداء. يطلب منا جميعاً أن نظهر تذاكرنا. بسرعة أنترع تذكرتي بحركة شبه مسرحية، لكنه حتى لم يقرأها. ببساطة يضغط بشدة عليها ويعيدها إليّ. حالما يذهب تفتح الأم علماً كرتونيةً مستطيلةً تحوي طعاماً. ثمة كميات كبيرة منه. أرى أرغفة بيوري⁽¹⁾ متغضنة، حبات بطاطا صفراء، فليفلة حمراء مخللة، وعقبة⁽²⁾. تفوح رائحة غولاب جمون⁽³⁾ وحلوى بارفي

(1) بيوري puri: خبز غير مخمر يُعد في بلدان عديدة في جنوب آسيا، ومنها الهند. يستخدم في الفطور، أو كوجبة خفيفة - م.

(2) عقبة dessert: حلوى أو فاكهة يُختم بها الطعام - م.

(3) غولاب جمون golap jamun: حلوى شائعة في شبه القارة الهندية، شبيهة بحلوى لقمة القاضي في بلاد العرب - م.

المصنوعتين في البيت في المقصورة. أبدأ بالإحساس بالجوع أيضاً، إلا أن غلام حجرة المؤن لم يتلقَ بعد الأوامر التي تطلب منه تناول العشاء. أغلب الظن كان ينبغي لي أن أختار شيئاً ما من المخططة.

يأكل أفراد عائلة الماروارى بحماسة. الأب يلتهم رغيف بيوري بعد رغيف بيوري. الأم تأتي بسرعة على حبات البطاطا الصفراء - الذهبية، تتناول الفليفلة الحمراء المخللة كثيرة العصارة بعد كل قضمة. الولد ينشئ أقرب المسالك نحو غولاب جمون اللينة ويلوث العصير السكري. الفتاة وحدها التي تأكل برفق. ألق شفتي بصمت. بغرابة كافية، يقدم إليّ الغلام رغيفي بيوري، لكنني أرفض بأدب. سمعتُ قصصاً كثيرة عن لصوص يتنكرون بصفة مسافرين يقدمون طعاماً مضافاً إليه المخدر إلى زملائهم المسافرين وبعدها يذهبون ما لديهم. وليس ثمة سبب يجعل الأولاد الذين يطالعون هزليات آرشي لا يلجأون إلى النهب. مع ذلك لو قدّمت إليّ الفتاة الطعام فرمما كنتُ قبلته.

بعد أن يفرغا من تناول العشاء، يبدأ الغلام والفتاة بممارسة لعبة على ورق كرتوني تُدعى المونوبولي. الأب والأم يجلسان جنباً إلى جنب ويتحدثان من دون كلفة. يناقشان آخر أنواع الصابون التي يعرضها التلفاز، وشيئاً ما حول شراء عقار والسفر إلى غوا لتمضية عطلة ما هناك.

أضرب على بطني برفق حيث الخمسين ألف روبية بأوراق مالية مجمعة تستكين داخل حزام سروالي الداخلي، وأتحسس قوة كل تلك النقود تتسرب بصورة مغرية إلى معدتي، أمعائي، كبدي، رئتي، قلبي ودماغي. الجوع الذي ينخر معدتي يختفي بصورة عجابية.

أتطلع إلى منظر أفراد الأسرة النموذجية المنتمية إلى الطبقة الوسطى الجالسسين قبالي، لم أعد أشعر أنني أشبه بمتطفل، لم أعد دخيلاً يختلس

النظر إلى عالمهم الغريب، إنما أصبحتُ أحس أنني مطلع يمكنه أن يقيم علاقات معهم بوصفه مساوياً لهم، أن يتحدث إليهم بلغتهم الخاصة. على غرارهم، أنا أيضاً يمكنني الآن أن أشاهد أنواع صابون الطبقة الوسطى، أمارس ألعاب النينتندو، وأزور كدز مارت في نهايات الأسابيع.

رحلات القطار مليئة بالاحتمالات. إنما تدل على تغيير في الحالة. حين تصل، لن تكون الشخص نفسه الذي غادر. يمكنك أن تقيم علاقات صداقة جديدة في الطريق، أو تجد أعداء قدامى؛ ربما تصاب بالإسهال من جراء تناول سمبوسات سيئة الطعم بسبب قدمها أو بالكوليرا من جراء شرب ماء ملوث. وأجرؤ على القول، ربما حتى تكتشف حباً جديداً. وأنا جالس في المضجع رقم ثلاثة في الحافلة أس 7 التابعة للقطار 2926 أ، مع خمسين ألف روية محشورة في سروالي الداخلي، الاحتمال المعذب الذي دغدغ حواسي وأثر تأثيراً قوياً في فؤادي هو أنني ربما، فقط ربما، أكون على وشك أن أقع في حب مسافرة جميلة ترتدي سروالاً وقميصاً أزرقين. وحين أقول حب، لا أعني الحب غير المقابل، غير المتكافئ الذي نكته لنجوم السينما والمشاهير. أعني تحديداً الحب الحقيقي، العملي، الممكن. حب لا ينتهي بسكب العبرات على الوسادة، إنما ذلك الحب الذي يستطيع أن يثمر زواجاً، وأولاداً. وأيام عطل تمضيها الأسرة في غوا.

لديّ خمسون ألف روية فقط، إنما لكل روية حلم مصوّر بالألوان مكتوب عليها، وهذه الأحلام مبسطة على شاشة سينما سكوب في دماغى كي تغدو خمسين مليوناً. أحبس نفسي وأتمنى أن تدوم تلك اللحظة أطول مدة ممكنة، لأن حلم اليقظة هو دوماً أسرع زوالاً من حلم المنام.

بعد لحظة من الوقت، يتعب الأخ والأخت من لعبتهما على الورق المقوى. يأتي الغلام ويجلس إلى جانبي. نبدأ الحديث. أعرف أن اسمه أكشاي واسم أخته ميناكشي. يقيمون في دلهي وذهبون إلى مومباي لحضور عرس أحد أعمامهم. أكشاي مسرور في ما يتعلق بلعبة بلي ستيشن 2 خاصته وألعاب الحاسوب خاصته. يسألني عن MTV وخدمة الإنترنت، ويذكر بعض المواقع غير المحتشمة. أقول له إنني أتكلم الإنكليزية، أقرأ الجغرافية الأسترالية، ألعب السكرابل ولدي سبع صديقات، ثلاث منهن أجنبيات. أقول له إن لدي بلي ستيشن وحاسوب بنتيم 5 وأستخدم الإنترنت ليلاً ونهاراً. أقول له إنني ذاهب إلى مومباي للقاء أعز أصدقائي، سالم، وسأخذ سيارة أجرة من باندراترميناس إلى جاتكوبار.

كان يجب عليّ أن أعرف أن المزاح مع غلام ذي ستة عشر عاماً أصعب من المزاح مع عجوز ذي ستين عاماً. يدرك أكشاي حقيقة خداعي. "ها! أنت لا تعرف شيئاً عن الحاسبات. بلي ستيشن 3 حتى لم يُطلق بعد. أنت مجرد كذاب كبير"، يهزأ مني.

لا أستطيع أن أقاومه. "آه، أنت إذا تعتقد أنها كلها كذبة كبرى، إيه؟ حسن، سيد أكشاي، دعني أقول لك هنا حصراً، الآن حصراً، لديّ خمسون ألف روبية في جيبي. هل رأيت من قبل مبلغاً مالياً كبيراً جداً كهذا في حياتك؟".

يرفض أكشاي أن يصدقني. يتحدثني في إظهار النقود، والتوقع بالتأثير فيه هو شيء مغر جداً بالنسبة إليّ. ألتفت حولي، أدس يدي في سروالي الداخلي وأخرج المغلف المصنوع من ورق المانيلا، الرطب قليلاً والذي تفوح منه نوعاً ما رائحة البول. جلسة أنتزع حزمة الأوراق المالية المجمعة من فئة الألف روبية، وأرفرفها أمامه

بانتصار. بعدها أعيدها بسرعة، وأودع المغلف في موضع استراحته السابق.

كان لا بد لك أن تري عينيّ أكشاي. لقد جحظنا بكل معنى الكلمة من محجريهما. كان نصراً من المفترض أن أستمع به إلى الأبد. لأول مرة في حياتي، كان لديّ شيء محسوس أكثر من حلم يدعم ادعاءً. ولأول مرة في حياتي، أرى شيئاً جديداً انعكس في العينين اللتين تريانني؛ الاحترام. علمني ذلك درساً ثميناً جداً، أن الأحلام لها سلطة فقط على عقلك أنت، إنما مع النقود يمكنك أن تتسلطي على عقول الآخرين. ومرة أخرى أشعر أن الخمسين ألف روية في سروالي الداخلي هي أشبه بخمسين مليوناً.

* * *

الوقت الآن العاشرة ليلاً والجميع يتهيأون للنوم لأن الليل حلّ. تسحب أم أكشاي ملاءة سرير كتان من حقيبة سفر قماشية خضراء، وتبدأ بترتيب المضاجع الأربعة التي سيستخدمها أفراد أسرتها. الأم الشابة ذات الطفل الوليد تنام في المضجع الجانبي، من دون أن تكثرث للوسائد أو ملاءات الأسرة. ليست لديّ عدّة السرير ولستُ من السنوع المحب للنوم، لذا أجلس إلى جانب النافذة، وأشعر بالريح الباردة تعانق وجهي، أشاهد القطار وهو يشق نفق الظلام. المضجع السفلي الذي يقابلني مباشرةً تشغله أم أكشاي، العلوي تشغله ميناكشي. يتسلق الأب إلى المضجع الذي فوقي ويشغل أكشاي المضجع العلوي في الجانب، فوق الأم والطفل.

ينام الأب في الحال؛ يمكنني أن أسمع شخيرته. تنقلب الأم على جنبها وتسحب ملاءتها. أتلع عنقي كي ألقى نظرة خاطفة على ميناكشي، لكنني لا أستطيع سوى أن أرى يدها اليمنى، مع سوار ذهب

في معصمها. بغتة تجلس في سريرها وتنحني في اتجاهي كي تسقط حذاءها. انزلق وشاحها ويمكنني أن أرى بجلاء أعلى صدرها عبر فتحة عنق قميصها الزرقاء التي تتخذ شكل V. هذا المشهد يرسل رعشة لإرادية من السعادة في ظهري. أعتقد أنها تلمحني وأنا أنظر إليها، لأنها بسرعة تعدّل وشاحها فوق صدرها وترسل إليّ نظرة مستنكرة.

بعد هنيهة، أنا، أيضاً، أنجرف إلى النوم، حالماً أحلام الطبقة الوسطى المتعلقة بشراء مليون شيء مختلف، بما في ذلك فيراري حمراء وعروس جميلة ترتدي قميصاً وسروالاً أزرقين. هذه الأشياء كلها بخمسين ألف روية.

أستيقظ من النوم على شيء ينخس معدتي. أفتح عيني وأجد رجلاً داكن البشرة ذا شارب أسود ثخين يخزني بعصا خشبية رفيعة. ليست العصا هي التي تقلقني. إنه المسدس بيده اليمنى، الذي كان موجهاً إليّ بالأخص. "هذا لص" يعلن بهدوء، بالنبرة ذاتها التي يقول فيها شخص ما، "اليوم هو الأربعاء". يرتدي قميصاً بيضاء وسروالاً أسود وله شعر طويل. إنه في مقبّل العمر ويبدو أشبه بروميو شارع أو طالباً جامعياً. لكنني يومذاك لم أكن قد شاهدتُ لصاً خارج صالة السينما. ربما هم يشبهون الطلاب الجامعيين. يتكلم من جديد: "أريد منكم جميعاً أن تنزلوا من مضاجعكم، ببطء. إذا لم يحاول أي منكم أن يتصرف كبطل، لن يصاب أي منكم بأذى. لا تحاولوا أن تهربوا، لأن شريكِي يغطي الباب الآخر. إذا تعاونتم كلكم، سينتهي هذا في عشر دقائق لا غير".

أكشاي، ميناكشي ووالدهما نُخسوا بصورة مشاهمة، وأُجبروا على النزول من مضاجعهم. إنهم مترنخون ومربكون. حين يتم إيقاظك فجأة عند منتصف الليل، يستغرق الدماغ بعض الوقت كي يستجيب.

نجلس جميعاً على المضاجع السفلية. أكشاي ووالده يجلسان إلى جانبي، ميناكشي وأمها والمرأة مع الطفل يجلسون قبالتنا. يتململ الطفل الوليد من جديد ويشرع بالبكاء. تحاول الأم أن تهدئه إلا أن الطفل يبدأ بالبكاء بصوت أعلى من السابق. "أعطه حليبك"، يقول لها اللص بفضاضة. ترتبك الأم، وترفع بلوزتها. يتسم لها اللص ويقوم بحركة مسرحية وكأنه يقبض على أحد مصدري الحليب، تصرخ وتغطيه بسرعة، يقهقه اللص. هذه المرة لا يدغدغي المشهد. إن مسدساً محشواً موجهاً إلى رأسك يجذب انتباهك أكثر من أي مصدر حليب مكشوف.

الآن وقد نال اللص الانتباه غير المقسم للجميع، يركز تفكيره على الشغل، يرفع عالياً كيساً بنياً من الخيش بيده اليسرى، والمسدس بيده اليمنى. "جيد. الآن أريد منكم أن تسلموا حاجياتكم الثمينة كلها. ضعوها في هذا الكيس. أريد من الرجال أن يسلموني محفظات الجيب خاصتهم وساعاتهم اليدوية وأي مال في جيوبهم، ومن النساء أن يعطينني أكياس النقود العائدة إليهن، أساورهن وقلائدهن الذهبية. إذا كان هنالك أحد لا يذعن لتعليماتي، سأطلق عليه نار مسدسي وأرديه قتيلاً في الحال". تصرخ أم ميناكشي والأم الشابة في الوقت نفسه حين تسمعان هذه الكلمات. نسمع صرخات آتية من الناحية البعيدة للمقصورة. من المفترض أن شريك اللص يصدر تعليمات مشاهمة للمسافرين في ناحيته.

يمرر اللص الكيس المفتوح على الجميع واحداً واحداً. يبدأ بالأُم والطفل. بتعبير مروّع تأخذ حقيبة يدها الجلدية البنية، تفتحها بسرعة كي تنزع مصاصةً وقنينة حليب، ثم تُسقط الحقيبة في الكيس. طفلها الوليد، الذي انقطعت رضاعته من ثدي أمه لحظة، يبدأ بالبكاء من

جديد. تبدو ميناكشي مذهولة. تنزع سوارها الذهبي، إنما فيما كانت تم بوضعه في الكيس، يسقط اللص الكيس ويقبض على معصمها. "حبيبي، أنت أكثر جمالاً من أي سوار"، يقول فيما تسعى ميناكشي يائسةً إلى الإفلات من قبضة الرجل الشبيهة بملزمة. يفلت اللص معصمها، ويقبض على قميصها، يمسك قميصها من الباقة، تراجع الفتاة إلى الخلف، وخلال هذه العملية تتمزق القميص تقريباً إلى نصفين، وتنكشف حمالة صدرها. نحن كلنا نشاهد هذا مروّعين. لم يعد والد ميناكشي يطبق هذه القسوة. "أنت يا ابن الساقطة!" يصرخ ويحاول أن يلكم اللص، إلا أن الرجل يملك رد فعل نمر، يحرر قميص ميناكشي ويضرب والدها بعقب مسدسه. يفتح فوراً جرح بليغ في جبين رجل الأعمال، ويبدأ الدم بالسيلان منه. أم ميناكشي تبدأ بالنواح مجدداً. "أخوسي"، يهدر اللص، "وإلا قتلتم جميعاً".

لهذه الكلمات تأثير وقور كلنا نغدو جامدين بلا حراك. تتكون كتلة من الخوف في حنجرتي وتصبح يداي باردتين. أصغي لأنفاس الجميع المرهقة. ميناكشي تنشج بهدوء، تسقط أمها أساورها وحقيبة يدها في الكيس، يضع أبوها ساعته اليدوية ومحفظة الجيب خاصته بأصابع مرتعشة. يسأل أكشاي هل عليه أن يضع كتاب آرشي الهزلي. هذا السؤال يغيب اللص. "أعتقد أن هذه مزحة؟" يهمس ويصفع الغلام. يعوي أكشاي بألم ويبدأ بمداراة خده. لسبب ما أجد أن المقايضة مضحكة نوعاً ما. كفاصل كوميدي في فيلم من أفلام الرعب، يوبخني اللص بقسوة. "ما الشيء الذي تبتسم له هذه البسمة العريضة؟ وماذا لديك؟" يفرق بإصبعه. أخرج الأوراق المالية والفكة المتبقية من جيبي الأمامي وأسقطها في الكيس، تاركاً فقط قطعة النقد الجالبة للحظ خاصتي وهي من فئة روية واحدة. أبدأ بفك ساعة معصمي، إلا

أن اللص يتطلع إليها ويقول: "إنها مقلدة. لا أريدها". يبدو أنه مقتنع بالغنيمة التي حصل عليها من مقصورتنا وكان يهم بالحركة حين يصيح أكشاي: "انتظر، لقد نسيتَ شيئاً".

أراقب المشهد وهو يتجلى للعيان تدريجياً كما لو بحركة بطيئة. يستدير اللص على عقبيه. يشير أكشاي بإصبعه ناحيتي ويخاطب اللص قائلاً: "هذا الغلام لديه خمسون ألف روبية!" يقول هذه الكلمات بركة، إنما يبدو لي أن القطار بأكمله سمعها.

ينظر اللص بتهديد إلى أكشاي. "هل هذه مزحة أخرى؟".

يقول أكشاي: "ك - ك - كلا. أقسم".

يتطلع اللص إلى أسفل مضجعي. "هل هي في حقيبة السفر البنية هذه؟".

"لا، لقد أخفاها في سرواله الداخلي، في مغلف". يرد أكشاي، متكلفاً الابتسام.

"أها ها!" يزفر اللص.

أنا أرتجف - لا أدري هل أرتجف من الخوف أم الغضب. يدنو مني اللص. يسألني: "هل تعطيني النقود بحدوء أم أجعلك تعرى أمام هؤلاء كلهم؟".

"لا! هذه نقودي!" أصرخ، وفطرياً أحمي أعضائي التناسلية كلاعب كرة قدم يسدّ مسار ركلة حرة. "لقد كسبتها من عملي، لن أعطيها لك، إنني حتى لا أعرف اسمك".

يطلق اللص ضحكةً خشنّةً. "ألا تعرف ماذا يفعل اللصوص؟ نحن نأخذ النقود التي لا تعود إلينا، من أناس لا يعرفون حتى أسماءنا. الآن هل تعطيني المغلف أم يلزمي أن أسحب سروالك الداخلي إلى الأسفل وأخذها بنفسني؟" يلوح بالمسدس في وجهي.

كمحارب مهزوم، أستسلم أمام قوة المسدس. بتؤدة أدخل أصابعي في حزام سروالي الداخلي وأجر مغلف المانيلا، اللزج بالعرق والذي تفوح منه رائحة الذل. يلتقطه اللص من يدي ويفتحه. يصفر حين يرى الأوراق المالية الجديدة الم المعدة من فئة الألف روبية. "من أي لعنة نلتَ هذه النقود كلها؟" يسألني. "لا بد أنك نهبته من شخص ما. على كل حال، لا أبالي بهذا الأمر". يُسقطه في كيس الخيش. "الآن لا أحد منكم يتحرك فيما أنا ألتقي الناس الآخرين في مقصورتكم". فقط أحْدَقْ بخرس وأشاهد الخمسين مليون حلم التي خُطفت مني، وأسقطت في كيس الخيش حيث تحتك بأساور ومحفظات جيب الطبقة الوسطى.

ينتقل اللص إلى القسم المجاور من المقصورة، إلا أن أحداً منا لم يجرؤ على شد حبل الطوارئ. بقينا ثابتين في مقاعدنا، كالمفجوعين في جنازة. يعود بعد عشر دقائق وكيس الخيش على ظهره، فمه مشدود، المسدس في يده اليمنى. "جيد"، يقول، يشد الكيس كي يظهر لنا أنه مملوء وثقيل. يتطلع إليّ ويتسم بسمّة عريضة، كمستأسد خطف توأ لعبة شخص ما. بعدئذ ينظر إلى ميناكشي. كانت قد غطت صدرها بوشاحها، إلا أنه عبر القماش الشفاف يظهر بجلاء القماش الأبيض لحمالة الصدر خاصتها.

يصيح شريك اللص: "أنا جاهز. هل أنتَ جاهز؟".

"نعم"، يهتف لصنا راداً على سؤاله. فجأة يبدأ القطار بالتباطؤ.

"أسرع!" يقفز اللص الآخر من القطار.

"أنا آت في غضون ثانية. الآن، خذ الكيس". يرسل لصنا الكيس - والخمسين مليون حلماً - مدوماً خارج الباب. يهم بالوثوب، لكنه يغيّر رأيه في الثانية الأخيرة. يعود إلى مقصورتنا.

"بسرعة، امنحيني قبلة الوداع"، يقول لميناكشي، ملوِّحاً بالمسدس نحوها. ميناكشي مذعورة. تنكمش مرتعدةً في مقعدها.

"أنتِ لا تريدين أن تهبيني قبلة؟ حسن، اخلعي وشاحكِ إذاً. دعيني أرى..."، يأمرها. يمسك بالمسدس بكلتا يديه ويزجر بوجه ميناكشي. "تحذير أخير. بسرعة، أريني شيئاً من بشرتكِ وإلا أطير رأسك قبل مغادرتي". يغمض والد ميناكشي عينيه. ويُغمى على والدتها.

باكيةً ومنتحبةً، تبدأ ميناكشي بنشر وشاحها. لا يوجد تحته سوى قطعة من القماش الأبيض. مع رباطين وكوبين.

إلا أنني لا أرى هذه الواقعة. بل أرى امرأةً طويلة القامة ذات شعر محلول. الريح تعصف وراءها، فتجعل شعرها الأسود الفاحم يطير على وجهها، حاجباً إياه. ترتدي سارياً أبيض قماشه الخفيف يرفرف ويهتز كطائرة ورقية. تحمل طفلاً وليداً بين ذراعيها. رجل ذو شعر طويل وشارب كثيف، يلبس سروالاً أسود اللون وقميصاً بيضاء يدنو منها. يصوب مسدساً نحوها ويتنسم بسمّة عريضة. يعوي قائلاً:

"افتحي ساريك" تشرع المرأة بالبكاء. يومض البرق، يتبعثر الغبار، تطير أوراق الأشجار. على حين غرة يقفز الطفل الوليد من حجر أمه ويشب على الرجل، يخمش وجهه. يصرخ الرجل ويتخلص من الطفل، إلا أن الطفل يندفع بقوة نحو وجهه من جديد. يتدحرج الرجل والطفل على الأرض فيما تبكي المرأة ذات الساري في الخلفية. يلوي الرجل يده ويصوب مسدسه نحو وجه الطفل، لكن اليوم بورك الطفل بطاقات فوقبشرية. بأصابع صغيرة جداً يسحب ماسورة المسدس، عاكساً اتجاهه. يتصارع الرجل والطفل من جديد، يذهبان يميناً وشمالاً، يتدحرجان على الأرض. إنهما محبوسان في قتال مميت. تارةً يهيمن

الرجل وطوراً يبدو الطفل هو الفائز. يستطيع الرجل أخيراً أن يحرر ذراعه التي تحمل المسدس. تنقوس أصابعه حول الزناد. صدر الطفل الوليد أمام ماسورة المسدس مباشرة. يهيم الرجل بالضغط على الزناد، إنما في اللحظة الأخيرة يتمكن الطفل من أن يحرف المسدس بعيداً عنه ويوجهه صوب صدر الرجل. ثمة انفجار يصم الآذان ويتراجع الرجل كما لو ضربته عصفه ريح قوية. يظهر صبغ قرمزي اللون على قميصه البضاء.

"آه!" أسمع صوت أكشاي، كصدى في كهف. اللص راقد على أرضية القطار، على مبعده بوصات قليلة من الباب، وفي يدي مسدس، يتصاعد منه ذيل خفيف من الدخان إلى الأعلى. يبدأ القطار باكتساب السرعة تدريجياً.

لا أزال لا أفقه تماماً ما جرى. حين يتم إيقافك فجأة في وسط حلم ما، يستغرق الدماغ بعض الوقت كي يستجيب. إنما حين يكون في يدك مسدس يرسل دحاناً وثمة رجل ميت عند قدميك، هنالك حيز صغير لسوء الفهم. قميص اللص مشبعة بالدم، الصبغ يزداد قتامة وتوسعاً طيلة الوقت. إنه ليس بالصورة التي يرونك إياها في الأفلام السينمائية، حيث يسفر الطلق الناري عن بقعة حمراء صغيرة فورية وتبقى هكذا إلى أن ينقلوا الجثة في سيارة إسعاف. لا. الدم حتى لا ينبجس في بادئ الأمر، يبدأ بالتسرب تدريجياً ويبطئ شديد. في البدء تكون هنالك نقطة حمراء متناهية الصغر، ليست أكبر من مسمار صغير عريض الرأس يُدفع بالإهام، بعدها تصبح رقعة دائرية بحجم قطعة نقد، ثم تنمو لتغدو بحجم الصحن الذي يوضع أسفل الفنجان، ثم تتوسع إلى حجم طبق طعام، وتواصل نموها شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح الجريان سيلاً. أبدأ باللهاث والمقصورة كلها تكاد تغرق في نهر أحمر حين يهز

والد أكشاي كنفّي بعنف. "أقول، غير موقفك!" يصيح، ويرتفع الاحمرار.

أجلس على مضجعي، ويتحلق حولي حشد من الناس. عملياً جاءت المقصورة كلها كي ترى ما الذي جرى بالضبط. الرجال، النساء والأطفال يمدون أعناقهم إلى الأمام. إنهم يشاهدون لصاً ميتاً، لا أحد يعرف اسمه، مسحى على الأرض ببقعة حمراء داكنة على قميصه الأبيض، يشاهدون أباً ذا جرح بالغ في جبينه، أمّاً مذعورةً عصر طفل جائع كل قطرة حليب من صدرها، أحاً لن يطالع هزليات آرشي في القطار مجدداً، أختاً ستلازمها الكوايس طيلة حياتها. وغلّام شارع، على مدى لحظة موجزة، امتلك بعض النقود، ولن يملك مجدداً أحلام الطبقة الوسطى.

يبدو الضوء الأصفر في المقصورة مزعجاً بصورة غير مألوفة. أفتح عيني وأغمضهما بصورة متكررة، وأحمل المسدس برخاوة في يدي. إنه صغير وملتز ذو بدن معدني ومقبض أسود. يشير إلى كولت بحروف منقوشة وله صورة حصان واثب في كلتا جهتي النقش. أقلبه. على الجهة الثانية من فوهة المسدس يشير إلى وزن خفيف، إلا أن المرء يشعر أنه ثقيل بصورة مضحكة. للمسدس بعض الحروف والأرقام منقوشة عليه أمست باهتة. أكتشف: "Conn USA" و"DR24691".

تنظر إليّ ميناكشي خلسة. تنظر إليّ كما ينظر سالم إلى نجوم السينما. أعرف أنها في هذه اللحظة مغرمة بي. إذا تقدّمت لخطبتها الآن ستقبل بي زوجاً لها. إنه لشيء مفرح أن يكون لي أطفال. حتى من دون الخمسين ألفاً. إلا أنني لا أبادلها النظرات لأن الأشياء كلها تغيرت. أنظر فقط إلى المسدس في يدي وإلى وجه اللص الميت، الذي أجهل اسمه.

كان من المحتمل أن يموت بأي طريقة من الطرائق. كان من المحتمل أن يُقتل بالرصاص في وسط سوق مزدحمة في مناوشة مع الشرطة. كان من الجائز أن تذبحه عصابة منافسة فيما هو يرتشف الشاي عند كشك على جانب الطريق. كان من الجائز أن يتوفى في مستشفى من جراء الكوليرا، السرطان أو الإيدز. إنما لا، هو لم يمِث من جراء أي طريقة أو سبب مما سبق. لقد مات بسبب رصاصة أطلقَتْها أنا بنفسِي. ولم أكن حتى أعرف اسمه.

رحلات القطار حافلة بالاحتمالات. إنما ثقب في القلب يضع نهايةً معينةً لها. ما من سفر آخر للجنة. ربما ثمة سفر إلى محرقة الجنازة، لكنها بالتأكيد لن تلتقي بعد الآن بأي بائع متجول أو فاحص تذاكر. أنما، على كل حال، من المرجح أن ألتقي ليس فقط البائعين المتجولين وفاحصي التذاكر، إنما الشرطة كذلك. كيف سيعاملونني؟ كبطل صان حياء فتاة وخلّص العالم من لص سيئ السمعة، أم كقاتل وحشي أطلق النار على رجل فأرداه قتيلاً حتى من دون أن يعرف اسمه؟ أعرف شيئاً واحداً لا غير: لا أستطيع أن أقامر في ما يتعلق بإلقاء القبض عليّ بسبب الجرم الذي اقترفته. ومن ثم راحت كلمات الكولونيل تايلور تضح في وعيي كصاعقة نازلة من السماء: "CYTLYT، شوّش أثرك، ضيّع ذيلك". أعرف بالضبط ما يجب عليّ أن أفعله.

فيما كان القطار يتأهب للتحرك نحو المحطة التالية، حيث، من دون ريب، ينتظرني حشد من رجال الشرطة، أقفز من الباب والمسدس لا يزال في يدي. أعدو عبر المسلك، وأقفز إلى قطار ثانٍ يكاد ينطلق من الرصيف. لا أجلس في أي مقصورة؛ بل أبقى عند الباب. فيما يمر القطار فوق جسر مشيد على دعامة من طرف واحد، أقذف المسدس مدوّماً في النهر المعتم. بعدها، حينما يقف القطار في المحطة التالية، أثب

وأجد قطاراً آخر ذاهباً إلى جهة أخرى. أفعل هذا طيلة الليل، متنقلاً من محطة إلى محطة، ومن قطار إلى قطار.

المدن تمر بجانبني ضبابية. لا أدري ما إذا كنتُ أسافر شمالاً أم جنوباً، شرقاً أم غرباً. إنني حتى لا أعرف أسماء القطارات. إنني فقط أستمر في تغييرها. الشيء الوحيد الذي أعرفه بصورة مؤكدة هو أنني لا أستطيع الذهاب إلى مومباي. ربما أخبر أكشاي الشرطة عن سالم وربما يستطيعون أن يعتقلوني في جاتكوبار. إنني أيضاً لا أرغب في النزول إلى محطة حقيرة، مهجورة وأخطف الانتباه الذي لا ضرورة له. أنتظر محطة مليئة بالضوء، بالصوت والناس.

عند التاسعة صباحاً، القطار الذي كنتُ أسافر فيه يصل إلى رصيف ذي نشاط صاحب، مزدحم. أترجل مرتدياً قميصاً مغضنة قطنية مائة بالمائة والتي كانت ممزقة ولها ثلاثة أزرار مفقودة، سروال الجينز علامة ليفي المكسو بالسخام، وساعة يدوية رقمية مقلدة. تبدو هذه المدينة مكاناً جيداً كي يختبئ فيه المرء مدةً وجيزة. أرى لوحة صفراء كبيرة عند حافة الرصيف تحمل اسمه. تعلن بحروف سوداء تخينة: "أغرا. ارتفاعها 169 متراً فوق مستوى سطح البحر".

تضع سميتا يدها على فمها. تقول: "كنتُ إذاً طيلة هذه السنوات تحياً بشعور بالذنب كونك قتلت رجلاً؟".
أرد عليها: "رجلين. لا تنسي كيف دفعتُ شانتارام عن السلم".

"لكن ما جرى في القطار هو حادثة. ويمكنك أن تبررها على أساس الدفاع عن النفس. على كل حال، سأكتشف أولاً ما إذا سُجلت دعوى. لا أعتقد أن المسافرين الآخرين كانوا يرغبون في أن

يورطوك. لقد أنقذتهم، بالرغم من ذلك. بالمناسبة، ماذا جرى لتلك الفتاة، ميناكشي؟ هل رأيته مجدداً؟".
"كلا. أبداً. لنعد الآن إلى البرنامج".

في الاستوديو، تخفت الأضواء من جديد.
يلتفت إليّ بريم كومار. "ننتقل الآن إلى السؤال السابع. بمائتي ألف روبية. هل أنت جاهز؟".
أجيب: "جاهز".

"جيد. هو ذا السؤال السابع. من الذي اخترع المسدس؟ هل هو (أ) صموئيل كولت، (ب) بروس برونغ، (ج) دان ويسون، أم (د) جيمس ريفولفر؟".

تبدأ الموسيقى. أستغرق في تفكير عميق.
يسألني بريم: "هل سمعتَ بأي اسم من هذه الأسماء؟".
"أحدها يبدو مألوفاً لي".
"هل ترغب إذاً في الانسحاب من البرنامج أم أنك تريد أن تغتنم فرصة؟".

"أعتقد أنني سأغتنم فرصة".
"فكّر من جديد. ربما تفقد المائة ألف روبية التي ربحتها حتى الآن".

"ليس لديّ ما أفقده. أنا مستعد للعب".

"حسن. ما هو جوابك النهائي؟".

"(أ). كولت".

"هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

ثمّة تسارع لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.
صحيح تماماً، مائة بالمائة! إنه في الواقع صموئيل كولت الذي
اخترع المسدس سنة 1835. لقد ضاعفت أرباحك إلى مائتي ألف
روبية!".

لا أستطيع أن أصدق ذلك. لقد ربحْتُ من جديد الخمسين ألف
روبية العائدة إليّ مع فائدة بثلاثة أضعافها. شكراً للص داكُن البشرية،
الذي أجهل اسمه.

هنالك آهات صادرة من الجمهور. يتكرر نغم البرنامج، إلا أن
الصوت الوحيد الذي لا ينثي يتردد في أذنيّ هو صوت حركة المكبس
الذي لا يرحم العائد لقطار يسافر من دلهي إلى مومباي، مروراً بأغرا.
على حين غرة يقفز بريم كومار عن كرسيه كي يصافحي، لكنه
يجد يدي رخوةً وغير مستجيبة. إذا باغتلك مفاجأة في وسط برنامج
مسابقات، يستغرق الدماغ بعض الوقت كي يستجيب.



500,000

حكاية جندي

كآلية الساعة، صفارة إنذار الغارة الجوية تنتحب في تمام الساعة الثامنة والنصف مساءً، فتؤدي إلى نشاط مسعور في المبنى السكني. النزلاء يتبعون التعليمات التي أعلنت في مكبرات الصوت طيلة الأسبوع المنصرم في توقع لنشوب العداوات. أطفئوا المصابيح كلها، افصلوا التيار الكهربائي عن الأجهزة، أحكموا إقفال قوارير الغاز، أغلقوا المبنى السكني، انتظموا في طابور، وتقدّموا إلى الغرفة المحصنة تحت الأرض.

تقع الغرفة المحصنة تحت مبنى المدرسة. هي ردهة واسعة، مستطيلة الشكل ذات إنارة مخففة. تكسو أرضيتها سجادة حمراء باهتة ومغبرة، والأثاث الوحيد يتألف من كرسيين متداعيين وطاولة معدنية عتيقة، عليها جهاز تلفاز بأربع عشرة بوصة. الغرفة المحصنة حارة، خائقة، وتورث الخوف المرضى من الأمكنة المقفلة، لكنها مخصصة لحمايتنا، لذا لا يمكننا حقيقةً أن نتشكى. مع أن هنالك شائعات تفيد بأن للغرفة المحصنة في تل بالي جهازاً تلفازياً ذا اثنتين وثلاثين بوصة، وأفرشة دونولوبيلو وهواءها مكيف.

يتجمع النزلاء أمام جهاز التلفاز المضبط على قناة الأخبار. أجول ببصري في أنحاء الردهة. تقريباً المبنى السكني كله هنا. أسرة غوخالي، أسرة نينيس، أسرة بابات، السيد واغل، السيد كولكارني، السيدة داملي، السيد شيركي، السيدة باروي... فقط السيد راما شانكار المدير غائب. لا بد أنه مشغول بعدّ إيصالات الإيجار خاصته، وإصلاح المصابيح التي انقطع عنها التيار الكهربائي بسبب انصهار السلك، وتصليح الصنابير التي يخرّ منها الماء، والدرازينات المكسورة.

أولاً هنالك الإعلانات التجارية. هذه الحرب يرعاها معجون الأسنان الأم الهند وشاي ممتاز. بعدها نرى ونسمع حديثاً تلفازياً لرئيس الوزراء. القوات الهندية تكسب الحرب، يخبرنا بجد، وما هي إلا مسألة أيام حتى يستسلم العدو كلياً. هذه الحرب ستكون قتالاً حتى النهاية، يقول بصوت ذي طبقة عالية. ستكون ثمة نهاية للإرهاب، والجوع، والفقر. يحننا قائلاً: ساهموا بسخاء في صندوق مساعدة الجنود.

بعد حديث رئيس الوزراء، تظهر ممثلة شابة على شاشة التلفاز وتقول الأشياء ذاتها، إنما بأسلوب سينمائي. تفغر النساء أفواههن لدى مشاهدتهن الممثلة. كم تبدو يافعة، يقلن، كم هي جميلة. هل أن ساريها من الحرير أم الشيفون، تسأل كل واحدة منهن الأخرى. كيف تستطيع أن تجعل بشرتها ناعمة جداً؟ أي نوع من الصابون تستعمل؟ إنها جد صافية البشرة. إنها لا تحتاج إلى الكريم الذي يجعل البشرة صافية ومحبة إلى القلب.

الرجال يتميزون غيظاً. يقولون: أبناء الساقات أولئك سببوا لنا مقداراً كافياً من المشاكل. المقدار الكافي هو المقدار الكافي. هذه المرة ينبغي لنا أن ندمر باكستان كلياً.

السيد واغل هو النزير الخبير في شؤون الحرب. هو محاضر في الجامعة، هو أكثر نزلاء مبنانا السكاني ثقافةً. يقول لنا إن باكستان تملك صواريخ وقنابل ذرية. لهذا السبب تأتي إلى هذه الغرفة المحصنة؛ كي نكون محميين من الإشعاع. إنما ليس ثمة حماية حقيقية من القنبلة الذرية. يقول، حين تسقط القنبلة سيصبح الماء هواءً. سيصبح الهواء ناراً. ستختفي الشمس. سترتفع إلى عنان السماء سحابة هائلة أشبه بالفطر. وسنهلك كلنا، هكذا يختم كلامه بوقار.

إلا أنه يشق عليك أن تصوّري الموت حين تكونين غلاماً في الثانية عشرة على غراري وعلى غرار بوتول أو صبيّاً في العاشرة على غرار سالم ودهيانيش وهذه هي أول حرب عرفت في حياتك. كنا جميعاً مليئين بالحماسة وحب الاستطلاع. نعسكر أمام جهاز التلفاز، نتسمّر في أمكنتنا لدى رؤية صور الحرب.

نحن لا نعرف ما هو الإشعاع ولا نبالي به. نحن مهتمون بأشياء أهم. مثل:

حجم الضوضاء التي تحدثها القنبلة الذرية؟

هل نستطيع أن نرى الطائرات النفاثة فوق منازلنا؟

هل ستكون شبيهة بديوالي؟⁽¹⁾.

ألن يكون الأمر جميلاً إذا سقط صاروخ على اليابسة إلى جانب

مبنانا السكاني؟

إنها الليلة الثالثة للحرب. حياتنا في الغرفة المحصنة تتحول إلى رتبة

متوقعة. النسوة بدأتن يأتين بخضرواتهن وحياتهن إلى الردهة. يجلسن في

(1) ديوالي Diwali: أحد الأعياد الرئيسة عند الهندوس. يُسمى عيد الضوء،

ويرمز لانتصار الخير على الشر. هذه الكلمة في السنسكريتية ترمز

لانتصار النور على الظلام - م.

مجموعة، يقطعن الطماطم والبطاطا، يصنعن البلوزات السميكة، يفصلن القش عن حبيبات العدس، يستخلصن الأوراق السليمة من السبانخ وباقات الكربرة، يتبادلن آخر الإشاعات. هل تعرفين أن السيدة غوزوامي اشترت جهاز تلفاز جديداً بخمس وعشرين بوصة؟ الله أعلم من أين يأتي زوجها بهذه النقود كلها! يبدو أن السيد بابات وزوجته قد تشاجرا شجاراً قوياً قبل ليال معدودات. عملياً كان في وسع المنطقة كلها أن تسمعه! هل شاهدت آخر عدد من انفجار نجم؟ إنهم يقولون إن أرمان علي ربما يكون شاذاً!

يصغي الرجال بتركيز إلى الأنباء ويناقشون آخر الإشاعات. هل حقيقة أنهم يوشكون أن يعلنوا حالة الطوارئ؟ يقولون إن باتانكوت دُمرت كلياً بالقنابل؟ مات مدنيون كثيرون. يملك ميهيتا معلومةً معولاً عليها، مباشرةً من الوزارة، من المزمع أن يتم تقنين البترول. البصل والطماطم اختفت عملياً من السوق. خير لنا أن نبدأ بتخزين الحليب.

نحن الصغار لنا عصابتنا الخاصة. ندور حول الردهة الواسعة نصيح ونزعل ونقفز أحداً فوق الآخر، مما يثير ذعر النساء. نلعب أنا أُنحس إلى أن يهدنا الإعياء. وقتذاك يُخترع بوتول لعبةً جديدةً. تُسمى، بصورة كافية على نحو مناسب، الحرب والسلام. اللعبة سهلة جداً. نقسم أنفسنا إلى فريقين، أحدهما بقيادة جنرال هندي والآخر بقيادة جنرال باكستاني. الفريقان يجب أن يطارد أحدهما الآخر. أي شخص يتم القبض عليه أولاً يصبح أسيراً، ويتم تحريره فقط في مقايضة مع أسير آخر من الفريق المقابل. مطاردة الجنرال تساوي أسيرين. الفريق ذو العدد الأكبر من الأسرى المعتقلين هو الذي يربح المباراة. هنالك مشكلة واحدة فقط: ما من أحد يرغب في أن يكون الجنرال الباكستاني. في النهاية أمسكوا بسالم. يقولون له: "أنت مسلم. إذا أنت

من سيلعب دور الجنرال الباكستاني. لا يوافق سالم في بداية الأمر، إلا أن الدور تم شراؤه بوعده بعلبتين من العلكة الفقاعية. ألتحقُ بفريق سالم ونهزم الهنود.

بعد أن غمارس ألعابنا كلها، نجتمع في ركن، نستريح من مجهودنا الجسدي، وناقش الحرب.

أقول: "أنا أحب هذه الحرب. إنها مثيرة جداً. ومستخدمتي نيلما كوماري أعطتني إجازة مدة أسبوع، بسبب حظر التجوال".

يقول بوتول: "نعم. أغلقت مدرستي أبوابها مدة أسبوع".

يقول دهيانيش: "أتمنى أن تكون هناك حرب كل شهر".

يصرخ رجل خلف ظهورنا: "أقول لك، كف عن هذا الهراء!".

نلتفت مدعورين في ما حولنا كي نرى عجوزاً سيخياً، على عكازتين يقف وراءنا. هو نحيل وطويل، ذو شارب صغير ممتد إلى الجانبين على وجه مسفوع بالشمس. يعتمر عمامة خضراء كالزيتون كي تضاهي بذلته العسكرية كثيرة الجيوب وذات الحزام العريض. ينظر إلينا بنجد ويرفع إصبعاً بالهام. "كيف تجرؤ على جعل الحرب شيئاً تافهاً؟ الحرب أمر خطير جداً. إنها تذهب بأرواح الناس".

حينذاك فحسب نلاحظ أن له ساقاً مفقودة.

نعرف أنه نائب العريف المتقاعد بونام سنغ، أنه انتقل حديثاً إلى مبنانا السكاني، وأنه يقيم وحيداً، وأنه فقد ساقه في إحدى المعارك.

بعد أن أدبنا، يعرج بونام سنغ إلى الأمام على عكازتيه، ويجلس على الكرسي قبالة جهاز التلفاز مباشرة.

يبث التلفاز صوراً حية للحرب، الشاشة مخفية بضوء أخضر ضبابي. يرونا مطلقة صواريخ محملة بصاروخ. يضغط جندي على زر فينطلق الصاروخ بوهج ناري. بعد نصف دقيقة، نرى وميضاً من

ضوء أصفر؛ مخضر في مكان قصي ونسمع صوت انفجار. "لقد أصبنا الهدف بصورة صحيحة"، يعلن ضابط جيش يقف إلى جانب مطلقة الصواريخ. يتسم ابتسامة عريضة. تبدو أسنانه خضراء بشكل غير طبيعي. في غضون عشر ثوان يُطلق صاروخاً آخر. يلتفت المراسل الصحفي ويقول في آلة التصوير مباشرة، "هذه هي تغطيتنا الحية والحصرية للحرب في قاطع راجاستان. أنا سونيل فياس من ستار نيوز، مطمور مع الفرقة العسكرية الخامسة، نعود بكم الآن إلى الاستوديو". لم يقولوا لنا ماذا كان الهدف، ما إذا تم ضربة أم لا، كم عدد الناس الذين قتلوا في الهجوم، وكم بقوا أحياء. يظهر مطرب مشهور ويبدأ بإنشاد أغان وطنية قديمة بحوية بالغة.

ينهض نائب العريف المتقاعد بونام سنغ عن كرسيه. يقول باشمتراز: "هذه ليست حرباً حقيقية. إنها مزحة. إنهم يروكم الأوبرا الصابونية"⁽¹⁾.

يسأل السيد واغل: "حسن، ما هي الحرب الحقيقية؟".

ينظر بونام إلى واغل بازدراء جندي لرجل مدني. "الحرب الحقيقية مختلفة جداً عن فيلم الأطفال هذا. للحرب الحقيقية دم وأحشاء. للحرب الحقيقية جثث وأيدٍ قطعها حراب العدو وسيقان نسفتها شظية قبلية".

يسأل السيد واغل: "أي حرب قاتلت فيها؟".

يقول بونام سنغ بفخر: "قاتلتُ في الحرب الحقيقية الأخيرة، تلك التي جرت سنة 1971".

تقول السيدة داملي: "إذاً لماذا لا تخبرنا كيف تبدو الحرب الحقيقية".

نطالب بصخب: "نعم، أخبرنا، يا عم".

(1) الأوبرا الصابونية: مسرحية إذاعية أو تلفازية سلسلة تعالج مشكلات الحياة المنزلية - م.

يجلس بونام سنغ. "أنتم حقيقةً ترغبون في معرفة كيف تبدو الحرب الحقيقية؟ حسن، إذا سأروي لكم قصتي. أحكي لكم عن تلك الأيام الأربعة عشر المجيدة حين كسبنا نصرنا الشهير جداً على باكستان".

نحتشد حول الجندي العجوز كأطفال مشدوهين أمام جدهم. يبدأ بونام سنغ الكلام. تكتسب عيناه تلك النظرة الحاملة، البعيدة التي يحصل عليها الناس حين يتحدثون عن أشياء في الماضي البعيد. "سأعود بكم الآن إلى سنة 1971. إلى الحقبة الزمنية الحاسمة جداً في تاريخ الأمة الهندية".

يهيمن السكون على الجمهور في الغرفة المحصنة. يخفض السيد واغل الصوت في جهاز التلفاز. لا أحد يحتاج. التقرير الحي الثانوي على التلفاز لا يضاهي الوصف الأولي لجندي حقيقي.

"بدأت الحرب الحقيقة الأخيرة في الثالث من كانون الأول 1971. أتذكر تاريخ اليوم جيداً لأنه في اليوم الذي أعلنت فيه تلك الحرب، تلقيتُ رسالةً من باثانكوت، من زوجتي المحبوبة، تخبرني أنها أنجبت صبياً، طفلنا الأول. كتبت زوجتي في رسالتها: (لست معي، لكنني أعرف أنك تحارب من أجل وطنك، وهذا يملأ فؤادي بالزهو والسعادة. سأدعو من أجل سلامتك ومع ابنك، سأنتظر عودتك المكلفة بالنصر).

بكيْتُ حين قرأتُ تلك الرسالة، إنما كانت تلك دموع السعادة. لم أبكُ لأنني كنتُ بعيداً جداً عن أسرتي في وقت كهذا. كنتُ سعيداً لأنني مضيتُ إلى المعركة مع بركات زوجتي وشجعني محييء ابني حديث الولادة إلى العالم".

تسأل السيدة دامللي: "ماذا أسميتَ ابنك؟".

"حسن، كنا قد قررنا قبل الولادة بزمان طويل إذا كان الطفل بنتاً سنسميها دورغا، وإذا كان صبياً سنسميه شير سنغ. لذا كان اسمه شير سنغ".

يسأل السيد شير كي: "كيف بدأت الحرب؟".

"في ليلة الثالث من كانون الأول كان ثمة قمر جديد. تحت جنح الظلام بدأ العدو الجبان بضربات جوية وقائية على عدد من مطاراتنا على طول القاطع الغربي - سريناغار، أفانتيبور، باتانكوت، أوتارلي، جودهبور، أمبالا، أغرا - كلها قُصفت. أعقب الضربات الجوية هجوم واسع على قاطع جهامب الاستراتيجي في الشمال".

يسأل السيد واغل: "أين كنت حين اندلعت الحرب؟".

"هناك في جهامب، مع فرقة المشاة الثالثة عشرة. أنا انتسب إلى فوج السيخ وكتيبي - أم 3 سيخ - انتشرت في جهامب وسط مجموعة من مجموعات اللواء. الآن عليكم أن تفهموا لماذا هاجمتنا باكستان في جهامب. جهامب ليست مجرد قرية على الضفة الغربية لنهر مناوور تاوي. إنها أيضاً الطريق الحيوية المؤدية إلى مقاطعتي أخنور وجوريان. إذا استوليت على جهامب فتهدد الدولة بأسرها.

تلك الليلة إذاً بدأت باكستان بهجوم ثلاثي علينا. دخلوا مع وابل كثيف من النيران. مدافع ومدافع هاون. كان إطلاق النيران كثيفاً جداً بحيث إنه في ساعات قليلة لا غير تقريباً كل غرفنا المحصنة تحت الأرض دُمرت، وتم أسر ثلاث دوريات حدود تابعة لنا.

كنتُ أتولى قيادة موضع أمامي مع ثلاثة رجال حين بدأ الهجوم. هاجم العدو موضعي بقوة شديدة جداً. عليكم أن تتذكروا أن لدينا فقط ثلاث كتائب عبر الموناوور تاوي، الذي يواجه فرقة مشاة من الجيش الباكستاني، فرقة المشاة الثالثة والعشرون، مع لواء مدرع، نحو مائة

وخمسين دبابة، ونحو تسعة إلى عشرة أفواج من سلاح المدفعية. كانت باكستان تملك مدفعية في جهامب أكثر من كل المواقع في الجبهة الشرقية. كان الرجال الثلاثة تحت إمري في ذلك الوقت هم سوخفندر سنغ من باتيالا، راجيشوار من هوشياربور وكارنيل سنغ من لودهيانا. كان كارنيل هو أفضل الكل، رجل طويل القامة، مفتول العضلات ذو صوت هادر وبسمة مُعدية، لم يكن يخاف الموت، إنما كان ثمة خوف واحد يلحّ عليه في كل يوم".

يسأل السيد كولكارني: "وما هو ذلك الخوف؟".

"الخوف من أن يدفنوه. كما تعرفون، سمعنا أن هؤلاء الباكستانيين، إذا ما عثروا على أي جثة من جثث الجنود الهنود، لن يعيدوها إلينا. إنهم، بدلاً من ذلك، يدفنونها بصورة متعمدة وفق الشرع الإسلامي، حتى وإن كان الجنود الهنود هندوساً. كان كارنيل رجلاً وورعاً، وكان مدعوراً من أنه إذا مات في المعركة، فإن جثته ستُدفن ست أقدام تحت الأرض بدلاً من أن تُحرق. قال لي قبل نشوب الحرب بأسبوع: عدي، سيدي، أنك ستضمن حرق جثتي بصورة مناسبة إذا مت. بخلاف ذلك فإن روحي لن تجد السلام وستكون مجبرة على أن تطوف أعماق العالم السفلي بلا هوادة على مدى ستروثلاثين ألف سنة أخرى. أحاول أن أعيد طمأنته، قائلاً له إنه لن يموت، بيد أنه كان عنيداً. لذا، ببساطة كي أوقف إلحاحه، أخبرته قائلاً: حسن، كارنيل، إذا مت، أعدك أن تُحرق جثتك وفق الشعائر الهندوسية الكاملة.

"إذاً في ليلة الثالث من كانون الأول، كنا في غرفة محصنة أمامية -

كارنيل، سوخفندر، راجيشوار، وأنا - حين بدأ إطلاق النار..."

قاطعه بوتول قائلاً: "عماه، هل كانت غرفتكم المحصنة مزودة

بجهاز تلفاز كغرفتنا هذه؟".

يقهقه الجندي. "لا، يا بني. لم تكن غرفتنا المحصنة مترفةً كهذه. لم تكن مزودة بسجادة أو جهاز تلفاز. كانت صغيرةً وضيقةً. أربعة أشخاص فقط يمكنهم أن يزحفوا إليها. كانت تعج بالبعوض وحتى الثعابين تأتي لزيارتنا".

تغردو نبرته جادةً أكثر. "الآن لا أعرف ما إذا لدى أي منكم اطلاع على طبوغرافية جهامب. إنها منطقة مستوية، لكنها معروفة بصخورها الرمادية والساكاندا - عشب الفيل - طويل وسميك جداً وفي وسعه أن يموت دابةً. عبر هذا العشب الثخين، أقبل العدو إلينا تحت جناح الظلام. قبل أن نعرف بالأمر، كانت المدفعية تطلق نيرانها. كانت العتمة شديدةً ولم يكن في وسعي رؤية أي شيء على الإطلاق. أُطلقت قنبلة يدوية نحو غرفتنا المحصنة، غير أننا كنا قادرين على أن نزحف إلى الخارج قبل أن تنفجر. حين غامرنا بالخروج من الغرفة المحصنة، استقبل رذاذ من النار من رشاش خفيف كل خطوة من خطواتنا. بهدوء، بدأنا نتقدم على الأقدام، سائرين بخط مستقيم، محاولين أن نحدد مصدر إطلاق النار. أحرزنا تقدماً جيداً إلى الأمام، ووصلنا تقريباً إلى الغرفة المحصنة الباكستانية التي كانت تنطلق منها النار، حين انفجرت قذيفة مدفع هاون خلفي مباشرةً. قبل أن أعرف بالأمر، كان سوخفندر وراجيشوار قد قُتلا وكان كارنيل ينزف من جراح تسببت به شظية قذيفة أصابت معدته. كنتُ الشخص الوحيد الذي أفلتَ بأضرار طفيفة نوعاً ما. بسرعة أعلمتُ أمر مجموعتي بالإصابات. أخبرته كذلك أن ثمة موضعاً لرشاش كان يقذف بقوة ناراً قاتلةً من غرفة محصنة للعدو وإذا لم يتم إسكاته سيسبب ضرراً كبيراً للمجموعة. أخبرني الضابط الأمر أنه لا يستطيع أن يوفر وحدةً فرعيةً أخرى، وطلب مني أن أحيّد بطريقة ما موقع الرشاش.

قلتُ لكارنيل: أنا ذاهب صوب غرفة العدو المحصنة. وفر غطاءً نارياً لي.

لكن كارنيل سدَّ الطريق دوني. قال لي: هذه مهمة انتحارية، سيدي.

أجبت: أعرف، كارنيل. إنما يجب على المرء أن يقوم بها. قال كارنيل: دعني إذا أقوم بها، سيدي. أنا أتطوَّع بتحديد رشاش العدو. ثم قال لي: إنه شيء صعب، لكَّ زوجة. وقد رزقت توّاً بابين. ليس لديّ أحد في أسرتي. ما من أحد ورائي. ما من أحد أمامي. ربما أموتُ من جراء هذا الجرح. دعني أمضي وأفعل شيئاً ما لخدمة وطني. إنما لا تنسَ وعدك، سيدي. وقبل أن أطلق حتى كلمة واحدة، خطف البندقية من يدي واندفع مسرعاً إلى الأمام. بهارات ماتا كي جاي - عيش أبداً يا وطني الهند، صاح وهاجم حجرة العدو المحصنة، طعن بالحربة ثلاثة جنود من العدو حتى الموت، وأسكت الرشاش. لكنه فيما كان واقفاً والبندقية بيده، تلقى سلسلة طلقات نارية مهلكة أخرى صادرة من بندقية أصابته في صدره، وأمام عينيّ قهاوى على الأرض والبندقية لا تزال في يده.

تعدو الردهة هادئة جداً فيما كنا نحاول أن نتصوّر المشهد العنيف للمعركة. يبدو أن صوت إطلاق المدفع والمدفع الهاون يتردد صده في أرجاء الغرفة. يستطرد بونام في كلامه.

وقفتُ جامداً بلا حراك في البقعة ذاتها قرابة الساعتين. كانت لديّ تعليمات أن أعود إلى مجموعتي، إلا أن الوعد الذي قطعته لكارنيل ظل يرن في أذنيّ. جثته الآن ترقد في أرض العدو وليست لديّ أدنى فكرة عن عدد الجنود الباكستانيين الذين لا يزالون هناك. كنتُ الوحيد الذي بقي من قسمي.

عند الساعة الثالثة توقف إطلاق النار كلياً وكان ثمة سكون مميت. عصف ريح مفاجئة خشخشت الأشجار على مقربة مني. سرتُ ببطء صوب الغرفة الباكستانية المحصنة، على بعد مسافة لا تزيد عن مائتي قدم. بغتة، أمامي، سمعتُ وقع خطي مكتوم. توترتُ كي أسمع بعناية ضربات قلبي فيما رفعتُ بندقيتي. أردتُ زناد البندقية إلى الوراء استعداداً للرمي، إنما آمل ألا أضطر إلى استخدامها. إطلاق النار في الظلام ينتج وميضاً ساطعاً من فوهة البندقية يكشف موقعي للعدو. حاولتُ أن أكبت حتى صوت تنفسي، دب شيء خفيف وزلق فوق ظهري، كان يبدو أشبه بأفعى. كان لديّ حافز يائس أن أهزها كي تسقط، غير أن الخوف من تنبيه العدو جعلني أغمض عيني وأتمنى ألا تلسعني. بعد مدة بدت طويلة كالأبدية، انزلقتُ إلى أسفل ساقي وأطلقتُ تنهيدة ارتياح. كان ظهري مبللاً بالعرق وكانت ذراعاي تؤلمانني. بدت لي بندقيتي وكأنها مصنوعة من الرصاص. بدأ وقع الخطي من جديد، وشرع يقترب رويداً رويداً. حدثتُ جلسة في العتمة، ساعياً إلى فك مغالق الخط الخارجي للعدو، إلا أنه تعذر عليّ أن أرى شيئاً على الإطلاق. كنتُ أعرف أن الموت يَحْتَبِي قريباً مني. إما أن أقتل أو أُقتل. سُحق غصين بجلبة ويمكنني حتى أن أكتشفَ نَفْساً ضعيفاً. كان انتظاراً مُعذِباً. فكرتُ هل يجب عليّ أن أطلق النار أم أنتظر العدو كي يقوم بأول حركة؟ فجأة، رأيتُ نور عود ثقاب وقف رأس طفا في المشهد، كشبح تحرر من الجسد، لا يبعد عني أكثر من عشر أقدام. قفزتُ فوراً خارج العشب، واندفعتُ إلى الأمام بحركة مفتوحة. كان هنالك جندي باكستاني، يهم بالتبول. كدتُ أصرعه حين التفت حوله، أسقط بندقيته، وتوسل إليّ قائلاً بيدين مشبكتين، أرجوك لا تقتلني. أناشدك.

سألته: كم بقي منكم في المنطقة؟
 لا أدري. لقد انفصلتُ عن وحدتي العسكرية. كنتُ أحاول أن أرجع. أرجوك. أتوسل إليك، لا تقتلني، قال باكيةً.
 سألته: لماذا لا أقتلك؟ على كل حال، أنتَ العدو.
 قال: لكنني إنسان أيضاً، على غراركَ. لون دمي هو نفس لون دمك. لديّ زوجة تنتظرني في ميربور. وبنْت صغيرة جاءت إلى الدنيا قبل عشرة أيام فقط. لا أريد أن أموت من دون حتى رؤية وجهها.
 رق قلبي لدى سماعي هذه الكلمات. أخبرت الجندي العدو: أنا أيضاً لديّ زوجة وولد صغير لم أر وجهه بعد. بعدها طرحتُ عليه سؤالاً: ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟ بقي صامتاً برهةً من الوقت، بعدها أجاب متلعثماً: كنتُ سأقتلك.
 قلتُ له: هل رأيت. نحن جنديان، علينا أن نكون مخلصين لمهنتنا، لكنني أعذك، سأدفن جثتك بصورة مناسبة. وبعدها، من دون أن يطرف لي جفن، غرزتُ حربي في قلبه".
 "أوخ... جي جي..." تغمض السيدة داملي عينيها باشمئزاز.
 السيد شيركي مستثار الأعصاب أيضاً. "حقيقةً ما كان ينبغي لك أن تصوّر الحرب تصويراً فوتوغرافياً"، يقول بونام فيما كان (أي السيد شيركي) يحاول عبثاً أن يغطي أذنيّ بوتول براحتيه. "كل هذا القتل والدم، أنا قلق من أن ابني ربما سيري الكوايبس في الأيام المقبلة".
 يشخر بونام ساخطاً: "ها! الحرب ليست لسريعي الغثيان. في الحقيقة، هي جيدة لهؤلاء اليافعين كي يفهموا ما هي بالضبط. يجدر بهم أن يعرفوا أن الحرب غاية في الجلد. إنها تذهب بالأرواح".
 يسأل السيد واغل: "ماذا حدث بعد ذلك؟".

"لم تحدث أشياء كثيرة. مضيتُ إلى غرفة العدو المحصنة، حيث كانت جثامين ثلاثة جنود باكستانيين مسجاةً إلى جانب جثمان كارنيل. التقطته، وعدتُ مجهداً إلى قاعدة مجموعتي وجثته ملقاة على كتفي". صباح اليوم التالي أحرقنا جثته". تخضلت عينا بونام بالدموع. "أخبرت الضابط الأمر بالعمل الباسل الذي قام به كارنيل، وبتركية منه مُنح كارنيل سنغ وسام MVC بعد مقتله".

يسأل دهيانيش: "ما هو وسام MVC؟".

"ماها فير جاكرا. إنه واحد من أعلى الأوسمة العسكرية في بلدنا"، يجيب بالوانت.

"وما هي أعلى الأوسمة؟".

"وسام PVC أو بارام فير جاكرا. إنه يُمنح للمرء على الأغلب بعد وفاته".

يسأل دهيانيش من جديد: "أي وسام هو الذي نلته؟".

يلوح على محيا بونام تعبير مؤلم. "لم أحصل على أي وسام عن هذه العملية. لكن هذه ليست نهاية قصتي. يجب عليّ الآن أن أروي لكم عن معركة جسر مانديالا ذائعة الصيت".

ينظر السيد واغل إلى ساعته اليدوية. "لقد تجاوز الوقت منتصف الليل. لنذهب. أعتقد أننا نلنا كفايتنا من الإثارة في ما يتعلق بهذا اليوم. حظر التجوال انتهى. يجب علينا الآن أن نعود إلى منازلنا".
نتشتت على مضض.

في اليوم التالي، نكون في الغرفة المحصنة مجدداً. أجاى ابن السيد بابات حاضر هنا أيضاً. لا بد أنه عاد من منزل جدته. إنه متباه كبير، يتفاخر دوماً بلُعبه، وبحاسوبه، وبمزالجه، وصديقاته العديداً.

كلنا نكرهه، إنما نضمّر شعورنا هذا في بواطن نفوسنا. لا نرغب في أن نتخاصم مع غلام في الخامسة عشرة يبدو في السابعة عشرة. اليوم لديه دفتر يوميات صغير يسميه دفتر التواريخ. إنه يُري الأولاد الآخرين بعض الخبرات. "هذا توقيع أميتاب باجاجان، هذا توقيع أرمان علي، وهذا يعود لرافينا، وهذا توقيع ضارب كرة الكريكيت الشهير ساجين مالفانكر".

"وماذا عن هذا؟" يستفهم دهبانيش. يشير إلى خريشة غامضة يتعذر تماماً حل رموزها. يفكر فيها أجاي، ومن ثم يقول بخجل، "هذا توقيع أمي. كانت تختبر قلم الحبر".

يحمل بوتول أيضاً شيئاً ما معه، إنما ليس دفتر تواريخ. إنه دفتر كتابة. قال له والده إن عدم وجود مدرسة لا يعني عدم الدرس. الآن يوماً عليه أن يجلس في الغرفة المحصنة تحت الأرض، ويكتب. موضوع اليوم هو: بقرتي، مع أن بوتول لا يملك بقرة.

يظهر على شاشة التلفاز ناطق عسكري ملخصاً لمجريات الحرب. "ضربات جوية باكستانية على القواعد الجوية الهندية في أمبالا، غوراخبور وغواليور حيث تم تهيئتها بنجاح. القوات الهندية احتلت باغلا وراهيمار خان. القواعد الباكستانية المتقدمة في بهاوالبور، سوکور ونوابشاه دُمرت كلياً. وشاكارغاره تحت سيطرتنا. في قاطع جهامب، صدّ جنودنا هجوماً باكستانياً كبيراً لاحتلال جسر مانديالا".

نُتف مشجعين، بوحشية. كان هنالك كثير من التصفيق والمصافحات بالأيدي.

يجلس بونام سنغ، كالسابق، أمام جهاز التلفاز، يقول: مع هزة من رأسه: "لقد هاجموا إذّا جسر مانديالا من جديد. هؤلاء الباكستانيون لن يتعلموا من أخطائهم".

يبدو لي أن بونام ينتظر شخصاً ما كي يسأله حول جسر مانديالا، إنما ما من أحد يأخذ الطعم.

يتحول برنامج التلفاز إلى نقاش في الاستوديو. بعض الخبراء يناقشون الحرب. رجل ملتج يضع نظارة يقول: "كلنا نعرف أن باكستان تملك ما يقارب الأربعين رأس نووي. إن انفجار قبلة ذرية واحدة ذات قوة انفجارية قدرها خمسة عشر كيلو طن⁽¹⁾ فوق منطقة مدنية ذات كثافة سكانية قدرها خمسة وعشرون ألف نسمة في الكيلو متر المربع الواحد كافية لقتل ربع مليون إنسان. الآن إذا قدرتم هذه المعلومة على مومباي، حيث -".

يقول واغل: "الماء سيصبح هواء. الهواء سيغدو ناراً. ستبجس سحابة شبيهة بالفطر نحو السماء. سنموت جميعاً".

يطفئ السيد كولكاري جهاز التلفاز. يقول: "هذا شيء يوقع الكآبة في النفس. لم لا نصغي بدلاً من ذلك إلى القصة الملهمة لبطل الحرب خاصتنا. بونام سنع، كنت تذكر معركة جسر مانديالا يوم أمس. من فضلك احكي لنا عنها".

يمد بونام رأسه بغطرسة، يمد ذراعيه، ويرفع كفيه إلى الأعلى. يدعك جدعة ساقه، يدير كرسيه كي يواجه المجموعة، ويبدأ كلامه.

"ثمة جرف عال جداً عبر نهر مناوور تاوي يُدعى مانديالا نورث. هذا هو الموقع الذي هاجمنا فيه العدو في ليلتي الثالث والرابع من كانون الأول، ولأننا عملياً لا نملك قوات تمسك ذلك المعلم الخاص، فقد سُحقت مواقعنا. ثم بدأ الباكستانيون يتقدمون إلى الأمام مع الدبابات وقوات المشاة صوب معبر مانديالا حيث نشروني مع 35 سيخياً.

(1) كيلو طن Kiloton: ألف طن؛ قوة انفجارية تعادل تلك التي لألف طن من مادة TNT - م.

وقتذاك أدركنا أن الهدف الرئيس للفرقة الباكستانية الثالثة والعشرين هو الاستيلاء على جسر مانديالا. ما إن يحدث ذلك، نكون مرغمين على أن نترك جهامب وكل المنطقة الواقعة غرب تاوي. لذا عند منتصف النهار في الرابع من كانون الأول بدأنا بتعزيز موقعنا. موقع كتيبة 31 فرسان تم تعزيزه بسرية خيالة من الفوج المدرع السابع والعشرين، و37 كوماون⁽¹⁾ أرسل من أخنور كي يبدأ هجوماً معاكساً لاسترداد مانديالا نورث. إلا أن المأساة صدمتنا حين قُتل الضابط الأمر لكتيبة 37 كوماون فوراً من جراء قصف المدفعية الباكستانية قبل أن ينضم إلينا. لذا بقيت الكتيبة من دون قائد ووصلت تاوي مع غروب آخر أشعة شمس. لذلك حُوت إلى الضفة الشرقية، المطلة على معبر مانديالا. لذلك حين حلّ الليل فقط 35 سيخياً ومجموعة 19 وهي قوات خاصة كانتا تحرسان معبر مانديالا، فضلاً عن قوات الدبابات التابعة لكتيبة 31 فرسان، التي كانت تمسك مانديالا ساوث.

كتيبتان باكستانيتان - POK، وPOK 13 - بدأتا هجوماً ضارياً على تاوي في نحو الساعة ثلثمائة الثالثة فجراً من يوم الخامس من كانون الأول. أقبلوا بدباباتهم باتون الأميركية ودباباتهم تي - 59 الصينية، المدافع تدوي. الطائرات النفاثة من سلاح الجو الباكستاني زعقت فوق رؤوسنا، مهاجمة المنطقة بعنف، مُسقطَةً قتال تنز كل واحدة منها ألف رطل على مواضعنا. شاهدتُ المركبات تحترق في الأمكنة كلها، قذائف المدافع تنفجر، والدبابات تتحرك نحونا كحشرات فولاذية عملاقة في عشب الفيل الطويل. كانت نيران

(1) كوماون Kumaon: موطن لكتيبة شهيرة من الجيش الهندي. وهي واحدة من منطقتين وقسمين إداريين من أوتارخاند. ذات طبيعة جبلية وتقع في شمال الهند - م.

المدفعية كثيفة جداً بحيث إنه في بحر خمسين دقيقة تغلغت عبر كامل عمق مواقعنا. POK 13 دخلت إلى وحدة 29 الجاتية⁽¹⁾ وفرقتها. فيما كانوا يتقدمون، استولوا على النقطة 303 بعد أن قتلوا الضابط الأمر. كان الدفاع عن هذا المعلم قد عهد به أيضاً إلى 35 سيخياً، إنما لسوء الحظ بعض زملائي لم يستجيبوا لنداء الواجب. إنهم فقط هربوا من مواجهة وابل من نيران مدفعية العدو. بعد أن ضمنوا النقطة 303، أمر الباكستانيون قواتهم الاحتياطية في أن يتقدموا إلى الأمام وأن يعزّزوا رأس الجسر. مع أول شعاع للشمس، اجتاحت جسر مانديالا. بدا لنا أن الأعجوبة وحدها تستطيع أن تنقذنا الآن. هل يستطيع أحدكم أن يأتيني بقدح ماء؟".

بونام سنغ راو بارع. إنه يشدد على الكلمات الصحيحة، يتوقف، عند الأمكنة الصحيحة ويطلب قدح ماء في الوقت الصحيح، حينما يصبح الترقب لا يطاق.

يجلب شخص ما بسرعة كوب ستيروفوم مملوء بالماء. نبرز أعناقنا إلى الأمام. يستأنف بونام حديثه بعد أن يأخذ جرعة من الماء. "في هذه اللحظة تحديداً التحق بنا أمر اللواء 368 شخصياً آتياً من أحنور. حين وصل رأى مشهد الدمار الشامل والفوضى. ذاق الجنود الولايات بسبب مشهد المعركة. الأرض أمست قفراً مليئاً بالحفر، مندبة بالجلث، بكسارة الحجارة وحطام دباباتنا المحترقة. كانت هنالك نيران تندلع في كل الأرجاء. مياه نهر التاوي استحالت قرمزية من جراء دماء الجنود. كان جحيماً بكل ما للكلمة من معنى. لا يشبه ذاك الذي يرونكم إياه عبر التلفاز، حيث تضغط على زر، تطلق صاروخاً وبعدها ترشف الشاي.

(1) الجاتي Jat: أحد أبناء شعب هندي أوروبي مقيم في بنجاب - م.

قال لي الضابط الأمر الذي عرفني: بونام سنغ، ما الذي يجري؟ أين اختفى رجالنا؟ فأجبتته بفؤاد مثقل بالهم: أنا متأسف لأن أبلغك، سيدي، أن كثيرين هجروا ميدان المعركة وفروا بجلودهم. لم يستطيعوا أن يتحملوا القوة العسكرية الساحقة التي نشرها العدو. كنا قد فقدنا ثلاث دبابات ورجالاً كثيرين.

قال الضابط الأمر: إذا فكرنا جميعاً بهذه الطريقة كيف سنكسب هذه الحرب؟ بعدها تنهد. أعتقد أن هذا الوضع ميؤوس منه. علينا أن نتراجع.

اعترضت فوراً. قلتُ له: سيدي، إن شعار فوجنا هو نسجي كار أبني جيت كارون؛ أقاتل لأنني متأكد من كسب المعركة. لن أستسلم من دون قتال.

هذه هي الروح، بونام. ربت الضابط الأمر على ظهري، وأخبرني أن أجمع الرجال الباقين وأحثهم على القتال. قائد فصيلي فرّ أيضاً، لذا عينني الضابط الأمر مسؤولاً عن الفصيل. أسندت إلى كتيبتنا مهمة التقدم إلى الأمام فوراً لاسترداد الجسر. كانت مجموعة الدلتا من حملة بنادق غورخا مستعدين أيضاً للانقضاض، مع ما تبقى من دبابات الكتيبة 31 فرسان.

انفجر الصباح بنار المدفعية والرشاشات. أصبح معبر مانديالا جحيماً، مرجلاً من النار، رجات وانفجارات. مع طلقات القناص التي تفرّ ماراً برؤوسنا، تتقيأ الرشاشات ناراً مستمرة ومميّة، طائرات العدو تزعق فوق رؤوسنا والقنابل تُحدث جلبة صاخبة في كل الجهات المحيطة بنا، انطلقنا من موقعنا مسلحين بحراب ثابتة، هاتفين بصيحة المعركة الخاصة بالسيخ. هاجمنا العدو المتقدّم، وطعنا بالحراب حتى الموت كثيرين منهم في قتال دموي متلاحم. هذا الفعل الجريء أضعف

معنويات العدو كلياً. المدّ أخذ يتحول لصالحنا. أجبرنا العدو على التقهقر.

في تلك اللحظة، قرر الأعداء أن يجلبوا دباباتهم عبر نهر تاوي. حتى ذلك الوقت، كانوا قد بقيوا عند الجانب الآخر. لحظة عبورهم الجسر ووصولهم إلى ناحيتنا، سنكون مكشوفين لهم تماماً. كان ضرورياً أن نمنعهم من عبور الجسر. الآن دبابتنا تي - 55 العائدة للكتيبة 31 فرسان والفوج المدرع السابع والعشرين جاءت لتشارك في المعركة. في البداية صدت دبابتنا بصورة حسنة الهجوم الضاري للعدو، إنما حين بدأت دبابات باتون الباكستانية تترنح على الجسر، هجر اثنان من رجالنا دبابتيهما وفرا.

لا أدري ما الذي جرى لي. ركضتُ إلى إحدى الدبابتين المهجورتين، فتحتُ البويب، وانزلتُ إلى الداخل. كنتُ أعرف ما يتعلق بالدبابات، إلا أنني لم أقدر واحدة من قبل. مع ذلك، لم يستغرق الأمر مني سوى دقيقتين كي أفهم جهاز القيادة وفي الحال وضعتُ دبابة تي - 55 في حالة الحركة. حين انطلقت دبابتي، أمست تحت نار كثيفة من العدو الذي كان مختبئاً في غرف محصنة. لذا حركتُ دبابتي صوب خندق العدو. ظنوا أنني سأستسلم بوجه نارهم القوية، لكنني واصلتُ الحركة من دون شفقة صوب الغرفة المحصنة، إلى أن قفزوا وهربوا. حاول أحدهم أن يصعد على دبابتي. وفي الحال وضعتُ البرج على مصدر الطاقة الجانبية، أدتُ المدفع - البندقية من عيار 100 ملم وأبعدته بضربة قوية كما يبعد المرء ذبابةً عن كوب الحليب. خلال ذلك، كانت دباباتنا الأخرى قد بدأت تستهدف العدو، وفي غضون عشرين دقيقة بقي للعدو دبابة باتون واحدة فقط. لاحقتها فيما كانت تحاول الهرب. تلقت دبابتي ضربة مباشرةً منها، فاندلعت فيها النيران.

إلا أن مدفعي كان لا يزال يعمل. واصلتُ مطاردة الباتون، وأطلقتُ النار عليها، وهي لا تبعد عن موضعي أكثر من خمسين ياردة. توقفت دبابة العدو فجأةً، انقلبت على عقبها، برجها يدوم كالسكران. في النهاية كف عن الدوران، وانفجرت الدبابة، واستحالت كرةً من نار. تقدمت إلى جهاز برافو الذي يوصلني بالضابط الأمر خاصتي وقلت: تم تدمير ثمان دبابات للعدو، سيدي. الوضع تحت السيطرة.

تقريباً صار الآن جسر مانديالا في قبضتنا. تفرق العدو. دباباته دُمّرت، إنما لا تزال ثمة جيوب معزولة للمقاومة. وضع العدو بعض المدافع الأوتوماتيكية، ومُطلقات الصواريخ حول الجسر والتي كانت لا تزال فاعلة. والأهم من كل شيء، العلم الباكستاني لا يزال يرفرف فوق الجسر. وجب عليّ أن أمزقه. بعد أن دوخني الارتجاج ومزقتني قطع المعدن المتطاير وجرححتني، بدأتُ أسيرُ ببطء صوب الغرفة الباكستانية المحصنة. في كل حذب صوب، رأيتُ حولي جثثاً على الأرض المزيّدة والموحلة. واصلتُ التحرك إلى الأمام، وتقدمتُ داخل العشر ياردات لغرفة العدو المحصنة، التي كانت تطوقها كتلة متشابكة من الأسلاك الشائكة. عندئذ رميتُ قنبلةً يدويةً دخانيةً داخل الغرفة المحصنة فسقط ثلاثة جنود باكستانيين أرضاً، أمواتاً. بقي هنالك جندي واحد فقط. حين رفعتُ بندقيتي كي أطلق عليه النار، أدركتُ أنها تعطلت. الجندي العدو فهم ذلك أيضاً. ابتسم، رفع مسدسه، وضغط على الزناد. وابل من الطلقات النارية أصاب ساقَي اليسرى، وهويتُ أرضاً. سدّد المسدس إلى قلبي، وضغط على الزناد مجدداً. ثقيأتُ للموت. إنما بدلاً من الانفجار الذي يصم الآذان، كانت هنالك طقطقة فارغة. نفذ مخزن العتاد خاصته. صاح وهجم عليّ بحربة مجرّدة. قاومته وأنا أصبح النصر للهند، وبراعة تجنبتُ هجومه المفاجئ. بعدها شرعتُ

أضربه حتى الموت بعقب بندقيتي. في النهاية، قفزتُ إلى عَلم العدو، مزقته وأبدلته بالعلم ذي الألوان الثلاثة. حين رأيتُ عَلمنا يرفرف على جسر مانديالا، كانت تلك أسعد لحظة في حياتي، مع أنني عرفتُ أنني فقدتُ إحدى ساقي".

يتوقف بونام سنغ عن الكلام، ونرى أن عينيه غارتان بالدمع. لا يتحرك أحد قيد أنملة على مدى دقيقة تقريباً. ثم يذهب بوتول إلى بونام سنغ، ويحمل دفتر التمارين الخاص به. يمسح الجندي عينيه. "معذرةً، ما هذا؟ لا أستطيع أن أحل لك واجبك البيتي في درس الرياضيات".

يقول بوتول: "لا أريد منك أن تحل واجبي البيتي".

"إذاً لماذا قدّمتَ إليّ هذا الدفتر؟"

"أريد توقيعك. أنتَ بطلنا".

يصفق الجميع.

يطرح دهيانيش السؤال نفسه من جديد. "إذاً ما هي الجائزة التي منحوك إياها عن هذه المعركة؟".

يلتزم بونام الصمت، كما لو أننا لمسنا عصباً مسلوخاً عنه الجلد. ثم يقول بمرارة: "لا شيء. أعطوا وسامين من نوع MVC ووسامين من نوع PVC إلى 35 سيخياً. ثلاثة من زملائي نالوا ميداليات سينا وشيد نصب تذكاري في جوريان. بيد أنهم لم يمنحوني شيئاً، ولا حتى ذكروا اسمي في التقارير العسكرية العاجلة. لم يكن هنالك تقدير لبسالي".

يطلق تنهيدة. "إنما لا تقلقوا. أشعر بالرضا حين أرى اللهب يشتعل فوق النصب التذكاري للجندي المجهول. أشعر أنه يشتعل لأناس من أمثالي". استحال كلامه فلسفياً، وراح يلقي قصيدة بالأوردية.

"نأتي إلى العالم من دون إعلان، نغادره من دون إعلان. لكن خلال وجودنا في هذا العالم، نقوم بتلك الأعمال التي حتى إذا لم يتذكرها هذا الجيل، فالجيل القادم لا يستطيع أن ينساها".

يسكت الجميع مجدداً. بغتة، تشرع السيدة داملي بالغناء:

"أنا فخور أن أكون هندياً...". وفي الحال ينضم إليها الجميع في إنشاد الأغنية الوطنية. لا أدري ما الذي حل بنا نحن اليافيين، لكننا نظمنا عرضاً تلقائياً للجنود أمام رجل عظيم. شكلنا صفاً أحاديّاً، ومررنا بمحاذاة بونام سنغ، قبضاتنا اليمنى مضمومة بإحكام في إيماءة تحية لهذا الجندي الشجاع.

كانت هذه حربنا. كان هو بطلنا.

هكذا هيمنت العاطفة على بونام سنغ. يبدأ بالبكاء. يصيح: النصر للهند! ويجر قدميه بثاقل إلى خارج الغرفة، تاركاً إيانا وحيدين مع خشخشة عشب الفيل، صوت انفجارات القنابل، الرائحة اللاذعة للكوردايت⁽¹⁾، والموت.

يأتي السيد واغل إلى المنصة ويلقي إعلاناً: "أصدقائي الأعزاء، لي الشرف أن أعلمكم أنه سيزورنا غداً فريق من صندوق مساعدة الجنود، اختصاراً (صمج). رئيس وزرائنا المحبوب ناشد كل الهنود أن يساهموا بسخاء من أجل مساعدة جنودنا، الذين يضحون بحياتهم كي نحيا بحرية وشرف وكرامة. آمل منكم جميعاً أن تنقبوا في جيوبكم كي تساعدوا (صمج)".

"ولكن ماذا عن الجندي الذي بيننا؟ ألا ينبغي لنا أن نقوم بشيء ما كي نساعد أيضاً؟" يصيح السيد شير كي. كانت هنالك صيحات: "اسمع! اسمع!".

(1) الكوردايت Cordite: متفجر لا دخان له يُصنع على شكل حبال - م.

"أجل أنتَ محق تماماً. لكنني أعتقد أن أكبر خدمة يمكننا أن نقدمها لبونام سنغ هي أن يتم تقدير إنجازاته في حرب 1971. سنعطي مذكرة لفريق (صمغ) الذي سيزورنا هنا غداً".
كلنا في حالة فرح. يبدو كما لو أننا أخيراً نساهم أيضاً في المجهود الحربي.

أقبل ثلاثة منهم؛ رجل طويل، رجل قصير، ورجل بدين. الثلاثة كلهم ضباط سابقون؛ الطويل من القوة البحرية، القصير من الجيش، والبدين من القوة الجوية. يلقي القصير خطبةً طويلةً. يقول لنا إن جنودنا يقومون بعمل جبار. بلدنا عظيم، رئيس وزرائنا عظيم، نحن عظماء، وتبرعاتنا يجب أن تكون عظيمة أيضاً. يمررون سلةً، يضع الناس النقود فيها، بعضهم يضع خمس روبيات، بعضهم الآخر عشرةً، وفريق ثالث يضع مائة. إحدى السيدات تضع أساورها الذهبية، سالم لا يملك أي مبلغ من المال، يضع علبتين من العلكة الفقاعية. بونام سنغ غير حاضراً. أرسلَ خيراً مفاده أنه مصاب بـكام خفيف.
بعدها يبدأ الاستجواب. "هل قاتلتَ أنتَ نفسك في أي حرب؟".

يسأل كولكارني رجل الجيش، وهو كولونيل متقاعد.
"نعم، بالطبع. قاتلت في حريين كبيرتين، حرب 65 وحرب 71".
"وأي خدمتَ خلال حرب 71".
"في جهامب التي ربما شهدت أكبر المعارك".
"وأي وحدة عسكرية كنت تنتسب إليها يومذاك؟".
"أنا من المشاة. كتيبة السيخ العظيمة".
"هل نلتَ أي وسام خلال حرب 1971؟".

"حسن، الواقع، نلتُ وسام ماهافير جاكرا. كان ذلك شرف عظيم".

"عن ماذا نلتَ هذا الشرف العظيم؟".

"عن المعركة الكبيرة لمعبر مانديالا التي أبلت فيها 35 سيخياً بلاءً حسناً".

"أي نوع من البشر أنت؟ أنت تأخذ الأوسمة لنفسك وتحرم منها الآخرين، الذين من دون دعمهم ما كان في وسعكم أن تسترجعوا ذلك الجسر".

"أنا متأسف. لا أفهم ما تقوله. من هذا الذي تشير إليه؟".

"نحن نتكلم عن جندينا، الذي كان بطلاً خلال حرب 1971 في قاطع جهامب، الذي فقد ساقاً. الذي كان يجب أن يحصل على وسام بارام فير جاكرا، إلا أنه لم ينل سوى الدموع. انظر، أيها الصاحب الكولونيل، نحن مدنيون. نحن لا نعرف ما يتعلق بقواعد وأنظمة جيشك، إلا أن ظلماً مهلكاً تم اقترافه هنا. هل تستطيع أن ترى ما إذا بالإمكان القيام بعمل ما حتى ولو الآن؟ لن يكون الأمر متأخراً جداً أن تكرم الجنود الشجعان".

"أين هو هذا الشخص العظيم؟".

"إنه هنا في مبنانا السكني".

"حقاً؟ ذلك شيء عظيم. أحب أن أقدم احتراماتي إليه".

لذا نرافقه إلى حجرة بونام سنغ. نشير إلى غرفته ونراقب فيما يدخل الكولونيل. نتوانى في مكان قريب، غير قادرين على أن نمنع أنفسنا من الاستطلاع بتطفل.

نسمع أصواتاً عالية، أشبه بجدار. ثم نسمع صوتاً مدوياً. بعد عشر دقائق أو نحو ذلك، يخرج الكولونيل مسرعاً، يتميز غضباً. "أهذا

هو الرجل الذي كنتم تشكون أنه لم ينل وسام PVC؟ إنه أكبر نذل رأيته في حياتي كلها. أتمنى أن أستطيع أن ألوي عنقه هنا والآن".

"كيف تجرؤ على التكلم عن بطل حربنا بهذه الطريقة!" تحذره السيدة داملي.

"هو، بطل حرب؟ إنها أكبر نكتة في العالم. إنه هارب حقير من الجندية. فرّ عند أول لحظة لمشكلة في قاطع جهامب. أقول لك، إنه وصمة عار في وحدة السيخ. كان يجب أن ينال عقوبة الحبس مع الأشغال لمدة أربعة عشر عاماً. لسوء الحظ أغلقت حالات الحرب من الجندية بعد خمس سنوات، بخلاف ذلك كنتُ سأبلغ عنه حتى ولو الآن".

ذهلنا. "ما هذا الذي تقوله، أيها الكولونيل؟ لقد وصف لنا بتفصيل كبير مآثره في جهامب. حتى إنه فقد ساقه في المعركة".

"تلك كذبة بكل معنى الكلمة. دعوني أروي لكم قصته الواقعية، وهي حقيقة محزنة تماماً". ثبت الكولونيل حزامه. "لم يكن بونام سنع في كامل قواه العقلية حين اندلعت الحرب، لأن زوجته كانت قد أنجبت طفله الأول في باثانكوت. كان يائساً من عودته إلى أسرته، كان اشتياقه كبيراً جداً عند أول علامة من علامات المشكلة في جوريان، حين هاجمت باكستان بالمدفعية بكل قوتها، هجر موقعه وفرّ هارباً. استطاع أن يصل إلى باثانكوت وأن يختبئ في منزل أجداده. لا بد أنه ظن أنه ترك الحرب وراءه، إلا أن الحرب لم تتركه. بعد وصوله بيومين قصفت القوة الجوية الباكستانية قاعدة باثانكوت الجوية. لم يضربوا أيّاً من طائراتنا، إنما سقطت قبلتان بوزن ألف رطل على منزل قريب من المطار. اتضح أن المنزل كان لبونام. زوجته وطفله هلكا حالاً في الهجوم وفقد هو ساقه بشظية قبلية".

"لكن... كيف استطاع أن يلفق مشهد المعركة في مثل هذا التفصيل الكبير؟".

يكشر الكولونيل اشمئزازاً. "لا أعرف أي قصص تلك التي رواها لكم، غير أن ستة وعشرين عاماً زمن طويل كي نقرأ معارك كبيرة. ابن الساقطة تسلل خارج الأشياء المصنوعة من الخشب بعد هذه السنوات كلها كي يخدعكم أنتم الناس المدنيين وكي يكسب بعض الإثارات الرخيصة عبر حكاياته المزيفة عن البسالة. إن لقائي به أفسد مزاجي كلياً، لم يكن يوماً عظيماً، مع السلامة".

يهز الكولونيل رأسه ويمشي مبتعداً عن المبنى السكني، محاطاً بالرجل الطويل والرجل البدين. نعود إلى الحجرة المحصنة تحت الأرض. حتى بالنسبة إلينا، لم يكن يوماً عظيماً. نسائل أنفسنا ماذا يفعل بونام سنغ. لم يخرج هو ذلك المساء.

وجدوه صباح اليوم التالي، في مسكنه ذي الغرفة الوحيدة في المبنى السكني. علبة صفيح من الحليب وصحيفة ترقدان على عتبة بابيه من دون أن يمسهما. عكازاته مستندتان بصورة مرتبة إلى الجدار. السرير الخشبي دُفع إلى أحد الأركان. هنالك كوب فارغ على منضدة ليلية يحتوي على أوراق شاي بني. الكرسي الوحيد في الغرفة يرقد مقلوباً في الوسط، يتدلى من مروحة السقف مع قطعة قماش وردية مربوطة حول رقبتة، مرتدياً نفس البذلة النظامية الخضراء كالزيتون، رأسه منحني فوق صدره. فيما كانت جثته الرخوة تتمايل ببطء من جانب إلى جانب، المروحة السقفية تصدر صريراً ضعيفاً.

تصل سيارة الشرطة الجيب، يومض ضوءها الأحمر. رجال الأمن ينقّبون في حاجياته، يتحدثون مع الجيران ويومنون إليهم، ويسألونهم

بفضاطة، مصور فوتوغرافي يأخذ صوراً، يصل طبيب بمعطف أبيض مع سيارة إسعاف. حشد كبير من الناس يتجمعون أمام غرفة بونام. يأخذون جثته على نقالة، مغطاة بملاء بيضاء مجمدة. يقف نزلاء المبنى السكني صامتين وهادئين. بوتول ودهيانيش وسالم وأنا نختلس النظر بحياء من وراء ظهورهم. ننظر بصورة عويصة إلى جثة الرجل الميت ونخفض رؤوسنا، بخوف وحزن وذنوب، بالنسبة إلينا نحن الذين كانت هذه أول حرب لنا، عرفنا يومذاك. أن الحرب قضية جدية جداً. إنها تأخذ الأرواح.

سميتا تبدو كثيفة وجادة.

أسألها: "أين كنت خلال الحرب؟".

"هنا تحديداً. في مومباي"، ترد وبسرعة تغير الموضوع.

"لنر السؤال التالي".

يدور بریم کومار علی کرسیه، ویناطبني قائلاً: "سيد توماس، لقد أجبنا عن سبعة أسئلة بصورة صحيحة كي تكسب مائتي ألف روبية. الآن لنر ما إذا كان في وسعك أن تجيب عن السؤال الثامن، بخمسمائة ألف روبية. هل أنت جاهز؟".

أرد: "جاهز".

"حسن. السؤال الثامن. ما هي أعلى جائزة للبرسالة تُمنح للقوات المسلحة الهندية؟ هل هي (أ) ماها فير جاكرا، (ب) بارام فير جاكرا، (ج) شوريا جاكرا أم (د) أشوك جاكرا؟".

تبدأ موسيقى الترقب. قنبلة الوقت تبدأ بالتكتكة بصوت أعلى.

ثمّة غمغة مختلطة وسط الجمهور. إنهم يتطلعون إليّ بتعاطف،
 مستعدين ليقولوا وداعاً للنادل الحار الودود.
 أجب قائلاً: "(ب) بارام فير جاكرا".
 يرفع بريم كومار حاجبيه. "هل تعرف الحل، أم أنك تخمن
 فقط؟".

"أعرف الحل".
 "هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".
 "أجل".

صوت الطبول يصل مرحلة تسارع. يومض الجواب الصحيح.
 "صحيح تماماً، مائة بالمائة!" يصيح بريم كومار. الجمهور مبتهج.
 هنالك تصفيق مشجع وصرخات "برافو!".
 أبتسم. أما بريم كومار فلا.
 تومئ سميتاً برأسها عن فهم.



1.000,000

رخصة للقتل

هنالك مخاطر كثيرة في المشي بطريقة شاردة الذهن في طرقات مومباي. من المرجح أن تزل قدمك بصورة غير متعمدة بقشرة موزة، وتسقطين بسرعة، ويمكنك أن تجدي أن قدمك من دون تحذير قد غاصت في كومة من براز كلب لين، كما يمكن أن تنطح بقرة ضالة آتية من الخلف مؤخرتك، أو أن صديقةً منسيةً من زمن طويل كنت تتحاشين اللقاء بها تظهر بصورة مفاجأة وسط حركة المرور وعلى حين غرة تعانقك.

هذا ما جرى لي يوم السبت السابع عشر من حزيران، أمام مضمار مهالاكسمي، حين التقيتُ صدفةً بسالم إلياسي. بعد خمسة أعوام.

حين وصلتُ مومباي آتياً من أغرا قبل ثلاثة شهور، قررتُ ألا أتصل بسالم. كان قراراً صعباً. افتقدته خلال سنواتي التي أمضيتها مع أسرة تايلور في دلهي وعذاباتي في أغرا، وأن أكون في المدينة نفسها التي يقيم فيها وألا أراه كان حقيقةً عبئاً ثقيلاً. لكنني صممتُ ألا أورطه في خطتي المتعلقة بالمشاركة في برنامج المسابقات.

"محمد!" صاح سالم لحظةً رأي. "ما الذي تفعله في مومباي؟ متى أتيت؟ أين كنت طيلة هذه السنوات؟".

اللقاء بصديق منسي من زمن طويل أشبه، على ما أعتقد، بتناول طبق مفضل بعد دهر طويل. أنت لا تعرفين كيف سيكون رد فعل براعمك الذوقية بعد هذه المدة كلها، وما إذا سيبقى طعم الطبق لذيذاً كما كان في السابق. التقيتُ سالم بعد خمس سنوات طويلة بمشاعر مختلطة. هل سيكون لمّ شملنا دافئاً كما اعتادت صداقتنا أن تكون؟ هل سنبقى صديقين أحدهنا مع الآخر؟

لم نتكلم كثيراً في بادئ الأمر، إنما جلسنا على مصطبة قريبة. لم نصغ إلى أصوات النوارس التي كانت تدور حول رأسينا، ولم ننتبه للأولاد الذين يلعبون كرة القدم في الطريق، ولم نرَ حشد الزاهبين إلى ضريح حاجي علي. كل منا عانق الآخر وبكينا. بكينا على الزمن الذي أمضيناه معاً، على الزمن الذي ضيعناه معاً، ومن ثم تحدثنا عن كل ما حدث بين الزمنين. بالأحرى، تحدث سالم وأنا أصغيت.

أصبح سالم أطول وأكثر وسامةً. إنه في السادسة عشرة، يبدو جذاباً كأني نجم من نجوم بوليوود. الحياة القاسية للمدينة لم تفسده كما أفسدتي. لا يزال يعشق الأفلام الهندية ونجوم بوليوود مع وضع استثنائي لأرمان علي. لا يزال يقصد ضريح حاجي علي كل جمعة والأهم من كل ذلك، أن توقع قارئ الكف يكاد يتحقق. لم يعد يعمل بصفة داباوالا، يسلم وجبات الغداء إلى أفراد الطبقة الوسطى في مومباي، إنما سجل اسمه في مدرسة التمثيل باهضة التكاليف حيث يتعلّم كي يصبح ممثلاً.

"أتدري من يدفع تكاليف دروس التمثيل خاصتي؟" يسألني.
"لا".

"إنه عباس رضي".

"المخرج الشهير الذي صنع كل أولئك النجوم والنجمات؟".
 "أجل، هو بنفسه. أعطاني دور بطل في فيلمه القادم، الذي سينطلق خلال سنتين، حين يصبح عمري ثمانية عشر عاماً.
 "لكن هذا شيء رائع، سالم. كيف جرى هذا كله؟".
 "إنها قصة طويلة جداً".
 "سالم، ما من قصة يمكن أن تكون طويلةً بصورة كافية بالنسبة إليّ. بسرعة، الآن، أخبرني من البداية".
 هذه إذاً القصة التي رواها سالم، بكلماته هو شخصياً.

"بعد أن ذهبت بعيداً بصورة مفاجئة جداً، بقيت وحيداً في المبنى السكني. واصلت حياتي كداواالا على مدى أربع سنوات أخرى، أجمع وجبات الغداء وأقوم بتسليمها، لكنني أيضاً بقيت أحلم أن أصبح ممثلاً.
 ذات يوم، فيما كنت أجمع وجبة غداء من زوجة زبون يُدعى موكيش راوال لاحظتُ أن جدران منزله مزينة بصورة مع نجوم السينما المشهورين. سألتُ السيدة راوال ما إذا كان زوجها يعمل في صناعة السينما، فقالت إنه مجرد موظف مبيعات في شركة صيدلة، لكنه يعمل بدوام جزئي في الأفلام السينمائية، ككومبارس.

"ذهشتُ لدى سماعي هذا. ذهبتُ مسرعاً إلى مكتب موكيش راوال بعد ظهيرة اليوم نفسه، وسألته هل بإمكانني أن أصبح على شاكلته. نظر إليّ موكيش وضحك، قال إنني لا أزال يافعاً جداً كي أغدو ممثلاً، لكن في بعض الأحيان تكون لديهم أدوار لطلاب المدارس وأولاد العشوارع، التي ربما تكون مناسبة لي، وعدني أن يحيلني إلى بابو ماستر الذي يزود الأفلام بالكومبارس الذي كان هو يعمل معه، وطلب

مني أن أزوده بعدد من الصور الفوتوغرافية الصقيلة قياس ثمانية في ستة لي بوضعات مختلفة. إذا أعجبت صوري بابو، ربما يختارني لدور صغير في أحد الأفلام. أخبرني موكيش أنه بالنسبة إلى الكومبارس، المهارات التمثيلية ليست مطلوبة، إنما يجب أن أبدو أنيقاً في بذلة ما، مهدهداً، في المؤهلات الجسمانية لشخص وحشي، وجذاباً في زي مدرسي. أكد علي أن آخذ صوراً فوتوغرافية لدى استوديو محترف.

"تلك الليلة لم أستطع النوم. ذهبتُ إلى مصور فوتوغرافي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وسألته عن كلفة الصور. طلب مني المصور الفوتوغرافي مبلغاً كبيراً إلى حدٍّ لا يصدق، يكاد يساوي دخلي على مدى شهر كامل. قلتُ له: "معذرة، لا أستطيع أن أدفع مبلغاً كبيراً كهذا". وهكذا نصحتني أن أشتري إحدى آلات التصوير الرخيصة، الخمرية اللون وآخذ صوراً لنفسي، يمكنه بعدئذ أن يكبرها. فعلتُ ما نصحتني به. اشتريتُ كاميرا، وطلبتُ من عابر سبيل أن يأخذ صورة لي. جلستُ على دراجة نارية تعود لشخص ما أمام بوابة دار عبادة، وحاولتُ أن أبدو بارد الأعصاب على غرار أميتاب باجاجان، توضعُ متطياً سهوة حصان على ساحل جاوباتي، على غرار آشاي كومار، وقفتُ أمام فندق شمس ورمل، متوضعاً مثل هريشيك روشن في فيلم قل هذا حب. ابتسمت ابتسامة عريضة أمام نافورة فلورا كما يفعل غوفيندا في جميع أفلامه. أخذتُ لي نحو عشرين صورة فوتوغرافية، إلا أن بكرة الفيلم الفوتوغرافي تأخذ ستاً وثلاثين صورة ويلزمي أن أنهيه قبل أن يتم تخميص الصور. لذا قررتُ أن آخذ صوراً لأبنية وأناس. أخذتُ صوراً لفيكستوريا تيرميناس وبوابة الهند، أخذتُ صورة لفتاة حسناء في مارين درايف، أخذتُ لقطة لرجل عجوز في باندراف وحتي أخذتُ صورة مقربة لحمار في كولابا. كانت صورتي الأخيرة لرجل داكن البشرة، في

منتصف العمر، في ماهيم، يجلس على مصطبة ويدخن سيجارة. كانت أصابعه مزينة بخواتم ذات ألوان شتى. بعد أن ضغطتُ على زر مصراع الكاميرا⁽¹⁾ أدركتُ لمن أخذت الصورة، وجمدتُ.

أسأل سالم: "ماذا تعني؟ هل كان نجماً سينمائياً شهيراً؟ هل كان ذلك أرمان علي؟".

"لا، محمد، كان رجلاً أنت أيضاً تعرفه معرفة جيدة. كان السيد بابو بيلاي، المدعو مامان. الرجل الذي جاء بنا إلى هنا من دلهي والذي كاد أن يعمي عيوننا".
"هل ميزك؟".

"نعم، ميزني. أنت سالم، أليس كذلك؟ أنت الغلام الذي هرب مني. لكنك لن تستطيع أن تهرب مني هذه المرة، صرخ واندفع نحو بقوة".

"حتى إنني لم أفكر في الأمر. درتُ على عقبي، وركضتُ صوب الطريق الرئيس. كانت ثمة حافلة تنسحب مبتعدة، فقفزتُ إليها في الوقت المناسب، تاركاً مامان يلهث ورائي على الطريق.
"كنتُ جالساً في الحافلة، معتقداً أنني فررتُ فراراً محظوظاً، عندما، خمن ماذا جرى؟".

"ماذا جرى، قل؟".

"توقفت الحافلة عند إشارات المرور الضوئية، ودخلت مجموعة من الأشخاص المتوحشين يضعون عصابات رأس ومسلحين بالسيف، والرماح، والرماح ذات الشعب الثلاث".
"لا تقل لي إنها كانت عصابة إجرامية".

(1) مصراع الكاميرا Shutter bukton: أداة تفتح وتغلق أمام عدسة الكاميرا لإدخال النور أو صده - م.

"كانت عصابة إجرامية. أدركتُ عندها أننا وصلنا إلى معمة شغب طائفي. شاهدنا أمامنا مباشرةً حطام مركبة تحترق، وتدخن من دون لهب. ثمة متاجر مدمرة، رذاذ الدم يمكن رؤيته على الرصيف. الحجارة، والعصي، والخفاف كلها كانت تفترش الشارع. السائق فرَّ حالاً من الحافلة. تخدَّر عقلي من الخوف. ظننتُ أنني لن أرى مشهداً مرعباً مجدداً. سمعتُ أصواتاً حسبتُ أنني نسيتهَا. صرخات أمي وبكاء أخي تردد صداها في أذني. أخذتُ أرتجف. قال الأشخاص المتوحشون لجميع الركاب في الحافلة إن عصابة مسلمة أشعلت النيران في منازل الهندوس، وقد خرجوا هم للانتقام، عرفتُ لاحقاً أن المشكلة كلها بدأت بسبب شجار طفيف حول صنوبر ماء في حي من أحياء الفقراء. غير أن عقول الناس مليئة جداً بالبغضاء بحيث إنه في غضون ساعات قليلة أُحرقت الحافلات، وأُشعلت النيران في المنازل، وذبح الناس من الوريد إلى الوريد.

كل واحد منكم يقول اسمه. كل الركاب الهندوس مسموح لهم أن يترجلوا من الحافلة، وكل الركاب المسلمين يجب أن يبقوا جالسين. أعلن الأشخاص المتوحشون. واحداً تلو الآخر قال الركاب المرتعشون أسماءهم. أرفند، يوشا، جاتين، آرون، فسانتي، جاغديش، نرمادا، غانغا، ميليند. بدأت الحافلة تفرغ. راقب المتوحشون كل واحد من الركاب بعيون صقرية. فحصوا اللون القرمزي في مفارق شعر النسوة، سألوا الرجال بعض الأسئلة الإضافية كي يتأكدوا من ديانتهم، وحتى أجبروا غلاماً صغيراً على نزع سرواله الداخلي. أصابني الغثيان لدى رؤيتي هذا العرض البربري، غير أنني كنتُ أيضاً أرتجف في مقعدي. في النهاية، بقي راكباً فقط في الحافلة: أنا ورجل آخر يجلس ورائي بمقعدين.

أنت تعرف، محمد، في أفلام السينما حين يحدث مشهد كهذا، يقف البطل ويناشد إنسانية العصابة الإجرامية. يقول لهم إن لون دم الهندوس والمسلمين هو نفسه. وإن وجوهنا لا تشير إلى الديانة التي ننتمي إليها. إن المحبة مفضلة على الكراهية. عرفتُ حوارات كثيرة جداً، كان في وسعي أن أتلو أي واحد منها أمام أولئك المتوحشين، لكنك حين تقف فعلاً وجهاً لوجه مع هؤلاء الهمجيين، تنسى الكلمات كلها. تفكر في شيء واحد فحسب. الحياة. أردتُ أن أعيش، لأنني يجب أن أحقق حلمي في أن أعُدو ممثلاً. والآن الحلم والحالم كلاهما سَئُضرم فيهما النار في حافلة من حافلات مومباي.

سألني قائد المجموعة: ما اسمك؟

كان في وسعي أن أقول رام أو كريشنا، إلا أنني أصبحتُ معقود اللسان. أحد المهاجمين أشار إلى اللفّاع حول عنقي، وحثهم قائلاً ابن الساقطة هذا مسلم حتماً. لنقتله.

لا، إن قتله أمر سهل جداً. سنحرق ابن الساقطة هذا حياً في هذه الحافلة. عندئذ هو وطاقفته سيتعلمون ألا يمسوا منازلنا أبداً، قال القائد وضحك. رجل آخر فتح علبة صفيح مملوءة بالبترو، وأخذ يرشه داخل الحافلة. اعتدتُ أن أحب رائحة البترو، إنما منذ ذلك اليوم أربطها ذهنيّاً مع اللحم البشري المحترق.

الرجل الجالس ورائي بصفين هب واقفاً على حين غرة وقال: لم تسألوني عن اسمي. دعوني أخبركم. إنه أحمد خان. وأريد أن أرى ابن الساقطة الذي سيحرق هذا الصبي.

هيمن سكوت مؤقت على المتوحشين، قبل أن يتكلم قائدهم: إذاً أنت مسلم أيضاً. جيد جداً إذاً، سَئُحرق أنت أيضاً مع هذا الغلام.

لم يكن الرجل مضطرباً. قبل أن تحرقوني، انظروا إلى هذا، قال، وأخرج مسدساً. وجهه نحوهم.

كان يجب عليك أن ترى وجوههم، عيونهم جحظت من محاجرهما، تركوا سيوفهم ورماحهم ذات الشعب الثلاث في الحافلة، وفروا. حياتي أنقذت، تفرقت في عيني دموع العرفان بالجميل، شاهدي الرجل أبكي وسألني قائلاً: ما اسمك؟

سالم... سالم إلياسي، أجبت، وكنت لا أزال أنشج.

قال لي: ألا تعرف كيف تكذب؟ لكنني أقدر الناس الذين يقولون الحقيقة حتى حين يواجهون الموت.

أخبرني أنه يعمل في الاستيراد والتصدير، وقيم وحيداً في محلة سيكولا. قال إنه يحتاج إلى شخص يقوم بالطهي والتنظيف، وعموماً يعتني بالمنزل كلما يلزمه أن يسافر لأغراض العمل. أسأل نفسي لماذا يحمل رجل أعمال مثله مسدساً في الحافلة، لكنه وعدني أن يعطيني ضعف الأجر الذي أتقاضاه كناقل وجبات غداء داباوالا، وعلى الفور وافقت على أن أصبح خادمه المقيم في مسكنه.

كان أحمد يملك شقة كبيرة، واسعة ذات ثلاث غرف نوم، ومطبخ جيد المساحة، وحجرة استقبال مزودة بجهاز تلفاز ذي ست وثلاثين بوصة. كنت أقوم بالطبخ، والتنظيف، وإزالة الغبار لكنني لم أنسَ طموحي في أن أصبح ممثلاً. بشكل من الأشكال، كان العمل لصالح أحمد جيداً، لأنه يكون غائباً عن المنزل معظم ساعات اليوم وغالباً حتى على مدى أسبوع أو أسبوعين. خلال ذلك الوقت أقوم بجولات على الاستوديوهات. ظهرت الفيلم الفوتوغرافي خاصتي، وحصلت على صور مكبرة بحجم ثمانية في ستة. أعطيتها لموكيش راوال، الذي بدوره أراها لبابو ماستر، الذي يزود المخرجين

بالكومبارس. صدقني أو لا، بعد مرور ثلاثة شهور فقط تسلمتُ أول عرض للعمل كممثل سينمائي.

أصبح: "حقاً؟ أي دور نلته وفي أي فيلم؟".

"كان دور طالب جامعي في فيلم المخرج عباس رضي المعنون أولاد سيئون تمثيل سونيل ميها".

"دعنا إذا نذهب ونراه الآن. أحب أن أشاهدك على الشاشة وأسمع حواراتك".

"حسن... يتأتى سالم. يخفض بصره ناظراً إلى حذائه. "كما ترى، قصوا دوري في الدقيقة الأخيرة. لذا على الشاشة تراني لمدة ثلاث ثوان لا غير، جالساً إلى مقعد دراسي في غرفة الصف مع ثلاثين طالباً آخرين. الحوارات الوحيدة في ذلك المشهد تدور بين البطل سونيل ومدرس الصف".

"ماذا؟" أصرخ بخيبة أمل. "ثلاث ثوان فقط! أي نوع من الأدوار هذا؟".

"يفترض بالكومبارس أن يؤدوا فقط تلك الأنواع من الأدوار. نحن لسنا أبطالاً وبطلات. نحن حصراً جزء من المشهد. أتذكر مشاهد تلك الحفلات الضخمة في الأفلام؟ الكومبارس هم الأشخاص الإضافيون الذين يقفون هنا وهناك يرتشفون مشروباً فيما يرقص البطل والبطلة في باحة الرقص. نحن عابرو السبيل في الشارع حين يطارد البطلُ الوغد، نحن الشبان والشابات الذين يصفقون في نادٍ للديسكو حين يفوز البطل والبطلة في مسابقة الرقص. إنما لا مانع لديّ من أن أعمل كومبارس. إنه يسمح لي أن أحقق حلمي في أن أرى ما وراء المشاهد. ومكنني من اللقاء بالمخرج، عباس رضي، ووعدي أن يمنحني دوراً أطول في فيلمه القادم.

على مدى الشهور الستة التالية، اكتشفُ أشياء كثيرة في ما يتعلق بأحمد. على العموم، كان رجلاً غريب الأطوار نوعاً ما. كان له ولعان في الحياة. تناول الطعام اللذيذ ومشاهدة التلفاز. على التلفاز كان يشاهد برنامجين فقط؛ الكريكت ومراقبة الجريمة في مومباي. كان متعصباً للكريكت. كلما كانت هناك مباراة في الكريكت، بمشاركة الهند أو من دونها، يجب عليه أن يشاهدها. ينهض من نومه عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل إذا كانت ثمة مباراة في الهند الغربية وعند منتصف الليل إذا كانت في أستراليا. كان يشاهد حتى المباريات بين فريقين غير مهمين مثل كينيا وكندا.

كان يحتفظ بدفتر يوميات سجل فيه إحصائية كل مباراة من مباريات الكريكت، كان يحفظ عن ظهر قلب معدل ضربات كل ضارب من ضاربي كرة الكريكت، أعداد الكرات المرمية لكل رام من رماة كرة الكريكت، عدد مسكات كل لاعب يوقف الكرة ويردها، عدد الأجدال التي يحاول أن يشذبها حارس الوكت⁽¹⁾. في وسعه أن يخبرك بأعلى النقاط المسجلة وأدائها في أي مباراة، أعلى عدد دورات في الأوفر⁽²⁾، أكبر فوارق النصر وأضيقتها.

بيد أنه كان يحفظ هذه المعلومات كلها لغرض ما؛ كي يراهن على مباريات الكريكت. اكتشفُ هذا خلال الدوري الهندي - الإنكليزي. كان أحمد يشاهد المباراة على شاشة التلفاز، ويحاول جاهداً

(1) حارس الوكت wicket-keeper: إحدى مجموعتين من العصي يحاول فريق الكريكت إصابتها بالكرة - م.

(2) الأوفر over: جزء من لعبة الكريكت يتم خلاله درجة ست كرات نحو ضارب الكرة بواسطة لاعب من الفريق الآخر من النهاية نفسها لرمية الكرة - م.

أن يتصل بشخص عبر هاتفه النقال. لذا طرحتُ عليه سؤالاً: ما الذي تفعله، سيد أحمد.

رد عليّ: أنا بصدد أن ألعب الساتا.

ساتا؟ ما هي تلك الساتا.

إنها اسم آخر للرهان اللاقانوني. تُنظم الساتا من قبل نقابات عالم الرذيلة والإجرام القوية في مومباي بمبيعات يومية تبلغ ملايين الروبيات. ملايين البشر يراهنون على كل مباراة من مباريات الكريكيت، على آلاف على كل كرة. أنا واحد من كبار المقامرين. هذا المنزل الذي تراه، جهاز التلفاز الثمين هذا، المايكروويف في المطبخ، مكيف الهواء في حجرة النوم، كلها نتيجة ربحي المتكرر من الساتا. قبل ثلاث سنوات مضت، قمتُ بمغامرة قاتلة في مباراة الهند - أستراليا. أنت تتذكر المباراة الشهيرة في الوقت الذي كانت فيه الهند 232 مقابل 4، وكنتُ أحقق إلى جولات الهزيمة، وكانت الأفضلية ألف مقابل واحد في صالح الهند، راهنتُ على لاكسمان والهند وربحت مليون روبية! مليون روبية! جحظت عيناى.

نعم. اليوم أراهن فقط بمبلغ عشرة آلاف على الهند. كنتُ أحاول أن أسأل وكيل المراهنات خاصتي عن الأفضلية، لكن رقم هاتفه كان مشغولاً باستمرار. ضرب هاتفه النقال مرتين، نظر بنفاد صبر إلى ساعته اليدوية، وضغط بشدة على الرقم من جديد. هذه المرة نجح الاتصال الهاتفي. هالو، سيد شاراد؟ أنا أ. خ. شيفرة 3563. ما هي النسبة على المباراة؟ سمعتُ صوت وكيل المراهنات عبر سماعة الهاتف مع كثير من التشوش. كان في وسعي أن أسمع التعليق في الخلفية: الهند متقدمة 175 على إنكلترا. ما إن يعبر التقدّم 250، ستتحول الأفضلية بصورة حادة في صالح الهند. يتقدم أقل من 250 تكون نسبة الفوز

خمساً وخمسين بالمائة لكلا الطرفين، إنما عبور علامة الـ 250 سيغير ذلك إلى ثلاثة مقابل واحد في صالح الهند.

وما هي الأفضلية في نصر إنكلترا؟ سأله أحمد.

رد عليه وكيل المراهنات: هل جنت؟ ليس ثمة فرصة لفوز إنكلترا؛ إن رهانهم الأفضل هو أن يعرضوا الانسحاب. هل تريد أن تسجل على الرهان الآن؟

نعم. دون مراهنتي بمبلغ عشرة آلاف على خسارة الهند، قال أحمد.

ذهشتُ حين سمعتُ أحمد يضع هذا الرهان، لأن الهند كانت في الطليعة. إنما من الجلي أن أحمد كان يعرف أكثر من وكيل المراهنات، لأنه في نهاية اللعبة كسبت إنكلترا المباراة، وكانت أعلام بريطانيا على كل ملعب لورد للكريكيت، وكان أحمد يضرب قبضته بشدة في الهواء ويصبح متهللاً: نعم! نعم! نعم!. اتصل هاتفياً بوكيل المراهنات خاصته مجدداً. حضرة السيد شاراد، ألم أكن على صواب؟ كم ربحت؟ ثمانية آلاف؟ ها! فائدة لا بأس بها عن عمل دام ساعات قليلة!

خرج أحمد وابتاع زجاجة مليئة بسائل مزبد، وفي ذلك المساء أخذتُ رشفتي الأولى منه.

شغف أحمد الثاني في الحياة هو برنامج مراقبة الجريمة في مومباي. هل سبق لك أن شاهدته؟

هزرتُ رأسي نفيًا. "لم يكن يعرض على التلفاز حين كنا في دلهي.

حسن، إنه برنامج ممل جداً. إنه يشبه نشرة الأخبار، سوى إنهم يخبرونك فقط عن الجريمة العنيفة. من الذي قُتل، من التي أغتصبت، أي مصرف تم نهبه، من الذي فر من السجن، ذلك النوع من الأشياء.

يجلس أحمد قبالة جهاز التلفاز مع طبق من أسياخ الكباب، ويقهقه بأعلى صوته كلما يسمع النشرة المتعلقة بمراقبة الجريمة في مومباي. لسبب ما، كان يجدها مسلية جداً.

بين الحين والآخر، يتسلم أحمد مغلفات صفراء كبيرة ينقلها إليه شخص. كانت لدي تعليمات صارمة ألا أمس بريده وأن أتركه على مائدة الطعام له. بعد ظهيرة أحد الأيام، جلب الغلام الذي يوزع الرسائل مغلفاً أصفر كبيراً حين كنتُ أحتسي الشاي، بطريق الخطأ سفحتُ الشاي على المغلف وأصابني الذعر، كنتُ أعرف أن أحمد إذا رأى أنني أفسدتُ مغلفه سينتابه الغضب. ربما كان يحتوي على وثائق تجارية ثمينة من المحتمل أنها تضررت. لذا جلستُ وبعناية فتحتُ لسان المغلف الملصق بالصمغ. أدخلتُ أصابعي وسحبتُ الوثائق... وصفرتُ مندهشاً.

"لماذا صفرت؟ ماذا كان هنالك؟".

"ما من شيء كثير. كان المغلف يحتوي فقط على صورة فوتوغرافية بقياس ثمانية في ستة لوجه رجل ونصف صفحة من التفاصيل المطبوعة بأناقة. حتى أنا كنتُ قادراً على قراءتها. كانت تشير إلى:

الاسم: فيثالبهي جوربادي

العمر: 56

العنوان: 4/73 طريق مارفي، مالاد.

كان ذلك كل شيء.

خيل إليّ أن تلك تفاصيل رجل أعمال معين كانت لأحمد تعاملات معه، ولم أفكر كثيراً في الموضوع. بعناية أغلقتُ من جديد

اللسان، ووضعتُ المغلف على مائدة الطعام. مساءً، جاء أحمد إلى المنزل وفتح المغلف. بعدها بوقت قصير تلقى اتصالاً هاتفياً. كل ما قاله هو: نعم، لقد تسلمتُ المغلف.

بعد قرابة أسبوعين، كان أحمد جالساً أمام شاشة التلفاز، يشاهد مراقبة الجريمة في مومباي. كنتُ في المطبخ، أقطع الخضار، إنما كان في وسعي أن أسمع مقدم البرنامج يتحدث قائلاً: ... في حادثة رهيبة أخرى في مالاد، لا يزال رجال الشرطة يبحثون عن مفاتيح لحل لغز جريمة قتل رجل أعمال بارز يُدعى فيثالبهي جوربادي، الذي وُجد مقتولاً في منزله الواقع في طريق مارفي. دوى الاسم في أذني. نظرت إلى التلفاز، وكدتُ أقطع إصبعي، لأنه ظهرت على الشاشة الصورة نفسها التي كانت في المغلف الأصفر. تابع المقدم كلامه قائلاً: السيد جوربادي، في السادسة والخمسين من عمره، قُتل بالرصاص الذي سُدد إليه من مسافة قريبة فيما كان وحيداً في منزله. إنه يعيش مع زوجته وابنه. وفق شرطة مالاد، يبدو أن النهب كان الباعث الرئيس للجريمة طالما أن المنزل قد فُتش تفتيشاً دقيقاً وثمة أشياء نفيسة كثيرة كانت مفقودة.

لاحظتُ أحمد يقهقه حين سمع هذا. هذا، أيضاً، أذهلني. لماذا يضحك أحمد على موت زميل له في المهنة؟

بعد مرور شهر، كان هنالك مغلف أصفر آخر. كان أحمد في الخارج ولم أستطع أن أتمالك نفسي من اختلاس النظر إلى محتوياته. هذه المرة فتحته بواسطة البخار، كي لا أترك أي علامة. فتحتُ اللسان، وسحبتُ صورة فوتوغرافية أخرى. هذه المرة كانت تُظهر وجه شاب ذي شارب سميك وندبة طويلة تمتد من عينه اليسرى إلى أسفل ذقنه. أشارت الصفحة المطبوعة من الورق إلى ما يلي:

الاسم: جميل قيداوي

العمر: 28

العنوان: 35 شقق شيلاجيت السكنية، كولابا.

حفظتُ عن ظهر قلب الاسم، وأعدتُ الصورة.
جاء أحمد مساءً إلى المنزل ونظر إلى المغلف. كان ثمة اتصال هاتفي، كما في المرة السابقة، وأكد تسلم المغلف. بعدها بأسبوع على وجه الدقة، سمعتُ الأخبار في مراقبة الجريمة تفيد أن محامياً شاباً يُدعى جميل قيداوي قُتل رمياً بالرصاص فيما كان يخرج من سيارته بالقرب من مقر إقامته في شقق شيلاجيت السكنية. قال مقدّم البرنامج: الشرطة تشك بباعث إجرامي منظم في جريمة القتل هذه، طالما أن السيد قيداوي احتج على رؤساء كثيرين لعصابات المافيا في المحكمة. انطلقت التحريات، إنما ليس ثمة أدنى فكرة في الوقت الحاضر. كان أحمد يجلس ويده كأس شراب اسكتلندي، قهقه حين سمع هذا الخبر.
الآن أنا قلق بصورة جدّية. لماذا يتسلم أحمد صور الأشخاص عبر البريد ولماذا يموت أولئك الأشخاص بعدها مباشرة؟ هذا لا يزال لغزاً بالنسبة إليّ. هكذا حين تم تسليم المغلف الأصفر التالي بعد مضي ثلاثة أسابيع، لم أختلس النظر فقط إلى الصورة الفوتوغرافية، التي كانت لرجل عجوز، بل دوّنت العنوان. كان عنوان منزل في طريق برميير في كورلا. اليوم التالي، تبعْتُ أحمد. أخذ قطاراً محلياً إلى كورلا، ومشى إلى طريق برميير لكنه لم يدخل المنزل. مرَّ به فقط ثلاث أو أربع مرات، كما لو أنه يتفحصه بدقة. بعدها بأسبوعين، أعلن في مراقبة الجريمة أن الرجل العجوز نفسه وُجد مقتولاً في منزله الواقع في طريق برميير في كورلا.

لستُ غيباً. عرفتُ هناك ووقتذاك أن أحمد قتل الرجل وإنني كنتُ أقسيم مع قاتل مأجور. لكنني لم أكن أعرف ماذا أفعل. لقد أنقذ أحمد حياتي ذات مرة ولم أكن حتى أعترم أن أفشي سرّه للشرطة. خلال ذلك، دعاني عباس رضيكي كي يقدم إليّ عرضاً سينمائياً يتعلق بإسناد دور في فيلمه المقبل. حين سمعتُ بذلك ركضتُ طيلة المسافة المؤدية إلى ضريح حاجي علي. مسستُ جيبني بالقماش الذي يغلف الضريح ودعوت بطول العمر لرضيكي.

على مدى الشهرين التاليين عشتُ حياةً مزدوجةً صعبةً. إذا كان أحمد قاتلاً مأجوراً يتخفى بصفة رجل أعمال، كنتُ ممثلاً أتنكر بصفة خادم. كان أحمد يملك رخصةً للقتل، غير أنني كنتُ أعرف أنه سيأتي يوم هو نفسه سيُقتل".

"ماذا جرى؟".

"جرى ذلك قبل أربعة شهور خلت؛ في العشرين من شباط، إذا توخينا الدقة. أتذكر التاريخ بصورة جيدة جداً، لأن الهند كانت تلاعب أستراليا في المباراة الأخيرة من الدوري وكان أحمد قد وضع رهاناً آخر. كان من دأبه أن يراهن على كل شيء: ليس فقط على الفريق الذي سيفوز، بل أول مجموعة جدعات تسقط، رامي الكرة الذي يستحوذ على أول مجموعة من الجدعات، من الذي سيفوز في القرعة عندما تقذف القطعة النقدية بالظفر، هل ستمطر خلال المباراة؟ غالباً كان يراهن عملياً على كل كرة في المباراة - ما إذا ستكون الكرة رقم أربعة، أو ستة، أو صفر. صباح ذلك اليوم، كان أحمد قد تحدث مع وكيل مرهاناته. سيد شاراد، أ. خ. الشيفرة 3563. ما هي فكرتك عن وسط الملعب؟ يوم أمس كان اللعب فاتراً، إنما هل تبدأ الكرة بالدوران بدءاً من هذا اليوم؟ التوقعات الجوية جيدة، لكن هل تعتقد أن

من المحتمل أن يهطل المطر في وقت متأخر من هذا اليوم؟ بعدها وضع رهانه. راهن لي على ساجين مالفانكر، وهو يضع مئويته السابعة والثلاثين اليوم. ما هي النسبة؟ قال وكيل المراهنات. إنه الآن في الثامنة والسبعين والجميع يشعرون أن القرن هو تخمين مؤكد، لذا فإن الأفضلية ليست واعدة جداً. أفضل شيء يمكن أن أفعله هو ثلاثة عشر إلى عشرة. قال أحمد: حسن، إذا أدرجني على اللائحة بمليون روبية. بهذه الطريقة سأربح ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف روبية.

طيلة ما بعد ظهيرة ذلك اليوم جلس أحمد أمام جهاز التلفاز وراقب لعب مالفانكر، وشجعه لدى كل دورة يحرزها بصفير عال. فيما كان مالفانكر يسير ببطء نحو مئويته، كان أحمد يغدو أكثر هيجاناً شيئاً فشيئاً. في الوقت الذي دخل فيه مالفانكر التسعينيات كان أحمد شخصاً عصبياً، يعض أظافر أصابعه، يتهل أمام كل كرة، ينكمش خوفاً كلما يضرب مالفانكر بواسطة كرة مقذوفة. إلا أن مالفانكر لعب كضارب كرة ضليع. تحرك من واحد وتسعين إلى خمسة وتسعين بضربة مستقيمة رائعة للكرة نال عنها أربع نقاط. بعدها أخذ دورة واحدة كي يصل إلى ستة وتسعين. بعدها دورة مفردة أخرى. سبعة وتسعون. ثم رمى جيلسبي كرة قصيرة، وجرها مالفانكر بصورة مهيبة إلى حد الغطاء. كان هايدن يركض وراءها، محاولاً أن يوقفها من عبور الحبل. مالفانكر وضارب الكرة المساعد خاصته أجاي ميشرا كانا يركضان بسرعة بين مجموعتي الجذعات. أخذوا دورة واحدة. ثمانية وتسعون. بعدها انطلقا بأقصى سرعة كي يكملا الدورة الثانية. تسعة وتسعون. جمع هايدن الكرة بوصات داخل حد الغطاء، وأرسلها برمية لولبية، ليس إلى آدم غيلكريست، حارس الوكت، إنما إلى نهاية رامي الكرة. شاهد مالفانكر الرمية آتية، وصاح لا !!! لميشرا، الذي كان

يركض نحوه من أجل الدورة الثالثة. إلا أن ذلك الأبله مباشرة واصل
تسديد الكرة صوب مالفانكر. بيأس، كان مالفانكر مرغماً على أن
يبدأ بإكمال النقطة الدورة. كان تقريباً قد وصل إلى نهاية رامي الكرة
حين هبطت الكرة المرسله من قبل هايدن مباشرةً على الجذعات! لمُح
مالفانكر ست بوصات فقط خارج خط الملعب، وأعلن الحكم الثالث
نهاية الدورة. عند تسعة وتسعين.

يمكنك أن تتصور ماذا حدث لأحمد. كان قد راهن بمليون روبية
على المئوية السابعة والثلاثين لمالفانكر والآن خسرها كلها بسبب دورة
واحدة. شتم جيلسبي، شتم هايدن، وشتم أكثر من الجميع مباشرة.
أريد أن أقتل ابن الساقطة ذاك، دمدم، وانطلق خارج المنزل. على
الأرجح قصد مشرباً كي يتخلص من أحزانه.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، وصل مغلف أصفر آخر. كنتُ قلقاً من
احتمال أن يحتوي على صورة ضارب كرة هندي، لكنني حين شاهدتُ
ما بداخله كدتُ أموت.

"لماذا؟ ماذا كان بداخله؟ قل لي بسرعة".

"داخل المغلف كانت هناك صورة فوتوغرافية صقيلة بقياس ثمانية
في ستة لعباس رضفي، المخرج، وقطعة ورق دُون عليها عنوانه بالآلة
الكتابة. عرفتُ أنه سيكون الضحية المقبلة لأحمد، وأنه بموته سيموت
أيضاً حلمي في أن أصبح ممثلاً. يلزمي أن أحذر رضفي. إنما إذا
اكتشف أحمد الأمر، لن يشعر بتأنيب الضمير إذا ما قتلني أنا الآخر.
على كل حال، كان قاتلاً محترفاً".

"إذاً ماذا فعلتُ؟" أسأل مقطوع الأنفاس.

"فعلتُ ما ينبغي لي أن أفعله. ذهبتُ فوراً إلى رضفي، وأخبرته. لم
يصدقني، لذا أريته الصورة والعنوان وقد وصلا بواسطة أحد السعاة. ما

إن رأى الصورة الفوتوغرافية في يدي، حتى تلاشت شكوكه. قال لي إنه سيهرب إلى دبي، ويظل مختبئاً هناك سنة أو نحو ذلك. إنه الآن مدين جداً لي، وعدني أنه عند رجوعه سيجعلني بطلاً لفيلمه المقبل وحتى ذلك الوقت سيحرص على تدريبي. لهذا السبب فهو يغطي تكاليف دراسي في حقل التمثيل ولهذا السبب أعد الأيام حتى أغدو في الثامنة عشرة".

"يا لها من قصة، سالم"، أقول، وأنا أتنفس الصعداء. "إنما في أحذك المغلف إلى رضفي، ألم تكشف نفسك لأحمد؟ لا بد أنه تلقى اتصالاً هاتفياً مساء ذلك اليوم وعرف ما يتعلق بالمغلف المفقود".

"كلا. لم أكشف نفسي، لأن أحمد تسلم مغلفاً موضوعاً على مائدة الطعام حين عاد إلى المنزل ذلك المساء".

"لكن... وقتذاك كان أحمد سيقتل رضفي".

"لا، لأن المغلف احتوى صورةً جديدةً وعنواناً جديداً، طبعته لدى مركز طباعة قريب".

"ذكي. تعني أنك أعطيت عنواناً مزيفاً. هل كان باستطاعتك أن تعطي عنواناً مزيفاً؟".

"لم أستطع. لذا لم أعطه عنواناً مزيفاً. أعطيتُ أحمد صورةً حقيقيةً. وعنواناً حقيقياً، وذهب فعلاً وأُنجز المهمة. قبل أن يكتشف أنه قتل الرجل غير الصحيح، أخبرته أنه يلزمي الذهاب إلى بيهار لأمر ضروري جداً. وتركت العمل لديه. اختبأت هنا وهناك، لم أدخل بيكولا⁽¹⁾، وحتى توقفتُ عن الذهاب إلى ضريح حاجي علي، الذي هو قبالتنا. الأسبوع الماضي رأيتُ في مراقبة الجريمة أن الشرطة قتلوا بالرصاص قاتلاً مأجوراً مروّعاً يحمل اسم أحمد خان في مداهمة قرب

(1) بيكولا Byculla: محطة قطار في إحدى ضواحي مومباي - م.

محطة بوابة دار العبادة. لذا أتيتُ اليوم إلى حاجي علي كي أشكر الله،
وها قد التقيت بك!"

"أجل، إنها مصادفة مذهشة. إنما لديّ سؤال آخر فقط. صورة من
وعنوان من أعطيتهما لأحمد؟"

"الشخص الوحيد الذي يستحق أن أعطي صورته وعنوانه.
أعطيته صورة بقياس ثمانية في ستة للسيد بابو بيلاي، وعنوان مامان!!".

تصفق سميتا بيديها. "رائع! أعرف الآن أنك طباخ ذكي، لكنني لم
أكن أعرف أن سالمًا عبقرى أيضاً. لديه رخصة للقتل بالوكالة، وقد
اختار الهدف الصحيح. إذاً ماذا جرى بعدها؟ هل أخبرت سالم عن
مساهمتك في برنامج المسابقات؟"

"لا. لم أكتشف له سبب مجيئي إلى مومباي. ببساطة قلتُ له إنني
كنتُ في دلهي، أعمل بصفة خادم، وكنتُ أزور المدينة مدة يومين".

"إذاً سالم ليس له أدنى فكرة عن ظهورك في W3B؟"

"كلا. كنتُ سأعلمه، إنما قبل أن أفعل هذا اعتقلني الشرطة".

"فهمت. على كل حال، لنرَ الآن كيف ساعد لقاء الصدفة بسالم
حظك في البرنامج؟"

في الاستوديو، الأعضاء خافقة من جديد.

بريم كومار يخاطب الكاميرا. "الآن نتقل إلى السؤال التاسع،
مليون روبية. يلتفت إليّ ويقول: "هل أنت جاهز؟" أجيب: "جاهز".

"حسن. هو ذا السؤال التاسع. هذا السؤال عن عالم الرياضة. قل
لي، سيد توماس، أي رياضة تمارس؟"

"لا أمارس أي رياضة".

"لا تمارس أي رياضة؟ إذاً كيف استطعت أن تحصل على هذا الجسم المتناسق، لقد اكتسبتُ ترهلاً كبيراً جداً بالرغم من قيامي بالتمارين الرياضية كل صباح".

"إذاً وجب عليك أن تعمل بصفة نادل وأن تقوم برحلة يومية من مقر إقامتك إلى مقر عملك طولها ثلاثون كيلومتراً ستغدو أنت أيضاً سليم الجسم متناسقة"، أرد عليه.

يضحك الجمهور ضحكات نصف مكبوتة. أما بريم كومار فيعبس.

"حسن، الآن يأتي السؤال التاسع، من عالم الكريكيت، كم عدد مئويات الاختبار التي سجلها ضارب الكرة الهندي الأعظم ساجين مالفانكر؟ خياراتك هي (أ) 34، (ب) 35، (ج) 36، أم (د) 37؟".

تبدأ الموسيقى.

"هل يمكنني أن أطرح سؤالاً؟".

"نعم. مؤكداً".

"هل لعبت الهند مع بلد آخر منذ الدوري الحديث مع أستراليا؟".

"ليس لدي علم".

"إذاً أعرف الجواب إنه (ج). 36".

"هل هذا هو جوابك الأخير؟ تذكر، أن هنالك مليون روبية

تتوقف على إجابتك".

"نعم. إنه (ج). 36".

"هل أنت متيقن تماماً، مائة بالمائة؟".

"أجل".

ثمة تسارع في قرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"صحيح تماماً، مائة بالمائة! ساجين مالفانكر سجل ستاً وثلاثين
مئوية اختبارية. لقد رجحت الآن مليون روية. سيداتي سادتي، سنأخذ
الآن فاصلاً إعلانياً قصيراً".
أقول: "اقطعي!".



10.000.000

ملكة التراجيديا

دراما عائلية مع جرعات من الكوميديا والأكشن، تنتهي أخيراً في تراجيديا. بلغة السينما، هكذا أصف الزمن الذي أمضيته مع نيلما كوماري. كانت ممثلة. وقد عملت ثلاث سنوات في شقتها الواقعة في جوهور فيلي بارلي.

بدأ الأمر كله في تلك الليلة نفسها حين فررت وسالم من براثن مامان وعصابته. أخذنا القطار المحلي وترجلنا في جوهور. مشينا إلى شقة نيلما كوماري، ضغطنا على زر الباب وانتظرنا.

بعد برهة طويلة فُتح الباب. "نعم؟" تقف امرأة قبالتنا. رادهي، الغلام الأعرج، كان صادقاً. هي طويلة القامة وجميلة، تشبه بالضبط بطلة فيلم، إلا أنها أكبر سنّاً. تجاوزت سالم عند قدميها. "معذرة" بسرعة تراجعت إلى الخلف "من أئتما؟ ما الذي تفعلانه هنا في هذه الساعة؟".

"نحن صديقاً رادهي"، أجبت. "أخبرنا أنك تحتاجين إلى خادم. لقد أتينا كي نعرض خدماتنا. نحن نعرف أنك سيدة رحيمة جداً. نحن بحاجة ماسة إلى الطعام والسكن، ونعذك أن نلبس كل ما تطلبينه منا".

"نعم، أنا أحتاج إلى خادم، لكنني لا أستطيع أن أستخدم شخصاً صغير السن جداً".

"مدام، نحن صغيرا السن فقط في المظهر الخارجي. في وسعنا أن نقوم بعمل أربعة رجال. يمكنني أيضاً أن أتكلم الإنكليزية. جربينا".
 "لكنني لا أحتاج إلى خادمين. لدي مكان لخادم واحد فقط".
 سالم وأنا تبادلنا النظرات. أقول لها: "إذاً على الأقل اختاري واحداً منا".

تسأل سالم: "ما اسمك؟".

"سالم".

"أنت مسلم، أليس كذلك؟".

يومي سالم برأسه علامة الإيجاب.

"انظر، أنا متأسفة، لكن أُمي العجوز التي تسكن معي لا تستطيع أن تأكل شيئاً مسه مسلم. أنا لا أوافقها الرأي، لكن ماذا أفعل حيال هذا الأمر؟" تهر كنفها بلا مبالاة. يبدو سالم مكتئباً، مخبئ الأمل.
 بعدها تلتفت إليّ قائلة: "وماذا عنك؟ ما اسمك؟".
 أقول لها: "رام".

هكذا حصلتُ على العمل، وحينذاك فقط اكتشفتُ أن الحياة مع نجمة سينمائية ليست فاتنةً كما تبدو ظاهرياً. حين تشاهدين نجوم السينما من دون مكياج تكتشفين أنهم بالضبط مثلك ومثلي، مع القلق نفسه وعدم الأمان نفسه. الاختلاف الوحيد هو أننا مهتمون بشكل رئيس بالمال، أو بنقص المال، وهم مهتمون بشكل رئيس بالشهرة. أو نقصها.

شقة نيلما كوماري واسعة ومعاصرة، مؤثثة بصورة تنم عن الذوق الرفيع بسجاجيد نفيسة تمتد من الجدار إلى الجدار وبالرسوم. في

الشقة خمس حجرات نوم. حجرة النوم الرئيسة الواسعة ذات الحمام الخاص بها. تعود لنيليم، حجرة النوم التي تأتي بعدها في المساحة تعود لأمها. على حد علمي، لم يكن لنيليم أقارب آخرون.

حجرة نوم نيليم هي أفضل حجرات الشقة. ذات سرير ضخمة في الوسط مغطى بملاءة من المخمل. للجدران رفائق مصنوعة من الزجاج لذا ترين صورتك منعكسة في ألف قطعة متناهية الصغر. ثمة مزينة⁽¹⁾ مليئة بالعطور والقناني. إلى جانب المزينة جهاز تلفاز سوني بخمس وعشرين بوصة، وهناك مسجل فيديو كاسيت، وأخيراً مشغل دي في دي. تتدلى من السقف ثريا باهضة الثمن. ثمة مكيف هواء عديم الصوت يجعل الغرفة معتدلة البرودة بصورة مبهجة. تكسو الجدران رفوف زجاجية، محملة بالميداليات والجوائز بكافة أنواعها. ثمة صندوق زجاجي آخر مملوء بمجلات سينمائية قديمة كلها تحمل على أغلفتها صورة نيليم كوماري. وأنا أتطلع إلى كل هذا، أشعر أنني أتمتع بامتياز كوني أعمل في منزلها. في زمنها، لا بد أنها كانت أشهر ممثلات الهند.

أم نيليم امرأة مزعجة حقاً. مع أن عمرها يناهز الثمانين، كانت تملك طاقة امرأة في الأربعين وهي دوماً ورائي. أنا الخادم الوحيد في المنزل الذي يعمل طيلة ساعات اليوم. ثمة سيدة مهارشترية⁽²⁾ برهمية⁽³⁾ تأتي لتطهو الطعام مساءً وتغسل الأطباق، وثمة خادمة تعمل جزءاً من ساعات النهار تقوم بغسل الملابس. أما أنا فأقوم بالأشياء

(1) مزينة dresser: منضدة خفيفة ذات أدراج ومراة؛ يجلس إليها المرء حين يتخذ زينته - م.

(2) مهارشترية maharshtria: نسبة إلى ولاية مهاراشترا الواقعة في الساحل الشمالي الغربي للهند.

(3) برهمية brahmin: أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس - م.

الأخرى. أقوم بنفض الغبار والتنظيف. أكوي الملابس، وأعد شاي المساء. أقوم بمهمات خارج المنزل، وأشتري الحليب. لكن أم نيليم لم تكن مقتنعة، حتى لو كنتُ أحاطبها بصورة تنم عن احترام كبير مثل ما جني. تقول لي: "رام، لم تجلب حليبي. رام، لم تكوي ملاءة سريري... رام، لم تنفض الغبار من هذه الحجرة بصورة مناسبة... رام أنتَ مجدداً تبدد الوقت... رام لم تسخن الشاي خاصتي". في بعض الأحيان أغدو غاضباً جداً من انتقاداتها المتكلفة والمستمرة باحثة عن أخطائي الصغيرة، بحيث تراودني الرغبة في أن أشد شريطاً على فمها. نيليم، مع أنها مراوغة في بعض الأحيان، لم تكن كثيرة المطالب. كانت تريد مني أن أكون خادماً مقيماً في منزلها. ثمة العديد من حجرات النوم الخالية في الشقة يمكنني أن أمكث فيها، إلا أن أهمها ترفض أن تسمح لذكر بالإقامة في المنزل. لذا فقد أبعدتني إلى مبنى سكني في جاتكوبار؛ ومن هناك أقوم برحلة يومية إلى شقتها. تدفع بدل إيجار غرفتي في المبنى السكني. إنها تناسني بشكل من الأشكال، لأن في وسع سالم أن يمكث معي في الغرفة ذاتها.

أخرج للتسوق مع نيليم. هي لا تملك سيارة، لذا نأخذ سيارة أجرة. لا أتمتع في الخروج معها. هي لا تشتري سوى مواد التجميل أو الثياب، ويجب عليّ أن أحمل أكياسها الثقيلة. هي لا تذهب أبداً إلى مطعم ماكدونالد. وهي لا تشتري لي أي شيء؛ لم يحدث أبداً أن اشتريت لي أي شيء.

اليوم، نحن في مخزن غلالٍ جداً يبيع ألبسة الساري. ننظر إلى مئات منها على مدى أكثر من ساعتين، بعدها تشتري ثلاثة بخمسين ألف روبية، وهو يساوي تقريباً راتبني طوال سنتين. فيما نخرج من حجرة

العرض مكيفة الهواء، تقترب منها مجموعة من الفتيات يرتدين الزي المدرسي. يُبدين فرحات جداً.

"معدرة، هل أنت نيليم كوماري، الممثلة؟" تسألها إحداهن.
"نعم"، تقول نيليم، تبدو في منتهى السعادة.

تصرخ الفتاة قائلةً لرفيقاتها: "أرأيتن. قلت لكن إنها نيليم". ثم تلتفت إلينا. "نيليم، نحن معجبات جداً بك. إن رؤيتك أشبه بحلم يتحقق. نحن لا نحمل دفاتر توافيق، إنما هلا تفضلت ووقعت على دفاتر التمارين خاصتنا".

"بالطبع، بكل سرور" تقول نيليم، وتأخذ قلم حبر من حقيبتها اليدوية. واحدة إثر الأخرى تقدم الطالبات دفاتر التمارين خاصتهن، مهتزات طرباً. تسأل نيليم كل واحدة منهن عن اسمها ومن ثم تسجل بخط يدها الممتد من دون اتساق، إلى ريتو مع حبي، نيليم، إلى أندو مع حبي، نيليم، إلى مالتي مع حبي، نيليم، إلى روشني مع حبي، نيليم. الفتيات يقرأن الإهداءات إليهن ويصرخن مبتهجات.
تتورد نيليم من جراء هذا التملق كله. هذه أول مرة شاهدتُ فيها شخصاً يعرف إليها، وأعجب لمدى التأثير الذي أحدثه فيها. فجأةً تستطلع إليّ بقلق، وأنا أنضح عرقاً من جراء حرارة الجو، وكوبي أحمل أكياس التبضع الثقيلة. "رام، لا بد أنك الآن تشعر بجوع شديد. تعال، لنتناول الآيس كريم"، تقول. أصرخ مبتهجاً.

بين الحين والحين، تعلمني نيليم ما يتعلق بفن صناعة السينما. تخبرني عن مختلف التقنيين العاملين في صناعة الفيلم. "يعتقد الناس أن الفيلم السينمائي يصنعه فقط الممثلون والمخرج. إنهم لا يعرفون شيئاً عن آلاف الناس الذين يعملون في الكواليس، الذين من دون

جهودهم لن يُصنع الفيلم. بعد أن يؤدي هؤلاء التقنيون عملهم حينذاك فقط يفرق المخرج بأصابعه ويقول للممثلين، الأضواء، الكاميرا، أكشن!" تروي لي عن الأجهزة ومستلزمات الإخراج السينمائي، والإنارة، والمكياج، ورجال الأعمال، والغلمان الذين يسلطون الأضواء.

بعدها تعلمني ما يتعلق بأنواع الأفلام. "أكره الأفلام التي يصنعونها في أيامنا هذه، يحاولون فيها أن يحشدوا كل شيء؛ التراجيديا، والكوميديا، والأكشن، والميلودراما. كلا. الفيلم الجيد ينبغي أن يحترم نوعه. دأبتُ على أن أختار أفلامي بعناية، لن تلمحني أبداً وأنا أغني وأرقص في مشهد ما وأموت بعد مشهدين. كلا، رام. على الشخصية السينمائية أن تكون متناغمة مع نفسها. بالضبط كالرسام العظيم يتميز بأسلوب توقيعه الفريد، الممثل يُعرف بكفاءاته الفريدة. بنوع خاص به. الفنان العظيم ليس ذاك الذي ينطبق حصراً على نوع ما، إنما هو الذي يحدد النوع. هل رأيتَ العرض المكتوب في صحيفة تايمز أوف إنديا عن الفيلم الجديد **علاقات القلب**؟ ذكر كاتب العرض أن بوجا، الممثلة، عملت تشوشاً كاملاً في مشهد الوفاة. كم تمنيتُ أن تكون نيلما كوماري في هذا الفيلم كي تكون منصفةً مع الشخصية. ينبغي على الممثلات الشابات في يومنا هذا أن يتعلمن حرفتهن من عمالقة على غرارها. في الحقيقة، أثلج صدري أن أقرأ هذا. أن يقدموك بوصفك نموذجاً، بوصفك مثلاً لجنس إبداعي، هو أقصى إطراء يمكن أن يتلقاه الممثل. لقد أطرت هذا العرض".

"ما هو إذاً أسلوبك الفريد؟".

تبتسم. "أعرف أنك صغير السن جداً كي تعرف أن نيلما كوماري تُسمى ملكة التراجيديا في الهند. تعال، دعني أريك شيئاً ما".

تأخذني إلى حجرة نومها، وتفتح خزانة معدنية. عيناى تكادان
تجحطان لأن الخزانة تغص بكاسيتات فيديوية. "هل تعرف أن هذه
الكاسيتات كلها هي لأفلام سينمائية لعبتُ فيها دوراً ما؟".
"صحيح؟ إذاً كم عدد الكاسيتات هنا؟".

"مائة وأربعة عشر. هذا هو عدد الأفلام التي عملتُ فيها طيلة
عشرين سنة. تشير إلى الصف الأول قائلة: "هذه الكاسيتات تمثل
أفلامي الأولى. معظمها أعمال كوميدية رخيصة حافلة بالخشونة أو
العنف. أنا متيقنة من أنك تعرف ما هي الأفلام الكوميدية،
صحيح؟".

أومئ برأسي بقوة. "أجل، على غرار الأفلام التي يمثل فيها
غوفيندا".

تشير نيلما إلى الصفين التاليين. "هذه الأفلام من حقبي المتوسطة.
أغلبها أعمال درامية عائلية. لكنني أيضاً أنجزتُ الفيلم المثير ذائع الصيت
سمي القاتل وفيلم الرعب الكلاسيكي بعد ثلاثين عاماً".

في الختام أشارت إلى الصفوف الأربعة المتبقية. "وهذه كلها
تراجيديات. هل ترى مئات الجوائز والميداليات التي نلتُها على مدى
هذه السنوات كلها؟ نلتُ معظمها عن أفلام سينمائية في هذا الحقل.
فيلمي المفضل هو هذا". تربت على كاسيت ما. أقرأ الرقعة الملصقة
عليه. تشير إلى ممتاز محل. "هذا هو الفيلم الذي لعبتُ فيه دور عمر
كامل، إنه دور زوجة الإمبراطور شاه جهان المدعوة ممتاز محل. حتى
إنني تسلمتُ الجائزة القومية عن أدائي. أترى تلك الميدالية التي في
الوسط؟ لقد تسلمتها من يديّ رئيس جمهورية الهند".

"إذاً، مدام، هل كان ذلك أعظم دور لكِ مثله خلال مسيرتكِ
كلها؟".

تسند. "إنه دور جيد، ما من ريب، ذو مجهود عاطفي كبير، يومذاك كنتُ أشعر أنه آن الأوان كي ألعب أعظم دور في حياتي كلها".

* * *

أم نيليم لم تعد على ما يرام. إنها تسعل وتئن كثيراً. انتقاداتها من دون أسباب موجبة أصبحت لا تطاق. إنها تتشكى دوماً في ما يتعلق بحالتها الصحية ولم تكن تستثني حتى نيليم، مذكرةً إياها باستمرار بواجبها نحو الإنسانية التي أتت بها إلى هذا العالم. في اعتقادي أن نيليم تبدأ بالشعور بالغضب نوعاً ما. ناهيك عن مهماتي الأخرى، يجب عليّ الآن أن أمضي نصف يوم أشترى الأدوية لمآجي، وبعدها أضمن أنها تأخذ الأقراص، والكبسولات، والفطرات في أوقاتها المحددة.

ثمّة هرج ومرج في الشقة. دووردارشان، القناة التلفازية القومية، ستعرض فيلماً سينمائياً لنيليم يحمل عنوان **الزوجة الأخيرة** هذا المساء. إنها واحدة من تراجيدياتها ذائعة الصيت وتريد منا جميعاً أن نشاهده معها في حجرة الاستقبال. تعال الساعة الثامنة مساءً، سنجتمع كلنا أمام التلفاز. الطاهية، والخادمة وأنا نجلس على السجادة ومآجي تستلقي على الكنب إلى جانب نيليم. يبدأ الفيلم. إنه يتعلق بأسرة فقيرة من الطبقة الوسطى تتغلب على كم كبير من المشاكل، هنالك كثير من البكاء والعويل في الفيلم، وكثير من الأنين في الخلفية صادر عن مآجي. يُظهر لنا الفيلم الحياة بصورة واقعية جداً. في اعتقادي أنه شيء مثير للسخرية أن نقوم بإنتاج أفلام كهذه. ما هي الغاية من مشاهدة فيلم إذا كنت قادرةً على رؤية الشيء الواقعي في منزل جارك في الناحية الثانية من الشارع؟ نيليم، مع ذلك، تبدو نضرة جداً وجميلة في الفيلم

وتمثل حقيقةً تمثيلاً جيداً. إنه إحساس غريب أن تشاهدي فيلماً ما وتكون بطلته جالسة خلفك. أسألك نفسي ما هو إحساسها حين ترى نفسها على شاشة التلفاز. هل تتذكر أولئك الغلمان الذين يسلطون عليها الأضواء الذين عملوا خلف الكواليس؟

تموت نيلما في الفيلم بعد أن تلقي كلمةً مشحونةً عاطفياً، ينتهي الفيلم حالما تموت هي. نقف كي نمط سيقاننا، ثم ألاحظ أن نيلما تبكي. أسألك بقلق: "مدام، ما الخطب؟ لماذا تبكين؟".

"لا شيء. رام. إنني فقط شعرتُ بإحساس قرابة مع شخصيتي على الشاشة. انظر، إنني أبتسم الآن".

"كيف تستطيعون أنتم الممثلون أن تضحكوا في دقيقة وتبكون في الدقيقة التي تليها؟".

هذه هي السمة المميزة للممثل العظيم؟ هل تعرف لماذا يسموني ملكة التراجيديا؟

"لماذا، سيدتي؟".

"لأنني لم أستخدم الغليسرين أبداً كي أبكي في فيلم من أفلامي. يمكنني أن أستدعي دموعي إلى عيني ساعةً أشاء".

"ما هو الشيء العظيم جداً في ذلك؟ أنا أيضاً لا أحتاج إلى الغليسرين كي آتي بالدموع إلى عيني" أقول للخادمة حين تكون نيلما خارج مرمى السمع.

كلما أتعرف أكثر على نيلما، أبداً بفهم لماذا سُميت ملكة التراجيديا. يغلفها جوهر من السوداوية. حتى في ابتسامتها أكتشف ذرةً من الحزن. أسألك نفسي عن حياتها الماضية، لماذا لم تتزوج. يبدو أنه ليس لديها أصدقاء حقيقيون. لكنها تخرج من المنزل من حين إلى

آخر وتعود في وقت متأخر من المساء. أسائل نفسي من هذا الذي تلتقي به، أشك هل هو صديق أم عشيق؟ لأنها حين تعود لا تبدو مشعة، حين تعود تبدو منهكة وكئيبة وتذهب مباشرة إلى حجرة نومها. هذا لغز أحب أن أفك مغالقه.

أسأل نفسي كذلك حول هاجسها في ما يتعلق بالجمال، الجمال الجسدي، هي جميلة المنظر، مع ذلك تمضي ساعات طويلة في استعمال مستحضرات التجميل وهندمة نفسها أمام المرآة. مزيتها مليئة بالكريمات. أحاول أن أقرأ الرقع المكتوبة عليها ذات يوم، ثمة كريمات مضادة للتجاعيد، وكريمات مضادة للتشمع⁽¹⁾، وغسول مضادة للشيخوخة، هناك معززات للتألق العميق، وكريمات مرطبة مضادة للترهل، وكريمات ليلية تمنح حياة جديدة للبشرة، وأنواع عديدة لشدة البشرة. حجرة حمامها مليئة بأنواع الصابون ذي الروائح الغريبة ومواد منظفة للبشرة وأقنعة وجه من المفروض أن تجعلك تبدين غضة. خزانة الأدوية خاصتها تحوي أدوية كثيرة لها وكذلك لماجي. هنالك هرمونات نمو بشرية، وكريمات لشدة النهدين، وميلاتونين⁽²⁾ ومواد مقاومة للتأكسد.

في النهاية أقول لها ذات يوم: "مدام، لماذا تحتاجين إلى كل مستحضرات التجميل هذه؟ أنت لم تعودي تمثلين الآن". تنظر مباشرة في عيني. "نحن القوم العاملون في السينما نصبح مزهوين جداً. نعتاد جداً على رؤية أنفسنا بمستحضرات التجميل بحيث

(1) كريمات مضادة للتشمع anti cellulite creams: المقصود بالتشمع هو كتل

شحمية تتكون تحت الجلد عند النساء اللواتي يبلغن مرحلة الشيخوخة - م.

(2) ميلاتونين melatonin: هرمون موجود في الطبيعة، لدى الحيوانات وبعض

الكائنات الحية، بما في ذلك الطحالب - م.

إننا لم نعد نملك الجرأة على النظر في المرأة كي نرى وجوهنا الحقيقية. تذكر، الممثل هو ممثل طيلة الحياة. الأفلام قد تنتهي، لكن التباهي يجب أن يستمر".

أسأل نفسي ما إذا قالت هذا من صميم قلبها، أم أنها تلت فقط بعض السطور من فيلم ما.

حدث اليوم شيء مذهش حقاً، توفيت مآجي خلال نومها. بكت نيلوما قليلاً، ثم انهمكت بإنجاز ترتيبات الجنازة. بدا كأن كل العاملين في صناعة السينما قد أتوا إلى شقتها لتقديم واجب العزاء. جلست بهدوء على كنية في حجرة الاستقبال، مرتديةً ساريًا أبيض، وواضعةً طبقةً خفيفةً من مستحضرات التجميل على وجهها. ميزت أناساً كثيرين ممن جاؤوا لمواساتها. أتى ممثلون وممثلات، ومخرجون، ومنسجون، ومغنون ومغنيات، وكتاب أغان. فاضت ردهة الاستقبال بالزائرين. لمحت بنظرة خاطفة إلى حجرة الاستقبال نجوم السينما المشهورين الذين شاهدتُ صورهم في مجلة ستار بيرست - انفجار نجم والذين رأيت أفلامهم على الشاشة. تمنيت لو أن سالمًا كان معي هنا، إلا أنه كان ليصاب بخيبة أمل، لأن الزائرين لا يبدو كالنجوم الذين نراهم على الشاشة. إنهم لا يضعون مستحضرات التجميل على وجوههم ولا يرتدون الثياب المبهجة. جميعهم يرتدون ثياباً بيضاء نظيفة، ويبدون متجهمين وكئيبين. حتى أولئك الذين اشتهروا بالأدوار الكوميديّة.

لا أعرف كيف كان وقع وفاة مآجي على نيلوما. إنما بالنسبة إليّ رحيل مآجي عن هذا العالم يبدو أشبه بإحساس مرحب به، بالراحة بعد فيلم سينمائي يوقع الكتابة في النفس.

في غضون شهر على وفاة مآجي، تطلب مني نيليم أن أصبح خادماً مقيماً في شقتها. كانت تعرف أن سالماً يمكث معي في المبنى السكني، لذا استمرت في تسديد بدلات إيجار حجرة سالم. انتقلتُ للسكن في شقتها. لكنني لم أمكث في أي من حجرات النوم الخالية الأربع بل أعطيت إليّ حجرة الكوي الصغيرة جداً.

لاحظت أنه بعد وفاة مآجي، بدأت نيليم بالذهاب خارج المنزل مرات أكثر، وفي بعض الأحيان لم تكن تبالي حتى بالعودة ليلاً. أنا مقتنع أنها تواعد شخصاً ما. أغلب الظن سيكون هنالك زواج في وقت قريب جداً.

أستيقظ على جلبة آتية من ناحية حجرة الاستقبال، الصوت خفيف تماماً، إنما كاف كي يقلق نومي، أدعك عينيّ، وأنظر إلى الساعة المنبهة إلى جانبي. إنها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. أسأل نفسي هل تتسكع نيليم في الشقة في هذه الساعة، فجأة أدرك أن عشيقها ربما أقبل لزيارتها، واستبدت بي إثارة قوية. أسير على رؤوس أصابعي خارج حجرتي، وأتحرك صوب حجرة الاستقبال.

الحجرة غارقة في الظلام لكن ثمة رجل هناك، لا يبدو شبيهاً بعاشق، إنه يضع قناعاً أسود على رأسه مع شقين على عينيه فقط، يحمل بيده اليسرى كيساً أسود، ويده اليمنى مصباحاً كهربائياً يوجه ضوءه إلى مسجل الفيديو كاسيت، بسرعة يفصل الأسلاك ويلتقط الجهاز، ويدخله في كيسه الأسود. أعرف الآن أنه ليس عاشقاً، إنه لص. أصرخ، إنها صرخة حادة تهشم سكون الليل كعيار ناري، توقف نيليم كوماري، التي تأتي راكضةً إلى حجرة الاستقبال. صرختي تقلق اللص كلياً، فيسقط الكيس والمصباح الكهربائي، ويغطي أذنيه يديه.

في غضون ذلك يتحطم التمثال الزجاجي الصغير الذي كان موضوعاً على سطح خزانة التلفاز.

"ما الخطب؟" تسأل نيلما لاهئة، تشعل ضوء حجرة الاستقبال، بعدها ترى اللص، وتطلق صرخةً هي الأخرى، أصبح اللص أخرس الآن. يتهاوى على ركبتيه، ويبدأ بالتوسل إلينا: "أرجوك، مدام، لستُ لصاً، أتيتُ فقط كي أنظر إلى منزلك".

"رام، آتني بالهاتف سأتصل بالشرطة حالاً"، تقول لي نيلما. أجلب لها الجهاز النقال.

ينتزع اللص قناعه، إنه رجل أقرب ما يكون إلى الحدث ذو الحية صغيرة مشدبة. "أرجوك، مدام، أرجوك لا تستدعي الشرطة، أتوسل إليك، لستُ لصاً، أنا طالب في السنة الأخيرة في كلية سانت زافير، أنا أحد المعجبين بك إعجاباً عظيماً. أتيتُ إلى منزلك لمجرد أن أرى كيف تعيشين".

ألاحظ أن نيلما تلين بشكل جلي لدى سماعها كلمات المعجب. أحذرهما قائلاً: لا تصغي إليه، مدام، هذا الشخص لص، إذا كان معجباً، لماذا سرق الجهاز؟".

"سأقول لك لماذا، نيلما. لقد اشتريتُ أشرطة كل الأفلام التي مثلت فيها، المائة وأربعة عشر فيلماً. أشاهد على الأقل واحداً من أفلامك يومياً، لقد تعطل جهازي، إنني أقوم بتصليحه. لكنني لا أستطيع أن أتحمل أن يمر يوم من حياتي من دون مشاهدة أحد أفلامك. لذا فكرتُ في أن آخذ واحداً من أجهزة الفيديو كاسيت خاصتك. إن مجرد حقيقة أنني أشاهد فيلماً سيجعل التجربة جديدة جداً أن تذكر. سأعيد لك الجهاز حين أنهي تصليح جهازي. أرجوك صدقيني، مدام، أقسم بوالدي المتوفي، إنني لا أكذب".

أصرخ: "هذا كله كذب، مدام، خير لك أن تستدعي الشرطة".

تقول نيلیما: "لا، رام. دعني أولاً أختبر إن كان هذا الرجل يقول الحقيقة. إذا كان قد شاهد المائة وأربعة عشر فيلماً في وسعه أن يجيب عن أسئلة قليلة. حسن، سيد، قل لي في أي فيلم لعبت دور فتاة قرية تحمل اسم جاندي؟".

"كيف يمكنني أن أنسى ذلك نيلیما؟ إنه أحد أفلامي المفضلة، إنه عودة إلى القرية صحيح؟".

"صحيح. إنما هذا السؤال سهل جداً. قل لي، عن أي فيلم نلت جائزة السينما الهندية⁽¹⁾ عام 1982؟".

"هذا السؤال حتى أسهل من سابقه. عن فيلم الليلة الظلماء، بالتأكيد".

"أنت على صواب. حسن، قل لي في أي فيلم مثلت مع مانوج كومار؟".

"إنه ذلك الفيلم الوطني الأمة تدعو".

"لقد شاهدت حتى ذلك؟".

"قلتُ لك، نيلیما، إنني أكبر معجبك الأحياء. أخبريني، لماذا وافقت على أداء ذلك الدور التافه في حب أبدي؟ كنتُ أعتقد دوماً أن المخرج قلل من أهميتك".

"إنه لشيء مذهل أن تسألني عن حب أبدي. أنا كذلك أشعر أنه ما كان يجب عليّ أن أؤدي ذلك الدور. كل الفضل في نجاح الفيلم ذهب إلى شارميلا، أما أنا فنلتُ صفقة غير منصفة".

(1) جائزة السينما الهندية Film fare Award: هي الجائزة المساوية للأوسكار على نطاق السينما الهندية - م.

"يبدو أنك كنت رائعة في إنها تمطر على بومباي. أعتقد أن المونولوج الذي قدمته في المعبد بعد وفاة والدك هو أبرز المشاهد في الفيلم كله. في الحقيقة، كان يجب أن تحصل على جائزة السينما الهندية عنه، لكنهم بدلاً من ذلك منحوك الجائزة عن فيلم امرأة".

"أجل. لو خيروني بين امرأة وإنها تمطر على بومباي، فربما أنا أيضاً أختار الأخير. ينبغي لي أن أقول، إن لديك معلومات حجة عن أفلامي. ما اسمك؟".

"اسمي رانجيت ميستري، عمري أربعة وعشرون عاماً. كنت أرغب دوماً في أن أسألك عن ممتاز محل، الذي أعده أعظم فيلم حتى الآن، مشهد ولادة الطفل، حين كنت تعانين سكرات الموت ودليب صاحب، الذي يلعب دور الإمبراطور، يجلس إلى جانب سريرك، تطلبين منه أن يقطع لك وعداً، وبعدها تنزعين سوارك الذهبي - لكنك لم تعطه إليه - لماذا فعلت ذلك؟".

"هذا شيء مذهش. لقد تغلغلت إلى أدق تفاصيل ذلك الفيلم، سأخبرك بالجاب، إنما لماذا تجلس على الأرض؟ تعال اجلس هنا على الكنب. رام، ما الذي فعله واقفاً والجهاز النقال بيدك؟ ألا ترى أن لدينا ضيفاً في المنزل؟ اذهب، واجلب لنا كوبين من الشاي وبعض البسكويت. إذاً كما كنت أروي لك، حين يتم فهم ممتاز محل...".

في الوقت الذي عدت فيه مع كوبي الشاي، كان اللص ونيليما يقهقهان ويتبادلان النكات كصديقين افتراقاً زمناً طويلاً وها هي المصادفة تجمعهما من جديد. أهز رأسي غير مصدق، هذا الرجل جاء كي ينهبها ولجحد أنه شاهد عدداً قليلاً من أفلامها تطعمه البسكويت مع الشاي.

ما بدأ بوصفه شيئاً مثيراً تحوّل إلى دراما عائلية.

تستدعيني ذات مساء. "رام، أريد منك أن تنتقل إلى المبنى السكني غداً، مدة يوم واحد فقط، أحتاج إلى عزلة في المنزل".
"لكن لماذا، مدام؟".

"لا تطرح الأسئلة"، تقول بصوت مغضب. "فقط افعل ما أقول لك".
هذه التعليمات أعطيت لي ثلاث مرات في الشهور الثلاثة التالية.
أعرف أنني حين أكون خارج المنزل ستستقبل عشيقها في المنزل، ولا تريد مني أن أعرف ما يتعلق بهذا الأمر. إذاً في المرة التالية تقول لي فيها أن أمكث في جاتكوبار، وأعود في اليوم التالي، لا أنفذ تعليماتها بالكامل. أرجع إلى جاتكوبار لتمضية الليلة هناك، بدلاً من أن أرجع عند السابعة صباح اليوم التالي، أرجع عند الخامسة، وأتسكع خارج الشقة. عند السادسة صباحاً يفتح الباب ويخرج رجل طويل القامة، حسن الوجه، إنما عيناه المحتقتان بالدم وشعره القبيح يفسدان مظهره الخارجي، يرتدي سروالاً من الجينز الأزرق وقميصاً بيضاء اللون. يحمل رزمة من الأوراق المالية ويده اليسرى سيجارة مشتعلة، يستقل سيارته، يبدو مألوفاً بصورة مبهمة، لكنني لا أستطيع أن أصنفه. هو حتى لم ينظر إليّ قبل أن يهبط درجات السلم المؤدي إلى الطبقة الأرضية. لا أدخل المنزل إلا عند السابعة.

أتلقي أول صدمة حين أشاهد حال حجرة الاستقبال؛ هنالك أعقاب سجائر وبقايا من الرماد في كل مكان، وكأس مقلوبة ترقد وسط الطاولة، جنباً إلى جنب مع زجاجة شراب اسكتلندي فارغة، حبات الفول السوداني منتشرة على السجادة، ثمّة رائحة شراب قوية في الحجرة.

الصدمة الثانية هي رؤيتي لنيلما كوماري، كانت لديها كدمات في كل أنحاء وجهها، وكانت عينها سوداء. أصرخ قائلاً: "مدام، ماذا جرى لك؟".

"لا شيء، رام. انقلبت من سريري وآذيت نفسي. ما من شيء يدعو إلى القلق".

أعرف أنها تكذب، ذلك الرجل الذي شاهدته يغادر الشقة هو الذي فعل هذا بها، ومقابل ذلك أعطته السجائر، والشراب الاسكتلندي، والمال أيضاً. شعرتُ بالألم يعصر فؤادي، وأحسستُ أيضاً بالغضب، وألا حول لي ولا قوة على حمايتها.

منذ ذلك اليوم فصاعداً يحصل لنيلما تغير دقيق. تصبح أكثر انطواءً وعزلةً. أعتقد أنها تبدأ باحتساء الشراب الاسكتلندي، لأنني في كثير من الأحيان أشم رائحته في أنفاسها.

ذات صباح أجدها مجدداً بعين سوداء، وحرقت سيجارة على ذراعها. لم أعد أطيق المسألة، أسألها: "مدام، أشعر بحزن كبير لدى رؤيتك على هذه الحالة، من الذي يفعل هذا بك؟".

كان في وسعها أن تقول: "لا شأن لك بذلك"، غير أنها كانت في مزاج تأملني ذلك الصباح. "أنت تعرف، رام، قال أحدهم إنه من الأفضل أن تحب وتضيع من ألا تحب على الإطلاق. أسأل نفسي غالباً ما إذا كان هذا القول صحيحاً. أنا أيضاً أحببتُ. حتى الآن لا أعرف ما إذا كنت سأضيع غرامي، لكنني تلقيتُ كما كبيراً من الألم والمعاناة. ثمّة رجل في حياتي. تارةً أعتقد أنه مغرم بي، وطوراً يخطر ببالي أنه يكرهني. إنه يعذبني ببطء، شيئاً فشيئاً".

أهتف قائلاً: "إذاً لماذا لا تهجرينه؟".

"ليس الأمر بهذه السهولة، هنالك شيء من السعادة حتى في الألم، نشوة حلوة. حين يعذبني بأعقاب السجائر لا أريد أن أصرخ، أريد أن أتلو تلك السطور العvisية على النسيان من فيلمي امرأة. مشهد الموت.

أوه أيتها الحياة، كم أنت متقلبة. الموت هو عشيقتي الحقيقي، رفيقي الدائم. تعال، أيها الموت، خذني بين ذراعيك، اهمس بالصوت العذب للصمت في أذني، وادفعني بعيداً عبر الهواء إلى دنيا الحب السرمدى".
أناشدها قائلاً: "لكن ذلك مجرد فيلم، مدام".

"اصمت! هل نسيت أنني قلت لك ذات مرة، إن الممثل هو ممثل طيلة حياته؟ لا تنس أنني سأسمى إلى الأبد ملكة التراجيديا وأنني لم أصبح ملكة التراجيديا لمجرد أنني تلوت السطور التي تلقيتها من كاتب السيناريو، عشت حياة شخصياتي، لم يصبح غالب⁽¹⁾ شاعراً تراجيدياً عظيماً لمجرد أنه كتب بعض الأبيات في كتاب ما. لا. ينبغي لك أن تحس بالألم، تجربته، تعيشه في حياتك اليومية قبل أن تصبح ملكة للتراجيديا".

"إذا هذه هي الميزة، إذاً هل أستطيع أن أصبح ملكاً للتراجيديا؟"
أسأله ببراءة ساذجة لغلام في الثانية عشرة.
لا تجيب عن سؤاله.

تجاوز صحافية من مجلة ستاربيرست نيلما في حجرة الطعام.
أدخل مع صينية من حلوى غولاب جمون وسمبوسات.
"حسن، نيلما، لقد تكلمنا عن الماضي، الآن دعينا نأتي إلى الحاضر. لماذا هجرت السينما؟" أراقب عن كثب فيما تعبت الصحافية بمسجل شريطي. هي صغيرة السن تماماً وذات مظهر مدهش نوعاً ما، ذات بشرة صافية وشعر أسود طويل يصل حتى كتفها. ترتدي سروالاً

(1) غالب Ghalib 1797-1869: ولد في أغرا وتوفي في دلهي يعتبر أعظم شاعر بالأوردية ومن كبار الشعراء العالميين كتب بالفارسية ثم بالأوردية وألف ديواناً صغيراً هو درة في الشعر الأوردي - م.

أسود أنيقاً مع قميص طويلة مُطَبَّعة وتنتعل حذاءً عالي الكعبين من دون شريط.

"لأنهم لم يعودوا يصنعون الأفلام كما اعتادوا. الهيام، الوعد، كلاهما راحا. ممثلو اليوم ليسوا سوى منتجات نظام التجميع⁽¹⁾، كل واحد منهم يشبه الآخر تماماً، يرددون سطورهم كالبعغاوات، وليس ثمة عمق، كنا ننجز فيلماً واحداً في وقت ما. الآن أجد ممثلين يهرعون إلى ثلاث مواقع تمثيل في يوم واحد. إنه لشيء مثير للسخرية". تومئ نيلما بيديها.

"حسن، معذرةً لما أقول، لكنني سمعتُ أن أحد أسباب اعتزالك السينما هو أنهم لا يسندون إليك أي دور من الأدوار".

يتوهج الغضب على وجهها. "من الذي قال لك ذلك؟ إنه محض كذب. أعطوني أدواراً عدة، لكنني رفضتها. لم تكن قوية بصورة كافية. الأفلام لم تكن مكيفةً على وفق بطة".

"ما تقصدينه هو أنهم لم يعودوا يسندون إليك أدوار بطة، بل أدوار الأخت أو العمة الأكبر سناً".

"كيف تجسرين على أن تنتقصي مني ومن عملي؟ ينبغي لي أن أقول إنه حتى صحافيي اليوم فقدوا سلوكهم الحسن. ألا ترين الجوائز والميداليات تكسو الرفوف؟ أتعتقدين أنني نلتُ هذه من دون تمثيل؟ هل تحسبين أنني حصلتُ على لقب ملكة التراجيديا من خلال إنشادي الأغاني حول الأشجار كبطلات يومنا هذا التافهات، يُبدن وكأنحن ممثلات مستأجرات مبجلات؟".

(1) نظام التجميع assembly line: تجميع الماكينات والأدوات والعمال بحيث ينجز كل عامل عملية خاصة على سلعة ناقصة. وهكذا إلى أن يتم صنع السلعة على الوجه المطلوب - م.

"لكننا. لكننا لا نتكلم عن مسيرتك الماض -".
 "أعرف على وجه الدقة عما تتكلمين. من فضلك غادري حالاً.
 رام، أرشد السيدة إلى طريق الخروج، ولا تفتح لها الباب مجدداً على
 الإطلاق". تهب واقفةً وتخرج من الغرفة بغضب. أرافق الصحافية
 المرتبكة إلى الباب.
 لا أستطيع أن أفهم ما إذا كانت هذه كوميدياً، دراماً، أم
 تراجيدياً.

هنالك صور عديدة مؤطرة في شقة نيلما، إنما كلها تظهرها
 عفردها. نيلما تتسلم جائزة ما، نيلما تقص شريطاً، نيلما تشاهد
 أداءً، نيلما تعطي جائزة. ليس ثمة صور لأي نجم سينمائي آخر، عدا
 صورتين مؤطرتين في حجرة نومها. إنهما صورتان لامرأتين جميلتين،
 الأولى بيضاء، والثانية هندية.

أسألها ذات يوم: "من هما هاتان المرأتان؟".
 "المرأة التي على اليسار هي مارلين مونرو والمرأة التي على اليمين
 هي ماد هوبالاً".

"من هما هاتان؟".
 "مثلتان شهيرتان جداً توفيتا في سن مبكرة".
 "إذاً لماذا تحتفظين بصورتيهما؟".

"لأنني أيضاً أتمنى أن أموت في سن مبكرة. لا أريد أن أموت وأنا
 أبدو هرمةً ومنهكةً. هل شاهدت صورة شاكيلا في عدد هذا الأسبوع
 من مجلة فيلم دايجست؟ كانت نجمةً سينمائيةً ذائعة الصيت في
 الخمسينيات ولا بد أنها في التسعين الآن. انظر كم تبدو هرمةً. هكذا
 بالضبط سيتذكرها الناس بعد وفاتها. هرمةً، وكثيرة التجاعيد، ومنهكةً.

لكن الناس يتذكرون دوماً مارلين مونرو ومادهوبالا شابتين لأنهما توفيتا في سن مبكرة. آخر صورة يروك الناس بها هي صورتك في زمن وفاتك. على غرار مادهوبالا، أود أن أخلف ورائي صور الشباب والجمال، والرشاقة الناصعة. لا أريد أن أموت حين أصبح في التسعين. كم أتمنى أحياناً أن يكون في وسعي إيقاف كل ساعات عالمنا هذا، أهشم المرايا كلها، وأجمد وجهي الغض في الوقت المناسب.

يتسلل إلى داخلي حزن غريب حين أسمع هذه الكلمات. بشكل من الأشكال، نيلينا يتيمة، مثلي. لكنها لا تشبهني، لديها عائلة أكبر، لديها معجبون ومعجبات، منتجون ومخرجون. وهي راغبة في أن تقدم التضحية القصوى من أجلهم. كي يستطيعوا أن يتذكروها أبد الدهر بوصفها امرأة في ربيع العمر. لأول مرة في حياتي، أشعر أنني محظوظ لأنني لست نجماً سينمائياً.

يأتي منتج شهير إلى منزلها. نيلينا مستشارة جداً. يدور في خلدها أنه سيمنحها دوراً وستتمكن من الوقوف أمام الكاميرا من جديد. تمضي النهار كله في وضع مساحيق التجميل على وجهها، وتجرب ثياباً خاصة متنوعة.

يأتي المنتج مساءً. إنه قصير القامة وأصلع، وذو بطن بارز. تطلب مني أن آتي بحلوى غولاب جمون وسمبوسات وعصير فاكهة مثلج. يقول المنتج: "... إنه دور عظيم لك، نيلينا. كنت دوماً أحد معجبيك الكبار. شاهدتُ امرأة خمس عشرة مرة. مشهد الوفاة ذاك، أموت على رؤية ذلك المشهد. لهذا السبب قررتُ أن أجرك من عزلتك، هذا الفيلم، الذي اخترتُ له مخرجاً راقياً جداً، هو فيلم يركز على امرأة. إنني أمنحك دوراً رائعاً".

"من هو المخرج الذي تعاقدت معه؟".

"إنه جمبو دهاوان".

"لكن أليس هو مخرج أفلام كوميدية؟".

"وماذا يعني؟ على كل حال، ستكون هنالك بعض الكوميديا في هذا الفيلم. في ما يتعلق بالأدوار الرئيسة تعاقدتُ مع شاهروخ خان وتابو".

"لا أفهم. لقد تعاقدت مع بطة. هل ستكون لديك بطلتان؟".

"لا أبداً".

"إذاً ما هو الدور الذي تعطيه لي؟".

"ألم تفهمي؟ إنني أعطيك دور أم شاهروخ خان".

تطرده خارج المنزل آنذاك.

يغادر المنتج، والزبد يلوح على فمه.

"كلية، من تعتقد نفسها؟ تظن نفسها لا تزال صالحةً لأدوار البطولة. هل رأت نفسها في المرأة؟ هي محظوظة لأنني لم أعطيها دور الجدة. أوف!".

ظننتُ ساعتئذ أن هذا مشهد كوميدي جيد.

يزورها حبیبها مجدداً. إنما هذه المرة الأشياء أكثر خطورة، هي في الفراش وجرح عميق فوق حاجبها الأيسر وحدها متورم. إنها تعاني من صعوبة في التحدث.

"يجدر بنا أن نستدعي الشرطة، مدام، كي يعتقلوا ذلك الحيوان"، ألح عليها فيما أنا أضع مرهماً معقماً على كدماتها.

"كلا، رام. سأكون على ما يرام".

"على الأقل أخبريني عن اسمه".

تضحك بصوت خشن. "ما نفع ذلك؟ لا تقلق، ذلك الرجل لن يأتي إلى هنا مجدداً. لقد انتهت صليتي به، لهذا السبب فعل بي هذا. إذا حدث وعاد من جديد سأبصق عليه".

"وإلى متى ستبقين تتعذبين بصمت؟ انظري إلى ما فعله بوجهك".
 "إنه قدر المرأة أن تعاني بصمت. وما فعله بوجهي لا شيء مقارنةً بما فعله ببقية أنحاء جسدي. هل تريد حقيقةً أن ترى؟ انظر إذاً". تفتح أزرار بلوزتها، وتفتح حمالة صدرها. أرى ثدين عاريين لامرأة لأول مرة في حياتي. إنهما كبيران ومتدبذبان ويتدليان كضرعي بقرة. أترجع مصدوماً حين أشاهد علامات حرق السيجارة في كل أنحاء صدرها، تبدو أشبه بحفر صغيرة سوداء على اللحم الأبيض الناعم. أشرع بالبكاء.

هي أيضاً تبكي. "لا أبغي العيش بقناع بعد الآن. نلتُ كفايتي من الجراحات اللدائنية للوجه، أخذت كفايتي من مستحضرات التجميل. أريد أن أكون امرأة من دم ولحم مرةً واحدةً في حياتي. تعال إليّ، غلامي"، تقول وتجر وجهي إلى صدرها.

لا أعرف ما الذي كان يخطر ببال نيلما كوماري حين سحبتني إلى صدرها. ما إذا رأيتني ابناً أم عاشقاً، ما إذا فعلت ذلك كي تنسى وجعها أم إنها ببساطة تريد أن تحصل على إثارة رخيصة. لكنني حين مرّغتُ وجهي بين ثدييها، كل وعيي بالعالم الخارجي تلاشى في دماغي ولأول مرة أحسستُ كما لو أنني لم أعد يتيماً. أحسست أن لي أمّاً حقيقيةً، أمّاً أستطيع أن أرى وجهها، أمّاً أستطيع أن ألمس جسدها. واختلط الطعم المالح لدموعي مع عرق جسدها وعبقت في تجربة مؤثرة جداً لكائن بشري في الثالثة عشرة من عمره. كل الألم والعذاب، كل الإهانات والإذلال الذي تحملته على مر السنوات ذاب تماماً في تلك

اللحظة. أردتُ أن أوقف كل ساعات العالم، وأجمّد تلك اللحظة إلى الأبد. مع كونها موجزةً جداً بكل ما للكلمة من معنى، حتى في ذلك المدى القصير من الزمن أنتجت إحساساً أصيلاً جداً، ما من كمية من التمثيل يمكنها أن تطمح بمضاعفته.

لهذا السبب لن أحاول أن أصف هذه الواقعة بكونها دراما أو تمثيلية مؤثرة أو تراجيديا. إنها أبعد ما تكون عنها كلها.

نيلسيما وأنا لم نتكلم مجدداً عن ذلك الصباح، وما جرى يوم ذاك لم يتكرر مجدداً، إنما كلانا يحيا عارفاً بأن حياتنا تغيرتا بصورة نهائية. تبغي هي أن تزيل قناعها، إلا أنها لا تملك الجرأة على فعل ذلك. وترفض أن تقبل مساعدتي. القدر المحتوم للملكة التراجيديا يجرها بإلحاح متجدد. تصير أكثر كآبةً. يزداد شربها إلى درجة أنها لم تعد تعي بالعالم حولها. تصرف خادمتها وطاهيتها، أنا الوحيد الذي بقيتُ في شقتها. وبعدها تنهياً لأعظم دور في حياتها.

تطلب مني نيلسيما أن أصف كل الجملات التي حوت صورها بشكل مرتب. ترتب كل ميدالياتها وجوائزها بنفسها، تضع الميداليات البلاطين في الأمام، تتبعها الميداليات الذهب والميداليات الفضة. ترتدي أعلى سار لديها وتزين بأروع مجوهراتها. تمضي ثلاث ساعات أمام المرآة لتجعل وجهها يبدو بأفضل صورة طيلة حياتها كلها. ثم ترمي كل كريمات التجميل خاصتها في الحمام، وتجعل الماء يتدفق فجأةً عليها. تمضي إلى خزانة الأدوية وترمي كل مستحضرات التجميل خاصتها. تفتح درجاً يحوي مسكنات الألم وُصفت لأُمها. لا أعرف كم ابتلعت من هذه الأقراص.

في الختام، تدخل حجرة نومها وتدخل فيلمها ممتاز محل في جهاز عرض الأفلام. تجلس على الفراش، وتضغط على زر التشغيل في جهاز التحكم عن بعد. يبدأ الفيلم على شاشة التلفاز. تطلب مني أن أشتري الخضار من السوق وتبقى في انتظاري.

أجدها مساء ذلك اليوم لدى عودتي من السوق، تبدو كعروس جميلة جديدة نائمة على السرير. لم يكن عليّ لمس جلدها البارد كي أعرف أنها فارقت الحياة. تحمل بيدها ميدالية. تشير إلى الجائزة القومية لأفضل ممثلة. مُنحت للسيدة نيلما كوماري عن دورها في ممتاز محل 1985".

ما أراه أمامي لا يمكن وصفه إلا باعتباره قمة الدراما.

أنظر إلى جثة نيلما كوماري ولا أدري ماذا أفعل. الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أنني لن أذهب إلى الشرطة. إنهم قادرون تماماً على أن يلقوا اللوم عليّ وأن يعتقلوني لأنني ارتكبت جريمة قتل. لذا أقوم بالشيء المنطقي الوحيد. أهرب إلى المبنى السكني في جاتكوبار. يسألني سالم: "لماذا أتيت إلى هنا؟".

"أنا أيضاً طردتني السيدة، مثلما طردت الخادمة والطاهية".

"ماذا سنفعل الآن؟ من الذي سيدفع بدل إيجار الغرفة في هذا المبنى السكني؟".

"لا تقلق، لقد دفعت مقدماً بدل الإيجار عن الشهرين المقبلين. خالها سأحصل على عمل جديد".

* * *

كل يوم من أيام مكوثي في المبنى السكني يستبد بي الخوف من أن تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض وتأخذني بعيداً، إنما لا

يحدث شيء من هذا القبيل. كذلك ليس ثمة أنباء في الصحف عن وفاة نيلما كوماري. خلال ذلك أجد عملاً لي في سبك المعادن.

يكتشفون جثتها بعد مرور شهر، لجرد أن أحد جيرانها يشتكي من الرائحة النتنة. لذا يكسرون الباب عنوةً ويدخلون. لا يجدون شيئاً في حجرة الاستقبال أو في حجرات النوم الأربع الأولى. ثم يكتشفون جثة متفسخة في حجرة النوم الرئيسة. الساري يبدو جديداً، الجواهرات تتلألأ، لكن الوجه والجسم تفسحا ولم يعد بالإمكان التعرف إليهما. يحملون الجثة واضعين كامات بيضاء على وجوههم فقط ويرمون الميدالية في سلة المهملات. يتأكدون من هويتها فقط من خلال تقارير طب الأسنان الخاصة بها. وحين يكتشفون من هي، ينشرون صورة جثتها المتفسخة على الصفحة الأولى من الجرائد كلها. نيلما كوماري، ملكة التراجيديا، انتحرت. هي في الرابعة والأربعين. لم يكتشف جثمانها المتعفن بصورة سيئة في شقتها إلا بعد مرور شهر. الآن ادعو هذا تراجيديا حقيقية.

تطلق سميتا زفيراً طويلاً. "ما من عجب أن يكون نجوم السينما عصبيين! كما تعرف، لقد شاهدتُ ممتاز محل وأنا أيضاً كنت أرغب دوماً في أن أعرف السر الكامن وراء ذلك السوار الذهبي. إنني أتساءل ماذا قالت نيلما كوماري لذلك اللص".

"لسوء الحظ، سيبقى ذلك سراً. الآن هل سنتكلم فقط عن نيلما كوماري؟ أم ينبغي لي أن أروي لك ماذا جرى لاحقاً في برنامج المسابقات؟".

بتعبير ممانع، تضغط سميتا على زر التشغيل.

ثمة نشاط وهياج في داخل الاستوديو. نحن الآن في وسط فاصل طويل الأمد. مخرج البرنامج، رجل طويل القامة ذو شعر طويل أشبه بشعر امرأة - أو بشعر نجم من نجوم الروك - مشغول بالتشاور مع بريم كومار في إحدى الزوايا. بعد أن يغادر، يومئ إليّ بريم كومار أن أنضم إليه. يقول لي بريم كومار: "انظر، سيد توماس، لقد نجحت نجاحاً رائعاً في ما يتعلق بالبرنامج. أنت تجلس مرتاحاً وفي جعبتك مليون روبية. قل لي، ماذا تنوي أن تفعل الآن؟".

"ماذا تعني؟".

"أعني هل ستسحب أم أنك ستلعب من أجل جائزة البليون روبية؟ تذكر الآن أنت في مرحلة تلعب أو تخسر".

"حسن، إذاً. سأسحب. كنتُ محظوظاً حتى الآن، إنما من المحتمل أن يغادرنى الحظ".

"الآن إنه لشيء يدعو إلى الأسف حقيقةً، سيد توماس. نحن نعتقد أنك إذا واصلت كي تكسب هذه المسابقات يمكنك أن تصبح أعظم قدوة للشباب في بلادنا. لذا نحن في W3B قررنا أن نسهل الأمور لك كي تربح. أتذكر كيف ساعدتك في ما يتعلق بالسؤال الثاني؟ لو لم أغيّر السؤال لك وقتذاك، لكنت في الخارج من دون روبية واحدة في جيبك. أريد أن أفعل الشيء ذاته في ما يتعلق بالأسئلة الثلاثة المقبلة. أعدك، إذا وافقت على دخول مرحلة تلعب أو تخسر سنساعدك كي تربح، لأننا نريدك أن تربح. سيكون أفضل شيء يحدث في برنامجنا في أي وقت مضى".

"أي نوع من الأسئلة تدور في بالك؟".

"إنه حقيقة شيء لا يهم، لأننا سنخبرك سراً بالأجوبة سلفاً. إذا كان في وسعك أن تثق بي في ما يتعلق بالسؤال الثاني، فأنا متيقن من

أنك ستثق بي في ما يتعلق بالسؤال العاشر، والحادي عشر والثاني عشر. إذاً هل نتفق على هذه الصفقة؟".

"حسن، إذا كنت تضمن فوزي، يصعب عليّ أن أقول لا. إذاً قل لي ما هو السؤال التالي".

"ممتاز". يصفق بريم كومار. يقول للمخرج: "بيلي، السيد توماس يوافق على خوض جولات مرحلة تلعب أو تخسر". يلتفت إليّ من جديد ويهمس قائلاً: "حسن، دعني أروي لك في ما يتعلق بالسؤال التالي. سأسألك ما هو طول مضيق بالك بين الهند وسريلانكا؟ ستكون الخيارات (أ) 64 كلم، (ب) 94 كلم، (ج) 137 كلم و(د) 209 كلم. سيكون الجواب الصحيح (ج) 137 كلم. هل فهمت؟".

"نعم. إنما كيف يمكنني أن أكون متأكداً من أنه الجواب الصحيح؟".

"ألا تثق بي، سيد توماس؟ حسن، لن ألقي اللوم عليك. على كل حال، نحن نتكلم عن بليون روبية هنا. سأثبت لك صحة الجواب. الآن، انظر في هذا الكتاب. أنا متأكد من أنك تستطيع أن تقرأ الأعداد" يشير إلى سؤال. إنه السؤال نفسه الذي وجهه إليّ. وله الجواب نفسه: 137 كلم.

"هل أنت مقتنع الآن أنني لن أسحب سؤالاً دقيقاً يصعب عليك الإجابة عنه؟".

أومئ برأسي.

"حسن. الأفضل أن تعود إلى كرسيك، وسألتحق بك في غضون ثانية".

يأتي اللحن الخاص بالبرنامج وتشير لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يخاطب بريم كومار الجمهور. "سيداتي سادتي، نحن عند مفترق طرق

تاريخي في برنامجنا. معنا متسابق بلغ المليون روبية. الآن عليه أن يقرر ما إذا كان سيستمر في المنافسة من أجل أكبر جائزة أو ينسحب من اللعبة. سيد توماس، لحظة الحقيقة حانت. ما هو قرارك؟ هل ستلعب كي تربح أم أنك ستانسحب؟ تذكر، مع ذلك، إذا لعبت ستعرض كل ما كسبته حتى الآن للخطر. إذاً ماذا تقول؟" يتسم لي كي يعيد طمأنيتي.

أقول بوداعة: "سألعب".

يقول بريم كومار: "معذرة؟ هل يمكنك أن تقول ذلك بصوت أعلى، من فضلك؟".

"سألعب"، أقول بصوت عال وثقة.

ثمة لهائات صادرة من الجمهور. يقول أحدهم: "آه!" يقول آخر: "يا له من أبله!".

يقول بريم كومار: "هل هذا هو قرارك الأخير؟" يتسم لي مجدداً. أقول: "أجل".

"إذا لقد صنعنا التاريخ، سيداتي سادتي". يتهيج بريم كومار ابتهاجاً شديداً. "معنا متسابق مستعد للمخاطرة حتى النهاية. كان لدينا متسابق آخر من قبل خاطر حتى النهاية - وخسر. سنرى اليوم إن استطاع السيد توماس أن يكتب التاريخ بأن يصبح الحائز على أكبر جائزة في التاريخ. حسن، نحن إذاً مستعدون للأسئلة الثلاثة الأخيرة في مرحلة تلعب أو تخسر. من فضلكم امنحوه دورة كبيرة من التصفيق".

ثمة تسارع في قرع الطبول. تومض لافتة تلعب أو تخسر على الشاشة. يقوم الجمهور عن مقاعدهم ويصفقون بحماسة. بعد أن تخفت الموسيقى، يلتفت إلي بريم كومار. "حسن، سيد توماس لقد ربح مليون روبية وأنت الآن في مرحلة جولات الموت المفاجئ التي نسميها تلعب أو

تخسر. إنك إما أن تربح بليوناً أو تفقد كل ما كسبته حتى الآن. إذاً السؤال العاشر بعشرة ملايين، نعم، عشرة ملايين روية قادمة الآن. هو ذا. نيلما كوماري، ملكة التراجيديا، حازت الجائزة القومية -".

"لكن هذا ليس السؤال".

"أرجوك، سيد توماس، لا تقاطعني وسط السؤال. دعني أكمل"، يقول بصرامة. "لذا كما كنتُ أقول، السؤال هو، نيلما كوماري، ملكة التراجيديا، حازت الجائزة القومية في أي سنة؟ هل كانت (أ) 1984، (ب) 1988، (ج) 1986 أم (د) 1985؟".

أتطلع إلى بريم كومار، يتكلف الابتسام. أفهمه الآن، ما أخبرني به في الفاصل كان حيلة كي يغريني لخوض هذه الجولة. لكنه لم يحسب حساباً لحظي. لا يزال مستمراً.

"أعرف الجواب. إنه (د) 1985".

"ماذا؟" ينصعق بريم كومار. إنه مندهش جداً بحيث إنه حتى ينسى أن يسألني ما إذا كنت متأكداً مائة بالمائة من جوابي. يضغط على زرهِ آلياً ويومض الجواب الصحيح. إنه (د).

يبدو بريم كومار كما لو أنه رأى شبحاً. "سيد... سيد توماس... ربح... الآن عشرة ملايين روية" يتلعثم، وهو مرتبك تماماً.

يحتاج الجمهور، الجميع يقفون ويهتفون مشجعين. بعض الأشخاص يبدأون بالرقص في الماشي بين المقاعد.

يمسح بريم كومار العرق عن جبينه، ويأخذ جرعةً كبيرةً من عصير الليمون المحلى.

ما كان يجب أن يغدو تراجيديا يصبح مسرحيةً هزليةً ساحرةً.



100,000,000

X GKRZ OPKNU

أو قصة حب

الطعام. ذلك هو كل ما أستطيع أن أراه، وأسمعه، وأفكر فيه، وأشبه في محطة القطار المزدحمة وكثيرة الضجيج حيث كنت واقفاً بقميصي القطنية وسروال الجينز علامة ليفايز طيلة الساعتين المنصرمتين. إذا لم تأكلي لفترة فإن الجوع يذوي ويموت. لكنك إذا لم تأكلي لوقت طويل - وأنا لم أتناول وجبة طعام منذ ظهيرة يوم أمس - فإن عقلك يفعل أشياء مضحكة. في كل الجهات حولي لا أستطيع سوى أن أرى الناس يأكلون ويشربون. وأنفي يتعقب أثر الطعام ككلب يتشمم عظماً. يدوخني شذا الزلايبات وأرغفة الخبز غير المخمر والمقلي بالزيت النباتي والكاجوريات⁽¹⁾ المصنوعة منذ لحظات. حتى شيئاً أساسياً كبيضه مسلوقة، التي لم أحبها أبداً، تجعل لعابي يسيل. لكنني حين أنقب في جيبي أكتشف فقط قطعة نقد من فئة

(1) الكاجوريات Kachoris: جمع كاجوري وهي وجبة خفيفة كثيرة التوابل شائعة في مناطق عديدة من الهند، منها راجاستان، غوجرات، وأوتار براديش - م.

الروبية الواحدة، وبعد فقداني الليلة الماضية للخمسين ألف روبية، لا تبدو أي قطعة نقد جالبة للحظ السعيد بعد الآن مطلقاً. لذا ألق شفتي المنفرجتين، وأسأل نفسي كيف يمكنني أن أقتل جوعي.

أكاد أقايض ساعتى الرقمية نوع كاسيو بطبق جهولي بهاتور⁽¹⁾ حين تقع عيناى على لوحة إعلانات ضخمة بالقرب من مطعم المحطة المؤقت. ببساطة تشير اللوحة إلى أم؛ على بُعد كيلومتر واحد فقط. أعرف فوراً أين يمكنني أن أحصل على الطعام. مجاناً.

أغادر محطة قطار أغرا، وأبدأ بالبحث عن لافتة أم حمراء ضخمة. أدور دورة أو دورتين غير صحيحتين، أسأل اثنين من أصحاب المخازن، وأجدها في الختام في قلب سوق ممتاز. النُدل بالملابس الأنيقة في مطعم ماكدونالد ينظرون إليّ بريبة لكنهم لا يطردوني. لا يقدر أن يصدوا زبوناً بسرّوأل جينز علامة ليفايز، مهما يحتمل أن يكون وضيعاً. أرمي بنفسى بالقرب من الصندوق الخشبي، الصندوق ذو الفتحة المتأرجحة. حين لا يكون هنالك من ينظر بسرعة أدرس يدي في الداخل وأخذ أكبر عدد من تلك الأكياس الورقية البنية الجميلة التي تكون في متناول ذراعى. أخرج بعد أن أستخدم دورة المياه النظيفة كي أغسل بعض القذارة والسخام عن وجهي.

أولى محاولاتي في البحث عن الطعام ناجحة تماماً. أجلس على مصطبة خشبية خضراء في الخارج، وأتغدى برضا على السندويشات نصف المأكولة ليرجر بالخضار، بعض الشذرات من لحم الدجاج، علبتان مليتان تقريباً من البطاطا المقلية ونصف كوب من سفن آب. البحث عن الطعام هو جزء من عدة البقاء لدى طفل الشارع. عرفتُ

(1) جهولي بهاتور chhole bhature: وجبة سريعة شعبية في شمال الهند من مقاطعة بنجاب، تتكون من الحمص المسلوق والخبز المسطح المقلي - م.

بعض الصبيان الذين اعتادوا العيش على البقايا التي وجدوها في المقصورات مكيّفة الهواء في إكسبرس راجدهاني. هنالك آخرون أدمنوا تناول بيتزا بيروني من بيتزا هات، يفلحون في استخلاص سبع أو ثمان شرائح على الأقل كل مساء من الصندوق الكائن عند المخرج. لكنهم جميعاً وافقوا على أن أسهل طريقة لتناول وجبة طعام مجانية هي الانضمام إلى موكب زواج. اعتاد سالم أن يكون خبيراً في هذا. المتطلب الوحيد هو أن ترتدي ثياباً نظيفة وتنتعل حذاءً مناسباً. تختلط مع الضيوف وبعدها تتراصف مع المدعوين لتناول طعام المائدة وقوفاً. أقارب العروس يعتقدون أنك من أقارب العريس وأقارب العريس يعتقدون أنك من أقارب العروس. يمكنك أن تشرب عشر أو خمس عشرة قنينة من الشراب، تتناول ما لذ وطاب من الأطعمة وتتمتع بطيف واسع من الحلويات. يمكنك حتى أن تنسل هارباً مع مجموعة جميلة من سكاكين المائدة المصنوعة من الفولاذ. امتلك سالم طقمًا كاملاً تقريباً من أدوات الطعام. لكنه تخلى عن هذه العادة بعد حادثة وقعت في ناريمان بوينت، حين حضر زواجا من دون دعوة حيث كانت أسرتا العروس والعريس تتشاجران شجاراً قوياً، وصل إلى حد تبادل اللكمات. ضرب سالم ضرباً مبرحاً من كلا الطرفين.

بعد أن أشبعتُ جوعي، قررت أن أستكشف هذه المدينة المجهولة. أمشي عبر أزقتها المزدحمة، المليئة بالجنركشات، والمشاة، والأبقار. أعجب بالتعريشات المعقدة على الهافلات⁽¹⁾ عتيقة الطراز، استمتع برائحة الطعام المنتشرة من مطاعم الكباب على جانب الطريق والطعام

(1) الهافلات havelis: في شمال الهند تكثر الهافلات المخصصة لكريشنا وهي ذات بناء أشبه بالقصر وتمتاز باللوحات الجصية - م.

النباقي الخالص من مطاعم الطرقات الخارجية وهي بسيطة ومرتبلة، وأجعد أنفي حينما أشم الرائحة النتنة المنبعثة من المجاري المكشوفة ومدابغ الجلود. أقرأ الملصقات العملاقة الملصقة في كل مكان خالٍ، التي تحث الناس على مشاهدة أفلام سينمائية جديدة أو على انتخاب سياسيين كبار السن. أرى حرفين هرمين وذابلين يجلسون في دكاكين متداعية، يقومون بتصاميم رائعة على الرخام، وبائعين شبان متهورين يبيعون الأجهزة النقال في حجرات العرض مكيفة الهواء. أكتشف أن أثرياء أغرا لا يختلفون عن أثرياء دلهي ومومباي، يقيمون في منازلهم مع حراس وأجهزة إنذار. وأن أحياء الفقراء في أغرا لا تختلف أيضاً عن نظيراتها في دلهي ومومباي. إنها تتكون من المجموعة نفسها من الصفائح الحديد المتوجة المتكررة باعتبارها سقوفاً؛ نفس الأطفال العراة ذوو البطون الضخمة يمرحون في الوحل، فيما تغسل أمهاتهم الأواني بمياه البالوعات.

أسير بمحاذاة طريق متعرج مغبر، وعلى حين غرة أرى نهراً. إنه أخضر ضارب إلى الإصفرار وموحل. مستوى الماء المتراجع يشير إلى حقيقة أن موعد الرياح الموسمية لم يحن بعد. قطع من الخشب الطافي وحطام البلاستيك تعوم في تياراته المدوامة. في مكان آخر أتتبع مجراه الملتوي بأم عيني، أنحني كي أرى علامة أعلى مستوى للماء في الضفة، أمد عنقي كي ألح جيفة تطفو على سطحه. إنما ليس هنا، ليس الآن. لأن عيني تتحجران عند شيء شاهدته على الضفة الأخرى. إنه مبنى أبيض يرتفع من قاعدة مربعة كقبة منتفخة، ذو أقواس مدببة وحجرات في تجاويف. تحيطه من الجوانب الأربعة كلها منارات أشبه بالرماح. يشع في ضوء الشمس إزاء السماء الفيروزية كقمر من عاج. يهزمي جماله الأخاذ.

ألست إلى أول عابر سبيل أراه، وهو رجل متوسط العمر يحمل صندوق غداء. "معذرة، هل يمكنك أن تخبرني ما هو ذاك المبنى على الناحية الأخرى من النهر؟".

ينظر إليّ كما لو كنتُ مجنوناً. "معذرة، إذا لم تكن تعرف ذلك، ما الذي تفعله في أغرا؟ ذاك هو تاج محل، أيها المغفل".

تاج محل. عجبية الدنيا الثامنة. سمعتُ عنه، لكنني لم أر صورته من قبل. أقف مسمراً بالقرب من الصرح فيما تعرج السحب برفق في السماء ملقيةً الظلال على قبته، تغير الضوء يحول الرخام الناعم من اللون الكريمي الباهت إلى لون المغرة الصفراء إلى الأبيض المرمري. إن فقدان الخمسين ألف روية خاصتي، والقلق المتعلق بأين أتناول طعامي لاحقاً، وأين أنام لاحقاً، والخوف من أن تلقي الشرطة القبض عليّ، باهتةً في تفاهتها مقارنةً بصفاء جماله. أقرر وقتذاك وهناك أنه يجب عليّ أن أرى تاج محل اليوم. عن كذب.

ثلاثون دقيقة من المشي السريع على طول الضفة توصلني إلى بوابة المدخل الضخمة المشيدة من حجر رملي أحمر. لوحة بيضاء كبيرة تشير إلى: رسم دخول تاج محل، الهنود عشرون روية، الأجانب عشرون دولاراً. أيام الاثنين مغلق، أيام الجمع مجاناً. أنظر إلى ساعة معصمي علامة كاسيو ذات التاريخ - اليوم. تشير إلى الجمعة، الثاني عشر من حزيران. يبدو أن الحظ يقف إلى جانبي اليوم.

أجتاز كاشف المعادن، أعبر الفناء الأمامي المشيد من الحجر الرملي الأحمر بمدخله المقوس وهناك يشمخ تاج محل بكل جماله وبهائه أمامي، وامضاً في سديم ما بعد الظهر. أشاهد الحديقة المزينة ذات النافورات والممرات الواسعة، البركة العاكسة مع صورة للتاج ترقص في مائها، وحينذاك فقط ألاحظ الحشود الفائضة. تاج محل يعج بالسياح،

شباناً وشيوخاً، أثرياء وفقراء، هنوداً وأجانب. ثمة ومضات كاميرات في كل حذب وصوب، ثرثرة أصوات ترتفع في الفناء، في حين أن رجال الشرطة بوجوههم الصارمة، وهراواتهم التي يستخدمونها ببراعة، يحاولون أن يحافظوا على النظام.

بعد نصف ساعة من التحري عديم الهدف، ألاحظ مجموعة من السياح الغربيين الأثرياء مزودين بالكاميرات الرقمية والفيديوية، يصغون بتركيز إلى مرشد كبير السن عند أسفل القبة. أنضم إليهم بحذر. يشير المرشد إلى القبة الرخامية، ويتكلم بصوت خشن مثير للأعصاب. "لقد شرحتُ لكم السمات المعمارية للفناء الأمامي المشيد من الحجر الرملي الأحمر الذي مررنا به تَوَّأ. الآن سأروي لكم قليلاً عن تاريخ تاج محل. في يوم من أيام سنة 1607، كان الأمير خورام من الأسرة المغولية الملكية يتجول في مينا بازار في دلهي حين لمح فتاةً تبيع الحرير والخرز في كشك صغير. شعر بنشوة كبرى لدى رؤيته جمالها الباهر بحيث إنه وقع في غرامها على الفور. إنما استغرق الأمر خمس سنوات قبل أن يتمكن أخيراً من الزواج بالفتاة. كان اسمها الحقيقي أرجومان بانو، لكنه منحها الاسم الجديد: ممتاز محل. كانت في ربيعها التاسع عشر وقتذاك وكان هو في العشرين. ممتاز وخورام تزوجا سنة 1612، وعلى مدى السنوات الثمانية عشرة التالية كان لهما معاً أربعة عشر طفلاً. كانت ممتاز رفيقة زوجها التي لا تنفصل عنه في كل رحلاته وحملاته العسكرية. كانت مستشارته، وأهمته أعمال الخير والإحسان نحو الضعفاء والمحتاجين. توفيت في أثناء ولادة طفلها الأخير في السابع من حزيران سنة 1630، في برهانپور، بعد ثلاث سنوات فقط من ارتقاء خورام عرش المغول بوصفه الإمبراطور شاه جهان. حين كانت ممتاز محل تعاني سكرات الموت انتزعت أربعة عهود من الإمبراطور: أولاً، أن

يقيم نصباً يليق بجمالها؛ ثانياً، ألا يتزوج مجدداً؛ ثالثاً، أن يكون عطوفاً مع أولادهما؛ ورابعاً، أن يزور ضريحها في ذكرى وفاتها. موت ممتاز جعل الإمبراطور كسير القلب بكل ما للكلمة من معنى بحيث إن شعره كما قيل انقلب رمادياً بين عشية وضحاها. كان حب الإمبراطور لزوجته كبيراً جداً بحيث إنه طلب أن يُشيد أحمل مبني حجرياً على وجه الأرض لها، وأن يشتمل على ضريحها. بدأ العمل في سنة 1631. استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاماً وتطلب جهوداً متظافرة لأكثر من عشرين ألف حرفي وفنان من بلاد فارس، والإمبراطورية العثمانية، وحتى أوروبا، والنتيجة هي ما ترونه أمامكم، تاج محل، الذي وصفه رابندارنات طاغور بوصفه قطرة دمع على خد الزمن".

ترفع فتاة صغيرة ذات سروال قصير مثير يدها قائلة: "معذرة، من هو طاغور؟".

يجيب الدليل: "كان شاعراً هندياً شهيراً جداً، نال جائزة نوبل. يمكن مقارنته بوليم ووردز ورث".

"وليم من؟".

"لا يهم. الآن، كما كنتُ أقول إن التركيب المعماري لتاج محل يتألف من خمسة عناصر رئيسة: الدروازة وهي المدخل الرئيس، باغيجا أو الحديقة، المسجد أو الجامع، ناكار خانة أو دار الاستراحة، والروضة أو المبنى الحجري الرئيس الذي يضم ضريحها. الضريح الحقيقي يقع داخل التاج الذي سنراه في غضون دقيقة. هناك سأريكم أسماء الله التسعة والتسعين على ضريح ممتاز، وعلبة قلم الحبر الموضوعة في ضريح شاه جهان، وهي السمة البارزة لحاكم ذكر. هذه النُصب التذكارية وفق التقليد المغولي، هي مجرد تمثيل للقبور الحقيقية، التي تقع في المواقع نفسها في سرداب غير مزخرف ورطب تحت الأرض. مساحة المبنى 57

متراً مربعاً بحسب الخارطة. القبة الداخلية الوسطية بارتفاع 24,5 أمتار وقطرها 17,7 أمتار، وتعلوها محارة خارجية يبلغ ارتفاعها 61 متراً تقريباً. المنارات في الجهات الأربع بارتفاع 40 متراً. سترون كم هو معقد العمل الفني لذلك الزمن، لأنه حتى العنصر الزخرفي بقياس 3 سنتيمترات يحتوي على أكثر من 50 حجراً كريماً مرصعاً. وكذلك لاحظوا أن حروف الآيات القرآنية المحيطة بالمداخل المقنطرة تبدو متناسقة، بغض النظر عن علوها.

بوصفه نُصباً للحب الثابت، يكشف تاج محل أشياءه الرقيقة لأولئك الذين يعرفون كيف يقدرّون الجمال. ستلاحظون أن القاعدة المستطيلة للتاج ترمز بحدّ ذاتها إلى الجوانب المختلفة التي يُنظر منها إلى المرأة الحسنة. البوابة الرئيسة أشبه بخمار على وجه امرأة، الذي يجب أن يُرفع برقة وببطء شديدين في ليلة العرس. كجوهرة، يتلأأ التاج في ضوء القمر حين تلتقط الأحجار شبه الكريمة المطعمة في الرخام الأبيض في المبنى الرئيس وهج القمر. التاج ضارب إلى اللون الرمادي صباحاً، أبيض حليبي مساءً وذهبي حين يشع القمر. يقال إن هذه التغيرات تصف الأمزجة المختلفة للمرأة. سأخذكم الآن إلى داخل المبنى. من فضلكم اخلعوا أحذيتكم وأودعوها هنا".

يخلع السياح أحذيتهم ويدخلون المبنى الرئيس. أبقى في الخارج، أحاول أن أقارن الألوان المتبدلة على القبة مع ما رأيته من أمزجة نيلما كوما ري المتغيرة.

شخص ما يربت برفق على كتفي. أدور على عقيّ لأرى أجنبياً يضع نظارة، مع زوجة وطفلين ينظرون إليّ. هو مزود بمستلزمات من كل الأنواع من الكاميرا الرقمية والكاميرا الفيديوية إلى ما عدا ذلك. يسألني: "معذرة، هل تتكلم الإنكليزية؟".

أرد عليه: "نعم".

"من فضلك، هل يمكنك أن تروي لي قليلاً عن تاج محل.
نحن سياح من اليابان. نحن جديدون على مدينتك. آتينا اليوم
تحديداً".

أشعر أنني أرغب في أن أقول له إنني أيضاً جديد على هذه المدينة
وإنني كذلك أقبلت اليوم حصراً، إلا أن وجهه الفضولي يتوسل إليّ.
مقلداً النبرة الجدّية للدليل، بدأت أروي له ما أتذكره. "شيد تاج محل
من قبل الإمبراطور شاه جهان لزوجته سنة 1531. التقاها فيما كانت
تبيع الأساور في حديقة ووقع في غرامها، لكنه لم يستطع أن يتزوجها
إلا بعد مرور تسعة عشر عاماً. بعدها حاربت معه في معاركه كلها
ومنحته ثمانية عشر طفلاً في أربعة عشر عاماً"⁽¹⁾.

يقاطعني الياباني قائلاً: "ثمانية عشر طفلاً في أربعة عشر عاماً فقط؟
هل أنت متأكد؟" يسأل بصورة حيية.

أوبخه قائلاً: "بالطبع. لا بد أن بعضهم كانوا توائم، كما تعرف.
على كل حال، خلال ولادة الطفل التاسع عشر، تموت ممتاز في
سلطانبور في السادس عشر من حزيران. لكنها قبل أن تفارق الحياة
طلبت من الإمبراطور أربعة عهود. أولاً أن يبني لها تاج محل، ثانياً أن
يرعى أولادهما، ثالثاً أن يجعل شعره أشيب... ورابعاً... لا أتذكر،
لكنها ليست مهمة. الآن، كما ترى، تاج محل يتكوّن من مدخل،
حديقة، دار ضيافة، وضريح".

يومئ الياباني برأسه بحماسة. "نعم. نعم. لقد شاهدنا المدخل
والحديقة. الآن نرى الضريح. لكن أين هو دار الضيافة؟".

(1) المعلومات التي يوردها البطل - الراوي غير دقيقة، يرجى ملاحظة
ذلك - م.

أعبس بوجهه. "ألم أقل لك إن الأضرحة الحقيقية تحت الأرض؟ لذلك كل المساحة التي فوق الأرض لا بد أن تكون دار الضيافة. الآن في داخل المبنى ستري ضريحي ممتاز والإمبراطور. لا تنس أن ترى قلم الحبر ذا الأحجار الكريمة التسعة والتسعين عليه، تذكر أن القبة بارتفاع 160 متراً ويبلغ علو المنارات سبعة عشر متراً. كذلك، حين تنظر إلى تاج محل من زوايا مختلفة ستشاهد خمارات مختلفة لامرأة في ليلة عرسها. اذهب وجرب. قبل أن أنسى، لا بد لي أن أقول لك إن طاغور، شاعرنا ذائع الصيت، الذي نال جائزة نوبل عن أشعاره حول تاج محل، أسماه: صفعة على خد وليم ووردز ورث".

"حقاً؟ يا سلام! إنه شيء مسل جداً. كتاب الدليل لا يذكر كل هذا". يلتفت إلى زوجته ويتحدث إليها يابانية سريعة الطلقات. بعدها يترجم من أجل فائدتي. "أقول لزوجتي إنه شيء حسن أننا لم نتخذ دليلاً رسمياً غالي الأجر. لقد رويت لنا كل شيء بصورة لطيفة جداً". يتسم لي بابتهاج. "نشكرك جزيل الشكر، أريغاتو"⁽¹⁾. ينحني ويدس شيئاً ما في يدي. أنحني أيضاً راداً له تحيته. فيما هو يتعد أفتح قبضتي كي أرى ورقة مالية جديدة مجمدة من فئة الخمسين روبية. عن عمل استمر خمس دقائق لا غير!

أعرف الآن شيئين: أنني أرغب في البقاء في مدينة تاج محل، ولا مانع لدي من أن أكون دليلاً سياحياً.

يبدأ الغسق بالهبوط في الوقت الذي أنتزع فيه نفسي أخيراً من النصب الرخامي، المغطى الآن بلون ضارب إلى الإحمرار. يلزمني أن أجد مكاناً كي أمكث فيه. أدنو من غلام صغير السن في الشارع،

(1) أريغاتو Arigato باليابانية: شكراً - م.

وأبادره بالكلام. هو في عمري تقريباً، ويرتدي قميصاً قطنية بيضاء اللون، وسروالاً قصيراً رمادياً، وينتعل خفّاً أزرق من خفاف هاواي. يقف بلا حراك، يشاهد مشجرةً في الشارع. أربت برفق على كتفه. أقول: "من فضلك". يستدير على عقبيه، ويتطلع إليّ بعينين عطوفتين جداً لم أر مثيلاً لهما في حياتي كلها. أحس بالصدقة، والفضول، والدفء، والترحيب في العينين البنيتين المعبرتين. أكرر: "من فضلك. أنا جديد على هذه المدينة. هل يمكنك أن تريني مكاناً أستطيع أن أمكث فيه؟".

يومئ الغلام برأسه قائلاً: "Uzo Q Fiks X Ckka Lgxyz".
أقول: "معذرة؟".

يكرر قائلاً: "Ykh Sqpd Hz. Q Fiks X Ckka Lgxyz".
ضارباً كفيه.
"معذرة، أنا لا أفهم هذه اللغة. أنا آسف على إزعاجك. سأسأل شخصاً آخر".

"Ejop Bkggks Hz"، يصرّ على القول ويأخذ ذراعي. يبدأ بسحبي في اتجاه السوق، أفكر في أن أتحرك منه، إلا أن وجهه الودود جداً يجعلني أسمح لنفسي أن أقاد. يمشي هو بطريقة خاصة، على رؤوس أصابعه تقريباً. يأخذني عبر ممرات جانبية متاهية ضيقة وأزقة ملتوية، وبعد خمس عشرة دقيقة نبرغ أمام قصر كبير. قلعة سوابنا تشير لوحة الاسم النحاسية المجاورة لباب حديد ضخم. يُفتح الباب وندخل. للقصر طريق خاص مقوس، مرج واسع ذو أرجوحة غوجاراتية مطلية وفيه نافورة. أرى بستانيين يكدحان على الحشائش. سيارة كونتيسا قديمة تقف على الطريق الخاص للقصر، يصقلها سائق يرتدي بذلة نظامية. واضح أن صديقي معروف لشاغلي القصر، لأن أحداً لم يوقفه

فيما هو يأخذني إلى الطريق الخاص المؤدي إلى المدخل الخشبي المزخرف للمنزل، ويضغط على زر الجرس. تفتح الباب خادمة داكنة البشرة، شابة، حسنة المظهر. تتطلع إلى صديقي وتخطبه قائلة: "هذا أنت، شانكار. لماذا تأتي إلى هنا المرة تلو المرة؟ أنت تعرف أن المدام لا تحب أن تأتي من هذا الجانب".

يشير إلى شانكار قائلاً: "Dz Izzao X Nkkh".

تتفحصني الخادمة من أعلى إلى أسفل. "إذاً أتى بك شانكار إلى هنا بوصفك نزيلاً جديداً؟ لا أعتقد أن هنالك غرفة خالية في المبنى الملحق، لكنني سأستدعي المدام". تختفي داخل المنزل.

تظهر توأماً امرأة متوسطة العمر عند المدخل. تلبس ساريّاً حريراً نفيساً، وتضع أظناناً من المجوهرات الذهبية. وجهها مكسو بمساحيق التجميل. ربما كانت جميلة في سنوات شبابها، إنما، على خلاف نيلما كوماري، فقد وجهها بريقه. فضلاً عن ذلك كانت لها شفتان ذابلتان تجعلانها تبدو قاسية نوعاً ما. كرهتها بشكل فطري.

يغدو شانكار مستثاراً جداً لدى رؤيته المرأة. "Q Gkrz Ukj Hijhhu"، يقول بابتسامة عريضة لكن المرأة لا تكثر لوجوده. "من أنت؟" تسألني، ناظرة ملياً إلى ثيابي. "ولماذا أتيت مع شانكار؟". بدأت أذوي تحت نظراتها الفاحصة.

"اسمي راجو شارما" أقول. ما من حاجة إلى أن أستخدم أيّاً من أسمائي الحقيقية في هذه المدينة. ليس بعد قتلي لرجل مجهول في أحد القطارات.

"إذاً أنت براهمي؟" تسألني، وتغدو عيناها مرتابتين أكثر. كان يجب عليّ أن أدرك أن براهمياً داكن البشرة سيكون شيئاً جديداً، غير مألوف.

"نعم. أنا جديد على أغرا. أتيتُ لأسأل هل من مكان أقيم فيه؟".

لدينا مبنى ملحق حيث نُبقي فيه النزلاء". ألاحظ أنها تستخدم (نا) ضمير الجمع. "الآن تحديداً لا تتوفر حجرة، لكنك إذا استطعت الانتظار، يمكننا أن نرتب لك غرفة. إنها تكلفك أربعمئة روبية شهرياً، على أن يُدفع بدل الإيجار كاملاً في بداية كل شهر. إذا كان هذا مقبولاً بالنسبة إليك، لاجواني، يمكنها أن تريك المبنى الملحق. إنما يجدر بك أن تدبر حالك في مكان ما على مدى أسبوع".

أجيبها بالإنكليزية: "شكراً، مدام. سأخذ الغرفة وسأدفع لك الأربعمئة روبية الأسبوع المقبل".

تلقي عليّ المرأة نظرات حادةً حالما أتكلم بالإنكليزية، تلين ملامحها القاسية بعض الشيء. "ربما يمكنك أن تقيم مع شانكار على مدى أسبوع. لاجواني، أره المبنى الملحق".

هذه هي نهاية الحوار، الذي دار عند الباب.

ترشدي لاجواني إلى المبنى الملحق، الذي يقع خلف القصر مباشرة والذي أكتشف أنه المعادل الهندي الشمالي للمبنى السكني. له فناء ضخم مرصوف بكبار الحصى، ذو حجرات مترابطة شُيدت كلها حول الحافة. لا بد أنه كانت هنالك ثلاثون حجرة في المسكن. تقع حجرة شانكار تقريباً في منتصف المجاز الشرقي. يفتح قفل الباب، ونُدلف إلى الداخل. ثمة سرير واحد فقط وخزانة مدفونة في أحد جدران الحجرة، وبالقرب منها، مطبخ صغير جداً، كما في مبنانا السكني في جاتكوبار. دورات المياه مشاعية وتقع في نهاية المجاز الغربي. الاستحمام يمكن القيام به فقط في وسط الفناء، تحت صنوبر محلي، على مرأى تام من نزلاء المسكن. تشير لاجواني إلى حجرها

هي. ثماني حجرات قبل حجرة شانكار. والحجرة التي سأحصل عليها في بحر أسبوع أربع حجرات بعد حجرة شانكار.

قبل أن تعود لاجواني إلى القصر، أ طرح عليها سؤالاً سريعاً. "معذرة، لكن من هو هذا الغلام شانكار؟ التقيته توأً أمام تاج محل".

تنهد. "إنه غلام يتيم يقيم هنا. نحن كلنا مولعون به. المسكين لديه مشكلة ما في دماغه ولا يستطيع أن يتكلم كلاماً معقولاً، إنه فقط يطلق كلمات لا معنى لها، إنه يطوف حول المدينة بلا هدف طيلة النهار. إن شفقة المدام هي التي خصصت له حجرة محمية، وتعطيه كذلك بعض النقود كي يشتري الطعام. بخلاف ذلك كان رجال المصح العقلي سيأخذونه منذ زمن طويل".

أُصبتُ بصدمة. بدا لي شانكار غلاماً ذكياً، عنده فقط عيب في الكلام. أغلب الظن تقديري للمدام هو أيضاً بعيد عن الهدف. كونها تعطي إحسانها إلى شانكار، لا تستطيع أن تكون صارمةً كما يبدو عليها. "والمدام. اروي لي مزيداً عنها"، أسأل لاجواني.

مثل مؤرخ بلاط يروي نسب إمبراطورة، تشرح لي لاجواني السلالة المؤثرة لمستخدمتها. "اسمها الحقيقي الملكة سوابنا ديفي. لكننا نسميها المدام أو الصاحبة راني. كان والدها ملك الدولة الأميرية جمغرة، راجا شفيناث سنغ، من سلالة راثوري الحاكمة. من ناحية الأم، كان جدها ملك دهاريل، قرب أغرا، راجا رافي براتاب سنغ، وهو المالك الأصلي لهذا القصر. حين كانت لا تزال في العشرين، تزوجت سوابنا ديفي من ابن ملك بهادوهي، كونوار براتاب سنغ، الذي ينتمي إلى سلالة غوتام الحاكمة، وانتقلت إلى بيناريس، حيث كانت العائلة تملك قصرًا. لسوء الحظ، زوجها، الأمير الشاب، توفي خلال سنتين فقط من الزواج، لكنها لم تتزوج مجددًا. استمرت في

الإقامة في بيناريس اثنتي عشرة سنةً أخرى. خلال ذلك مات جدها راجا رافي براتاب سنغ مورثاً هذا القصر بوصية لها. لذا انتقلت إلى أغرا، وسكنت هنا على مدى السنوات العشر الماضية".
أسألها: "وماذا عن الأطفال؟".

تَهز لاجواني رأسها. "كلا. ليس لديها، لذا فهي تشغل نفسها بالأنشطة الخيرية والمناسبات الاجتماعية. على الأرجح هي أغني امرأة في أغرا ولها صلات قوية جداً. مفوض الشرطة وحاكم المقاطعة يأكلان في منزلها أسبوعياً، لذلك خير لك ألا تفكر في السكن هنا من دون أن تدفع بدل الإيجار. إذا لم تدفع لها الإيجار في الشهر الأول، ستكون مطروداً في الشهر الثاني. خير لك أن تفهم هذا صراحةً".

ذلك المساء، يطهو شانكار الطعام لي ويلح عليّ أن أنام على سريره. ينام هو على الأرض الحجرية الصلبة. هذه الشفقة تستدر الدمع من عينيّ. إن حقيقة كونه يتيماً مثلي تكون باعثة على صلة عميقة بيننا. صلة أبعد من الصداقة. أبعد من الرفقة. أبعد من الكلمات.
تلك الليلة يهطل المطر في أغرا.

يلزمي أن أدفع أربعمائة روبية للمدام في غضون سبعة أيام لذا لم أدد وقتاً في اكتساب المعرفة التي لها صلة بمهنتي المفضلة. الخمسون روبية التي بحوزتي أهلتني للدخول إلى التاج على مدى يومين، وأقرضني شانكار عشر روبيات كي أدخل في اليوم الثالث أيضاً. أتسكع حول مجموعات من السياح الغربيين، استمع إلى المرشدين الذين يتحدثون الإنكليزية، وأحاول أن أحفظ عن ظهر قلب أكبر عدد ممكن من الحقائق والأرقام المذكورة. لم يكن الأمر عسيراً جداً، جزئياً لأنني ألجأ إلى تاج محل مثلما يلجأ النشال إلى حافلة مزدحمة. ربما الأمر يجري في

دمي. ربما تكون ممتاز محل واحدة من أسلاف أُمي. وربما كان أبي ينحدر من أصل مغولي. على كل حال، في اليوم الرابع التقطتُ معرفة كافية عن تاج محل كي أطمع إلى الانضمام إلى مراتب مئات من المرشدين غير المرخص لهم في أغرا. أتسكع حول المدخل ذي الحجر الرملي الأحمر، وأقدم خدماتي للسياح الأجانب الذين أقبلوا لمشاهدة التاج حتى في حر حزيران الحانق. كان أول زبائني مجموعة من طالبات جامعات شابات من إنكلترا ذات كُلف، أصغين بانتباه إليّ، لم يطرحن عليّ أسئلة صعبة، أخذن كثيراً من الصور الفوتوغرافية وأعطيني ورقة مالية فئة عشر باونات. حين بدّلت الورقة المالية عند مكتب الصرافة وقتذاك فحسب أدركتُ أنني نلتُ سبعمائة وخمسين روبية، حتى بعد حسم العمولة البالغة ثلاثة بالمائة التي فرضها عليّ صاحب الصرافة. هذا المبلغ يكفي تقريباً لدفع بدل الإيجار للشهرين المقبلين!

انتقلتُ إلى حجرتي الخاصة في المبنى الملحق بعد مرور أسبوع، إنما خلال الأيام السبعة التي أمضيتها في حجرة شانكار عرفتُ أشياء كثيرة عنه. اكتشفتُ أن لغته لم تكن بربرة عديمة المعنى فقط... مع أن الكلمات تبدو هرائية بالنسبة إلينا، كانت بالنسبة إليه تحمل ترابطاً منطقياً داخلياً خاصاً. عرفتُ أيضاً أن الطعام الأثير لدى شانكار هو أرغفة الخبز الصغيرة والعسد. وكان يكره الباذنجان والكرنب. وليس لديه ولع بالألعاب. إنه يملك مهارات فنية فائقة ويستطيع أن يرسم شخصاً ما حتى أدق التفاصيل، ببساطة من الذاكرة. وأنه، على غراري، كان يحلم بأمه. في ليلتين سمعته يصرخ "مومي، مومي" في أثناء نومه. وعرفتُ أنه في أعماقه يملك القدرة على التكلم أكثر من المقاطع اللفظية غير المفهومة.

لا بد أن الإقامة معه تركت تأثيراً نفسياً عليّ، لأنني أتذكر الحلم المتعلق بامرأة شابة طويلة القامة ترتدي سارياً أبيض اللون مع طفل بين

ذراعيها. الريح تعصف وراءها، فتجعل شعرها فاحم السواد يطير على وجهها، مخفياً إياه. يتطلع الطفل في عينيها ويقهقه بعدوبة، "ماما، ماما". الأم تفتح فمها كي ترد على الطفل، غير أن الصوت الوحيد الذي يخرج من بين شفثيها هو "Q Gkrz Ukj Hu Wxwu". يصرخ الطفل ويتشقلب من حضنها. أستيقظ من نومي، وأتأكد هل ما زال قادراً على التكلم.

خلال السنة التالية في أغرا، كسبتُ ثروةً من المعرفة عن تاج محل. عرفتُ تفاصيل خصوصية عن حياة ممتاز محل، مثل الحقيقة التي مفادها أن طفلها الرابع عشر الذي توفيت خلال ولادته، كان يُدعى غوهرار. حفظتُ عن ظهر قلب وصوفات مفصلة عن تشييد التاج، مثل أن خزانة الدولة زودت 466,55 كيلوغراماً من الذهب الخالص، الذي بلغت قيمته ستمائة ألف روبية في سنة 1631، وأن الكلفة الإجمالية للتشييد وصل إلى 41,848,826 روبية، سبع آئات⁽¹⁾ وست بايات⁽²⁾. نقبتُ في الجدول المتعلق بمن هو حقيقةً الذي شيد التاج والادعاء الكاذب لجيرونيمو فيرونو، وهو صانع إيطالي. اكتشفتُ ما يتعلق بأسطورة تاج ثان ولغز حجرات السرداب ونخبر ثالث محتمل كما ويمكنني أن أبدي رأياً في ما يتعلق بفن الفسيفساء⁽³⁾، المستخدم في الأنماط الزهرية على جدران التاج، والحدائق المخططة وفقاً لأسلوب

(1) الآنة anna: وحدة النقد السابقة في بورما والهند وباكستان وتساوي جزءاً من ستة عشر جزءاً من الروبية. يقال بالعامية العراقية عانة - م.

(2) باية pie: وحدة نقد هندية قديمة، حتماً قيمتها أقل من الآنة - م.

(3) الفسيفساء pietry dura: مصطلح فني تاريخي يتعلق باستخدام الأحجار الصغيرة المقطعة بشكل فائن، والمفلترة، الملونة والمعقولة جداً لإحداث ما يُدعى الرسم بالحجر. تعد الفسيفساء فناً زخرفياً - م.

جار باغ⁽¹⁾ الفارسي. إن حقيقة كوني أتكلم الإنكليزية بطلاقة منحني فوراً أفضلية. يحتشد حولي السياح الأجانب وفي الحال تذيع شهرة المرشد راجو. بيد أن هذا لا يعني أنني أصبحت خبيراً في تاج محل. كانت لدي معلومة، إنما ليس معرفة. المرشد راجو ليس أفضل من ببغاء تلا بصورة صحيحة ما سمعه، من دون أن يفهم حقيقة كلمة واحدة.

بمرور الوقت، تعلمت أن أقول: "كونيحيوا"⁽²⁾ للسياح اليابانيين و"دازفيدانا"⁽³⁾ للسياح الروس، "موكاس غراسياس"⁽⁴⁾ للمنحي (البقشيش) الإسبان و"هاودي"⁽⁵⁾ للأميركيين حمر الأعناق. إنما للأسف الشديد، لم يكن لدي زبون أسترالي أستطيع أن أصفحه على ظهره قائلاً: "تهارك سعيد أيها الزميل، سأعطيك معلومات ممتازة إلى حد رائع عن هذا الضريح!".

بدأت أيضاً أكسب مالاً جيداً من السياح. ليست ثروة طائلة، إنما مبلغ يكفي لتسديد بدل إيجار غرفتي، وأن أكل في مطعم ماكدونالد أو بيتزا هات بين حين وآخر، وأستطيع أن أدخر شيئاً ما ليوم عصيب. عدا أن يوماً عصبياً يندر أن نجد له معنى بالنسبة إلى شخص عاش في العراء تحت سحابة موسمية معظم أيام حياته. خربتُ كمّاً كبيراً جداً من الحن، مع الخوف المستمر في ذاكرتي من مجيء سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض في أي يوم من الأيام كي تعتقلني بسبب جريمة قتل لص مجهول الاسم أو قتل شانتارام أو حتى نيلما كوماري؛ شعرتُ بعدم

(1) جار باغ char bagh بالفارسية: الحدائق الأربع - م.

(2) كونيحيوا konichiwa باليابانية: عصراً سعيداً - م.

(3) دازفيدانا Dasvedanya بالروسية: مع السلامة، وداعاً - م.

(4) موكاس غراسياس muchas gracias بالإسبانية: شكراً جزيلاً - م.

(5) هاودي Howdy: كيف الحال. اختصاراً لـ How do you do - م.

جدوى وضع خطط طويلة الأمد للمستقبل. عاملتُ النقود، هكذا، مثلما عاملتُ حياتي، بوصفها سلعةً قابلةً للاستهلاك. تأتي بسهولة، وتذهب بسهولة. وليس من العجيب، أنني أصبحتُ حالاً مشهوراً في المبنى الملحق بوصفي سهل الحصول على المال.

كان نزلاء المبنى الملحق خليطاً متنافراً: طلبة جامعيون فقراء من قرى نائية، موظفون حكوميون كتاب يؤجرون أسباب الراحة الرسمية خاصتهم بأسعار باهظة، سائقو قطارات، عمال مكوى، بستانيون، طهاة، منظفون، سمكريون، نجارون، شعراء. كثير منهم أمسوا أصدقاءتي. عشتُ وسطهم، توصلتُ إلى معرفة أن قصة شاه جهان وممتاز محل لم تكن الوحيدة في هذه المدينة الصغيرة الهادئة.

كانت لاجوانتي هي أجهزة الأخبار الرسمية للمبنى الملحق. كانت تسمع إلى الأخبار وتعرف على وجه الدقة ماذا يجري في المحلة. كانت تعرف ضاربي الزوجات والزناة، السكارى والبخلاء، المهترئين من بدل الإيجار وأخذني الرشاوى. بالرغم من إخلاصها الجلي لمستخدمتها، لم تكن هي أيضاً كارهة لاقتسام بعض الأقاويل حول القصير. سمعتُ منها القليل والقال المتعلق بالماضي النابض بالحياة لسوانا ديفي. يُشاع أنه كانت لها قصة حب متقدّمة مع شقيق زوجها المتوفي، كونوار ماهيندرا سنغ، لكنها تخاصمت معه وسمته حتى الموت. يقال كذلك إن علاقتهما الغرامية قصيرة الأجل نتجت عن ابنة غير شرعية في بيناريس. ماذا جرى للبننت، لا أحد يدري بالضبط، ويبدو أن أحداً لا يبالي بالأمر.

يقترب مني ذات مساء شاكيل، أحد الطلبة الفقراء المقيمين في المبنى الإضافي.

"سيد راجو، إذا لم يكن لديك مانع، هل يمكنني أن أطلب منك معروفاً"، يسألني بصورة حيية.

"نعم، شاكيل، ما هو؟" أرد عليه، مستشعراً غرض زيارته.

"في الحقيقة، والدي لم يكن قادراً على أن يبعث إليّ الحوالة المالية هذا الشهر بسبب الفيضان في القرية، وإذا لم أسدد رسوم الجامعة يوم الاثنين سيطر دوني. من فضلك هل يمكنك أن تقرضني مائة وخمسين روبية؟ أعدك أن أعيدها إليك حالما أتسلم الحوالة المالية الشهر القادم".

"بالطبع، شاكيل. لقد أقرضت من قبل خمسين روبية لشاعرنا العظيم نجمي لغوبال، وقد احتفظت بمائة كي أشتري قميصاً جديدة. إنما حاجتك أهم من حاجتي، لذا خذها كلها".

دُعينا شانكار وأنا من قبل لاجواني إلى حجرهما لتناول العشاء. هي غير متزوجة وتسكن وحيدة في المبنى الملحق، إنما لديها أخت أصغر سناً تقيم في قرية تبعد نحو ثلاثين كيلو متراً عن أغرا. أول شيء ألاحظه في ما يتعلق بحجرة لاجواني هو ترتيبها المبالغ فيه. إنها أنظف حجرة شاهدتها في حياتي كلها. الأرضية الحجرية تم تلميعها إلى درجة التآلق، ليس ثمة ذرة غبار، السرير مرتب جداً، وليس ثمة غرض واحد في ملءة السرير القطنية، ثمة أشياء صغيرة زينة معروضة على رف الموقد بدقة هندسية، كل شيء مرتب بصورة مزعجة. حتى المطبخ يبدو صحياً جداً بحيث إنني أكاد أتخيل السخام المنبعث من موقدها أبيض بدلاً من أسود. أجلس وشانكار على كرسيين؛ تجلس لاجواني على السرير، مرتدية سارياً وردي اللون. تبدو فرحة جداً وتخبرنا قائلة إنها بدأت تبحث عن عريس مناسب لأختها، لاكشمي، التي يبلغ عمرها الآن تسعة عشر عاماً.

أسأَلُها: "لكن ماذا عنكِ؟ أليس من الواجب أن تتزوج الأخت الكبرى أولاً؟".

تجيب قائلةً: "نعم، يجب. لكنني لست مجرد أخت لاكشمي؛ لقد كنتُ والدها ووالدتها منذ أن توفي أبوانا قبل خمسة أعوام خلت. لهذا السبب لا أستطيع أن أتصرف بصورة أنانية وأن أفكر في نفسي فقط. ما إن أزوّج شقيقي، حتى تنتهي مسؤولياتي وبعدها أستطيع أن أبحث عن أميري".

"إذاً كيف ستفتشين عن عريسين مناسبين؟".

"وضعتُ إعلاناً تجارياً في دينيك أوجالا، الصحيفة الهندية، قبل شهرين، وبسبب بركات دورغا كانت الاستجابة جيدة جداً. انظر كم عدد الرسائل التي وصلت". تعرض رزمةً من الرسائل والمعلقات. تستخلص منها ست صور فوتوغرافية وترينا إياها. "قل لي، أي واحد من هؤلاء سيكون مناسباً للاكشمي؟".

أُفحص وشانكار العرسان المرتقبين ونجد عيباً في معظمهم. هذا يبدو هرماً جداً، هذا له ابتسامة كريهة، هذا قبيح المنظر، هذا له ندبة، صورة هذا تبدو أشبه بصورة فوتوغرافية لسجين، تبقى صورة واحدة تُظهر وجه شاب وسيم ذي تسريحة شعر أنيقة وشارب أسود. "نعم، هذا الغلام يبدو أفضل الكل"، أقول للاجواني. شانكار هو الآخر يومئ برأسه بموافقة متحمسة. يقول: "Q Gqfz PdZ Wku".

لاجواني مسرورة باختيارنا. "إنه خيارى أيضاً. ناهيك عن كونه أجمل الجميع، هو أيضاً أكثرهم تأهيلاً وينحدر من عائلة محترمة جداً. هل تعرف أنه موظف ذو درجة وظيفية عالية جداً؟".

"حقيقة؟ ماذا يعمل؟".

"إنه موظف مساعد في معمل تكرير قصب السكر في المقاطعة. ستعيش لاكشمي كالمملكة معه. إذاً هل أبدأ مفاوضاتي مع عائلته؟ هل آخذ بركات دورغا كي أحرك العملية قُدماً؟".
"بالطبع، من دون أي تأخير".

تقدم إلينا لاجوانتي وجبة طعام ممتازة ذلك المساء، مؤلفة من أرغفة الخبز غير المخمر والمقلية بالزيت النباتي، الكاجوريات، البطاطا، العدس، وموتار بانير⁽¹⁾، على أطباق فولاذ نظيفة جداً يمكن استخدامها أيضاً كمرايا. أشعر تقريباً بالذنب بسبب أكلتي طبخها الخالي من كل عيب، قلقاً من احتمال أن تصاب أطباقها بالخدش، لا أملك نفسي من أن أسألها: "لاجوانتي، كيف تنجحين بجعل منزلك مرتباً جداً ونظيفاً جداً؟ هل تحتفظين بخادمة؟".

تقدّر ملاحظتي. "لا تمزح معي. كيف تستطيع الخادمة أن تستخدم خادمة؟ أنا من يجعل هذا المنزل في نظام ممتاز. كانت هذه عادتي منذ الطفولة. لا أستطيع الإقامة في منزل غير نظيف. تبدأ أصابعي توخزي في اللحظة التي أرى فيها ذرة قذارة على الأرض، قطعة طعام ملتصقة بمائدة الطعام أو غضناً على ملاءة السرير. اعتادت والدي أن تقول: لاجوانتي لا تستطيع أن تتحمل حتى ورقة تبرز بصورة غير صحيحة من شجرة. لهذا السبب فإن الصاحبة راني سعيدة جداً معي. اسمعها مصادفةً تقول لزوجها الصاحب المفوض ذات يوم أن لاجوانتي أفضل خادمة عملت لديها وأنها لن تسمح لي بترك العمل عندها".
تبتسم بابتهاج ينم عن الزهو.

(1) موتار بانير muttar paneer: طعام منكه بالكاري. يتألف من البازيلاء والحلوم؛ وهو ضرب من الجبن الأبيض. هذه الأكلة شائعة ومطلوبة كثيراً في المطاعم الهندية - م.

"أجل، أوافقك الرأي، لا بد أنك أكفأ خادمة في العالم بأسره.
إنما الأفضل ألا تزوري حجرتي، وإلا ستمرضين".
يوافق شانكار كذلك على أن لاجواني هي الأعظم.
"Q Gkrz Gxesxipg" يقول بابتسامة عريضة فرحة.

آخر زبائني الدائمين اليوم أربعة طلبة جامعيين أثرياء من دلهي.
إنهم مجموعة شابة، صحابة بسر اويل جينز ونظارات شمسية مستوردة
يدلون بملاحظات وقحة عن تاج محل، ينخسون أضلاع أحدهم الآخر
باستمرار، ويطلقون نكاتاً فاحشةً. في نهاية الجولة الموجهة لم يمنحوني
فقط أجرتي إنما بقشيشاً دسماً أيضاً. بعدها دعوني إلى الانضمام إليهم
لتمضية ليلة في شاحنتهم المقفلة الصغيرة التي يقودها سائق. "أيها الدليل
راجو، تعال معنا، سنمنحك وقت حياتك"، يتوسلون إليّ. أرفض في
بادئ الأمر، لكنهم يصرون وأنا مدين جداً لهم ببقشيشهم السخي
بحيث إنني لا أقدر أن أقول لا. أقفز إلى الشاحنة.

نذهب أولاً إلى فندق القلعة. هذه هي أول زيارة لي في حياتي
كلها إلى فندق ذي خمسة نجوم. أجلس في مطعمه مكيف الهواء،
وتسحري ثرياته الوامضة، المضاءة إضاءةً مريحة للنظر، والنُدُل المرتدين
بزات مميزة، والموسيقى الخفيفة المعزوفة على الآلات، والزبائن حسنو
الهندام الذين ينضحون ثروةً وتأثيراً، الرجال يتكلمون بنبرات صوت
منخفضة حميمة، والنساء أشبه بدمى رقيقة. الطعام يسيل له اللعاب.
أحد الغلمان يمرر إليّ لائحة الأطعمة والمشروبات. "الآن، راجو. اطلب
ما يحلو لك". ألقى نظرةً على اللائحة، وأكاد أختنق لدى رؤية
الأسعار. طبق الدجاج بالزبد يكلف ستمائة روبية! عند كشك على
جانب الطريق بالقرب من المبنى الملحق أستطيع أن أشتري الشيء نفسه

بخمسة وخمسين روبية لا غير. لكنني أدرك أنك هنا لا تدفع ببساطة عن ثمن الطعام، بل تدفع عن المحيط أيضاً. الطلاب يطلبون عملياً كل شيء في لائحة الأطعمة والمشروبات وزجاجتين من الشراب.

إن رؤية هذا البذخ كله تجعلني مضطرباً ومرتبكاً. في مومباي، سالم وأنا نتطفل على أعراس الأغنياء من أجل الطعام الجاني، لكننا لا نحسدكم على ثروتكم. غير أن رؤية طلاب الجامعة الأثرياء هؤلاء ينفقون المال كما لو كان ورقاً، يجعلني أحس إحساساً جديداً كلياً، الإحساس بالعوز. تقرصني المقارنة مع حياتي الشخصية الناقصة بقوة الأذى الجسدي. ليس من الغرابة، أن يذوي جوعي ويموت، بالرغم من أكذاس الأطباق المغرية الموضوعة على مائدتي. أدرك وقتذاك أنني تغيرت. وأسائل نفسي كيف تكون الحال حينما تغادر الرغبات لأنك أشبعها كلها، خنقتها بالمال حتى قبل أن تولد. هل الحياة من دون رغبة مرغوبة جداً؟ وهل إن فقر الرغبة أفضل من منزلة الفقر نفسها؟ أفكر في هذه المسائل، لكنني لا أصل إلى أجوبة مقنعة.

بعد أن تناولوا كفايةً من الطعام وشربوا كفايةً من الشراب، يطلب مني الطلاب أن أقفز إلى الشاحنة المقفلة الصغيرة مرة أخرى.

أسأل: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

"سترى"، يقولون ويضحكون.

يأخذنا السائق عبر شوارع ضيقة، وأسواق مزدحمة صوب ضواحي أغرا. يدخل في الختام قرية ذات مظهر غريب قرب الطريق السريع تُدعى بيساي موهالا. ثمة لوحة إعلانات في مدخلها تشير إلى: "ادخل منطقة الضوء الأحمر على مسؤوليتك الشخصية. تذكر دوماً أن تستخدم الواقي الذكري. امنع الإيدز. أنقذ الأرواح". لا أفهم الإشارة إلى الضوء الأحمر على لوحة الإعلانات، ليس ثمة أضواء حمراء على أي

من المنازل، على قدر ما أراه. هنالك ما لا يقل عن دزينة من سيارات متوقفة على طول الطريق. بعض الأطفال حفاة الأقدام يتسكعون في الشوارع؛ ليس ثمة علامة على أمهاتهم. الصوت الضعيف للموسيقى وخلاخيل الرقصات يطفو في جو الليل. في البعد، يمكنني أن أرى القبة. هالة المنائر الخاصة بتاج محل تومض تحت ضوء القمر الذهبي. هالة القمر ومنظر النصب الرخامي تصبغان حتى هذه الرقعة القذرة من الأكواخ وحيدة - وثنائية - الطابق بقليل من غبار الذهب.

يترجل طلاب الجامعة من شاحنتهم المقفلة، ويتوجهون صوب مجموعة من البنايات الصغيرة. أتردد، لكنهم يجرونني. أرى الآن أن المنطقة تزدحم بالناس. رجال ذوو مظهر وضيع يلبسون قمصان طويلة يتسكعون أمام المنازل، ماضعين أوراق التبول. أرى فتيات في أعمار شتى يجلسن على الدرجات يلبسن فقط التنانير التحتانية والبلوزات، ويضعن مكياجاً سيئاً ومجوهرات. بعضهن يرسلن إلينا نظرات تعال إلى هنا ويقمن بإيماءات بذئنة وموحية بأصابعهن. الآن أفهم ما هي منطقة الضوء الأحمر. إنه المكان الذي تعمل فيه الساقطات. سمعتُ عن وجود طريق فالكلاندا في مومباي وطريق GB في دلهي، إلا أنني لم أرَ فعلاً منطقة ضوء أحمر. ولم أكن حتى أعرف أن ثمة واحدة من هذه المناطق في أغرا. هذه في الحقيقة ستثبت في النهاية إنها ليلة ذات تجربة جديدة بالنسبة إليّ.

يدلف الطلاب إلى داخل منزل كبير، ذي طبقتين، يبدو أقل قذارةً من المنازل الأخرى، متأكدين من أنني معهم. ندخل ردهة، نقودنا منها مجازات ضيقة إلى مجموعات من الحجرات الصغيرة.

يلتقينا رجل. هو شاب، ذو وجه مليء بالندوب وعينين مراوغتين. يقول: "مرحباً بكم، أيها النبلاء، لقد أتيتم إلى المكان الصحيح. لدينا...".

يتشاور معه الطلاب، ويتفاوضون حول السعر. رزمة من الأوراق تبادلتها الأيدي. "لقد دفعنا عنك أيضاً، راجو. اذهب على نفقتنا"، يقولون، قبل أن يختفي كل واحد منهم في حجرة مع فتاة ما. تركوني وحيداً في الردهة. تأتي الآن امرأة عجوز تمضغ البآن وتأخذني معها. أتبعها مرتقياً مجموعة من درجات السلم. تقف أمام باب خشبي أخضر، وتقول لي أن أدخل بعدها، بخطوات متعبة، تمضي عائدة وتنزل السلم.

لا أستطيع أن أقرر هل أدخل الحجرة أم أعود إلى الشاحنة المقفلة الصغيرة. أحد أجزاء دماغي يقول لي أن أغادر المكان فوراً إنما الجزء الآخر يجبرني على البقاء، مساقاً من قبل فضول جنوبي تقريباً. في الأفلام الهندية شاهدتُ أن البطلة الساقطة هي بصورة محتومة فتاة طيبة القلب أرغمت على هذه المهنة عكس مشيئتها. في نهاية الفيلم على الأغلب تنتحر بتناول السم. أسائل نفسي هل جيء بي إلى هنا لغرض ما؟ هل ثمة بطلة تنتظري خلف الباب؟ هل أنا بطلها، الذي من المفروض أن ينقذها من المحنة. هل أستطيع تغيير النهاية وأحول دون موتها؟

أدفع الباب، فيفتح، وأدخل الحجرة.

إنها حجرة صغيرة، ذات سرير في الوسط. بشكل من الأشكال الأشياء المحيطة به لم تلفت انتباهي أبداً. تنجذب عيناى فقط إلى الفتاة الجالسة على الفراش بسار وردي صارخ. هي داكنة البشرة وجميلة، ذات عينين مكسوتين بالكحل محبتين إلى القلب، شفتين مصبوغتين مغريتين وشعر أسود طويل مجدول ذي أزاهير بيضاء فوّاحة. تضع على وجهها كمية مفرطة من مستحضرات التجميل وذراعاها وعنقها مزينة بالجواهر.

تقول: "هالو. تعال واجلس هنا معي على السرير". تنبعث الكلمات من فمها كما تنبعث الألحان الموسيقية من بيانو. أدنو منها على مضض. تشعر هي بترددي وتبتسم. "لا تقلق. لن أعضك".

أجلس بالقرب منها على السرير. ألاحظ أن ملاءة السرير قدرة نوعاً ما، عليها لطخات وبقع غريبة. تقول: "أنتَ جديد على هذا. ما اسمك؟". "رام محمد توم - لا، لا... راجو شارما"، أرد، ممسكاً نفسي في الوقت المناسب.

"يبدو أنكَ نسيتَ اسمكَ على مدى ثانية".
 "كلا - كلا على الإطلاق. ما اسمك؟".
 "نيتا".

"نيتا ماذا؟".

"ماذا تعني؟".

"عنيْتُ ما هو اسمك الكامل؟ أليس لديك لقب؟".

تقهقه. "لقد أتيتَ إلى ماخور، أيها الصاحب، وليس إلى مكتب زواج. الفتيات هنا لا يملكن ألقاب، على غرار القبط والكلاب المدللة، نحن نُدعى فقط بأسمائنا الأولى. نيتا، ريتا، آشا، جامبا، مينا، لين، اختر ما شئتَ من الأسماء". تقول هذا بنبرة واقعية من دون أي ضغينة أو ندم.

"إذاً أنتَ ساقطة؟".

تضحك مجدداً. "أنتَ شخص غريب. معذرةً بابا، حين تأتي إلى بيساي موهاالا لن تلتقي سوى الساقطات. أنتَ بالتأكيد لن تلتقي أملك وأخواتك في هذا الجزء من أغرا!".

"كم يبلغ عمرك؟".

"الآن هذا سؤال له صلة أكثر بالموضوع. أنا في السابعة عشرة. لا تقل لي إنك تريد واحدةً أصغر سنًا. أنتَ نفسك لا تبدو بالنسبة إليّ غلاماً يزيد عمره على ستة عشر عاماً".

"أنا أيضاً في السابعة عشرة. قولي لي، كم مضى على ممارستك هذا العمل؟".

"ما الفرق؟".

"ألا تقلقين من احتمال أن تصابي بمرض ما؟ هنالك لوحة إعلانات في المدخل تحذر من الإيدز".

تضحك من جديد ضحكةً جوفاء، فارغة. "انظر، هذه مهنة بالنسبة إليّ، وليست هواية. إنها تعطيني كفايتي كي أطعم نفسي وأفراد أسرتي كلها. لو لم أفعل هذا، لما ت عائلتي من الجوع منذ زمن طويل جداً. نحن نعرف عن الإيدز. إنما من الأفضل أن نموت من المرض غداً على أن نموت من الجوع اليوم، ألا توافقني؟ الآن هل ستستمر في طرح الأسئلة أم أنك ستفعل شيئاً ما؟ لا تلومني لاحقاً إذا ما انتهى وقتك، وأدخل شيام زبوناً آخر. أنا مطلوبة جداً".

"من هو شيام هذا؟".

"إنه قوادي الذي أعطيته المال: الآن تعال...".

"لا. مهلاً. أود أن أطرح عليك أسئلة أخرى".

"معذرةً، هل أتيت إلى هنا كي تتكلم؟ أنتَ على غرار ذلك المراسل الصحفي الغربي الذي جاء إلى هنا مع آلة التسجيل الشريطي والكاميرا خاصته. قال إنه ليس مولعاً بي وإنه فقط يقوم ببحث ما. لكنني لحظة... حتى نسي كل ما يتعلق ببحثه. الأصوات الوحيدة على مسجله الشريطي ستكون... دعني أرَ ما إذا كنتَ مثله".

بالفعل كنت مثله.

في ما بعد، حين كنا نستلقي جنباً إلى جنب تحت مروحة السقف الكسيحة وقد ساهمتُ أيضاً في إضافة لطخة إلى ملءة السرير القذرة. أتشنق عقب الأزاهير في شعرها الأسود الفاحم وأقبلها بطريقة غير متقنة. تقول لي: "لماذا لم تخبرني أنها تجربتك الأولى؟ لكنك أكثر وداعةً معك. إنما انصرف الآن، انتهى وقتك". تنهض من السرير فجأةً، وتبدأ بجمع قطع ثيابها.

تزعجني فظاظتها المباغثة. قبل خمس دقائق كنتُ عشيقها، لكن الآن أنا مجرد زبون انتهى وقته. أدرك حينذاك أن اللحظة قد مرّت حقيقةً. انتهت الدهشة، وأن الرغبة لم تعد تعميني، أرى الحجرة بألوانها الواقعية. أرى جهاز فيديو كاسيت عتيق الطراز على طاولة جانبية، مربوطاً إلى نقطة الكهرباء الرئيسة بسلك أسود قبيح. أرى الجدران العفنة ذات الطلاء المقشر. أرى الستارة الممزقة والحمراء التي بهتَ لونها عند النافذة. أرى البقع على الملاءة والثقوب في الفراش. أشعر بحكة طفيفة، ناجمة على الأرجح من العث الذي يغزو السرير. أشم الرائحة الفاسدة، العفنة للحجرة. كل شيء الآن يبدو قذراً ورتيئاً. مستلقياً على سرير متسخ، أشعر بأنني ملوثٌ ونجس. أنا، أيضاً، أنهض وبسرعة أجمع ملابسي.

"ماذا عن بقشيشي؟" تسألني، وهي تلبس بلوزتها من جديد. أخرج ورقة مالية من فئة الخمسين روبية من محفظة الجيب خاصتي وأسلمها إليها. تدسها بعرفان جميل داخل بلوزتها.

تسألني: "هل ستأتي مجدداً؟".

"لا" أجيبها، وأغادر بعجالة.

لكن يبدو الجواب نعم سأتي مجدداً.

ثمة خوف من داء الكلب في المدينة. مات أطفال كثيرون بعد أن عضتهم كلاب مصابة. قسم الصحة ينصح المواطنين بأن يكونوا محترسين بصورة مفرطة وأن يتخذوا خطوات وقائية. أحذر شانكار: "كن يقظاً حين تذهب إلى الخارج. لا تقترب من أي كلب. فهمت؟".
يومئ شانكار برأسه.

جاء اليوم دور بيهاري الإسكافي. إنه الشخص الوحيد الذي لم يطلب مني النقود حتى الآن. "راجو، طفلي ناھي عليل جداً، وقد أدخل عيادة الدكتور أغار وال الخاصة. يقول الطبيب إنه يلزمي أن أشتري الأدوية حالاً، وهي تكلف مبلغاً طائلاً. استطعتُ أن أجمع أربعمئة روبية حتى الآن. من فضلك هل تقدر أن تقرضني شيئاً ما؟ أتوسل إليك".

أمنح بيهاري مائتي روبية، عارفاً بأنني لن أسترجعها. لكنه مع ذلك غير قادر على شراء الأدوية كلها. بعد يومين، يتوفى ناھي ابن السنوات الست في العيادة.

مساء ذلك اليوم، يرجع بيهاري إلى المبنى الملحق مع جثة ابنه المغطاة بكفن أبيض. هو سكران بجلاء، ويسير بخطوات غير مستقرة. يضع جثة ابنه في وسط الفناء المكسو بكبار الحصى، قرب الصنبور الحلي، ويدعو الجميع من حجراتهم. بعدها يبدأ مونولوجاً مليئاً بدم غير واضح. لا يشتم أحداً بصورة خاصة ومع ذلك يشتم الجميع. يشتم الأغنياء الذين يسكنون في بيوتهم الفخمة ولا يبالون بالفقراء الذين يخدمونهم. يشتم الحكومة التي تعطي وعوداً على الورق فقط. يشتمنا كلنا لأننا متفرجون خرس. يشتم أطفاله لأنهم ولدوا. يشتم نفسه لأنه لا يزال حياً. يشتم العالم، تاج محل، الإمبراطور شاه جهان. حتى

المصباح الكهربائي المعلق خارج منزله، الذي مسّه يوماً ما بتياره لناهي، بعد نصف ساعة من اللوم والمجوم القاسيين والمتواصلين، ينهار على الأرض ويبدأ بالنشيج. يحمل ابنه الميت في ذراعيه، ويكي إلى أن تجف دموعه، إلى أن يضعف صوته.

في حجرتي الخاصة، أستلقي على سريري، وأفكر في شرو الحياة. تخطر ببالي صور ناھي الصغير وهو يمرح في المبنى الملحق. وأريد أن أبكي، لكن العبرات ترفض الجريان من عيني. رأيتُ جثثاً كثيرةً. لذا أجزّ الملاءة البيضاء المجددة فوق رأسي وأخلد إلى النوم.

أزور نيتا مجدداً بعد أسبوع. هذه المرة ينبغي لي أن أدفع الأجرة الكاملة لشيام. ثلاثمائة روبية.
"إذاً هل تحبين مهنتك؟" أسألها.

"لماذا؟ ما هو الخطأ في الأمر؟ إنها مهنة، كأى مهنة أخرى".
"لكن هل تحبينها؟".

"أجل. إنها تحبني مالاً كافياً كي أعيّل به أسرتي. وأستطيع أن أرى فيلماً جديداً في دار العرض كل يوم جمعة. ماذا تريد الفتاة أكثر من ذلك؟".

أنظر في عينيها الشبيهتين بعينيّ المها، وأعرف أنها تكذب. هي ممثلة تمثل دوراً. عدا أنها لم تحصل على أى جائزة من الجوائز، على غرار نيلما كوماري.

كلما تبدو نيتا لغزاً أصعب، أغدو متلهفاً أكثر لمعرفتها. تشير توقاً في داخلي مثلاً لم يفعل أى شيء جرّبه من قبل. أريد الآن أن أدخل عقلها. لذا أبدأ بزيارتها في أيام الاثنين حين يكون تاج محل مغلقاً. بعد أربع أو خمس زيارات أُنجح أخيراً في تحطيم دفاعاتها.

تخبرني أنها فتاة من قبيلة بيديا من مقاطعة بهابند في مادهايا براديش. والداها لا يزالان على قيد الحياة ولها أخ، وأخت متزوجة زواجاً سعيداً. في مجتمعها، ثمة تقليد أن تعمل فتاة واحدة من كل أسرة مثل عملها، تُدعى بدني. هذه الفتاة تكسب المال من أجل أسرتها، في ما يمضي الذكور وقتهم في الشرب ولعب الورق. "لهذا السبب فإن ولادة البنت هي مناسبة للاحتفال في مجتمعنا، وليس سبباً للكآبة. الولد هو، في الواقع، عائق. يمكنك أن تجد البدنيات اللواتي ينحدرن من قريتي في المواقير، مواقف الشاحنات، فنادق ومطاعم الطرقات الخارجية، كلهن يبعن أجسادهن من أجل النقود".

"لكن لماذا اختارتك أمك؟ كان في وسعها أن تختار أختك".
تطلق نيتا ضحكة جوفاء. "لأن جمالي أصبح لعنة. والدتي لها الحق في أن تقرر أي واحدة من ابنتيها تتزوج وأيهما تعمل. اختارتني كي أصبح بدني. ربما لو كنتُ قبيحة المنظر، كشقيقي ما كانت لترسلني إلى هذا المكان. ربما كنتُ سأذهب إلى المدرسة؟ أتزوج ويكون لدي أطفال. هذا هو الثمن الذي يجب عليّ أن أدفعه لقاء جمالي. إذاً لا تدعوني جميلة".

"ومنذ متى وأنت في هذه المهنة؟".

"منذ بلوغني. ما إن ينتهي احتفال ناثي يوترنا لإزالة حلقة الأنف وطقس سار داهكوانا لتغطية الرأس، يكون قدرك أن تكون امرأة. لذا في سن الثانية عشرة، بيعت عذريتي بالزاد لأعلى المزايدين وبدأت العمل".
"لكن يقيناً لو كنت تريدين لهجرت هذه المهنة وتزوجت، ألا تقدرين؟".

"من الذي يتزوج مثلي؟ من المفروض بنا أن نعمل إلى أن تبدأ أجسادنا بالضعف أو إلى أن نموت بسبب المرض".

"أعرف أنك ستجدين أميرك ذات يوم"، أوضح، والدموع تترقق في عيني.
لم تقبل مني أي بقشيش ذلك اليوم.

أتذكر في ما بعد حوارني مع نيتا، وأسأل نفسي لماذا كذبتُ عليها. في الحقيقة، لا أريدها أن تعثر على أي أمير آخر. من دون أن أعرف، وقعتُ في غرامها.

حتى الآن، مفهومي عن الحب استند كلياً على ما شاهدته في الأفلام الهندية، حيث يكون بين البطل والبطة اتصال بالعيون واندفاع سريع، كيمياء من نوع غريب تجعل فؤادهما يخفقان وحباهما الصوتية ترن، وما تراه لاحقاً منهما هو أنهما ينطلقان لينشدا الأغاني في القرى السويسرية والمراكز التجارية الأميركية. حسبتُ أنني جربتُ وميض الحب ذاك الذي يعمي الأبصار حين التقيت الفتاة التي ترتدي السروال والقميص الأزرقين في مقصورة القطار تلك. غير أن الحب الحقيقي زارني فقط ذلك الشتاء في أغرا. وأدركتُ مجدداً أن الحياة الحقيقية مختلفة جداً عن حياة البكرة⁽¹⁾. الحب لا يحدث في لحظة، إنه يزحف إليك، ومن ثم يقلب حياتك رأساً على عقب. إنه يُلَوِّن لحظات صحوك ويملأ أحلامك. تبدأين بالمشي في الهواء، وترين الحياة بدرجات لونية جديدة مشرقة. لكنّه يجلب معه أيضاً كرباً عذياً، عذاباً لذيذاً. أُحتزلت حياتي إلى لقاءات محمومة مع نيتا واللهفة الشديدة إليها بين هذه اللقاءات. زارتنِي في أغرب الأماكن، وأغرب اللحظات. تصورتُ وجهها الجميل حتى حين كنتُ أُلقي ما يمكن أن نسميه على سبيل التندر محاضرة على سائح

(1) البكرة reel: يقصد المؤلف الحياة الحقيقية تختلف عن حياة الفيلم السينمائي الذي يُلف على بكرة - م.

فأري منهك، في الثمانين من عمره. شمتُ شذا شعرها حتى حين أجلس على مقعد المرحاض خاصتي. يقشع بدني وأنا أفكر فيها حتى حين أشتري البطاطا والطماطم من سوق الخضار. وقد عرفتُ في أعماق قلبي أنها أميري. كان الطموح الحارق لحياتي هو أن أتزوجها ذات يوم. كان القلق المتلف في حياتي هو هل ستوافق على عرضي؟

تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض إلى المبنى الملحق. يترجل منها ضابط شرطة وشرطيان. يترنح فؤادي. عقدة باردة من الخوف تتشكل في تجويف معدني. أخيراً، أدركتني جرائم. هذا أسلوب حياتي. فقط حين أبدأ بالشعور أنني في ذروة الأشياء، يسحب القدر البساط من تحت قدمي. لذا من المتوقع أنني حين أكتشف الحب الحقيقي، يجب أن يأخذوني إلى المعتقل حيث، على غرار الإمبراطور شاه جهان، سأجلس في مختلى، وأتوق توقاً شديداً لنيتنا، ممتاز محل خاصتي.

يخرج ضابط الشرطة مكبر صوت. أتوقع منه أن يقول: "ليخرج رام محمد توماس، المدعو راجو شارما ويدها في الهواء" لكنه يقول بدلاً من ذلك: "ليخرج جميع نزلاء المبنى الملحق؟ حصلت عملية سطو في بنك أغرا ولدينا سبب كي نعتقد أن اللص هنا. عليّ أن أقوم بتفتيش المبنى". حين أسمع هذا أشعر أن عبئاً ثقيلاً رفع عن قلبي. أنا سعيد جداً، وددت الخروج، ومعانقة ضابط الشرطة.

يدخل الشرطيان كل حجرة من الحجرات بالتوالي، ويقومان بتفتيش شامل. يأتيان إلى حجرتي ويسألانني عن اسمي، عمري، مهنتي، ما إذا شاهدتُ أي شخصيات مشبوهة تختبئ في المنطقة. لا أحبرهم أنني مرشد سياحي غير مرخص. أقول إنني طالب في الجامعة وإنني جديّد على المبنى الملحق. هذا الجواب يقنعهم. ينظرون تحت سريري،

يختلسون النظر إلى المطبخ، يرتبون على القدور والمقالي، يقبلون الفراش، ومن ثم يتحركون إلى الحجرة المجاورة. ينضم ضابط الشرطة إلى رجليه. هم الآن في حجرة شانكار.

"نعم، ما اسمك؟" يسأل ضابط الشرطة شانكار بفضفاضة.

"Hu Ixhz Qo Odxifxn" يجيب شانكار؟

"ماذا؟ هل يمكنك أن تعيد ذلك؟".

".Odxifxn".

"أيها الحقيير، هل تضحك عليّ؟" يقول ضابط الشرطة بغضب، ويرفع هراوته كي يضرب شانكار.

أُتدخل بسرعة. "أيها/الصاحب ضابط الشرطة، شانكار لديه مشكلة عقلية. لا يقدر أن يتكلم".

"إذاً لماذا لم تقل هذا من قبل؟" يلتفت إلى رجلي الشرطة. "دعونا نذهب إلى الحجرة التالية. لن نحصل على شيء من شخص مجنون".

يفتشون الحجرات الثلاثين كلها خلال الساعات الثلاث التالية، وفي الختام يكتشفون مجباً للعملة في غرفة الشاعر الملتحي، الذي زعم أنه كاتب أغان لبوليوود. جميعنا نندهش لدى اكتشافنا أن شاعرنا الشاب هو كذلك سارق بنك في جزء من ساعات اليوم. وهذا الأمر يكشف أن المظاهر يمكن أن تكون خادعة. حسن، حرفيو المبنى الملحق سيصابون بصدمة إذا اكتشفوا ما يتعلق بماضي المتفاوت.

تأتي لاجواني إلى حجرتي كي تقدم بعض العوامات⁽¹⁾ الطازجة سهلة التفتت من معبد دورغا القريب. هي فرحة جداً.

(1) العوامات laddoos: حلوى باكستانية وهندية تصنع من الطحين ومكونات أخرى تغمس في عصير السكر - م.

"معدرة، لاجواني، ما هي مناسبة هذه الحلوى؟ هل نلت ترقية؟"
أسأها.

"هذا هو أسعد يوم في حياتي. بركات دورغا، وافق الموظف على الزواج من لاکشمي. الآن ستحيا شقيقي كالمملكة. سأعد لعرس يضاهي الأعراس كلها".

"لكن ماذا عن المهر؟ هل طالبت أسرة العريس بأي شيء؟".
"لا، أبداً. إنهم عائلة كريمة جداً. هم لا يريدون أي مبلغ من المال. طلبوا فقط بعض الأشياء الصغيرة جداً".
"مثل ماذا؟".

"دراجة نارية منخفضة من نوع باجاج، خلاطة من نوع سوميت، خمس بذلات رجالية من نوع رايموند وبعض المجوهرات الذهبية. على كل حال، سأعطي هذه الأشياء كلها إلى لاکشمي".
أنا مروّع. "لكن لاجواني، سيكلفك هذا مغلفاً من الأوراق المالية على الأقل مائة ألف روبية. من أين ستحصلين على هذا المال؟".
"كنت أدخر المال من أجل عرس لاکشمي. لقد ادخرت خمسين ألف روبية تقريباً. وسأقترض خمسين ألف أخرى من الصاحبة راني".
"هل أنت متأكدة من أنها ستقرضك مبلغاً طائلاً كهذا؟".
"بالطبع. أنا أفضل خادمة عملت لديها حتى الآن".
"حسن، حظاً سعيداً إذاً".

أواصل اللقاء بنيتا، غير أن الجو في مكان عملها يخفقني. وأمقت التعامل مع القواد شيام ذي العينين المراوغتين. لذا بناء على اقتراح من نيتا نبدأ باللقاء في الخارج. تذهب وحيدة لمشاهدة الأفلام كل يوم جمعة. أنضم إليها. هي تحب الفشار. اشتري لها علبة كبيرة، ونجلس معاً

في الصف الأخير من أكاش تولكريز الداكنة والقدرة. تأكل الفشار وتقفه حين أدس يدي في مكان ما. عند نهاية الفيلم أخرج من الصالة متوهجاً، لا أدري ما إذا شاهدتُ دراما عائلية، كوميدياً أو فيلماً مثيراً. لأنني لا أنظر إلا إلى نيتا، وآمل أن تتحول قصتنا نحن الاثنين ببطء إنما بصورة مؤكدة إلى رواية رومنسية ملحمية.

يدخل شانكار إلى حجرتي باكياً.

أسأله: "ماذا جرى؟".

يشير إلى ركبته. إنها مجروحة ومرضوضة. في الحال أصبح قلقاً. "كيف أوديت، شانكار؟ هل سقطت على الأرض؟".

يهز شانكار رأسه نفيًا. يقول: "X Akc Wqp Hz".

لأول مرة، أرغب في أن يكون بمسقطه أن يتكلم كلاماً معقولاً.

"أنا آسف، لا أفهم. لماذا لا تخرج وتريني كيف أوديت؟".

يأخذني شانكار إلى الخارج، ويشير إلى المكان الذي يتصل به الفناء المرصوف بكبار الحصى بالطريق الرئيس. هنالك حاجز في الزاوية، يتقافز فوقه أولاد المبني الملحق دوماً.

يقول شانكار ويشير إلى ركبته:

"Yxi Ukj Ozz Pdxp Akc ? Dq Wqp Hz Dznz".

أتبع اتجاه الإصبع، وأومئ برأسي علامة الفهم. أحسب أنه حتماً قفز عن الحاجز وكشط نفسه. "تعال، لاجواني تملك علبة طبية في حجرها. سأجعلها تضع ضمادة على جرحك".

اخفق في رؤية كلب الشارع الصغير الأجرب ذي البقع السوداء الذي يلهث فوق الرصيف المكسو بكبار الحصى أسفل الحاجز تماماً، اللعاب يقطر من أسنانه البيضاء الحادة.

بدأت سنةً جديدةً، جالبةً معها آمنيات جديدة وأحلاماً جديدةً. نيتا وأنا نصبح في الثامنة عشرة، العمر الرسمي للزواج. لأول مرة، أبدأ بالتفكير في المستقبل وبنيتا إلى جانبي. توقفتُ عن إقراض النقود للناس الساكنين في المبنى الملحق. أحتاج إلى كل قرش الآن.

اليوم جمعة، وكذلك ليلة البدر، في أحيان نادرة جداً تتوافق هاتان. أقنع نيتا ألا تذهب إلى صالة السينما، وبدلاً من ذلك أن ترافقني إلى تاج محل. نجلس على قاعدة العمود الرخامية في ساعة متأخرة من المساء، وننتظر ريثما يزرغ القمر وراء دفق النافورات وصفوف أشجار السرو داكنة الخضرة. في البداية يأتي وميض من الفضة عبر الأشجار الشاهقة الواقعة على يميننا، فيما يكافح القمر لاختراق مجموعة المباني المنخفضة وأوراق الأشجار، وبعدها، فجأة، يرتفع بصورة مهيبه في السماء. ستارة الليل أُرِيحت جانباً ويقف تاج محل مكشوفاً بكل بهائه. نيتا وأنا ممتلآن بالرهبة. يبدو التاج رائعاً. نشبك أيدينا، غافلين عن حشود السياح الأجانب الذين دفع كل منهم خمسين دولاراً لامتياز مشاهدة تاج محل على ضوء البدر.

أحدّق إلى التاج، ومن ثم أحدّق إلى نيتا. جمال التاج يكاد لا يقارن بجمال وجهها الخالي من العيوب. وتأخذ الدموع بالانهيار من عينيّ لأن كل الحب الذي حبسته في فؤادي أوصدتُ دونه الأبواب على مدى ثمانية عشر عاماً طويلاً ينبثق الآن باندفاع صاحب. أشعر بتحرر عاطفي أشبه بانفجار مفاجئ لخزان، وأجرب لأول مرة ما شعر به حتماً الإمبراطور شاه جهان نحو ممتاز محل.

هذه هي اللحظة التي كنتُ أنتظرها طيلة سنوات حياتي وقد تمرنتُ من أجلها جيداً. الشاعر الملتحي، ترك لي كتاباً من الشعر قبل ذهابه إلى السجن، وقد حفظتُ عن ظهر قلب أشعاراً رومانسية كثيرة.

في تفجر من الإلهام، كتب الشاعر غزلاً أصيلاً في مدح نيتا، من أجل
أن أستخدمه أنا. تقول قصيدته الغزلية:

جمالك إكسير،
وهب اليتيم حياةً،
ملتاعاً سأموت، من القبر سأصرخ
هل تتنازلين كي تصبحي زوجتي؟

أتذكر أيضاً حوارات من قصص الحب الشفافة الشهيرة. إنما
جالساً مع نيتا تحت تاج محل المضاء بنور القمر، أهجر عالم الشعر
والأفلام. أتطلع في عينيها، وأسألها ببساطة: "هل تحبينني؟" وترد عليّ
بكلمة واحدة فقط. "نعم". تلك الكلمة الوحيدة بالنسبة إليّ تحمل
معنى أكثر من كتب الشعر كلها وكل كتب هداية السياح المتعلقة
بأغرا. وحين أسمعها يثب قلبي فرحاً. حبي الهائل ينسلخ
متحرراً من الأرض، يتخذ له أجنحةً، ويخلق في السماء، كطائرة
ورقية. وبعدها، لأول مرة يبدو لي تاج محل أشبه بمنزل نابض
بالحيوية بدلاً من كونه ضريحاً موضوعياً، البدر فوق رأسينا يصبح
قمرأً صناعياً شخصياً، يشع بضوء خاص، ونحس أننا مباركان كوننا
نستحم بوجهه.

يأتي شانكار راكشاً إلى غرفتي Ykhz Mjqyfgu. Gxesqipq
"qo ynuqic"، ويأخذني إلى حجرة لاجواني.

لاجواني تبكي في سريرها. تنهمر الدموع من عينيها كلالئ
صغيرة وتسود قماش ملاءة سريرها عديمة الغضون الذي يبدو غير

ملائم في الترتيب البسيط لحجرتها. أسألتها: "ما هي المشكلة، لاجواني؟ لماذا تنتحين؟".

"بسبب تلك الكلبة سوابنا ديفي. رفضت أن تعطيني قرضاً. الآن كيف سأدفع تكاليف عرس شقيقتي؟" تقول وتنتحب من جديد.

"انظري، ما من أحد في المبنى الملحق يملك ذلك المبلغ من المال. ألا تستطيعين أن تحصلي على قرض من مصرف ما؟".

"هوه، أي مصرف هذا الذي يقرض خادمةً مسكينةً مثلي؟ كلا، الآن لديّ بديل واحد فقط".

"ما هو؟ أن تلغي عرس شقيقتك؟"

يومض الغضب في عينيها. "لا. لن أفعل ذلك. ربما سأفعل ما فعله شاعرنا نجمي. أن أسرق النقود".

أقفز عن كرسي. "هل جنت، لاجواني؟ لا تفكري في هذا الأمر. ألم تري كيف اعتقلت الشرطة نجمي".

"ذلك لأن نجمي غبي. لديّ خطة سهلة جداً، سأخبرك بها لأنك على غرار أخي الأصغر سناً. لا تذكر هذا لأحد، ولا حتى لسانكار. كما تعرف، لقد شاهدتُ موقع الخزنة التي تخبئ فيها سوابنا كل حاجياتها النفيسة. في حجرة نومها ثمة رسم ضخّم مؤطر على الجدار الأيسر. خلف الرسم ثمة حفرة دُفنت فيها خزنة من فولاذ. تحتفظ بمفاتيح الخزنة تحت فراشها، في الزاوية اليسرى. لاحظتها سرّاً وهي تفتح الخزنة ذات يوم. إنها مليئة بالنقود والمجوهرات. لن أنهب النقود، لأن ذلك سيتم اكتشافه حالاً، لكنني أفكر في سرقة قلادة. لديها مصوغات ذهبية كثيرة في تلك الخزنة، حتى إنها لن تلاحظ اختفاءها. ما رأيك؟".

"لاجواني، لاجواني، أصغي إليّ. إذا كنت تعدينني أخاك، إذاً اتبعني نصيحتي. لا تفكري في هذا الأمر. كوني واثقةً، لديّ مشاكل

كثيرة مع القانون، وأعرف أن فعلتك ستلحقك في نهاية المطاف. وبعدها، بدلاً من أن تساهمي في عرس شقيقتك، ستشحذين طاحونة في معتقل ما".

تقول مشمئزّة: "أوه، أنتم الرجال كلكم مخثنون. لا أبالي بما تقول. سأفعل ما ينبغي لي أن أفعله".

بيأس، أرجع إلى عملي النقدية القديمة الموثوق بها. "انظري، لاجواني، إذا لم تصدقيني، فهذا شيء جيد. إنما ثقي بقدرة هذه العملة العجيبة. إنما لن تجعلك تسلكين الطريق غير الصحيحة. إذا دعينا نرى ماذا تقول. سأقذفها بإظفري. إذا سقطت على وجهها، لن تنفذي خطتك، وإذا سقطت على قفاها، تفعلين ما يحلو لك. حسن؟".

"حسن".

أقذف قطعة النقد بإظفري. تسقط على وجهها. تنتهد لاجواني. "يبدو أنه حتى الحظ يقف ضدي. حسن، سأبعم وجهي شطر قريتي كي أجمع الموارد المالية من الزعيم، الذي يعرفني. انس كلامنا المتعلق بالسرقة".

بعد ثلاثة أيام تقفل لاجواني حجرها، تأخذ إجازة مدتها أسبوع، وتغادر إلى قريتها.

أقول لنيता: "أريدك أن تكفي عن العمل".

توافق نيता. "لا أريد أن أموت قبل أن أبلغ العشرين على غرار رادها. خذني بعيداً من هنا، راجو".

"سأفعل. هل يلزمني أن أتحدث مع شيام بخصوص هذا الموضوع؟".

"أجل، علينا أن نأخذ موافقته.

تحدثتُ إلى القوَّاد في أمسية ذلك اليوم. "انظر شيام، أنا مغرم بنيتا وأريد أن أتزوجها. لن تعمل مجدداً".

يتفحصني شيام بنظراته صعوداً ونزولاً كما لو كنتُ حشرةً. "إذاً أنتَ الذي أودعتَ في دماغها كل هذه الآراء المجنونة. أصغي إليّ، لا أحد يقول لنيتا توقفي عن العمل. أنا وحدي من يستطيع أن يقول لها ذلك. ولا أريدها أن تتوقف عن العمل. إنها الإوزة التي تبيض ذهاباً. وأريد أن يستمر البيض زمناً طويلاً جداً، جداً".

"ذلك يعني أنك لن تسمح لها بالزواج؟".

"يمكنني أن أسمح لها بالزواج، إنما في حالة واحدة فقط. هي أن يعرض عليّ من سيتزوجها خسارتي من توقفها عن العمل".

"وكم هي خسارتك المخمّنة؟".

"النقل... أربعمائة ألف روبية. هل يمكنكُ أن تعطيني ذلك المال؟" يضحك ويطردني.

أدقق مدخراتي مساء ذلك اليوم. لديّ ما مجموعه 480 روبية. عندي نقص مقداره ثلاثمائة وتسعة وتسعون ألفاً وخمسمائة وعشرون روبية.

أشعر بغضب شديد بحيث تحدوني الرغبة في أن أخنق القوَّاد. أقول لنيتا في اليوم التالي: "شيام لن يوافق على زواجك مني. خيارنا الوحيد هو الهرب".

تقول نيتا بخوف: "كلا. سيعثرون علينا. حاولت جامبا أن تهرب السنة الماضية مع رجل. وجدوها، كسروا ساقي الرجل وجوّعوها على مدى عشرة أيام".

"في تلك الحالة ينبغي لي فقط أن أقتل شيام"، أقول وفي عيني ومضة حقد.

تقول نيتا: "كلا. عديني ألا تفعل ذلك".
أصاب بالدهشة. "لكن لماذا؟".
"لأن شيام أخي".

تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض إلى المبنى الملحق. يترجل منها شرطيان. هذه المرة ثمة ضابط شرطة جديد. يتم استدعاؤنا من جديد. "أصغوا، كلكم عديمو القيمة، حدث شيء خطير. أحدهم سرق قلادة زمرد نفسية جداً من منزل سوابنا ديفي. لدي شك قوي أن اللص هو واحد منكم. لذا أعطيكُم فرصة كي تعترفوا بكل شيء، بخلاف ذلك حين أمسك باللص سأضربه بالسياط".

في الحال قلقتُ على لاجواني، لكنني حين أرى القفل على باب حجرتها وأتذكر أنها في قريتها، أطلق تنهيدة ارتياح. إنه شيء جيد أنها تخلت عن تلك الفكرة السخيفة المتعلقة بسرقة قلادة. كانت تعتقد أن سوابنا لن نتنبه لفقدانها، وها هم الآن رجال الشرطة يأتون للبحث عنها.

يستم استجوابنا واحداً واحداً. حين يأتي دور شانكار، يتم تمثيل المشهد نفسه.

يسأله المفتش: "الاسم؟".

يجيب شانكار: "Odxifxn".

"ماذا تقول؟".

"Q Oxqa Hu Ixhz Qo Odxifxn".

"ابن الساقطة، حاول أن تتصرف بذكاء معي..." يقول ضابط الشرطة من خلال أسنانه التي تُحدث صريراً. أشرح له من جديد، فيلين. ويترك شانكار.

هذه المرة يذهب رجال الشرطة خالي الوفاض، من دون أي قلادة ومن دون أي مشتبه به.
في مساء ذلك اليوم يموت كلب شارع صغير أجرب ذو بقع سوداء قرب تاج محل. لا أحد يهتم لأمره.

ترجع لاجواني من قريتها اليوم التالي ويتم اعتقالها فوراً. يجرها شرطي مبلل بالعرق من حجرتها إلى الجيب ذات الضوء الأحمر الوامض. تبكي بصورة لا عزاء لها.
بصورة عاجزة أرى المشهد يتضح تدريجياً. أنا مع عبدول، الذي يعمل بستانياً في قصر سوابنا.

"عبدول، لماذا تعتقل الشرطة لاجواني؟ لماذا لا تفعل الصاحبة راني شيئاً؟ بالرغم من كل شيء، لاجواني هي أفضل خادمة عملت لديها".

يبتسم عبدول ابتسامة عريضة. "المدام نفسها هي التي استدعت الشرطة ليلقوا القبض على لاجواني".
"لكن ما السبب؟".

"لأن لاجواني سرقت القلادة من خزانةها. الشرطة فتشوا منزلها في القرية ووجدوها اليوم".

"لكن كيف عرفت سوابنا ديفي أن لاجواني هي التي سرقت القلادة؟ إنها حتى لم تكن هنا حين حدثت السرقة".

"لأنها تركت وراءها علامة. أنت تعرف، أنها لم تذهب إلى قريتها مباشرة. لقد مكثت في أغرا، وانتظرت فرصة كي تخترق المنزل من دون أن ينتبه إليها أحد. حين دخلت أخيراً حجرة النوم كي تنهب القلادة، كانت المدام في حفلة. لكنها قبيل مغادرتها المنزل إلى الحفلة،

مشطت المدام شعرها وهي جالسة على السرير وكان هناك عدد قليل من دبايسها ومشابكها ملقاة على ملاءة السرير الساتان. حين عادت المدام في ساعة متأخرة من الليل، اكتشفت أن كل دبايسها ومشابكها مرتبة بشكل جيد على مزينتها. هذا الأمر نبهها حالاً. تفحصت خزنتها الفولاذية ووجدت أن قلادة ما مفقودة. لذا عرفت فوراً أن لاجواني هي التي فعلت ذلك ولا أحد سواها.

أضع إهامي على جبيني. لم تستطع لاجواني أن تمنع نفسها من أن تكون الخادمة المثالية، حتى وهي تسرق!

أحاول أن ألتمس الرحمة من سوابنا ديفي لمصلحة لاجواني، لكنها توبخني بازدراء جليدي. "لست مؤسسة خيرية. لماذا وجب عليها أن ترتب عرساً مبذراً كهذا لشقيقتها؟ أنتم القوم الفقراء يجب ألا تمدوا أرجلكم أكثر مما يسمح بذلك بساطكم. ابقوا ضمن حدودكم ولن تواجهوا أي مشكلة".

أشعر بضغينة أصيلة نحوها ذلك اليوم. لكنها ربما تكون على صواب. اقترفت لاجواني الخطأ الفادح في محاولتها عبور الخط الفاصل بين حياة الأغنياء وحياة الفقراء. ارتكبت الغلطة القاتلة في الحلم أكثر مما يجب. كلما كان الحلم أكبر تكون خيبة الأمل كذلك. لهذا السبب لسي أحلام صغيرة، طيبة. مثل الزواج من نيتا بعد أن أدفع لشقيقتها القواد غير الشريف أربعمئة ألف روبية. فقط.

ما كدت أشفى من اعتقال لاجواني حتى تصيبني تراجيديا أخرى. يأتي شانكار إلى حجرتي وهو يسعل ويتهاوى على السرير. يبدو متعباً ويعاني من الألم في ذراعية وركبتيه. يقول: "Q Xh oqyf"، ويشير بيديه.

ألمس جبينه، وأجد أن لدية حمى خفيفة. أقول له: "لقد أخذت برداً، شانكار. اذهب إلى حجرتك واسترح، سأوافيك حالاً وأعطيك بعض الأدوية". ينهض من الفراش، ويسير على رؤوس أصابعه إلى حجرته. يبدو قلقاً ومضطرباً.

في وقت لاحق من تلك الليلة، أعطي شانكار بعض المسكنات، إلا أن حالته تستمر في التردّي. في اليوم الثاني تصبح حالته أسوأ. إنه غير قادر على تحريك ذراعه، ويصرخ حين يُفتح الضوء. بصعوبة بالغة أستطيع أن أقيس حرارته، وأصاب بصدمة حين أكتشف أنها تجاوزت إلى 103 درجة فهرنهايت. أخرج حالاً وأستدعي طبيباً. الطبيب الذي يعمل في مستوصف حكومي يرفض صراحةً أن يأتي معي، لذا أنا مرغم على الذهاب إلى طبيب خاص. يطلب مني ثمانين روبية كي يأتي إلى المبنى الملحق. يفحص شانكار، ويسألني ما إذا رأيتُ عليه أي جروح أو رضوض حديثة. أخبره عن الركبة المكشّطة. يومئ الطبيب برأسه، ويعلن تشخيصه. شانكار أُصيب بداء الكَلْب؛ ربما من كلب مسعور. كان يلزمه أن يأخذ سلسلةً من الحقن المكوّنة من لقاح الخلية المضاعفة البشري وإمبونو غلوبولين الخاص بداء الكَلْب البشري حال إصابته بالعدوى، إنما الآن فات الأوان. حالته خطيرة جداً. سيبدأ حالاً بكره الماء. ربما يُبدي علامات احتياج وتشوش وربما يكون لديه هلوسات. ربما سيصاب بتشنجات عضلية ونوبات مرضية. وربما سيتوقف عن الكلام كلياً حين تصاب الحبال الصوتية بالشلل. في الختام، سينزلق إلى الغيبوبة، ويتوقف عن التنفس. بلغة بسيطة، سيموت. وكل هذا في بحر ثمان وأربعين ساعة.

يشرح الطبيب فهرس الرعب هذا بطريقته الطبيعية جانب سرير الغلام المحتضر. أنا مدّمر كلياً. حتى مجرد التفكير في موت شانكار

يستقطر الدمع من عينيّ. أتوسل إليه قائلاً: "دكتور، هل ثمة شيء مهما كان يمكننا أن نقوم به كي ننقذ شانكار؟".

يتلعثم الطبيب. "حسن. ما من شيء إلا أنه منذ شهر قيل لي إن ثمة لقاحاً تجريبياً جديداً من أميركا تم توريده توأً إلى الهند. يُدعى رابكيور وهو متوفر فقط في صيدلية جوبتا".

"تلك الواقعة في راكاب غانج".

"نعم. لكنني لا أعتقد أنك تقدر على شرائه".

أسأل بقلب ضعيف: "كم ثمنه؟".

"أربعمائة ألف روبية تقريباً".

أتأمل سخرية الموقف. تتطلب معالجة شانكار أربعمائة ألف روبية، وقوادم نيتا كذلك طلب هذا المبلغ بالضبط. ولديّ المبلغ السخي الذي مقداره أربعمائة روبية في جيبي.

لا أدري من أين سأحصل على المال اللازم لمعالجة شانكار، لكنني أعرف أنه لا يمكن تركه وحيداً، لذا أقرر أن آخذه إلى حجرتي. أحمله بين ذراعيّ. بالرغم من أنه كان في سني تقريباً، يبدو جسده عديم الوزن. يده وساقاه تتدلى بارتخاء إلى جانبه، وأشعر كما لو أنني لا أحمل شخصاً حياً إنما كيساً من البطاطا. أضع شانكار على سريرتي، وأستلقي على الأرض، على عكس ما فعله لي قبل سنتين، مع أنهما تبدوان الآن أشبه بعشرين سنة.

شانكار يتقلّب على فراشه، وينام بصورة متشنجة. أنا كذلك أعيش ليلة صعبة، تتخلل نومي كوابيس عن كلاب مسعورة وأطفال لا يتكلمون إلا بمقاطع لفظية هوائية. ومن ثم، على حين غرة، في منتصف الليل، يترأى لي أنني أسمع "مومي، مومي" يصرخ بها بصوت عالٍ. أفيق من نومي، وأجد شانكار نائماً بسلام. أدعك

عينيّ، وأسائل نفسي ما إذا تقاطع حلم شانكار بصورة غير متوقعة مع حلمي.

يمضي شانكار كل ساعات اليوم التالي طريح الفراش، يغدو أضعف فأضعف. أعرف أنه يحتضر، لكنني أظاهر أنه لا يملك شيئاً أكثر من حالة خفيفة من الزكام. ينفطر فؤادي عندما أرى وجهه الوديّع، وعندما أتخيل أنني لن أراه مجدداً. حتى مقاطعه اللفظية عديمة المعنى تبدو اليوم كمقولات عميقة المغزى يجب أن يحفظها المرء عن ظهر قلب.

يحل الليل، وتبدأ التشنجات في ذراعيّ شانكار. كان يعاني من صعوبة شرب السوائل، تناولَ رغيف خبز واحد مع العدس، طبقه المفضل. يتوهج جبينه. أقيس حرارته، وأجد أنها ارتفعت فجأة إلى 105 درجة فهرنهايت. يقول: "Q Akip SXip Pk Aqe, Nxcj"، ويبدأ بالبكاء. أحاول أن أريجه قدر استطاعتي، إنما من العسير أن تمنحي القوة لشخص آخر حين تحسّن أنتِ نفسك أنك خاوية تماماً من الداخل.

أنام متشنجاً من جديد، تعذبني ذكريات أيامي الماضية. في الهزيع الأخير من تلك الليلة، حين كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية، أسمع صوتاً آتياً من سرير شانكار، كما لو أن شخصاً ما يئن. أنهض ببطء، وأنا لا أزال في وضع غير سوي. أتطلع إلى وجه شانكار. عيناه مغمضتان، إلا أن شفّتيه تتحركان. أجهّد نفسي كي أسمع ما الذي يتمم به، وأكاد أقفز خارجاً من جلدي. لأنني أقسم إن شانكار يقول: "مومي، أرجوك لا تضربيني".

أندفع بعجالة إلى سريرهِ. "شانكار! شانكار! لقد قلتَ تَوْأ شيئاً ما، أليس كذلك؟".

إلا أن شانكار غافل عني تماماً، ضائع في عالمه الخاص. عيناه تدوران إلى الأعلى ومن الجلي أنه مصاب بهذيان الحمى. يتقلص صدره كما لو كان في حالة تشنج، ويسيل البلغم من فمه. يغمغم: "ماما، لماذا رميتني؟ أنا متأسف، كان يجب أن أضرب، كيف كنتُ سأعرف أن عمي معك في الداخل؟ أحبك، ماما. أرسم صورتك. دفتر يومياتي الأزرق مليء بالصور. صورتك. أحبك ماما. أحبك حباً جماً. لا تضربي، ماما. أعدك بأنني لن أخبر أحداً، ماما، ماما، ماما...".

يتكلم شانكار بصوت طفل في سن السادسة. لقد ارتد إلى زمن منسي من أمد بعيد. إلى زمن حينما كانت له أم. إلى زمن حين كانت لحياته، ولكلماته، معنىً. لا أدري كيف استطاع فجأة أن يتكلم بصورة مُدركة وممكن فهمها في حين قال الطبيب إنه سيتوقف عن التحدث كلياً. إنما لا تراودني الرغبة في اكتشاف السبب. ينبغي على المرء ألا يسأل عند حدوث أعجوبة.

ذلك هو كل ما أسمعه من شانكار تلك الليلة، وحين يستيقظ من النوم صباح اليوم التالي يصبح نفس الغلام بالأعوام الستة عشر الذي يتحدث بمقاطع لفظية عديمة المعنى. لكنني أتذكر إشارته إلى دفتر مذكرات أزرق. أفتش غرفته، وأجده مخبأً تحت سريره.

يضم الدفتر صفحات مهلهلة من ورق الرسم، كلها تحوي رسوماً جميلةً بقلم الرصاص لامرأة. الرسوم دقيقة جداً، حتى آخر تفصيل. لكنني أقف متحجراً ليس بسبب الجودة الفائقة للرسوم، بل بسبب هوية موضوعها. لأن المرأة في الصور كلها هي سوابنا ديفي.

"شانكار، أعرف ما كنتَ تخفيه عني طيلة هذه المدة"، أقول لشانكار، وأنا أحمل عالياً دفتر اليوميات الأزرق.

تتسع عيناه بخوف، ويحاول أن يسحب الدفتر من يديّ، يصرخ قائلاً:

"Cqrz Hz Wxyf Hu Aqynu".

"شانكار، أعرف أنه شيء حقيقي. أعتقد أنك اكتشفت سرها القذر ولهذا السبب رمتك خارج المنزل. وحينذاك فقدت قدرتك على التكلم كغلام طبيعي. أعتقد أن أمك عاشت مع هذا الإثم طيلة سنوات حياتها. ربما لهذا السبب تدفع بدل إيجار غرفتك وتعطيك المال. لكنني سأذهب إلى أمك الآن حالاً، كي أطلب منها أن تدفع ثمن علاجك".

يصرخ قائلاً: "Ik Ik Ik Lgzxoz Akip Ck Ck Pk Hu" "Hjhuhu" لكنني كنت قد انطلقت متجهاً إلى قصر سوابنا كي أتحدث قلباً لقلب مع صاحبة راني.

ترفض صاحبة راني لقائي في بداية الأمر، زاعمة أنها تلتقي الناس بحسب المواعيد فقط. أعسكر عند عتبة منزلها طيلة ساعتين، إلى أن تلين أخيراً.

"نعم، لماذا أتيت لتزعجني؟" تسألني بغطرسة.

أقول بوجهها: "أعرف سرّك، سوابنا ديفي. لقد اكتشفت أن شانكار هو ابنك".

ينزلق قناعها الملكي لحظةً، ويغدو وجهها شاحباً، لكنها تستجمع رباطة جأشها بالسرعة نفسها ويعود سلوكها المتعجرف ليحمدني بازدراء. "أنت أيها الولد عديم القيمة، كيف تجرؤ على التفوه بهذا الزعم السفيف؟ ليس لي أي علاقة بشانكار. لجرد أنني أبديت النزر اليسير من التعاطف نحو ذلك الصبي، جعلت منه ابني؟ اخرج من هنا الآن حالاً، وإلا سأرميك خارجاً".

أقول لها: "سأنصرف. إنما بعد أن أجمع أربعمئة ألف روية له. احتاج إلى المال لمعالجة شانكار. لقد أصابته عدوى داء الكلب".
تصبح بقوة: "هل جنت؟ تعتقد أنني سأعطيك أربعمئة ألف روية؟".

"لكنني إذا لم أحصل على المال، سيموت شانكار من جراء داء الكلب خلال أربع وعشرين ساعة".

"لا أكثر بما تفعل، إنما لا تقلقي". بعدها تقول أكبر الكلمات حقداً سمعتُ أماً تقولها طيلة حياتي كلها. "ربما من الأفضل أن يموت. سيتخلص الصبي المسكين من بؤسه. ولا تجسر على تكرار تلك الكذبة أمام أي شخص بخصوص كونه ابني". تغلق الباب.

أقف عند عتبة منزلها وعيناها تذرفان دموعاً غزيرة. ربما كنتُ على الأقل محظوظاً بدرجة كافية عندما رمتني أُمي عند الولادة، لكن شانكار المسكين تنبذه أُمه في منتصف الطريق خلال حياته، وهي الآن ترفض أن تحرك ساكناً كي تمنع موته الوشيك.

أعود إلى حجرة شانكار بقلب مثقل بالهم. كلمات سوابنا ديفي ترن في أذني بقوة كضربة مطرقة. تريد هي أن يموت شانكار ككلب مسعور. في أي وقت مضى لم يكدرني فقري بهذا القدر مثلما هو فاعل الآن. كم تمنيتُ أن يكون في وسعي أن أشرح للكلب الذي عضَّ شانكار أنه قبل العض كان يجب عليه أن يتأكد ما إذا كان الشخص الذي كان يهاجمه قادراً على شراء اللقاح".

اليوم التالي، أقوم بشيء لم أفعله على مدى عقد من الزمن. أذهب وأتضرع في دور العبادة كلها التي ينم اسمي على أنني من اتباع ديانتها. إلا أن كل تضرعاتي لم تثمر، فطيلة النهار يبقى شانكار في كرب، والألم يلزمه عملياً في أوصال بدنه كلها. يصبح تنفسه غير منتظم بصورة أكثر.

يرخي الليل سدوله. إنه بلا قمر، إنما لا يبدو الأمر كذلك في المبنى الملحق بسبب الوهج المنعكس من آلاف المصابيح التي أنارت قصر سوابنا كشمعة عملاقة. ثم حفلة في القصر. جاء مفوض الشرطة، فضلاً عن حاكم المقاطعة، وجمهرة من رجال الأعمال، وشخصيات المجتمع البارزة، والصحفيين والكتاب. صوت الموسيقى الخفيفة والقهقهات يصل إلى المبنى الملحق. نسمع صلصلة كؤوس الشراب الفرنسي، وصدى المناقشات، وخشخشة النقود. في غرفتي يخيم سكون غريب، لا يكسره سوى تنفس شانكار الذي يجري بمشقة. كل نصف ساعة أو نحو ذلك ترهق جسده التقلصات. إلا أنه كان منزعجاً جداً من الضيق في حنجرته، حيث تكون لعاب لزج، دبق، مسبباً له إزعاجاً كبيراً. الآن يصاب بالتشنج حتى لدى رؤيته كوب ماء⁽¹⁾. كما أن أدنى نسمة هواء تسفر عن النتيجة ذاتها.

من بين الأمراض الكثيرة التي يمكن أن يموت بسببها المرء، ربما داء الكلب الهايدروفوبيا هو الأكثر ضراوة، حيث الماء، الذي من المفروض أن يهب الحياة، يصبح سبباً للموت. حتى المريض المصاب بالسرطان قادر على أن يعلل نفسه بالأمل، أما المريض المصاب بداء الكلب فلا أمل له ولا رجاء.

وأنا أشاهد موت شانكار البطيء، أستطيع فقط أن أتصور أن سوابنا ديفي حتماً امرأة عديمة الشفقة كلياً، كي تسمح لابنها أن يموت بهذه الطريقة المروعة فيما هي تقيم حفلة في منزلها. من حسن حظي أنني رميتُ مسدس كولت ذاك في النهر، بخلاف ذلك لكنتُ اقترفتُ بالتأكد جريمة قتل أخرى هذه الليلة.

(1) المصاب بداء الكلب ينتابه الخوف من الماء. لذلك يسمى هذا المرض بالإنكليزية hydrophobia - م.

فيما يتقدم الليل، تتكرر تشنجات شانكار أكثر، يصرخ بكرب، ويبدأ يزد من فمه. أعرف أن النهاية باتت وشيكةً.

في النهاية يموت شانكار عند الثانية عشرة وسبع وأربعين دقيقة ظهراً. قبيل وفاته، كانت له لحظة أخرى ممكنة الفهم. يمسك بيدي ويطلق كلمة واحدة، "راجو". بعدها يقبض على دفتره الأزرق ويبيكي، "ماما، ماما". ومن ثم يغمض عينيه إلى الأبد.

تصبح أغرا مدينة الموت. في غرفتي جثة وفي يدي دفتر أزرق: أقلب صفحات الدفتر من دون هدف ما، محققاً إلى تخطيطات قلم الرصاص لامرأة كانت أمّاً عديمة الشفقة. كلا، لن أسميها "أمّاً"، لأنني حين أقول ذلك فإنني أوجه الإهانة لكل الأمهات.

لا أدري كيف سيكون رد فعلي حيال موت شانكار. يمكنني أن أصرخ صراخاً حاداً وأن أصبح على غرار بيهاري. يمكنني أن أسب كل السلطات في الأرض. يمكنني أن أحطم باباً، أرمي بعض قطع الأثاث، أركل عمود مصباح. وبعدها سأهتار وأبكي. إنما اليوم، العبرات ترفض المجيء. غضب بطيء، متوهج يعتمل في أحشائي. أنتزع الصفحات من الدفتر وأمزقها طويلاً إلى قصاصات متناهية الصغر. ثم، على حين غرة، آخذ شانكار بين ذراعيّ، وأتقدم صوب القصر المضاء.

الحرس بالبذلات النظامية يسدون الطريق بوجهي، إلا أنهم حالما يرون الجثمان في يدي يفتحون البوابة بسرعة. أجتاز الطريق الخاص المقوّس، حيث اصطفت سيارات الضيوف المستوردة واحدة وراء الأخرى. أصل إلى المدخل المزخرف، وأجده مفتوحاً للترحيب. أجتاز الردهة الرخامية متجهاً صوب حجرة الطعام، حيث أواني تقديم الحلويات للضيوف. تتوقف الحوارات لحظة مشاهدتهم لي.

أصعد فوق سطح المائدة، وأضع جثة شانكار في الوسط، بين كعك الفانيлия وطاسة من حلوى إلارازاغولا. يقف النذل جامدين كالتمثيل. رجال الأعمال ذوو البذلات الأنيقة يسعلون ويتنحنحون بانزعاج في مقاعدهم. السيدات يمسكن بقلائدهن. حاكم المقاطعة ومفوض الشرطة يراقبانني بعيون قلقة. سوابنا ديفي، جالسة عند رأس المائدة، ترتدي ساريًا من الحرير السميك ومحملة بالمجوهرات، تبدو كما لو أنها تكاد تختنق. تحاول أن تفتح فمها، إلا أنها تجد حبالها الصوتية مشلولة. أنظر إليها مباشرةً بازدراء بقدر ما أستطيع أن أحشد وأقول.

"سيدة سوابنا ديفي، إذا كان هذا هو قصرك، وأنت ملكته، إذاً اعترفي بالأمير. أتيت كي أسلم جثمان ابنك كونمار شانكار سنغ غوتام إليك. لقد مات قبل نصف ساعة، في المبنى الملحق حيث أبقيته مخبأً طيلة هذه السنوات كلها. لم تدفعي ثمن علاجه، لم تؤدي واجب الأم. الآن اوفي بالتزامك بوصفك صاحبة القصر. من فضلك ادفعي أجور جنازة نزيلك الذي لا يملك من الدنيا شيئاً".

أقول قطعتي الأدبية، أومئ برأسي للضيوف الذين يراقبون المشهد بصمت وجمود، ويخرجون من القصر فاسد الهواء إلى الليل معتدل البرودة. قيل لي إن أحداً لم يتناول الحلوى ليلتها.

يؤثر في موت شانكار تأثيراً بالغاً. أنام، أبكي وأنام من جديد. انقطعت عن الذهاب إلى تاج محل، انقطعت عن لقاء نيتا، انقطعت عن مشاهدة الأفلام السينمائية. ضغطت زر توقف مؤقت على حياتي الخاصة. على مدى أسبوعين أو نحو ذلك بعد وفاة شانكار، أحوم حول أغرا كحيوان مجنون. يجديني شاكيل، الطالب الجامعي، أقف

خارج حجرة شانكار ذات مساء، محدقاً إلى قفل الباب كما يحدق السكير إلى زجاجة شراب اسكتلندي. يكتشفي بيهاري، الإسكافي، جالساً جانب الصنبور، والماء يقطر من عينيّ بدلاً من الصنبور. يلمحني عبدول، البستاني في قصر سوابنا أسير على رؤوس أصابعي حول المبنى الملحق كما أعتاد شانكار أن يفعل. في ذروة الشتاء، صارت المدينة بالنسبة إليّ صحراء حارة ومنعزلة. أحاول أن أضيق نفسي في وجودها الفوضوي. أحاول أن أصبح مقطعاً لفظياً عديم المعنى في ثرثرتها التي لا تنقطع، وكدتُ أفلح في أن أرسل نفسي إلى حالة غيبوبة.

حين أستيقظ من النوم، يكون الوقت متأخراً جداً. ثمة اتصال هاتفي في مكتب الاتصالات العمومي المحلي يأتي إليّ شاكيل راكضاً كي يخبرني. "راجو، راجو" اتصلت امرأة ما اسمها نيتا. تريدك أن تأتي إلى ردهة الطوارئ في مستشفى سغانيا الآن".

يثب فؤادي إلى حلقي حين أسمع هذا، وأركض الأميال الثلاثة كلها المفضية إلى مستشفى سغانيا. بشق النفس أتجنب الاصطدام بأحد الأطباء، وكدتُ أقلب عربةً، وأهاجم ردهة الطوارئ كضابط شرطة يقتحم موقعاً ما لدى حصول سطو مسلّح. "أين هي نيتا؟" أسأل ممرضة حائرة.

"أنا هنا راجو". يبدو صوت نيتا ضعيفاً. هي خلف حاجز مزود بستارة، تستلقي على عربة. ألقى نظرة واحدة عليها، وأكاد أفقد الوعي بسبب الصدمة. كانت لديها كدمات مزرقة في كل أنحاء وجهها، وكانت شفتاها ملتويتين بصورة خاصة، كما لو أن فكها قد أنتزع من موضعه. ثمة دم على اثنتين من أسنانها، وعينها اليسرى مسوّدة.

"من... من الذي فعل هذا بك؟" أسأله، وقلما أميز صوتي.

تعايني من صعوبة في التكلم. "إنه رجل من مومباي. بعثني شيام إلى غرفته في فندق القلعة. ربطني وفعل كل هذا بي، ما تراه على وجهي لا شيء، انظر ماذا فعل بجسدي".

تنقلب نيتا على جانبها، فأرى علامات الضرب الحمراء الغامقة على مؤخرتها الضامرة، كما لو أن أحدهم استخدم سوط حصان. ثم ترفع بلوزتها، وأكاد أموت من التأثر. ثمة علامات حروق سيجارة على كل صدرها، أشبه بآثار بثور الجدرى القبيحة على اللحم الأسمر الناعم لثديها. رأيتُ هذا من قبل.

بدأ دمي يغلي في عروقي. "من الذي فعل هذا بك. هل ذكر اسمه؟ سأقتله".

"لا أعرف اسمه، لكنه طويل و -".

يدخل شيام إلى الغرفة في هذه اللحظة، ممسكاً بعلبة دواء. يلقي عليّ نظرةً واحدةً ويغدو شديد الهياج. "أنتَ كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا؟ بسببك أنتَ حدث هذا كله لنيّتا".

أصرخ قائلاً: "هل جننت، شيام؟".

"كلا، أنتَ هو المجنون. أنتَ تعتقد أن نيتا هي ملكك، وكنتَ تقول لها أن تهجر المهنة وألا تخدم الزبائن بعد الآن. هل تعرف كم دفع هذا الشخص من مومباي لها؟ خمسة آلاف روبية. لكن شقيقي صدقتك؛ لا بد أنها تمنعت عنه وانظر ماذا حصل. الآن دعني أقول لك شيئاً. إذا أردتَ أن ترى نيتا مجدداً، إذاً تعال إليّ مع أربعمئة ألف روبية. إذا لم يكن في وسعك أن توفر هذا المبلغ، إذاً انسَ كل ما يتعلق بنيتا. إذا رأيتك تتسكع حول المستشفى، سأقتلك، هل تفهم؟ الآن اخرج من هنا".

كان في وسعي أن أقتل شيام في تلك اللحظة بالذات، أخنقه وأحبس أنفاسه، أو أقتلع عينيه بأظفري. لكنني تذكرتُ الوعد الذي

قطعته لنيّتا، وبشكل من الأشكال كظمت غيظي الذي يغلي في عروقي. لم أكن أطيق رؤية وجه نيّتا بعد الآن، وغادرتُ ردهة الطوارئ. عرفتُ شيئاً واحداً فحسب. بشكل من الأشكال عليّ أن أحصل على أربعمئة ألف روبية. إنما من أين؟

أعد خططي وانتظر مناسبةً ما حينما لا تكون سوابنا ديفي في منزلها. بعد ليلتين، أرى الصاحبة راني تؤخذ بسيارتها الكونتيسا إلى حفلة أخرى في المدينة، وأحترق الأرض المخصصة لقصر سوابنا عبر ثغرة في السور. شرحت لي لاجواني الطوبوغرافية المفصلة للمنزل ولا أملك أي صعوبة في تحديد موقع الشباك الذي يفتح على حجرة نوم سوابنا ديفي. أخلع النافذة، وأتسلل إلى حجرة نومها المترفة. ليس لدي الوقت كي أبدي إعجابي بسريرها الضخم المنحوت، المصنوع من خشب الجوز أو بمزيتها الساج. أفتش فقط عن رسم كبير مؤطر وأكتشفه على الجدار الأيسر. إنه رسم ذو ألوان زاهية لعدد من الجياد وموقع من قبل شخص يُدعى حسين. بسرعة أرفع الرسم من كلاله، وأكتشف حفرةً مربعة في الجدار دُفنت فيها خزانة من الفولاذ. أنظر تحت الزاوية اليسرى من الفراش، وأجد أنه لا وجود لمفتاح هناك. أفقد توازني بصورة مؤقتة، لكنني أتعافى حالاً حين أكتشف المفتاح في الزاوية اليمنى. المفتاح يلائم القفل بصورة مضبوطة ويتأرجح الباب الثقيل منفطحاً ببطء. أنظر داخل الخزانة، وأصاب بصدمة أخرى. إنها خالية عملياً. ليس ثمة قلائد من الزمرد ولا حتى أساور من الذهب. هنالك فقط أربعة أكداش خفيفة من الأوراق المالية، وبعض الوثائق القانونية وصورة بالأبيض والأسود لطفل يمشي بخطى قصيرة قلقة. ما كان يجب عليّ أن أنظر عن كثب كي أعرف أنها صورة شانكار. لم أشعر

بوخزات ضمير في ما يتعلق بالسرقة من الخزنة. أحشر الحزم الأربع في جيوبي، أغلق الخزنة، أعيد الرسم والمفتاح إلى موضعيهما الأصليين، وأغادر بالطريقة نفسها التي أتيتُ بها.

أسرع إلى غرفتي في المنزل الملحق، أقفل الباب خلفي، وأجلس كي أحصي مبلغ الغنيمة. الحزم الأربع يبلغ مجموعها ثلاثمائة وتسعة وتسعون ألفاً وثمانمائة وأربعة وأربعين روية. أنقب في جيوبي كلها وأجد مائة وستاً وخمسين روية. تكوّن معاً أربعمائة ألف روية بالضبط. يبدو أن دورغا منحتني بركاتهما.

أضع المال في كيس ورقي أسمر، أحمله بقوة بيدي اليمنى، وأشدّ الخطى صوب المستشفى. وفي ما أنا داخل إلى ردهة الطوارئ يصطدم بي رجل متوسط العمر، يضع نظارةً، ذو وجه غير حليق وشعر غير ممشط. أسقط على الأرضية المكسوة برقاقات المطاط وينزلق الكيس البني من قبضتي. تندفق الأوراق المالية بسرعة واختلاط من الكيس. يرى الرجل الأوراق المالية وتدخل عينيه ومضة مجنونة. يبدأ بالتقاط الأوراق المالية كطفل صغير مسرور. أجمد لثانية، مسألاً نفسي هل أرى تكراراً لحادثة السرقة في القطار؟ إنما بعد جمع الأوراق المالية كلها، يعيدها الرجل إليّ ويطوي كفيه. "هذا المال ملكك، لكنني أتوسل إليك، أخي، من فضلك أقرضني إياه. أنقذ حياة ابني. إنه لم يتجاوز السادسة عشرة. لا أستطيع أن أتحمّل رؤيته وهو يفارق الحياة"، يتوسل كالشحاذ.

بسرعة أحشر الأوراق المالية من جديد في الكيس الورقي الأسمر وأحاول أن أتخلص منه.

"ما هي قصة ابنك؟".

"لقد عضه كلب مسعور. هو مصاب الآن بداء الكلب. يقول الطبيب إنه سيموت هذه الليلة ما لم أستطيع شراء لقاح يُدعى رابكيور

المتوفر فقط في صيدلية جوبتا. لكنه يكلف أربعمئة ألف روبية وليس في وسع معلم مدرسة أن يجمع مبلغاً ضخماً كهذا. أعرف أنك تملك ذلك المبلغ، أيها الأخ. أتوسل إليك، أنقذ حياة ابني الوحيد وسأكون خادملك المطيع طيلة سنوات حياتي"، يقول ويشرع بالبكاء كالطفل الوليد.

"هذا المال أحتاج إليه لمعالجة إنسان عزيز عليّ جداً. أنا متأسف لا أستطيع أن أساعدك"، أقول له، وأدخل عبر الباب الزجاجي.

يركض الرجل ورائي ويمسك بقدمي. "أرجوك انتظر دقيقة، أخي. فقط شاهد هذه الصورة. هذا ابني. قل لي كيف سأحيا بقية أيام عمري إذا مات الليلة؟" يُبرز صورة فوتوغرافية ملونة لغلام نضر، جميل الطلعة. له عيان سوداوان معبرتان وترتسم على شفتيه بسمة دافئة. يذكرني بشانكار، وبسرعة أشيح بصري. "قلت لك، أنا متأسف أرجوك لا تزعجني"، أقول له وأحرر ساقَيَّ من ذراعيه.

لا أنظر ورائي كي أرى إذا كان لا يزال يلاحقني، لكنني أهرع إلى سرير نيتا. شيام ورجل آخر يجلسان على كرسيين كما لو كانا حارسين قبالة نيتا. إنهما يأكلان السمبوسات الموضوعة على صحيفة مبللة. يبدو أن نيتا نائمة. وجهها مغطى بأكمله بالضمادات.

"نعم؟" يقول شيام، وهو يلوك سمبوسةً. "لماذا أتيتَ يا ابن الساقطة؟".

"وفرتُ المال الذي طلبته مني. أربعمئة ألف روبية بالضبط. انظر". أريه حزم الأوراق المالية.

يصفر شيام. "من أين نَهَبْتَ هذا المال كله؟".

"لا دخل لك. أتيتُ لأخذ نيتا معي".

"نيتا ليست ذاهبة إلى أي مكان. يقول الأطباء إن شفاءها يستغرق أربعة شهور. وبما أنك مسؤول عن إصابتها، فالأفضل أن

تدفع أجور معالجتها أيضاً. إنها تحتاج إلى جراحة تجميلية. إنها تكلف الكثير، تكلفني نحو مائتي ألف روبية. لذا إذا كنت تريد نيتا حقيقةً عُد مع ستمائة ألف روبية، أو إن صديقي هنا سيتولى العناية بك".

يخرج الرجل الجالس إلى جانب شيام مديّة نابضية من جيبه ويديرها في أصابعه كالحلاق الذي يهتم بحلاقة لحية زبون. يتسم ابتسامةً عريضةً تنم عن ضعيفته، كاشفاً عن أسنان صبغها البآن.

أعرف وقتذاك أن نيتا لن تكون ملكي. شيام ذاك لن يطلق سراحها. حتى وإن جلبت بشكل من الأشكال ستمائة ألف روبية، فسيزيد شيام الطلب. يبدو أن دماغي يتحدر وأرى السواد يحيطني من الجهات كلها. هاجمني موجه غثيان بعنف. حين أستعيد عافيتي، أرى صحيفةً ملقاةً على الأرض. فيها إعلان يُظهر وجه رجل يتسم ابتسامةً عريضةً، ويحمل أوراقاً نقديةً عديدةً من فئة ألف روبية بين أصابعه. تحت الصورة ثمة تعليق يشير إلى: مرحباً بكم إلى أعظم برنامج في التلفاز. مرحباً بكم في W3B - من سيربح البليون؟ خطوط الهاتف مفتوحة. اتصل الآن أو اكتب إلينا كي ترى هل ستكون الفائز المحظوظ بأكبر جائزة على الأرض؟ أنظرُ إلى العنوان المذكور في الإعلان. يشير إلى: استوديوهات بریم، خار، مومباي.

أعرف في تلك اللحظة بأنني سأذهب إلى مومباي.

أخرج من ردهة الطوارئ كما لو كنتُ في حالة نشوة. الرائحة المعقمة للمستشفى لن تزعج حواسي بعد الآن. الرجل ذو النظارة لا يزال في الجاز. يتطلع إليّ بعينين طافحتين بالأمل، لكنه لا يحاول أن يبادرني الكلام هذه المرة. أغلب الظن لقد روّض نفسه على موت ابنه. الكيس الورقي الأسمر لا يزال في يدي. أومئ إليه. يأتي إليّ جاراً قدميه جراً، ككلب يتوقع عظماً. "الآن، خذ هذا". أسلمه الكيس. "داخله أربعمائة ألف روبية. اذهب وأنقذ حياة ابنك".

يأخذ الرجل الكيس، يتهاوى عند قدمي، ويبدأ بالبكاء. يقول لي: "أنت شخص عظيم".

أفهمه. "أنا مجرد مرشد سياحي صغير ذو أحلام كبيرة". أقول هذا، وأحاول أن أسير قُدماً، لكنه يسدّ طريقي مجدداً. يخرج محفظة جيب جلدية من جيبه وينتزع بطاقة. "المال الذي أعطيتني إياه دين في عنقي، هذه بطاقتي، سأعيده إليك في أقرب وقت ممكن، لكنني منذ هذه اللحظة خادمك".

"لا أعتقد أنني أحتاج إليك. في الحقيقة، لا أظن أنني سأحتاج إلى أي فرد في أغرا. إنني ذاهب إلى مومباي"، أقول له بشروء ذهن، وأدس البطاقة في جيب قميصي. ينظر إليّ الرجل مجدداً بعينين دامعتين، ثم يندفع خارجاً من المستشفى، راكضاً صوب راكاب غانج وصيدلية جوبتا التي تبقى مفتوحة طيلة الليل.

أهمُّ بالخروج من المستشفى حين تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض وتتأهب للوقوف. يثب منها ضابط شرطة وشرطي. رجلان آخران ييزغان من المقعد الخلفي عرفتهما فوراً. أحدهما حارس في قصر سوابنا والثاني عبدول، البستاني. يشير إليّ الحارس. "أيها /الصاحب ضابط الشرطة، هذا هو الغلام راجو. هو الذي سرق مال /الصاحبة راني". يعطي الضابط التعليمات لرجال الشرطة. "طالما أننا لم نجد شيئاً في حجرته، فإن النقود حتماً معه. فتشوا جيوب ابن الساقطة". يفتش رجالا الشرطة قميصي وسروالي. يجدان علبة صغيرة من العلكة الفقاعية، بعض حبوب الذرة وقطعة نقد من فئة روبية واحدة، التي يبدو أنها لم تعد جالبةً للنظر بعد الآن.

"أيها /الصاحب. ليس لديه نقود"، يردد أحد الشرطين.

"حقيقة؟ مع ذلك، لنأخذه إلى التحقيق. سنكتشف أين كان هذا المساء"، يقول الضابط بفظاظة.

"Ztyjoz Hz?" أجيب، شفتاي تلتويان بطريقة مشوّهة.
 "ماذا قلتَ الآن؟ لم أفهم ما قلته"، يقول الضابط، مرتبكاً بعض الشيء.

"Q Oxqa Ukj Xnz Xi Qaqkp".

"ما هذا المراء؟" يقول الضابط بغضب. "هل تحاول أن تهزأ مني، يا ابن الساقطة؟ سألقنك درساً". يرفع هراوته كي يضربني، لكن عبدول يتدخل. "أرجوك لا تضربه، أيها صاحب ضابط الشرطة. أصبح راجو محتلاً عقلياً منذ وفاه صديقة شانكار. اعتاد شانكار أيضاً أن يتكلم هكذا".

"آه، هل تلك هي الحالة؟ إذا لماذا تظنه مشتبهاً به؟ لن نحصل على أي شيء من مجنون. تعالا. لنذهب"، يومئ للشرطين. ثم يتطلع إليّ قائلاً: "متأسف على إزعاجك، يمكنك أن تذهب إلى البيت الآن".
 أقول: «Pdxif Ukj» وأضيف: «Pxif Ukj Rznu H jyd».

أنا جالس على سرير سميتا والدموع تسيل من عينيّ. تأخذ سميتا يدي بيدها، وتضغط عليها برفق. ألاحظ أن عينيها أيضاً يغشاهما الدمع. تقول: "شانكار المسكين. من خلال ما رويته لي يبدو أنه كان طفلاً متوحداً⁽¹⁾. يا للموت الفظيع الذي تحمله. توماس، لقد كابدت الجحيم حقيقةً. أنت لا تستحق كل ذلك الألم".

"لكن جحيمي أفضل من جحيم نيتا. فقط تخيلي ماذا كان يجب عليها أن تقاسيه منذ سن الثانية عشرة".

(1) مقوحد autistic: التوحد هو الاسترسال في التخيل تهرباً من الواقع - م.

تومى سميتا برأسها. "نعم، في وسعي أن أتخيل. هل لا تزال في أغرا؟".

"يجب أن تكون هناك، لكنني لا أستطيع أن أعرف بصورة مؤكدة. ليس لدي أخبار عنها منذ أربعة شهور خلت. لا أدري ما إذا كنت سأراها مجدداً".

"أنا على يقين من أنك ستراها. دعنا نرى السؤال قبل الأخير".

تشير لافتة الاستوديو إلى سكوت، إلا أن الجمهور يرفض الانتباه إليها. يشيرون إليّ ويثرثرون بفرح في ما بينهم. أنا النادل الغبي الذي كلّس مائة مليون روبية من سؤال واحد.

يخاطب بريم كومار آلة التصوير. "نتقل الآن إلى السؤال الحادي عشر بمائة مليون روبية. صدقوني إنني أقشعر بمجرد التفكير في هذا المبلغ. إذا، سيد توماس، هل أنت متوتر؟".

"كلا".

"ذلك مدهش. هو ذا أنت الآن، تقامر بمبلغ العشرة ملايين روبية التي ربحتها حتى الآن ولا تحس بذرة من القلق. تذكر، إذا أعطيتني إجابة غير صحيحة، ستفقد كل شيء. لكنك إذا أعطيتني إجابة صحيحة، سيكون مبلغ المائة مليون روبية ملكك. ما من أحد ربح هذا المبلغ الهائل حتى الآن، ولا حتى في اليانصيب. إذا دعنا نرى ما إذا بات صنع التاريخ وشيكاً، هنا تحديداً، الآن تحديداً. حسن، هنا يأتي السؤال الحادي عشر، وهو من عالم..." يتوقف بريم كومار توقفاً قصيراً من أجل التأثير الدرامي، من ثم يكمل الجملة... "الأدب الإنكليزي!" تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق.

"قل لي، توماس، هل لديك بعض المعرفة بالأدب الإنكليزي؟ هل طالعت الكتب الإنكليزية، المسرحيات، القصائد؟".

"حسن، في وسعي أن أتلو: خا خا خروف أسود، إذا كان ذلك هو ما تقصده بالشعر الإنكليزي".

يضحك الجمهور بصوت مرتفع.

"عليّ أن أعترف، أنني أملك شيئاً أكثر تعقيداً في عقلي، إنما لا يهم. لا بد أنك سمعت بشكسبير؟".

"شيك من؟".

"هل تعرف، بارد أفون، الكاتب المسرحي الأعظم في اللغة الإنكليزية؟ كم أتمنى أن يكون في وسعي العودة إلى أيام الكلية، حين كنت أمضي وقتي كله أمثل مسرحيات شكسبير. هل يتذكر أحد منكم هاملت الخاص به؟ أكون أو لا أكون؟ ذلك هو السؤال؟ أمن الأنبل للنفس أن يصير المرء على مقاليع الدهر اللئيم وسهامه أو يُشهر السلاح على بحر من الهموم، وبصدها ينهيها⁽¹⁾ إنما يكفي ما يتعلق بي. إنه السيد توماس الذي ينبغي له أن يجيب على السؤال التالي؛ وهو ذا يأتي، وهو بمبلغ هائل إلى حدٍّ لا يصدق مقداره مائة مليون روبية. في أي مسرحية من مسرحيات شكسبير نجد شخصية كوستارد؟ هل هي (أ) الملك لير، (ب) تاجر البندقية، (ج) مجهود الحب الضائع أم (د) عطيل؟".

تبدأ الموسيقى. أرسل نظرة خالية من المعنى إلى بريم كومار.

"قل لي، سيد توماس، هل لديك أدنى فكرة مهما كانت عما نتكلم عنه الآن؟".

(1) اعتمدنا ترجمة جبرا إبراهيم جبرا للاقتباس الوارد أعلاه من مسرحية هاملت، دار المأمون، بغداد 1986 - م.

"لا".

"لا؟ إذا ما الذي تنوي أن تفعله؟ عليك أن تعطي جواباً، حتى إذا اعتمد على قذف قطعة نقد بالإظفر. من يدري ربما يكون الحظ مستمراً إلى جانبك، فربما تهتدي إلى الإجابة الصحيحة وتربح مائة مليون روبية. إذا ما هو قرارك؟".

يصبح عقلي عقيماً. أعرف أنني وُضعتُ في موقع حرج أخيراً. أفكر على مدى ثلاثين ثانية، ومن ثم أقرر. "سأستخدم قارب نجاة". ينظر إليّ بريم كومار بفضول. يبدو أنه نسي أن هذه اللعبة تملك شيئاً يُسمى قاربي النجاة. يفرق بإصبعه متنبهاً أخيراً. "قارب نجاة؟ نعم، بالطبع، قاربا النجاة خاصتك موجودان. قل لي أيهما تريد أن تستخدم؟ يمكنك إما أن تطلب مني حذف إجابتين أو تذهب إلى فكرة مفيدة من صديق".

أنا مشوش الذهن مجدداً. من هو الذي التفت إليه كي يجب عن هذا السؤال؟ سالم مثلي ليس لديه أدنى فكرة. صاحب مشرب جيمي لديه وعي بشكسبير بقدر وعي السكران بالاتجاه. والأدب بعيد عن أذهان نزلاء دهارافي كبعد النزاهة عن أذهان الشرطة. فقط الأب تيموثي كان في وسعه أن ييدي لي المساعدة، في ما يتعلق بهذا السؤال، وهو الآن في عداد الأموات. هل ينبغي لي أن أطلب حذف إجابتين؟ أدخل أصابعي في جيب قميصي كي أخرج قطعة النقد القديمة والموثوق بها خاصتي، وأندesh حينما تمس أصابعي حافة بطاقة ما. أجر البطاقة. إنها بطاقة زيارة تشير إلى: "أوبتال جاترجي، معلم الإنكليزية، مدرسة القديس جون، أغرا" وفيها رقم هاتف. لم أفهم في بداية الأمر. لا أتذكر أي فرد بهذا الاسم ولا كيف دخلت هذه البطاقة إلى جيب قميصي. وبعدها، فجأة، أتذكر المشهد في المستشفى: الرجل ذو

النظارة، والشعر غير المشط الذي كان ابنه المصاب بداء الكلب يعاني سكرات الموت. تقلت من شفتي صرخة لإرادية. يسمعهها بريم كومار وينظر إليّ نظرة حادة. "أعذريني، ماذا قلت؟".

"قلتُ من فضلك هل يمكنك الاتصال بهذا الرجل النبيل؟" أسلم البطاقة إلى بريم كومار. "إنني استخدم قارب النجاة الخاص بفكرة مفيدة من صديق".

يقلب بريم كومار البطاقة في أصابعه. "إذاً أنت تعرف شخصاً ما يستطيع أن يساعدك في ما يتعلق بهذا السؤال". تبدو على وجهه نظرة قلقلة. يتصل مع المخرج بنظرات العين. ينشر المخرج ذراعيه. كلمتا قارب نجاة تومضان على الشاشة. نرى الرسوم المتحركة لقارب ينفجر في وسط البحر، ثم سباح ينادي طلباً للمساعدة ويرمى له طوق نجاة أحمر اللون. يلتقط بريم كومار هاتفاً عديم السلك من تحت مكتبه ويمرره إليّ. "هو ذا. اسأل من تريد، أيّ شخص تريد. لكن لديك دقيقتين فقط، وزمنك يبدأ"، ينظر إلى ساعة معصمه "... الآن!".

أخذ الهاتف، وأتصل بالرقم المكتوب في البطاقة. ينجح الاتصال، ويبدأ الهاتف الذي اتصل عبره بالرنين في أغرا. لكنه ببساطة يرن ويرن ويرن ولا أحد يرفعه. تمر نصف دقيقة. الترقب في الاستوديو يمكن قطعة بواسطة سكين. الجمهور يراقبني محبوس النفس. بالنسبة إليهم، أنا لا أختلف عن بهلوان في سيرك يؤدي ألعابيه على سلك عالٍ من دون شبكة أمان في الأسفل. حركة واحدة غير صحيحة منه تورده موارد الهلاك. تسعون ثانية أخرى وسأفقد مئة مليون روبية.

حين كدتُ أهني المكالمات الهاتفية، رفع شخص ما الهاتف. بقي لديّ الآن ما يزيد على الدقيقة. "هالو؟".

"هالو. هل أستطيع أن أكلم السيد أوبتال جاترجي؟".

"إنه يتحدث".

"سيد جاترجي. أنا رام محمد توماس".

"رام محمد... ماذا؟".

"توماس. ربما لا تعرف اسمي، لكنني ساعدتك في مستشفى

سنگانيا، حيث كان ابنك قد أدخل المستشفى. هل تتذكر؟".

"آه" بغتة تتغير النبرة كلياً. "كنت أفتش بصورة يائسة عنك طيلة

الشهور الأربعة الماضية حمداً لله على اتصالك الهاتفي. لقد أنقذت حياة

ابني، ليس لديك أدنى فكرة كم حاولت أن -".

أقاطعه. "سيد جاترجي، ليس لدي وقت طويل. أنا مشارك في

برنامج مسابقات وأحتاج إلى أن تجيب بسرعة عن سؤال موجه إلي".

"سؤال؟ نعم، بالطبع. أنا جاهز لكل ما تبغيه".

بقي الآن أقل من ثلاثين ثانية. العيون كلها ترصد عقارب الساعة

الجدارية، وهي تتحرك بنشاط معلنة مضي الثواني واحدة بعد الأخرى.

"قل لي، بسرعة شديدة، في أي واحدة من مسرحيات شكسبير

ثمة شخصية تُدعى كوستار؟ هل هي (أ) الملك لير، (ب) تاجر البندقية،

(ج) مجهود الحب الضائع أم (د) عطيل؟".

الثواني تتحرك وثمة صمت من جانب جاترجي.

"سيد جاترجي، هل يمكنك أن تخبرني الجواب؟".

بقي فقط خمس عشرة ثانية حين أجاب جاترجي: "لا أدري".

ذهلت. "ماذا؟".

"أنا متأسف، لا أعرف الجواب. بالأحرى، لست متيقناً لا أتذكر

هذه الشخصية في تاجر البندقية أو عطيل. إنما إما في الملك لير أو مجهود

الحب الضائع؛ لست متأكداً أيهما".

"لكنني لا أستطيع أن أعطي سوى جواب واحد".
 "إذاً اذهب إلى مجهود الحب الضائع. لكنني كما قلتُ لستُ
 متأكداً جداً. أنا متأسف، لا أستطيع أن أكون أكثر نفعاً".
 يقاطعه بريم كومار. "معذرة، سيد توماس، الدقيقتان المخصصتان
 لك انتهتا. أريد جوابك الآن".
 الموسيقى في الخلفية لم تعد تبدو مثرقة بعد الآن. إنها فاترة بصورة
 إيجابية. أمتغرق في تفكير عميق.
 "سيد توماس، ما مدى معرفتك بالسيد جاترجي هذا؟" يسألني
 بريم كومار.

"التقيت به مرة واحدة فقط".
 "وكم تبلغ كفاءته كمعلم للإنكليزية؟".
 "ليس لدي فكرة".
 "إذاً هل تتق بجوابه، أم أنك ستلجأ إلى فطرتك".
 أصمم. "سألجأ إلى فطرتي، فطرتي تقول لي أن أثق بالجواب الذي
 أعطاني إياه السيد جاترجي. إنه (ج). مجهود الحب الضائع".
 "فكّر من جديد. تذكر أنك ليس فقط لن تربح المائة مليون
 روبية، بل ستفقد أيضاً العشر ملايين روبية التي ربحتها حتى الآن".
 "جوابي الأخير لا يزال (ج)".
 "هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".
 "نعم".
 "إنني أتحدث إليك مجدداً. هل أنت متأكد تماماً، تماماً، مائة
 بالمائة؟".
 "أجل".

ثمة تسارع في قرع الطبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة.

"إنه (ج). أنتَ على صواب تام، مائة بالمائة!" يقف بریم كومار.
 "رام محمد توماس، أنتَ أول شخص في هذا البرنامج ربح مائة مليون
 روبية. سيداتي سادتي، لقد صُنِعَ التاريخ! والآن ببساطة نأخذ فاصلاً!".
 يغدو الجمهور شديد الحماسة. كل شخص من الجمهور يقف
 ويصفق بيديه على مدى أكثر من دقيقة.
 يتخضب وجه كومار بالإحمرار. إنه يتعرق بشدة.
 يسألني: "إذاً كيف تشعر الآن؟".
 أقول: "Q Bzzg Cnzxp!".
 يبدو بریم كومار مضطرباً. "معدرةً، ماذا قلتَ توأ؟".
 "قلتُ أشعرُ إنني عظيم"، أرد وأرفع بصري. أرى شانكار يبتسم
 لي من الأعلى. ويبدو أن دورغا تتطلع إلي حقيقةً هذه الليلة.



1,000,000,000

السؤال الثالث عشر

نحن لا نزال في الفاصل الإعلاني. بريم كومار في إحدى الزوايا يتشاور مع المخرج طويل الشعر. أجيل بصري في الاستوديو، ناظراً إلى الألواح الخشبية الزينية الجميلة التي تكسو الجدران، إلى الأعضاء الكشافة، الكاميرات المتعددة، نظام الصوت عالي التقنية. أعضاء كثيرون من الجمهور يراقبونني، ربما يسألون أنفسهم ما الذي يُخطر ببالي.

ينتهي بريم كومار تشاوره ويمشي نحوي. تلوح على محياه ابتسامة عريضة مشؤومة. "توماس، لا ندري كيف استطعت أن تجيب عن أحد عشر سؤالاً حتى الآن، لكن ليس ثمة فرصة أمامك كي تكون قادراً على الإجابة عن السؤال الأخير".
"سنرى".

"كلا، سأرى. حضّر نفسك كي تفقد المبلغ كله"، يقول بريم كومار ويجلس على مقعده.

تتحول لافتة الاستوديو إلى تصنيف. يأتي اللحن الخاص بالبرنامج. يصفق الجمهور بصوت عالٍ.

يتطلع بريم كومار إلى آلة التصوير. "سيداتي سادتي، نحن نقف على حافة لحظة تاريخية، ليس بالنسبة إلى هذا البرنامج إنما على الأرجح بالنسبة إلى الأجيال القادمة كلها. رام محمد توماس، النادل ذو السنوات الثمانية عشرة المقيم في مومباي، قد وصل إلى مرحلة أبعد من أي متسابق آخر في هذا البرنامج. هو الآن يوشك أن يبدع معلماً⁽¹⁾ آخر. إذا أجاب عن هذا السؤال الأخير بصورة صحيحة، سيكسب أكبر جائزة في التاريخ. بليون روبية. إذا أخفق في أن يعطيني الجواب الصائب، سيخسر أكبر مبلغ خسره إنسان في أي زمن خلال ستين ثانية؛ مائة مليون روبية. في كلتا الحالتين، التاريخ سيُصنع. لذا من فضلكم نورو عقولكم، املاؤا أفئدتكم، وانضموا إليّ كي نحبي مجدداً متسابقنا هذه الليلة، السيد رام محمد توماس!".

تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق. الجميع، حتى بريم كومار، يقفون وثمة تصفيق مؤازر.

لا بد لي أن أبدي إعجابي بتكتيكات ص3B. كانوا قد كرموني قبل أن يرسلوني إلى البرنامج خالي الوفاض. كالحمل، إنهم يسمنونني ويتملقونني قبل أن يذبحوني في السؤال التالي. اللحظة التي كنت أنتظرها، وأخشأها، حانت أخيراً. أعبُ نفساً عميقاً وأستعد لمواجهة مصري.

"سيداتي وسادتي، أنا على وشك أن أكشف عن السؤال الثاني عشر، السؤال الأخير، بليون روبية، أكبر جائزة مُنحت في تاريخ الكوكب. وتذكر أننا لا نزال في جولات تلعب أو نخسر، أي أن تربح الكل أو تخسر الكل. حسن، من دون أي ضوضاء إضافية، هو

(1) معلّم milestone: حدث مهم يمثل مرحلة من مراحل التاريخ أو الحياة الإنسانية - م.

ذا السؤال الأخير الموجه إليك، سيد توماس، وهذا من... صفحات التاريخ! كلنا نعرف أن ممتاز محل كانت زوجة الإمبراطور شاه جهان وأنه شيد تاج محل المشهور عالمياً تخليداً لذكرها، لكن ما اسم والد ممتاز محل؟ خيارتك، سيد توماس، هي (أ) ميرزا علي قلي بيك، (ب) سراج الدولة، (ج) آصاف جاه أو (د) عبد الرحيم خان خانان.

فكر في الجواب بعناية، سيد توماس. تذكر، أنك في مفترق طرق تاريخي. أعرف أنك تحتاج إلى الوقت كي تفكر ملياً في جوابك، وكى نسمح لك بذلك، سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً آخر. سيداتي وسادتي، أرجوكم لا تفكروا في أن تذهبوا إلى أي مكان". تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يعزف من جديد اللحن الخاص بالبرنامج.

يتسم لي بريم كومار ابتسامة عريضة. "لقد حيرتك؟ أليس كذلك؟ ما لم تكن حاصلاً على شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، ليس ثمة فرصة لك كي تجيب عن هذا السؤال، إذا ألقى تحية الوداع على المائة مليون التي كسبتها الآن، واستعد لاستئناف مسيرتك كنادل. من يدري، ربما آتي إلى مشرب جيمي غداً. ماذا ستقدم إلي؟ دجاج بالزبد وحمل مع الشراب الفرنسي والثوم" يقهقهه. أبادله الضحك. "ها! ليس لدي شهادة الماجستير في التاريخ، لكنني أعرف الإجابة عن هذا السؤال".

"ماذا؟ لا بد أنك تمزح، بالتأكيد؟".

"أنا لا أمزح. الجواب هو آصاف جاه".

يبدو بريم كومار مذعوراً. "كيف... كيف تعرف هذا؟".

"أعرفه لأنني عملتُ مرشداً طيلة عامين في تاج محل".

يستحيل وجه بريم كومار شاحباً كشحوب الأموات. لأول مرة ينظر إليّ بشيء قليل من الخوف. "أنت... أنت تلعب نوعاً من السحر، أنا متأكد"، يقول ويركض إلى المخرج. يتهامسان. يومئ بريم كومار في أثناء كلامه مرات عدة ناحيتي. ثم يجلب شخص ما كتاباً سميكاً وينقбан فيه. تمر عشر دقائق. يبدأ الجمهور بالتملل. في الختام، يعود بريم كومار إلى مقعده. تعبير وجهه حيادي، لكنني متأكد بأنه يتلوى داخلياً.

تغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق وتبدأ الموسيقى الخاصة بالبرنامج. "سيداتي سادتي، قبل أن نمضي إلى الفاصل وجهتُ السؤال، ما اسم والد ممتاز محل؟ أنا متيقن من أنكم جميعاً ظننتم أن هذا هو السؤال الأخير، لكنه ليس كذلك".

الجمهور مندهل. أنا مندهل. هل يدخلون سؤالاً آخر؟ يصبح الجو مثقلاً بالتوتر.

يواصل بريم كومار كلامه: "ليس فقط أنه ليس السؤال الأخير، بل هو ليس سؤالاً البتة. كنا ببساطة نسجل إعلاناً تجارياً لشاي ممتاز، وهي واحدة من المؤسسات التجارية التي ترعى هذا البرنامج. لهذا السبب، علينا أن ندخل سؤالاً كاذباً".

يبدأ أعضاء الجمهور بالتهامس في ما بينهم. ثمة ضحك مكبوت. ينادي أحدهم: "سيد كومار، أنت حقيقةً تمزح معنا!" يتبدد التوتر. تغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق مجدداً.

أنا الوحيد الذي لا تلوح على ثغره بسمه. أعرف الآن أن هذا برنامج يديره قوم غير مستقيمين.

تبدل لافتة الاستوديو إلى سكوت، ويبدأ اللحن الخاص بالبرنامج. يتكلم بريم كومار إلى الكاميرا: "سيداتي سادتي، أكاد الآن

أكشف السؤال الثاني عشر، السؤال الأخير، بليون روبية، أكبر جائزة منحت حتى الآن في تاريخ كوكبنا الأرضي. وتذكر، نحن لا نزال في مرحلة **تلعب أو نخسر**، أي إما أن تربح الكل أو نخسر الكل. حسن، من دون ضوضاء إضافية، هو ذا السؤال الأخير لك، سيد توماس، وهذا من عالم... الموسيقى الكلاسيكية الغربية! سوناتا بيتهوفن المعزوفة على البيانو المرقمة تسعة وعشرون بمائة وست قطع موسيقية، التي تسمى أيضاً سوناتا لوحة المفاتيح الطرقة⁽¹⁾ هي في أي مقام موسيقي؟ هل هي في (أ) السلم الكبير العجم مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة السي، (ب) السلم الموسيقي الصغير النهاوند على درجة الصول، (ج) السلم الكبير العجم مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة المي، أم (د) السلم الموسيقي الصغير النهاوند على درجة الدو؟⁽²⁾.

"فكّر في الإجابة بعناية، سيد توماس. تذكر أنك في مفترق طرق تاريخي. هذا هو القرار الأخطر في حياتك. أعرف أنك تحتاج إلى الوقت كي تفكر ملياً في جوابك، ولكي نسمح لك بذلك، سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً سريعاً آخر. سيداتي سادتي، لا تفكروا أبداً في أن تذهبوا إلى أي مكان".

تبدل لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يتطلع إليّ بريم كومار ببسمة متكئة. يبدأ الجمهور الثرثرة في ما بينهم.

يقف بريم كومار. "إنني ذاهب فقط حول الزاوية. سأعود حالاً".
أنا أيضاً أقف على قدمي. "أحتاج إلى الذهاب إلى دورة المياه".

(1) سوناتا لوحة المفاتيح الطرقة: وردت بالألمانية Hammerklavier Sonata - المترجم.

(2) المصطلحات الموسيقية أعلاه بحسب النظام الفرنسي - المترجم.

يقول كومار: "إذاً الأفضل أن تأتي معي. تشتت القواعد على مرافقة المتسابق أينما ذهب".

أنا في غرفة مغاسل الاستوديو المضاءة بالفلورسنت. إنها نظيفة جداً. الرقاقات التي تكسو الجدران والأرضية بيضاء لامعة. هنالك مرايا ضخمة. وليس ثمة نقوش على الجدران.

بريم كومار وأنا الشخصان الوحيدان في غرفة المغاسل. يصفر لحناً في ما هو يتبول. بعدها يلاحظ أنني أتطلع إليه. "ما الذي يحدث لك بحيث إنك تقف ببساطة؟ لا تقل لي إن السؤال الأخير عسير جداً بحيث إنك حتى نسيت كيف تفرغ مثانتك؟" يرد رأسه إلى الوراء ويضحك. "إنه لشيء سيئ جداً أن تنتهي المسابقة بهذه الطريقة. لولا مساعدتي لكنت خارجها منذ زمن طويل، في السؤال الثاني نفسه. أي لولا مساعدتي لكنت في البيت مع ألف روبية فقط. ما رأيك بأن نعقد صفقة؟ غداً، آتي إلى مطعمك، أعدك أن أعطيك بقشيشاً قدره ألف روبية. وصدقني، هذا وعد سأحافظ عليه". يتسم لي بتفضل.

أقول له: "أنت لم تعمل لي معروفاً بإخباري الإجابة عن السؤال الثاني، لقد عملت معروفاً لنفسك".

ينظر إليّ بريم كومار نظرة حادة. "ماذا تقصد؟".

"ما أقصده، سيد كومار، هو أنني لم آت إلى برنامجك كي أكسب المال. لا. هديني بعيد عن هذا". أهز رأسي بمبالغة. "كلا، أتيْتُ إلى برنامج المسابقات خاصتك كي أنتقم".

يختصر بريم كومار تبوله في منتصف الدفع. يصعد سحب بنطاله بسرعة وينظر إليّ نظرة جانبية. "تنتقم، ماذا تقصد؟ تنتقم من؟".

"منك". أقول بجرأة. أخطو إلى الوراء، وأسحب مسدساً من رباط خصر سروالي. إنه مسدس صغير، أفطس الأنف، متراس جداً، لا يزيد حجمه على حجم قبضي. أمسكه بقوة بيدي وأوجهه إليه.

الدم ينسحب من وجه بريم كومار. "أنت... أنتَ مخطئ، سيد توماس. نحن لم نلتق من قبل"، يقول، صوته يكاد يكون همساً.

"كلا، أنتَ مخطئ. لقد التقينا مرةً خارج شقة نيليم كوماري. كان ذلك في الصباح الباكر. كنتَ تحتال بسروال الجينز الأزرق وبقميص بيضاء، بعينين محتقنتين بالدم وشعر غير مغسول. كنتَ تحمل رزمةً من المال أجبرتَ نيليم على التخلي عنها. لقد حطمتها. لكنك لم تكف بذلك. فعلتَ الشيء نفسه مع محبوبتي نيتا".

"نيتا؟" يرفع بريم كومار حاجبيه. "هذا الاسم لا يعني لي شيئاً البتة".

"هي الفتاة التي تحرقت شوقاً لتسدي إليك شكرها في أغرا، والآن"، أمسك المسدس بصورة أقوى، "لقد جاء دورك كي تموت".

يتطلع بريم كومار بقلق إلى يدي. يتوقف فجأة. "هل قلتَ أغرا؟ لكنني لم أذهب إلى أغرا منذ شهور".

"دعني أنشط ذاكرتك. قبل أربعة شهور مكثتَ في فندق القلعة. دعيتَ فتاةً إلى حجرتك. ربطتها. وبعدها بوحشية ضربتها وأحرقها بسيجارة مشتعلة، كما فعلتَ بنيليم".

أرى شفتيه تبدأ بالارتعاش. ثم تبدأ بالتجعد.

"هي مجرد ساقطة، إكراماً لله. دفعتُ لقوادها خمسة آلاف روبية. لم أكن أعرف حتى اسمها".

"اسمها نيتا". ارفع مسدسي.

يرفع بريم راحته نحوي. "لا... لا... يصيح ويخطو إلى الوراء. قدمه اليمني تعوض في المجرى المفتوح ورائه. "لا تطلق النار -

أنزل ذلك الشيء الآن، أرجوك". يتوقف قليلاً كي يخرج قدمه من المجرى.

أصوب المسدس إلى قلبه مباشرة. يمكنني أن أرى أنه يرتجف هلعاً. "لقد أقسمتُ أن أنتقم من الشخص المسؤول عن إيذاء نيتا. لكنني لم أكن أعرف كيف أعثر عليك. ومن ثم رأيتُ إعلاناً في إحدى الجرائد في أغرا. أظهر الإعلان وجهك، مكشراً كالحمار، تدعو الناس إلى المشاركة في برنامج للمسابقات في مومباي. لهذا السبب أنا هنا. كان يجب عليّ أن أطلق عليك النار عند أول سؤال يتعذر عليّ الإجابة عنه، إنما بصورة عجائبية كنتُ قادراً على الإجابة عن كل سؤال من الأسئلة. لذا حين ساعدتني في السؤال رقم اثنان لم تسدي إليّ معروفاً البتة، أنتَ حصراً أطلتَ حياتك قليلاً. إنما الآن ما من مفر".

"أصغي إليّ"، يتضرع بريم كومار. إنه ينهار الآن. "لقد عاملتُ نيلما معاملة سيئةً وكنتُ فظاً مع تلك الساقطة من أغرا. لكن ما الذي تكسبه من إطلاق النار عليّ؟ لن تحصل على مالك. أنزل ذلك المسدس الآن، وأعدك بأنني سأجعلك قادراً على أن تربح تلك الجائزة الكبرى. فكر فقط، ستنال ثروةً أبعد ما تكون عن أكثر الأحلام جموحاً لنادل مثلك".

أفقهه بمرارة. "ما الذي سأفعله بكل تلك الثروة؟ في نهاية المطاف لا يحتاج الإنسان سوى إلى ست أقدام من القماش لكفنه".
يمسي هو أكثر شحوباً ويرفع يده مدافعاً. "من فضلك، لا تضغط على الزناد. انظر، لحظة تقتلني سيتم القبض عليك. وستُعدم شنقاً. أنت، أيضاً، ستصبح في عداد الأموات".

"وماذا يعني؟ الشيء الوحيد الذي أعيش من أجله هو الانتقام".

"من فضلك فكّر في الأمر من جديد، توماس. أقسم لك، وفّر عليّ حياتي، وسأخبرك بجواب السؤال الأخير. ستكون راجحنا الأكبر".

"لن أعود إلى برنامج المسابقات، ولا حتى أنت"، أقول وأزيل سقاطة الأمان.

يتهشم تظاهر بريم كومار بالشجاعة. أرى كم هو جبان. يمسك بالجدار الذي خلفه، ويغمض عينيه بإحكام. اللحظة التي كنت أنتظرها طيلة الشهور الأربعة المنصرمة حانت أخيراً. بريم كومار قبالي ومسدس محشو بيدي. المسدس جيد حقيقةً. رميت طلقة اختبار، ووجدت أن ارتداد السلاح أقل ما يمكن. على كل حال، عند المدى القريب جداً قلما أستطيع أن أخطئه.

أزيد الضغط على الزناد، لكن كلما أضغط عليه أكثر أصادف مقاومة أكثر. يبدو كما لو أن إصبعي قد استحال حجراً.

في الأفلام السينمائية يُظهرون لك أن قتل الإنسان بسهولة فرقة بالون. بام، بام، بام... الناس في الأفلام يطلقون النار من المسدسات كما لو أن الطلقات تخرج من الدورة الدموية. إنهم يقتلون الناس كما نسحق النمل. حتى البطل المبتدئ، الذي لم يرَ في حياته قط مسدساً، يكون قادراً على إطلاق النار وقتل عشرة أشرار في وكر النذل من مسافة خمسمائة قدم. لكن الحياة الواقعية مختلفة جداً. من السهل أن تحمل مسدساً محشواً وتصوبه بوجه امرئ ما. لكن حين تعرف أن طلقة حقيقية ستصيب قلباً حقيقياً وأن السائل القرمزي سيكون دماً وليس صلصة الطماطم، تكون مرغماً على أن تفكر مرتين. من اليسير جداً أن تقتل إنساناً. تحتاج أولاً إلى أن تتخلى عن عقلك. احتساء المشروبات يمكن أن يفعل ذلك. وكذلك الغضب.

لذا أحاول أن أستجمع أكبر قدر ممكن من الغضب. أسترجع في عقلي كل الذي أتى بي إلى هذا المأزق في الحياة. صور نيلما كوماري ونيتا تطفو عبر عقلي. أرى علامات حرق السيجارة السوداء على جسد نيلما، آثار الضرب الأحمر على عجيزة نيتا، الكدمات في كل أنحاء وجهها، عينها المسوّدة، فكها المخلوع. إنما بدلاً من إصبع مرفوع، أشعر بحزن منتشر، وبدلاً من عيار ناري يخرج من مسدسي، أجد دموعاً حبيسة تخرج من عينيّ.

أحاول أن أنال الدعم من جهات أخرى. أفكر في كل الإهانات التي عانيتُ منها، كل الأذى والإذلال الذي تحملته. أرى الجثة المملطخة بالدم للأب تيموثي، أرحم إنسان عرفته، وجثة شانكارا الرخوة، أرق غلام التقيته. أتذكر كل تجار العذاب الذين مروا بحياتي. صور سوابنا ديفي، شانتارام ومامان تطن عبر دماغي، وأحاول أن أضغط هذه العواطف كلها في جزء الثانية ذاك الذي ستثور به الطلقة. بالرغم من مجهودي، أجد أنني لا أستطيع أن ألقى اللوم الناجم عن محني كلها على الرجل الذي قبالي. لا أملك غضباً كافياً في داخلي كي أبرر موته. وأدرك بعدئذ، ربما كمحاولة، أنني لا أستطيع أن أقتل بدم بارد، ولا حتى حشرة طفيلية مثل بريم كومار.

أخفض المسدس.

هذا كله يحدث في فضاء زمني أمده نصف دقيقة. يتحملة بريم كومار بعينين مغمضتين بإحكام. حينما لم يسمع صوت طلقة مسدس، يفتح عيناً واحدة. إنه يتعرق ككلب. يرسل إليّ نظرة خالية من المعنى، مسدس في يدي والتردد يظهر جلياً على وجهي.

ختاماً، يفتح كلتا عينيه. "شكراً على إبقائك على حياتي، توماس". يقول وصدره يعلو وينخفض. "مقابل رأفتك، سأخبرك

بجواب السؤال الأخير، لقد رجحت بأمانة حتى الآن. كان السؤال عن ممتاز محل هو السؤال الأخير، وقد عرفت الجواب. لذا الآن سأخبرك بجواب السؤال الجديد".

"وكيف أعرف بأنك لن تغيره مجدداً في الدقيقة الأخيرة؟".

"ابق ممسكاً بمسدسك. لكن صدقي، إنك لن تحتاج إلى استخدامه، لأنني الآن بإخلاص أريدك أن تربح الجائزة الكبرى. بليون روبية هو بليون روبية. وستحصل عليه كله نقداً وعداً".

لأول مرة، تغوييني إمكانية الحصول على هذا المال كله. مع بليون أستطيع أن أنجز أشياء كثيرة. أستطيع أن أشتري حرية نيتا. أستطيع أن أحقق حلم سالم في أن يصبح نجماً سينمائياً. أستطيع أن أنير حياة آلاف الزملاء الأيتام وأولاد الشوارع مثلي. أستطيع أن أمتلك سيارة فيراري حمراء جميلة. أتخذ قراراً. إنه نعم للبليون ولا للقتل. أسأل: "حسن، ما هو الجواب إذا؟".

"سأخبرك" يقول بریم كومار. يخفض بصره ناظراً إلى قدميه ويتوقف مؤقتاً.

أسأله: "ما هي المشكلة؟".

"أدركت أنني إذا أخبرتك بالجواب، سأنتهك حرمة عقدي وكذلك قواعد البرنامج. جائزتك من المحتمل أن تلغى". يهز رأسه ببطء. "كلا، لن أخبرك بالجواب". أنا مرتبك.

ظل ابتسامة يبدأ بعبور وجه بریم. "قلتُ إنني لا أقدر أن أخبرك بالإجابة، إنما ليس ثمة شيء في عقدي يمنعني من أن أشير إشارة عرضية. الآن أصغي إليّ بعناية. إنني ذاهب إلى محطة القطار بعد البرنامج مباشرةً وسأخذ القطار. دُعيتُ إلى زيارة أربعة أصدقاء في حيدر آباد، بارودا،

كوجين ودلهي، لكنني أستطيع فقط أن أزور واحداً منهم. لذا قررتُ أن أعم وجهي شطر حيدر آباد، كي أغسل كل خطاياي من خلال غطسة في سِنَغام. حسن؟".

"حسن"، أومئ برأسي.

نغادر غرفة المغاسل ونعود إلى مقعدينا. يرسل إليّ بريم كومار نظرة قلقة. أسائل نفسي هل سيفي بكلمته؟ الجميع يصفقون حين أجلس. يجلس مسدسي بعدم ارتياح في جيبي الجانبي. أضع يدي فوقه. تتغير لافتة الاستوديو إلى سكوت.

يلتفت إليّ بريم كومار. "سيد رام محمد توماس، قبل أن نأخذ فاصلنا الأخير، وجهتُ إليك السؤال الأخير، السؤال الثاني عشر، بيليون روية. سأعيد السؤال من جديد. سوناتا بيتهوفن المعزوفة على البيانو المرقمة تسعة وعشرون، ذات المائة وست قطع موسيقية، عُرفت أيضاً بسوناتا لوحة المفاتيح المطرقة، هي في أي مقام موسيقي؟ هل هي في (أ) السلم الكبير العجم مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة السي، (ب) السلم الصغير النهاوند على درجة الصول، (ج) السلم الكبير العجم مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة المي، أم (د) السلم الصغير النهاوند على درجة الدو؟ هل جهزت الإجابة؟".

"كلا".

"كلا؟".

"أعني أنني لا أعرف الجواب على هذا السؤال".

تقترب الكاميرا التلفازية من وجهي بسرعة أي تزوم. ثمة لهائات مسموعة من الجمهور.

"حسن، سيد توماس، كما أخبرتك، أنتَ تقف عند مفترق طرق تاريخي. أحد الطرقات يفضي إلى ثروة لا يمكن تخيلها، لكن

الثلاثة الأخرى ببساطة تعود بك إلى نقطة البداية. لذا حتى إذا اخترت
الستخمين المتهور، خمن بعناية وحذر. يمكنك أن تربح الكل أو تخسر
الكل. هذا هو أهم قرار في حياتك".
"أحيد أن أستخدم قارب نجاة".

"حسن، بقي لديك قارب نجاة واحد وهو حذف إجابتين. لذا
سنحذف إجابتين غير صحيحتين، تاركين إجابة واحدة صحيحة
وواحدة غير صحيحة. عندئذ يكون لديك فرصة خمسين بالمائة في
الحصول على الجواب الصحيح".

كلمتا قارب النجاة تومضان على الشاشة. نرى رسماً متحركاً
لقارب ينفجر في وسط البحر، ثم سباح ينادي طلباً للمساعدة ويرمى له
طوق نجاة أحمر اللون. تتغير الشاشة إلى عرض السؤال كاملاً مرة أخرى.
ثم تختفي إجابتان ويومض خياران فقط على الشاشة هما الخيار (أ) و(ج).

يقول بريم كومار: "ها قد حذفنا لك إجابتين. الجواب أما (أ) أو
(ج). أعطني الإجابة الصحيحة وستصبح أول إنسان في التاريخ يربح
بليون روبية. أعطني الإجابة غير الصحيحة وستصبح أول إنسان في
التاريخ يخسر مائة مليون روبية في أقل من دقيقة. ما هو قرارك؟".

أخرج قطعتي النقدية الجالبة للحظ السعيد من فئة روبية واحدة.
"إذا جاءت على وجهها الجواب سيكون (أ)، وإذا جاءت على قفاها
سيكون الجواب (ج). حسن؟".

الجمهور يلهث أزاء جرأتي. يومئ بريم كومار برأسه موافقاً. عاد
البريق إلى عينيه.

أفذف العملة النقدية بإظفري.

تركزت العيون كلها على العملة النقدية في ما هي ترتفع إلى
الأعلى، بحركة بطيئة بعض الشيء. لا بد أن هذه هي العملة النقدية من

فئة روية واحدة الوحيدة في التاريخ التي يركب عليها بليون. تهب على مكتبي، وتدوم هنيهة قبل أن تتوقف عن الحركة. ينحني بريم كومار كي يتطلع إليها ويعلن قائلاً: "إنه الوجه!".

"في تلك الحالة جوابي هو (أ)".

"هل أنت متأكد مائة بالمائة، سيد توماس؟ لا يزال في وسعك أن تختار الجواب (ج) إذا شئت".

"قذف العملة النقدية قرر جوابي. إنه (أ)".

"هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم. أنا متأكد تماماً، مائة بالمائة".

ثمة تسارع في قرع الطبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة لآخر مرة.

"إنه (أ)! صحيح تماماً، مائة بالمائة! سيد رام محمد توماس، لقد صنعت التاريخ من خلال فوزك بأكبر جائزة في العالم. بليون روية، أجل، بليون روية هو ملكك، وستدفع لك بعد وقت قصير. سيداتي سادتي، من فضلكم أعطوا دورة قوية جداً من التصفيق لأكبر فائز في الأزمنة كلها!".

تبدأ قصاصات الورق الملونة بالسقوط من السقف. أضواء كشافات حمراء، خضراء، زرقاء، وصفراء تغمر المسرح. على مدى دقيقتين تقريباً، يقف الجميع ويصفقون. ثمة صفارات. ينحني بريم كومار. ثم يغمز لي بعينه بمكر. لا أرد على غمزه.

فجأة يأتي المخرج إلى المنصة ويأخذ بريم كومار معه. يتبادلان كلمات ساخنة.

هيوستون، أعتقد أن لدينا مشكلة.

تستطلع سميتا إلى ساعة معصمها، وتنهض من السرير. "فيو! يا له من برنامج، يا لها من قصة، يا لها من ليلة! إذاً الآن أعرف كيف ربحت بليون روبية. إن قذف العملة النقدية بالإظفر في النهاية كان لمجرد العرض، أليس كذلك؟ كنتَ تعرف أصلاً أن الإجابة هي (أ)".

"أجل. لكن قرري هل أستحق الجائزة الكبرى أم لا. لم أخفِ أي شيء عنك. لقد رويتُ لك أسراري كلها".

"أعتقد أنه من العدالة أن تعرف أسراري أنا أيضاً. لا بد أنك تسأل نفسك من أنا ولماذا ظهرتُ فجأةً في مركز الشرطة".
"حسن، نعم، لكنني قررتُ ألا أسأل".

"أنا غوديا. أنا الفتاة التي مددت لها يد العون في المبنى السكني. ولا أشعر بالندم لأنك دفعتَ والذي نحو موته. لقد كسر ساقاً حصراً، وهذا ما جعل عقله يستقيم. لم يضايقي بعد ذلك. أنا مدينة بكل شيء لك. على مدى سنوات طويلة حاولتُ العثور عليك، لكنك تلاشتَ عن الأنظار. ثم يوم أمس شاهدتُ اسمك في الجريدة. كان الخبر يفيد أن غلاماً اسمه رام محمد توماس تم اعتقاله من قبل الشرطة. كنتُ أعرف أن هنالك فقط رام محمد توماس واحداً، وأتيتُ راكضةً إلى مركز الشرطة. لذا فقط فكر في هذا باعتباره رداً صغيراً جداً للدين الذي لك في ذمتي".

تغلبني العاطفة. أمسك بيد سميتا، أتحسس لحمها وعظمها، وتبدأ دموعي بالانهمار. أعانقها. "أنا سعيد جداً أنك وجدتني. لديّ محامية، وصديقة، وأخت في وقت واحد".

"مصاعبك كلها هي الآن مصاعبي، يا سيد رام محمد توماس"، تقول سميتا، مع تصميم قوي في عينيها. "سأحارب من أجلك، كما حاربتُ من أجلي".

فئة روية واحدة الوحيدة في التاريخ التي يركب عليها بليون. تبط على مكبسي، وتدوم هنيهة قبل أن تتوقف عن الحركة. ينحني بريم كومار كي يتطلع إليها ويعلن قائلاً: "إنه الوجه!".

"في تلك الحالة جوابي هو (أ)".

"هل أنت متأكد مائة بالمائة، سيد توماس؟ لا يزال في وسعك أن تختار الجواب (ج) إذا شئت".

"قذف العملة النقدية قرر جوابي. إنه (أ)".

"هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم. أنا متأكد تماماً، مائة بالمائة".

ثمة تسارع في قرع الطبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة لآخر مرة.

"إنه (أ)! صحيح تماماً، مائة بالمائة! سيد رام محمد توماس، لقد صنعت التاريخ من خلال فوزك بأكبر جائزة في العالم. بليون روية، أجل، بليون روية هو ملكك، وستدفع لك بعد وقت قصير. سيداتي سادتي، من فضلكم أعطوا دورة قوية جداً من التصفيق لأكبر فائز في الأزمنة كلها!".

تبدأ قصاصات الورق الملونة بالسقوط من السقف. أضواء كشافة حمراء، خضراء، زرقاء، وصفراء تغمر المسرح. على مدى دقيقتين تقريباً، يقف الجميع ويصفقون. ثمة صفارات. ينحني بريم كومار. ثم يغمز لي بعينه بمكر. لا أرد على غمزه.

فجأة يأتي المخرج إلى المنصة ويأخذ بريم كومار معه. يتبادلان كلمات ساخنة.

هيوستون، أعتقد أن لدينا مشكلة.

تتطلع سميتا إلى ساعة معصمها، وتنهض من السرير. "فيو! يا له من برنامج، يا لها من قصة، يا لها من ليلة! إذاً الآن أعرف كيف ربحت بليون روبية. إن قذف العملة النقدية بالإظفر في النهاية كان لمجرد العرض، أليس كذلك؟ كنتَ تعرف أصلاً أن الإجابة هي (أ)".

"أجل. لكن قرري هل أستحق الجائزة الكبرى أم لا. لم أخفِ أي شيء عنك. لقد رويتُ لك أسراري كلها".

"أعتقد أنه من العدالة أن تعرف أسراري أنا أيضاً. لا بد أنك تسأل نفسك من أنا ولماذا ظهرتُ فجأةً في مركز الشرطة".
"حسن، نعم، لكنني قررتُ ألا أسأل".

"أنا غوديا. أنا الفتاة التي مددتَ لها يد العون في المبنى السكني. ولا أشعر بالندم لأنك دفعتَ والذي نحو موته. لقد كسر ساقاً حصراً، وهذا ما جعل عقله يستقيم. لم يضايقي بعد ذلك. أنا مدينة بكل شيء لك. على مدى سنوات طويلة حاولتُ العثور عليك، لكنك تلاشتَ عن الأنظار. ثم يوم أمس شاهدتُ اسمك في الجريدة. كان الخبر يفيد أن غلاماً اسمه رام محمد توماس تم اعتقاله من قبل الشرطة. كنتُ أعرف أن هنالك فقط رام محمد توماس واحداً، وأتيتُ راکضةً إلى مركز الشرطة. لذا فقط فكر في هذا باعتباره رداً صغيراً جداً للدين الذي لك في ذمتي".

تغلبني العاطفة. أمسك بيد سميتا، أتحسس لحمها وعظمها، وتبدأ دموعي بالانهمار. أعانقها. "أنا سعيد جداً أنك وجدتني. لديّ محامية، وصديقة، وأخت في وقت واحد".

"مصاعبك كلها هي الآن مصاعبي، يا سيد رام محمد توماس"، تقول سميتا، مع تصميم قوي في عينيها. "سأحارب من أجلك، كما حاربتُ من أجلي".

الخاتمة

مرت ستة شهور منذ أطول ليلة في حياتي.
بقيت سميتا مخلصاً لكلمتها. حاربت من أجلي كما تحارب الأم
من أجل أولادها. في البداية تعاملت مع الشرطة. أثبتت لهم أنهم لا
يملكون أساساً كي يعتقلوني. اكتشفتُ كذلك أن ما من أحد قد سمع
عن اللص الميت في القطار وليس ثمة تحقيق غير مبثوث فيه. لذا فإن
اللس مجهول الاسم بقي مجهول الاسم، حتى في مماته.
ثم تعاملت مع شركة المسابقات. هددوني بمزاعم تتعلق بالخداع
والاحتيال، إلا أن سميتا برهنت على أن تسجيل الذي في دي أثبت
بجلاء أنني الفائز الشرعي في البرنامج. بعد أربعة شهور من التلکؤ،
كانت الشركة مجبرة على أن تسلّم بأنّها لا تملك أي أسس تعتمد عليها
كي تمتنع عن دفع مبلغ الجائزة الكبرى لي.
لم أحصل على بليون روبية تماماً. حصلتُ على مبلغ أقل بنزر
يسير. أخذت الحكومة بعض المال. أسموه ضريبة برنامج المسابقات.
أفلسست الشركة التي أنتجت W3B بعد تسديدها المبلغ الضخم. لذا
أصبحتُ أول وآخر فائز في البرنامج.
توفي بریم کومار قبل شهرين. بحسب أقوال الشرطة، انتحر
مسمماً نفسه بالغاز حتى الموت في سيارته الخاصة. غير أن تقارير
الصحافة تعزو سبب الوفاة إلى لعبة قدرة. أما حدسي الباطني فيذهب
إلى أن قطاع الطرقات الذين يمولون البرنامج ربما انتقموا منه.

أدركتُ منذ زمن بعيد أن للأحلام سلطة على عقلك الشخصي فحسب؛ لكن مع المال يمكنك أن تتسلط على عقول الناس. ما اكتشفته بعد تسلم المبلغ هو أنه مع المال أصبحتُ أتسلط حتى على الشرطة. لذا، رافقني فريق ضخيم من الشرطة، وقمتُ بزيارة غوريغاون الشهر الماضي، زرتُ مبنى كبيراً متداعياً منتصباً في فناء ذات حديقة صغيرة ونخلتين. اعتقل رجال الشرطة خمسة أشخاص، وحرروا خمسة وثلاثين ولداً معوقاً. هم الآن في عناية وكالة عالمية شهيرة تعني برفاهية الأولاد.

كذلك ضُمن إطلاق سراح لاجواني من السجن الشهر الماضي وهي الآن تقيم معي في مومباي. في الحقيقة، رجعت الأسبوع الماضي تحديداً من عرس شقيقتها لاكشمي في دلهي حيث تزوجت من موظف ذي رتبة عالية في الخدمة الإدارية الهندية. لم تطلب عائلة العريس أي مهر، لكن لاجواني مع ذلك منحت شقيقتها سيارة تويوتا كورولا، وجهاز تلفاز باثنتين وثلاثين بوصة من نوع سوني، وعشرين بذلة رايموند رجالية وكيلوغراماً من المجوهرات الذهبية.

لعب سالم دور بطل في الكلية يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً في فيلم كوميدي من إخراج جمبو دهاوان، وهذه الأيام مشغول بالتصوير في استوديوهات محبوب. يعتقد أن المنتج هو رجل يدعى محمد بهات، إنما في الواقع أنا.

محبوبة حياي انضمت إليّ في مومباي. هي الآن زوجتي التي اقترنتُ بها قانونياً، بلقب مناسب، نيتا محمد توماس.

نتمشى أنا وسميتا على طول الطريق البحري. تهب ريح لطيفة، بين الفينة والفينة، ترسل رذاذاً سديماً من المحيط حيث الأمواج العملاقة تنسحق وتدور على الصخور. يتبعنا السائق ذو البذلة النظامية بخطى

حلزون في سيارة مرسيدس بينز، محافظاً على مسافة دالة على الاحترام. مخفف الصدمة الخلفي للمرسيدس بينز يحمل لصقة تقول: "سيارتي الأخرى هي فيراري".

أقول لسميتا: "كنت أود أن أسألك شيئاً ما".
"تفضل".

"ذلك المساء، حين أنقذتني من مركز الشرطة، لم تخبريني صراحة أنك كنت غوديا؟".

"لأنني أردت أن أسمع قصصك وأكتشف الحقيقة. حين سردت قصتي، من دون أن تعرف أنني أمامك، حينها عرفت بصورة مؤكدة أنك كنت تسرد الحقيقة، الحقيقة كلها ولا شيء سوى الحقيقة. لذلك أخبرتك منذ البداية أنني لا أحتاج إلى أن تقسم بأي كتاب. أنا شاهدة عليك، كما أنت شاهد علي".

أومئ برأسي علامة الفهم.

تسألني سميتا: "هل يمكنني أنا أيضاً أن أطرح عليك سؤالاً؟".
"مؤكد".

"في تلك الأمسية نفسها حين أتيت بك أول مرة إلى منزلي قبل أن تخبرني بقصصك، قذفت عملة نقدية. لماذا؟".

"لم أكن متأكداً هل أثق بك أو لا؟ إن قذف العملة النقدية هي السي في اتخاذ القرار. إذا جاءت على وجهها سأروي لك كل شيء، أما إذا جاءت على قفاها سأقول لك وداعاً. كما اتضح، لقد جاءت على وجهها".

"إذاً لو أنها جاءت على قفاها بدلاً من وجهها، ما كنت لتخبرني بقصصك؟".

"ما كان يجب عليها أن تأتي على قفاها".

"أعتقد بالحظ إلى هذه الدرجة؟".

"ما صلة الحظ بها؟ الآن، انظري إلى قطعة النقد". أخرجُ قطعة

النقد من فئة روبية واحدة من سترتي وأعطيها إليها.

تنظر إليها وتقذفها. ثم تقذفها من جديد. "إنها... إنها تحمل

وجهين في كلا الجانبين!".

"بالضبط. إنها قطعتي النقدية الجالبة للحظ. إنما كما قلتُ، لا صلة

للحظ بها".

أخذ قطعة النقد منها، وأقذفها عالياً في الهواء. ترتفع عالياً، عالياً،

تومض بإيجاز بإزاء السماء الفيروزية، ومن ثم تهبط بسرعة في المحيط،

وتغوص في أعماقه.

"لماذا رميتَ قطعتكَ النقدية الجالبة للحظ؟".

"لا أحتاج إليها بعد الآن. لأن الحظ يأتي من الداخل".

عن المؤلف

ولد المؤلف فيكاس سواروب في الهند، لأسرة من المحامين. نشأ وسط نقاشات حول الحكام وقضايا المحكمة دارت حول مائدة الطعام. (إحدى حسنات النشوء في هذا الجو هو أنني ربما كنتُ طفل السنوات السبع الوحيد في المدينة الذي يستطيع أن يتهجد كلمة "juris prudence - القانون" و"habes corpus - أمر قضائي بإحضار شخص للمثول بين يدي المحكمة")! هكذا يقول الدبلوماسي الهندي الذي خدم في تركيا، والولايات المتحدة الأميركية، وأثيوبيا وبريطانيا العظمى. إبان عهد طفولته، حلم سواروب أن يصبح طياراً أو فلكياً حين يكبر طالما أن أمه أبعدت عن الأذهان وبصورة قاطعة مهنة العائلة بوصفها مسيرةً محتملة: "إذا أصبح أي واحد من أبنائي الثلاثة محامياً، سأرميه خارج المنزل". المسيرة العلمية بُذت هي الأخرى بسبب التجارب غير المشجعة مع تشريح الضفدع في مختبر علم الأحياء وتلك المجلدات ذات الألف صفحة مثل "القواعد الأساسية للفيزياء النظرية". الفكرة المتعلقة في أن يصبح موظفاً حكومياً أخذت تسيطر عليه شيئاً فشيئاً، تخرج فيكاس في الجامعة في اختصاصات بالتاريخ الحديث، علم النفس والفلسفة، وفي النهاية انضم إلى الخدمة الخارجية الهندية. بدخول ذاتي إلى عالم الأدب، كان فيكاس سواروب دوماً مفكراً مبدعاً مع أن أسئلة وأجوبة⁽¹⁾ هو أول كتاب قصصي منشور له. تجلى

(1) الاسم الأصلي لرواية (المليونير المتشرد) - م.

خياله النشيط جداً أول مرة في مقالة له عن الحظ السيئ حدد موضوعها معلمه في المرحلة السادسة من دراسته. في الوقت الذي كتب فيه الأولاد الآخرون عن حوادث عادية مثل أن يقطع قط أسود طريقهم، اختار فيكاس أن يصف تجارب ثلاثة لصووص يابانيين يحدث أن يقعوا في الشرك خلال زلزال بعد أن ينجحوا في السطو على مصرف بالرغم من المصاعب.

جرّب فيكاس كتابة قصة أخرى حملت عنوان السيرة الذاتية لحمار حينما كان طالب مدرسة قبل أن يشرع بكتابة مشروعه الناجح عالمياً أسئلة وأجوبة.

المؤلف فيكاس سواروب عضو الخدمة الخارجية الهندية. تُعدّ المليونير المتشرد أحد الكتب الأكثر مبيعاً. ترجمت هذه الرواية إلى خمس وعشرين لغة، كما نال الفيلم الذي حمل الاسم نفسه ثماني جوائز أوسكار.

هي ليست ببساطة قصة برنامج مسابقات، بل هي بالأحرى شيء يذكرنا بالسبل المتنوعة، العشوائية في الظاهر، التي يمكن بواسطتها اكتساب المعرفة من خلال التجارب الحافلة بالمغامرات، وحب الاستطلاع والملاحظة الدقيقة. سواروب كاتب بارع وروايته المليونير المتشرد تملك كل فورية وتأثير الوصف الشفاهي.

ديلي ميل

يصوّر سواروب وبطريقة نابضة بالحياة المتشردين مستلاً شخصيات من طيف اجتماعي كامل: السالطات، أهوم السينما، الدبلوماسيون، نزلاء الأحياء الفقيرة، ورسوم بورصة ملوناً، واسعاً، غير مزخرف للهند المعاصرة، حيث ليس كل الفقراء ملائكة، وليس جميع الأغنياء أنذال.

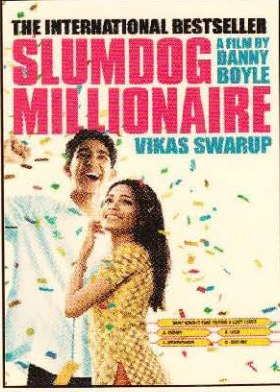
لتوري رفيو

"غريبة بصورة رائعة... تعتمد الامم جامعات التي يصفها الكاتب على صورة حياته وصورة عالمه الخاص بطريقة لا برحم: عصابة مافيا

تعيق الأطفال وتدرهم كي يعملوا بصفة شحاذين، أناس بيض متغطرسون يضطهدون خدمهم، عوائل ترغم إحدى بناتها على ممارسة البغاء، الحقارة الموحشة للأثرياء، الأعمال الإجرامية النابعة من اليأس الذي يجبر الفقرُ الناسَ الاعتياديين على القيام بها.

التايغر

أفّاح رام محمد توماس، وهو نادل سابق من مومباي، في الإجابة على
الاثني عشر سؤالاً في البرنامج التلفزيوني الشهير «من سيربح المليون
روبية». ولكنه يتعرّض الآن للاحتجاز في زنزانة
بتهمة الاحتيال. فكيف لفتى شوارع أن يعرف من هو
شكسبير، ما لم يكن متورّطاً بخدعة ما؟



بناءً لتسلسل أسئلة البرنامج، يُفصح رام عن
المغامرات المدهشة التي عاشها كفتى شوارع والتي
مكّنته من الإجابة على الأسئلة بدقة. فبين الميائ

والمواخير، ورجال العصابات وزعماء المتسولين، وصولاً إلى منازل نجوم
بوليوود المشاهير والأثرياء، تطفح رواية المليونير المتشرّد بالكوميديا
المتشعّبة، والتراجيديا الأسرة، والبهجة المطفرة للدمع. إنها تستقرئ
الهند المعاصرة.

نال في فيلم «المليونير المتشرّد» ثماني جوائز أوسكار عام 2009

- أفضل فيلم: المليونير المتشرّد.
- أفضل مخرج: داني بويل لفيلم المليونير المتشرّد.
- أفضل نص مقتبس: المليونير المتشرّد.
- أفضل تصوير سينمائي: المليونير المتشرّد.
- أفضل موسيقى تصويرية: المليونير المتشرّد.
- أفضل تحرير: المليونير المتشرّد.
- أفضل أغنية: «جاي هو» من المليونير المتشرّد.
- أفضل هندسة صوتية: المليونير المتشرّد.



ISBN 978-614-01-0014-5



9 786140 100145



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم

www.nwf.com



دار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com